التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر
(١٩)

المواقف السلوكية

دكتور
عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر

فى

الورع والعفة والزهد

نماذج من ورع النبي ﷺ وزهده وخشيته :

في أثناء عرض السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي مرت بنا وقائع فيها مواقف في الورع والزهد وخشية الله تعالى .

ولقد كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين في هذه الأمور وفي غيرها من أمور الدين ، وقد ضرب من نفسه مثلا أعلى في تطبيق مادعا المسلمين إليه، فمن ذلك ماأخرجه الإمام البخاري من حديث عقبة بن الحارث النوفلي قال: صليت مع النبي ﷺ العصر ، فلما سلم قام سريعا ، دخل على بعض نسائه، ثم خرج ورأى مافي وجوه القوم من تعجبهم لسرعته، فقال : ذكرت وأنا في الصلاة- تِبْرا عندنا فكرهت أن يمسى - أو يبيت - عندنا، فأمرت بقسمته (١) .

وإن هذا التصرف من رسول الله ﷺ يعتبر مثالا عاليا للشعور بالمسئولية ، والتحري الدقيق في القضايا المالية ، والمبادرة إلى تنفيذ التكاليف الشرعية وإن لم يكن وقت تنفيذها محددا خشية النسيان أو حضور الأجل .

وهذا لون من ألوان التربية النبوية المؤثرة حيث إن خروج النبي ﷺ من المسجد بهذه الصورة أثار عجب الصحابة وتساؤلهم فتهيأت نفوسهم لاستقبال هذا التوجيه العملي نحو الاهتمام بحقوق المسلمين والإسراع في إيصالها إلى مستحقيها .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد بإسناده عن عمرو بن شعيب عن

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٢٢١ ، العمل في الصلاة (٣/ ٨٩) ، والتبر هو الذهب.

أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ وجد تحت جنبه تمرة من الليل فأكلها فلم يَنَمْ تلك الليلة ، فقال بعض نسائه : يارسول الله أَرِقْتَ الليلة؟ قال : « إني وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة فخشيت أن تكون منه » (١) .

فهذا مثال على شدة ورع النبي ﷺ وعِظَم خشيته من الله تعالى، فقد أرق ليلة كاملة من أكل تلك التمرة على قلتها خشية أن تكون من الصدقة ، وقد حرَّم الله تعالى الصدقة على بني هاشم، وبهذا الورع الشديد والخشية البالغة كان ﷺ قدوة عليا لأمته في ذلك .

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « ومات رسول الله ﷺ وماترك دينارًا ولادرهما ولاعبدا ولاوليدة، وترك درعه رهنًا عند يهودي بثلاثين صاعا من طعام » (٢) .

وهذا مثل أعلى في الزهد في الدنيا والتقلل من متاعها، فلقد كان بإمكان رسول الله ﷺ أن يكون أغنى رجل في العرب وربما في العالم، فلقد أفاء الله تعالى عليه في الغزوات أموالا عظيمة، ويكفي مثالا على ذلك غزوة حنين حيث كان يعطي الرجل الواحد مابين جبلين من الغنم والإبل ، وأعطى عددا من زعماء العرب وأكابرهم كل واحد مائة من الإبل ولم يدخر لنفسه من ذلك شيئا ، والْتَحق ﷺ بالرفيق الأعلى وهو على تلك الصفة المذكورة من التقشُّف والزهد البالغ .

---

(١) شمائل الرسول لابن كثير / ١١٣ - ١١٤ .

(٢) الزهد للإمام أحمد / ٤ .

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلَتْ عليَّ امرأة من الأنصار فرأَتْ فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فرجعَتْ إلى منزلها، فبعثت إليَّ بفراش حَشْوُه الصوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال : ماهذا ؟ فقلت : فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأَتْ فراشك فبعثَتْ إليَّ بهذا ، فقال : رُدِّيه ، فلم أردَّه وأعجبني أن يكون في بيتي ، حتى قال لي ذلك ثلاث مرات ، فقال: ياعائشة رُدِّيه فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة ، فرددته (١) .

وهذا أعظم مايتصور من الزهد أن يكون بالإمكان أن تتحول الجبال ذهبا وفضة لرسول الله ﷺ - بإذن الله تعالى - ثم يزهد في ذلك كله وينام على عباءة ، ويُلِحُّ على عائشة رضي الله عنها في ردِّ ذلك الفراش !

وأخرج الإمام أحمد بإسناده من حديث أبي عبد الرحمن سفينة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ : أن رجلا ضَافَ عليًا رضي الله عنه ، فصنع طعاما ، فقالت فاطمة رضي الله عنها : لو دعونا رسول الله ﷺ فأكل معنا ، فدعوه ، فجاء فوضع يديه على عُضَادَتَى الباب فرأى قِرامًا في ناحية البيت عليه صورة فرجع ، فقالت فاطمة : الْحقه فاسأله ، فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس لي - أو لنبي - أن يدخل بيتًا مُزَوَّقا » (٢) .

(١) الزهد / ١٤ .

(٢) الزهد / ٧ .

وهكذا فزع النبي ﷺ من رؤية ذلك القماش الذي عُلِّق في ناحية من البيت ورجع ولم يدخل حتى أزيل ذلك القماش لكونه من مظاهر الدنيا .

وأخرج ابن سعد بإسناده عن جندب بن سفيان قال: أصابت النبيَّ ﷺ أشاءَةٌ نخلة فأدمت إصبعه ، فقال: ماهي إلا إصبع دُمِيَتْ وفي سبيل الله مالَقِيَتْ ، قال : فحُمِل فوُضِع على سرير مرمول بشُرُط(١) ، ووُضِع تحت رأسه مِرفَقة من أدَم (٢) محشوة بليف ، فدخل عليه عمر وقد أثَّر الشريطُ بجنبه فبكى عمر فقال : مايبكيك ؟ قال: يارسول الله ذكرت كسرى وقيصر يجلسون على سُرُر الذهب ويلبسون السندس والإستبرق- أو قال الحرير والإستبرق - فقال : أما ترضون أن تكون لكم الآخرة ولهم الدنيا ؟ (٣) .

وهكذا كان سرير النبي ﷺ بهذه الصلابة والخشونة حتى أثر على جنبه ، وقد أثار هذا المنظر شفقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتذكر ماعليه ملوك فارس والروم، من الترف والنعيم ، فقارن بين المشهدين فبكى ، وقد بين له النبي ﷺ أن هدف أولئك الدنيا ، وقد نهلوا منها بأوفر نصيب ، ولكن لاحظَّ لهم في الآخرة ، وأن هدف المسلمين الحصول على السعادة الأخروية ، فلذلك أضْعَفوا من نصيبهم في الدنيا .

---

(١) أي منسوج بحبال من ليف .

(٢) أي وسادة من جلد .

(٣) طبقات ابن سعد ١/٤٦٦ .

ومن أمثلة ورع النبي ﷺ ماأخرجه الإمام أبو داود من حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فرأيته ﷺ وهو على القبر يوصي الحافر يقول: أوسع من قبل رجليه ، أوسع من قبل رأسه، فلما رجع استقبله داعي امرأة فأجاب ونحن معه فجيء بالطعام فوضع يده، ثم وضع القوم فأكلوا ، ففطن آباؤنا والنبي ﷺ يلوك لقمة في فيه - يعني فطنوا لتغير وجه النبي ﷺ -، ثم قال: أجد لحم شاة أُخِذَتْ بغير إذن أهلها ، فأرسلت المرأة تقول :يارسول الله إني أرسلت إلى البقيع -وهو موضع تباع فيه الغنم -لتُشتَرى لي شاة فلم توجد، فأرسلتْ إلى جار لي قد اشترى شاة أن يرسل بها إليَّ بثمنها، فلم يوجد ،فأرسلت إلى امرأته فأرسلت بها إليَّ فقال ﷺ: أطعميه الأسارى » (١) .

وفي هذا الحديث نجد حماية الله تعالى نبيه ﷺ من الشبهات حيث أعلمه بأن تلك الشاة أُخذت بغير إذن مالكها، كما نجد مثالا لورعه العظيم حيث رفع يده ولم يستمر في الأكل من تلك الشاة .

كما نجد مثالا للحزم في تطبيق الشريعة وأن النبي ﷺ لم يكن يداري أحدًا في ذلك .

ونجد في هذا الخبر لونا من ألوان التربية النبوية حيث أمسك عن الأكل حالاً ، وأمر المرأة بأن تطعم ذلك الطعام أسرى المشركين وفي ذلك أمر للصحابة بعدم الأكل منه، وهذه الحادثة وأمثالها تبقَى ماثلة في أذهانهم فيحميهم تذكُّرُها من مقارفة الشبهات .

---

(١) سنن أبي داود رقم ٣٢٣٢ ، البيوع ٣/ ٦٢٧ .

وأخرج البلاذري من خبر محمد بن شهاب الزهري أن النبي ﷺ بعث عليًا إلى بني جـذيمة الذين قتل خالد بن الوليـد منهم من قتل، بدرج فيه ذهب فأعطاهم ديات من قـتل منهم ومأأصيب من أموالهم، وفـضل في الدرج شيء من الذهب فـقال لـهم علي: هل لكم في أن أعطيكم هذا الفضل على أن تبـرئوا رسول الله ﷺ مما أصيب لكم مما لاتعلمـونه ولايعلمـه رسـول الله ﷺ ؟ قـالوا: نعم، فـأعطاهم ذلك الفضـل، فلما بلغ النبي ﷺ مـافعل قـال: « لهذا أحب إلي من حـمر النعم » (١).

وهكذا كانت فرحة رسول الله ﷺ عظيمة حينما أبرأ علي رضي الله عنه ذمته بذلك المال، حيث ذكر بأن محبته لذلك أعظم من محبته لحمـر النعم، وحمر النعم هي الإبل وهي أنفس الأمـوال عند العرب، وهذا مثـال على ورع النبي ﷺ واهتمـامه ببراءة الذمـة من مسئـولية الناس.

كـما أن هذا الخـبـر يدل على علم علي رضي الله عنـه العميق واهتمامه بالورع .

ونجد مع ذلك عظمة التشريع الإسلامي في حماية حقوق الناس، فإنه بعد هذا لن يتـجرأ أحد على الأخذ من أمـوال الناس بغير إذنهم وسيتوقف الطرف الآخر عن الاستفادة حتى يتأكد له أن المال مأذون به من مالكه .

---

(١) أنساب الأشراف ٢/ ٣٥٤ .

من أخبار أبي بكر رضي الله عنه :

اشتهر الصحابة رضي الله عنهم بالورع والزهد ، ولقد سبقت لنا أمثلة من ورع وزهد أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم .

ومن أخبار أبي بكر الصدِّيق في ذلك ماروواه الإمام أحمد بإسناده عن قيس بن أبي حازم قال : كان لأبي بكر غلام فكان إذا جاء بغلَّته لم يأكل من غلته حتى يسأله ، فإن كان شيئًا مما يحب أكل ، وإن كان شيئًا يكره لم يأكل ، قال : فنسي ليلةً فأكل ولم يسأله، ثم سأله فأخبره أنه من شيء كرهه ، فأدخل يده فتقيأ حتى لم يترك شيئًا (١) .

فهذا مثال على ورع أبي بكر رضي الله عنه حيث كان يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه، ويجتنب الشبهات، وهذه الخصلة تدل على بلوغه درجات عُليا في التقوى، ولايَخْفَى أهمية طيب المطعم والمشرب والملبس في الدين، وعلاقةذلك بإجابة الدعاء، كما في حديث الأشعث الأغبر وفيه «يمدُّ يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فَأَنَّى يُستجاب لذلك(٢) .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن أبي مليكة قال قالت عائشة رضي الله عنها : لما حُضِر أبي رحمه الله دعاني فقال : يابُنَيَّة إني كنت أعطيتك تمر خيبر ولم تكوني أخذتيها وإني أحب أن ترديها علي ، قالت : فبكيت ، ثم قلت : غفر الله

---

(١) الزهد / ١١٠ .

(٢) صحيح مسلم ، الزكاة ، رقم ١٠١٥ (٢/ ٧٠٣) .

لك ياأبَةِ والله لو كانت خيبر ذهبا جميعا لرددتها عليك، فقال: هي على كتاب الله عز وجل ، يابُنَيَّة إني كنت أتْجَر قريش[1] وأكثرهم مالا، فلما شَغَلَتْنِيَ الإمارة رأيت أن أصيب من المال بقدرما شغلني، يابُنيَّة هذه العباءة القطوانية وحلابٌ[2] وعبدٌ، فإذا مت فأسرعي به إلى ابن الخطاب، يابُنيَّة ثيابي هذه فكفنوني بها ، قالت: فبكيت وقلت: ياأبةِ نحن [في غِنًى] من ذلك ، فقال : غفر الله لك وهل ذلك إلا للمَهَل ؟ [3] وفي رواية أنه قال : الحيُّ أولى بالجديد من الميت .

قالت : فلما مات بعثت بذلك إلى ابن الخطاب فقال : يرحم الله أباك لقد أحبَّ أن لايترك لقائل مقالا [4] .

فهذا مثل آخر من ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد أراد أن يخرج من الدنيا وهو نَقِيٌّ خالص من الكدر أو مايشبهه، وقد كان يأخذ من بيت مال المسلمين مايكفيه للحد الضروري من المعيشة مقابل تفرغه لأمور المسلمين وترك التجارة، فلما حضرتْه الوفاة رأى أن ذمته لاتبرأ إلا بردٍّ ماكان عنده من ذلك وإن كان يسيرا لتوقف عمله لصالح المسلمين بالوفاة ، وذلك مبالغة منه رضي الله عنه في براءة الذمة .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أخدم النبي ﷺ . . . وذكر حديثًا ثم قال: إن

---

(١) لعلها : من أتجر قريش .

(٢) أي ناقة حلوب .

(٣) أي لمدة قصيرة ثم يبلى .

(٤) الزهد / ١١١ .

رســول الله، أعطاني بعــد ذلك أرضا وأعطــى أبا بكر أرضًا وجــاءت الدنيــا فاختــلفنا في عذق نخلة، فــقلت أنا: هي في حدِّي، وقــال أبو بكر، هي في حدي، فكان بيني وبين أبي بكر كلام، فقال أبو بكر كلمة كرهها وندم فــقال لي: ياربيعة رد عليــها مثلها حتى تكون قــصاصا، قال: قلت : لا أفــعل، فقــال أبو بكر: لتقــولن أولأستعــدين عليك رســول الله ﷺ ، فــقلت: مــاأنا بفــاعل، قــال: ورفض الأرض(١) وانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ، وانطلقت أتلوه، فجاء ناس من أسلم فقــالوا لي: رحم الله أبا بكر، في أي شيء يستــعدي عليك رسول الله ﷺ وهو قال لك ماقال، فقلت : أتدرون من هذا؟ هذا أبو بكر الصديق، هذا ثاني اثنين ، وهذا ذو شيبة المسلمين، إياكم لايلتــفت فيــراكم تنصروني عليــه فيــغضب، فــيأتي رســول الله ﷺ فيغضب لغضبه فيغضب الله عز وجــل لغضبهما فيهلك ربيعة، قالوا: ماتأمــرنا ؟ قال: ارجعــوا، قال: فــانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فتبعته وحــدي حتى أتى النبي ﷺ فحدثه الحديث كما كان ، فرفع إلي رأسه فقال: ياربيــعة مالك وللصديق؟! قلت: يارسول الله كان كــذا كان كذا، قال لي كلمة كــرهها فقال: قل لي كــما قلت حتى يكون قصاصا فأبيت، فــقال رسول الله ﷺ: أجل فلا ترد عليه، ولكن قل: غفر الله لك ياأبا بكر ،فقلت: غفر الله لك ياأبا بكر .

قال: قال الحسن [البصري] : فولَّى أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي (٢).

---

(١) أي فارق أبو بكر الأرض .

(٢) مسند أحمد ٤/٥٨ - ٥٩ .

فهذا الخبر يدل على ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخشيته من الله تعالى، فحينما قال - في ساعة غضب - تلك الكلمة لربيعة بن كعب رضي الله عنه ندم على ذلك، وخشى أن يحاسب عليها يوم القيامة ، فأهمه ذلك الأمر وطلب من ربيعة أن يرد عليه بمثلها ليطهر صحيفته منها، فلما أبى اشتكاه إلى النبي ﷺ ليضمن النجاة من مغبة تلك الكلمة، وهذا أمر عجيب فإن أبا بكر قد نسى أرضه ونسي قضية الخلاف، وشغل باله أمر تلك الكلمة لأن حقوق العباد لابد فيها من عفو صاحب الحق .

وقد استنكر قوم ربيعة أن يذهب أبو بكر يشتكي إلى رسول الله ﷺ وهو الذي قال ماقال ، ولم يعلموا ماعلمه أبو بكر من لزوم إنهاء قضايا الخصومات، وإزالة ماقد يعلق في القلوب من الموجدة في الدنيا قبل أن يكتب ذلك في الصحف ويترتب عليه الحساب يوم القيامة .

وبالرغم مما ظهر من رضى ربيعة وتوجيه النبي ﷺ إلى عدم الرد على أبي بكر فإن أبا بكر قد بكى من خشية الله تعالى، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه .

وأخيرًا موقف يذكر لربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه، حيث قام بإجلال أبي بكر رضي الله عنه، وأبى أن يرد عليه بالمثل، وهذا من تقدير أهل الفضل والتقدم والمعرفة بحقهم، وهو دليل على قوة الدين ورجاحة العقل .

ومن ذلك ماأخرجه محمد بن سعد من حديث عائشة وعبد الله

ابن عمـر رضي الله عنهم وغيرهم أنهم قـالوا: بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم قبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهـر ربيع الأول سنة إحدى عشـرة من مهاجـر رسول الله ﷺ، وكان منزله بالسُّنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير من بني الحارث بن الخزرج، وكان قد حجَّر عليه حجرة من شعر فـمازاد على ذلك حـتى تحول إلى منزله بـالمدينة، فأقـام هناك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب على فـرس له، وعليـه إزار ورداء ممشق، فيـوافي المدينة فـيـصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح، فكان إذا حضر صلى بالناس ، وإذا لم يحضر صلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قالوا: وكان يقيم يوم الجمعـة في صدر النهار بالسنح يصبغ رأسه ولحيته ، ثم يروح لقـدر الجمعة فيجمـع بالناس، وكان رجلا تاجرا، فكان يغدو كل يوم السوق فـيبيع ويبتاع، وكـانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو نفسه فيها، وربما كُفِيها فرُعيت له، وكان يحلب للحي أغنامـهم، فلما بويع له بالخـلافة قالت جـارية من الحي: الآن لاتُحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لايغـيرني مـادخلت فيه عن خلق كـنت عليه، فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحي: ياجارية أتحبين أن أرغي لك أو أصرح(١) ؟ فـربما قالت : أرغ، وربما قـالت : صرح ، فـأي ذلك قالت فعل .

---

(١) أي أجعل للحليب رغوة أو اجعله خالصا منها .

قالوا : فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر، ثم نزل إلى المدينة فأقام بهـا، ونظر في أمره فـقال: لا والله مـايصلح أمـر الناس التجـارة، ومـايصلح لهم إلا التـفـرغ والنـظر في شـأنهم، ومـابُدٌّ لعـيـالي مما يصلحهم، فترك التجـارة واستنفق من مال المسلمين مايصلحه ويصلح عياله يوما بـيوم، ويحج ويعتمر، وكان الذي فرضـوا له كل سنة ستة آلاف درهم، فلما حضرته الوفاة قال: ردوا ماعندنا من مال المسلمين، فإني لاأصـيب من هذا المال شيـئا، وإنَّ أرْضي التي بمكان كـذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم، فدفع ذلك إلى عمر رضي الله عنه ولَقُوح[1] وعبد صيْقل[2] وقطيفة ماتساوي خمسة دراهم، فقال عمر: لقد أتعب من بعده [3].

ففي هذا الخبر بيـان شيء من أخلاق أبي بكر الصديق رضي الله عنه وزهده وورعـه، فمن ذلك أنه كان يـحلب لأهل حيِّه أغـنامهم، وهذا تواضع كبير من رجل كـبير. . كبير في سنه، وكـبير في منزلته وجاهه، حـيث كان خليـفة المسلمين ،وكان حـريصا على أن لاتغـير الخلافة شـيئا من معاملتـه للناس وإن كان ذلك سيأخذ عليـه وقتا هو بحاجة إليه، كما أن هذا العمل يدلنا على مقدار تقدير الصحابة رضي الله عنهم لأعمال البر والإحسان وإن كلَّفتهم الجهد والوقت .

ومن ذلك أنه اكتفى بذلك المبلغ البسيط الذي كان يأخذه من بيت

---

(١) أي ناقة .

(٢) أي يصقل السيوف ويحدُّها .

(٣) طبقات ابن سعد ٣/ ١٨٥ - ١٨٧ .

المال مقابل تفرغه للولاية، وهذا مثل على زهده في الحياة الدنيا واكتفائه منها بما يبلغه للحياة الآخرة .

ومن ذلك تورعه عما بقي عنده من المال العام حينما حضرته الوفاة، وهو مبلغ زهيد لايلفت النظر ، ولكن لدقة إحساسه تنبَّه له، وكذلك ماقام به من الوصية بتعويض بيت مال المسلمين بأرضه المذكورة مقابل ما أنفق على نفسه وعياله منه، وهكذا رغب في أن يكون عمله في الولاية تطوعا تعففا منه وورعًا رضي الله عنه، ولقد أثنى عليه عمر رضي الله عنه ببيان أن العمل الذي قام به لايستطيع أحد أن يقوم به إلا بصعوبة بالغة .

من أخبار عمر رضي الله عنه :

لقد كانت لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه جهود في حماية المسلمين من الدخول في حياة الترف والنعيم ومايترتب على ذلك من نتائج سيئة في الدنيا والآخرة ومن ذلك ماأخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا : ولما نزل أهل الكوفة الكوفة واستقرت بأهل البصرة الدار عرف القوم أنفسهم وثاب إليهم ماكانوا فقدوا ، ثم إن أهل الكوفة استأذنوا في بنيان القصب واستأذنه فيه أهل البصرة ، فقال عمر : العسكر أجَدُّ لحربكم وأذكى لكم ومأأحب أن أخالفكم ، وما القصب ؟ قالوا : العِكْرِش إذا رَوِي قَصَّب فصار قصبا[1] قال : فشأنكم فابْتَنَى أهل المصرين بالقصب .

ثم إن الحريق وقع بالكوفة والبصرة وكان أشدهما حريقا الكوفة،

---

(١) العكرش نبات شوكي ينبت من نزوز الأرض .

فاحترق ثمانون عريشا ، ولم يبق فيها قصبة في شوال، فمازال الناس يذكرون ذلك ، فبعث سعد منهم نفرًا إلى عمر يستأذنون في البناء باللَّبِن فقدموا عليه بالخبر عن الحريق ومابلغ منهم - وكانوا لايدعون شيئًا ولايأتونه إلا وآمَروه فيه [يعني شاوروه] - فقال: افعلوا ولايزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات [يعني غرف] ولاتطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة ، فرجع القوم إلى الكوفة بذلك، وكتب عمر إلى عتبة وأهل البصرة بمثل ذلك .

قال : وعهد عمر إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لايرفعوا بنيانا فوق القدر ، قالوا : وما القدر ؟ قال : مالايقربكم من السَّرف، ولايخرجكم من القصد (١) .

هذا ومن استعراض هذا الخبر يتبين لنا أن أولئك القوم كانوا زاهدين في مظاهر الدنيا ، فهم يريدون من المساكن مايكنّهم من الشمس والمطر والبرد والحر ، ولايهمهم التمتع بالقصور والبيوت العالية، ولذلك اختاروا التعريش بالقصب الذي كان أيسر الأشياء لديهم حتى اضطروا إلى البناء بالطين، ومع ذلك نجد عمر رضي الله عنه يضع لهم الاحتياطات اللازمة لمنع التنافس والتطاول في البنيان .

وهذا إدراك بعيد المدى لما يُتوقع أن تكون عليه الأمة من الغنى بعد الفتوح ، فهو يحاول في هذا التوجيه وأمثاله أن يحدَّ من اندفاع الأمة نحو الإسراف والترف، وأن يحملها على حياة القصد والاعتدال.

وإن هذا التوجيه له أصل من سنة رسول الله ﷺ ، وذلك في

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٣ .

قوله : النفقة كلها في سبيل الله إلا البناء فلاخير فيه » .

أخرجه الإمام الترمذي من طريقين وقال :هذا حديث صحيح(١).

ومن كلام عمر رضي الله عنه السابق يتبين لنا أن المقصود بالبناء الذي لاخير فيه ماقرب من الإسراف وأخرج من القصد والاعتدال.

وإن من أعظم مظاهر الإسراف التطاول في البنيان ، وذلك لأن البنيان يستهلك من الإنسان - مالا كثيرًا ووقتا طويلا ، فإذا انصرف له الإنسان بالاهتمام استحوذ على تفكيره حتى يبقى هو الهم الأكبر عند بعض الناس .

ومن أجل إقامة قصر يتفوق فيه الإنسان على من دونه ويحاذي فيه من يرى أنهم في طبقته في الغنى أو يطاول من هم أعلى منه في ذلك . من أجل ذلك يضع ثروته في تشييد القصر الذي سيسكنه، وقد يستدين من أجل أن يحقق في نفسه هذه الرغبة ، فيبقى عُمْرًا من عمره ولا مال له إلا هذا القصر الذي يكمل فيه ويجمِّل ، غير ملتفت إلى مايكون قد قصَّر فيه من النفقة الواجبة ولا إلى ماأهمله من عبادة الزكاة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام والتي لايستطيع أن يجمع نصابها لإنفاقه ماله في التطاول في البنيان .

ولئن كان مايخشاه عمر رضي الله عنه من الانفتاح الدنيوي في عهده ويحاول أن يحجز الأمة عن التوغل فيه في ناحية البنيان لايعدو أن يكون بناء محدودا ينتهي إعداده في أمد قصير فإن إعداد البناء في عصرنا هذا قد يستغرق سنوات من العمر، ثم قد يعقبه في أحوال

(١) سنن الترمذي ، أبواب صفة القيامة ، باب ٤٠ رقم ٢٤٨٢ و٢٤٨٣ .

كثيرة ديون متراكمة يظل صاحبها يجمع فضول أمواله لسدادها، وقد يمر عليه سنون من عمره وهو لايعرف عن الزكاة شيئًا مع أنه يعتبر من المتوسطين في الغنى الذين هم غالبية الناس ، لأن القصور التي تعارف أكثر الناس عليها تتطلب أنواعا عالية من الأثاث والكماليات التي ترهق طالبها وتجعله يظل يلاحق أنفاسه سنوات عَلَّه يصل إلى ماتصبو إليه نفسه من مشاكلة الناس في مظاهر الحياة الدنيا .

وفي خِضَمِّ هذا التنافس تضيع أحيانا بعض مطالب الإسلام الحيوية من العبادات المالية التي على رأسها الزكاة والإنفاق على المجاهدين في سبيل الله تعالى ، كما أنه قد ينشغل فكر الإنسان أحيانا عن الأمور المهمة كالصلاة وطلب العلم .

وقول عمر«مالايقربكم من السرف ولايخرجكم من القصد» يعني أن حدود البناء المشروع ما لايقرب صاحبه من الإسراف وهو مجاوزة الحد المشروع ولايخرجه من حدود الاعتدال، وقد ترك عمر رضي الله عنه تحديد ذلك لهم، لأن لكل بلد عرفًا خاصا به، يتحدد به الإسراف والاعتدال والتقتير، فالقصد إذًا يحدده العرف السائد في البلد لدى أوساط الناس من أهل الاستقامة والالتزام بالاعتدال في الأمور الدنيوية.

فإذا شرع المسلم في بناء بيت فلْيلاحظ هذا العرف العام، ولاينبغي له أن يتعرض لنقد أهل الصلاح والتقوى، خاصة إذا كان من أهل العلم الديني، حيث يُفترض في هؤلاء أن يكونوا قدوة صالحة لمجتمعهم، وأن يكونوا هم الذين يحددون العرف الصالح الذي يسير عليه أفراد المجتمع الإسلامي .

وقوله « والزموا السنة تلزمكم الدولة » يعني أن الالتزام بالطريق المستقيم الذي سار عليه رسول الله ﷺ سبب في الإدالة على الناس والتمكين في الأرض، كما جاء في قوله الله تعالى ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [النور: ٥٥] .

ولقد كان هذا التزهيد من عمر رضي الله عنه في مظاهر الدنيا مع أن المسلمين آنذاك كانوا يتنافسون في هذا الزهد، فكيف بمن جاؤوا بعدهم على مرِّ العصور ممن يتنافسون على مظاهر الدنيا ؟

هذا ولقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حريصا على علاج أمر الانفتاح المادي الذي كان في عصره حيث فتحت بلاد الفرس وأجزاء من بلاد الروم ، فأفاء الله تعالى على المسلمين من غنائم الفتوح وفيء البلاد وخراجها أموالا عظيمة، ولقد خطب أمير المؤمنين عمر خطبة بليغة شخص فيها ذلك الواقع وأرشد المسلمين إلى السلوك الأمثل .

وإن واقع المسلمين اليوم في بعض بلادهم يشبه ماكان في عهد الصحابة رضي الله عنهم إبَّان الفتوح ، من ناحية انفتاح خزائن الأرض وتوفر الأموال بشكل لم تتوقعه الأمة ولم تترقب حصوله بذلك المستوى الكبير ، وإن خطبة أمير المؤمنين عمر التي سَيَتمُّ عرضها تظل جديدة نابضة بالحياة والعطاء ، حيث تعالج واقعا نعاصره، وإذا

كان الصحابة رضي الله عنهم ومن عـاصرهم من التابعين بحاجة إلى هذه الوصايا النافعة فإننا في هذا العـصر أحوج إلى ذلك بكثير ، لأن مستوى الإيمان أقل ، ومستوى البصيزة أخف .

ولقد كان عمر رضي الـله عنه يخشى على الأمة آنذاك من الغفلة عن شكر المنعم جل وعلا ، فـقام مذكِّرا بالله تعـالى ومايجب له من الشكر والتوحيد الخالص ، حيث قال : « إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشـكر، واتخذ عليكم الحُجَج فيمـا آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا ، عن غير مسألة منكم له ولارغبة منكم فيه إليه » .

فذكَّرهم بأن تلك النعم العظيمـة التي أفاءها الله تعالى عليهم من الفـتوح لم يكونوا يتـوقعـونها علـى ذلك النحو العظيم، ثم ذكَّـرهم بالهدف العـالي الذي خلقهم الله جل وعلا من أجله، وماسـخر لهم من النعم حيث قال : « فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئًا لنفسه وعبادته ، وكان قادرا على أن يجعلكم لأهون خلقه عليه، فجعل لكم عامة خلقـه، ولم يجعلكم لشيء غيره ، وسخر لكم مـافي السموات ومافي الأرض ، وأسـبغ عليكم نعـمه ظاهرة وباطنة ، وحـملكم في البر والبـحر ، ورزقكم من الطيبات لعـلكم تشكرون ، ثم جعل لكم سمعا وبصرا » .

فقد ذكر الميزة العظمى للإنسان حـيث شرفه الله تعالى على سائر المخلوقات في هذه الأرض، فسخر كل مافيها له، ولم يسخره لشيء من المخلوقات الأخرى، وبيَّن الهدف الأعلـى من خلق الإنسان وهو القيام بعبادة الله تعالى وحده، مع تذكُّر شمول العبادة لكل عمل مشروع أراد

به فاعله وجه الله تعالى، ومن ذلك عمارة الأرض بطاعته سبحانه .

ثم ذكر النعم التي خص الله بها هذه الأمة حيث قال : « ومن نعم الله تعالى عليكم نِعَمٌ عمَّ بها بني آدم - يعني كالتي مر ذكرها- ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قُسم ماوصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها وَفَدحَهم حقها ، إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله» .

ومن النعم التي اختص الله بها أهل هذا الدين كون السيادة في العالم لهذه الأمة ولم تكن قبل ذلك لأهل دين من الأديان، وأصبح مايوجد في بلاد العالم من النعم الخاصة والعامة يجتمع في دولة الإسلام لأنها قد هيمنت على دول العالم .

وفي قوله « إلا بعون من الله مع الإيمان بالله ورسوله » بيان للدوافع القوية التي تدفع إلى شكر المنعم جل وعلا، من الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ، ومايتفرع عن ذلك من العمل الصالح، ثم بالاستعانة بالله جل وعلا مع تعظيمه وإجلاله وصدق النية .

ثم يبين مهمة هذه الأمة في الأرض بعدما أفاء الله عليها من الفتح والتمكين حيث يقول : « فأنتم مستخلَفون في الأرض قاهرون لأهلها قد نصر الله دينكم ، فلم تصبح أمة مخالفةً لدينكم إلا أمتان: أمة مستعبَدة للإسلام وأهله يَجزُون لكم [١] يُستصفَون معايشهم

---

(١) يعني يدفعون لكم الجزية .

وكدائحهم ورشح جباههم ، عليهم المؤونة ولكم المنفعة ، وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة ، قد ملأ الله قلوبهم رعبا ، فليس لهم معقل يلجئون إليه ، ولامهرب يتقون به، قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم » .

فهذه الأمة الإسلامية قد اختارها الله تعالى لتكون فيها الرسالة الخاتمة، ولتتولّى قيادة البشرية، فمكّن لها واستخلفها في الأرض وأذل لها أمة الفرس التي كانت تسيطر على المشرق وأزال دولتهم من الوجود، وأصبحت بلادهم جزءًا من دولة الإسلام ، كما أذل الله تعالى لها أمة الروم التي تسيطر على المغرب، حيث اكتسحت جنود الإسلام بلاد الشام ومصر التي كانت تحت سيطرتهم ، ثم غزوهم في عُقر دارهم .

ثم يُعَدِّد نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث يقول : « مع رَفَاغَة العيش - يعني سعته - واستفاضة المال وتتابع البعوث ، وسد الثغور بإذن الله تعالى ، مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام ، والله المحمود ، مع الفتوح العظام في كل بلد ، فما عسى أن يبلغ مع هذا شكرُ الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين ، مع هذه النعم التي لايُحصَى عددها ولايُقْدَر قدرها ، ولايُستطاع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه، فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته » .

وعمر رضي الله عنه في هذا الكلام يحث على شكر هذه النعم

ويبين أنه مع شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين بالعبادة فلن يستطيع المسلمون بلوغ شكرها ولا أداء حـقها إلا إذا شملهم الله تعالى بعونه ورحمته ولطفه .

وهذا يعتـبر فهما وتطـبيقا للآية الكريمة التي شـرع الله تعالى لنا تكرارها في كل صلاة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] فإذا لم يكن هناك عون من الله تعـالى للعبد فإنه لايصل إلى مـقام الشكر وإن اجتهد في العبادة ، وماأحسن قول الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول مايجني عليه اجتهاده

وإذا لم يشمل الله تعالى عباده برحمـته ولطفه فإنهم هالكون كما قـال رسـول الله ﷺ «لايدخل أحـدكم الجنة بعـمله، قـالوا: ولاأنت يارسول الله ! قـال: ولاأنا إلا أن يتغمـدني الله برحمـة منه وفضل، ووضع يده على رأسه » (١) .

ثم ختم خطبته بتذكير المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم حيث جمع لهم بين خيـري الدنيا والآخرة، والحـال أن الظفر بخير الآخـرة وحده يكفي لشعور المؤمن بنعمة ربه العظمى عليه، فكيف إذا جمع معه خير الدنيا ؟

إلى أن قال: فأذكِّركم الله الحائل بين قلوبكم إلاَّ ماعرفتم حق الله فعملتم به، وقسرتم أنفسكم على طاعـته، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفًـا لها ولا نْتِقَـالها ووجلاً منهـا ومن تحويلهـا، فإنه لاشيء أسلب

---

(١) مسند أحمد ٢/٢٥٦ .

للنعمة من كُـفرانها، وإن الشكر أَمْنٌ للغيَـر ونماء للنعمة، واستجلاب للزيادة ، هذا لله عليَّ من أمركم ونهيكم واجب (١) .

ولقد كـان لأمير المؤمنين عمـر بن الخطاب رضي الله عنه مواقف كثيرة في الزهد والورع نذكر نماذج منهـا ، فمن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال : أُتِيَ عمر بمال فوُضِع في المسجـد ،فخرج إليه يتصـفَّحه وينظر إليه فـهمَلتْ عيناه، فقال عـبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :ياأميـر المؤمنين مايبكيك فوالله إن هذا لَمنْ مواطن الشكر ، فقال عمر : إن هذا والله ماأُعْطِيَهُ قوم قط إلا أُلقِيَ بينهم العدواة والبغضاء (٢) .

فهذا يعتـبر من فقه عمر رضي الله عنه فـقد أشفق على المسلمين من أن يفتـتنوا بالدنيا ، فـتكون سبـبا في تباعـد قلوبهم وإثارة النزاع بينهم، ولقد بلغ به التأثر من ذلك إلى حد البكاء ،وقد اختلفتْ نظرة الصحابيـين الجليلين رضي الله عنهما إلى ذلك المال ،فنظر إليـه عمر على أنه سبب من أسـباب الفتنة ،ونظر إليـه عبد الرحـمن بن عوف على أنه نعمة من الله تعالى،وكـلا النظرتين تَصْدُقان على ذلك المال، وكل واحد من هذين الصحابيين يدرك النظرتين كلتيهما،لكن في تلك اللحظة غَلَب على فكر عمر الإشـفاق على الأمة من الخطر الذي هي مُقْدمـة عليه فبكى،وغلب على عبد الرحـمن بن عوف ملاحظة شكر النعمة فأظهر الفرح .

ومن ذلك ماأخـرجه الإمام أحمـد رحمه الله تعـالى من حديث

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٧ .

(٢) الزهد / ١١٥ .

يحيى بن جَعْدة قال : قال عمر رضي الله عنه: لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيت الله عز وجل: لولا أن أضع جبهتي لله عز وجل، وأجلسَ في مجالس يُنتقَى فيها طيب الكلام كما يُنتقى فيها طيب التمر، وأن أسير في سبيل الله عز وجل (١) .

ففي هذا الخبر حدد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنواعا من الأعمال الصالحة يحب البقاء في الحياة من أجلها، فالمؤمن الحق يحب لقاء الله تعالى ، لأن هذه الحياة الدنيا ليست دار قراره وإنما دار قراره الحياة الآخرة ، فهو يشتاق إلى نعيمها المقيم ، ولايحب البقاء في الدنيا إلا للعمل الصالح الذي يرفع من درجاته في حياته الباقية، وقد أشار عمر إلى ثلاثة من أجلِّ الأعمال الصالحة ، وهي الصلاة ، ومجالس العلم والذكر ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وقد كان رضي الله عنه من المكثرين من صلاة النفل ، وممن تَعمر بهم مجالس العلم والذكر ، أما الجهاد فكان هو القائد الأعلى للجيوش الإسلامية في بلاد العالم ، وكان الجهاد شُغْلَه الشاغل الذي أهمه وغلب على تفكيره ، أما في داخل المجتمع الإسلامي فكان إمام المصلحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر .

وهكذا تكون الأهداف السامية ، فكيف بمن يرغبون في البقاء في الحياة الدنيا من أجل أموال يُثَمِّرونها ، أو قصور يعمرونها، أو شهوات يغذُّونها ؟! أولئك هم الخاسرون الذين قَصُرت أنظارهم، وتدنَّت أهدافهم ، ففضلوا الأدنى على الأعلى والفاني على الباقي.

---

(١) الزهد / ١١٧ .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن محمد ابن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قدم على عمر رضي الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال عمر : والله لوددت أني وجدت امرأة حسنة الوزن تَزِنُ لي هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل : أنا جيدة الوزن فهلمَّ أزِنْ لك ، قال : لا ، قالت : لِمَ ؟ قال: - إني أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا وأدخل أصابعه في صدغيه- وتمسحي به عنقك ، فأصيب فضلا على المسلمين (١) .

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه واحتياطه البالغ لأمر دينه ، فقد أبى على امرأته أن تتولى قسمة ذلك الطيب حتى لاتمسح عنقها منه فيكون قد أصاب شيئًا من مال المسلمين، وهذه الدقّة المتناهية في ملاحظة الاحتمالات التي قد توقع في المحرمات أو الشبهات نورٌ يهبه الله تعالى لأوليائه السابقين إلى الخيرات، وفرقان يفرقون به بين الحلال والحرام والحق والباطل ، بينما تفوت هذه الملاحظات على الذين لم يشغلوا تفكيرهم بحماية أنفسهم من المخالفات .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد من حديث أبي عثمان النهدي قال : لما قدم عتبة (٢) أذربيجان أُتِيَ بالخبيص فأمر بسفطين عظيمين(٣)

---

(١) الزهد / ١١٩ .

(٢) هو عتبة بن فرقد .

(٣) السَّفَط وعاء كالقفَّة والخبيص نوع من الحلوى .

فصَنعا له من الخبيص ، ثم حمل على بعير فسرَّح بهما إلى عمر رضي الله عنه ، فلما قدم على عمر ذاقه فوجده شيئًا حلوا، فقال: كل المسلمين يشبع من هذا في رحله ؟ قال : لا ، قال : فلا حاجة لنا فيه فأطبَقهما وردهما عليه ، ثم كتب إليه : أما بعد فليس من كدِّ أبيك ولا من كد أمك فأشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك (١) .

فهذه نظرة جليلة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في التأكيد على مبدإ المساواة بين المسلمين ، فالمطلوب في حياة المسلمين هو الزهد والتخشن في المعيشة الذي أوصى به عمر عتبة بن فرقد ، ولكن لو فُرِض أن الخير عمَّ المسلمين فأصبحوا كلُّهم يحصلون على الأطعمة الشهية فإن تناولها في بعض الأحيان لاينافي حياة الزهد، ولكن حينما تكون هذه الأطعمة مقصورة على الخاصة فإن ذلك لايجيز للوالي أن يصرف مال المسلمين لإطعام الخاصة منها ، ولذلك قال عمر لعتبة حينما كتب إليه « فليس من كدِّ أبيك ولامن كد أمك » .

وكذلك ماأخرجه الإمام أحمد من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : أقبلْتُ فإذا الناس بين أيديهم القِصَاع، فدعاني عمر فأتيته ، فدعا بخبز غليظ وزيت ، قال: قلتَ له : أمَنَعْتني أن آكل من الخبز واللحم ودعوتني على هذا ؟ قال : أنا دعوتك على طعامي فأما هذا فطعام المسلمين (٢) .

---

(١) الزهد / ١٢١ . وأخرج نحوه الإمام مسلم - صحيح مسلم ، رقم ٢٠٦٩/ ١٢ كتاب اللباس .

(٢) الزهد / ١٢١ .

فهذا مثل من زهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، فإنه لم يُسَوِّ نفسه بعـامة المسلمين في الطعام فضلا عن أن يزيد عليـهم ، وقد كان مقـبولا منه أن يأكل من طعام عامـة المسلمين، ولكنه لتقشـفه وزهده يختار لنفسه طعامًا أقل ثمنا من ذلك .

وأخرج الإمـام أحمد أيضًـا من حديث مـصعب بن سعـد قال: قالت حـفصة بنت عـمر : ياأمير المؤمنين لـو لبسْتَ ثوبا هو ألين من ثوبك وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك فقد وسع الله عز وجل من الرزق وأكثر من الخير، قال: إني سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ماكـان رسول الله ﷺ يَلْقَى من شدة العـيش ؟ فمازال يذكِّـرها حتى أبكاها، فقال لها : إنْ قلتُ لك ذاك إني والله لَئِنْ استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلِّي أدرك معهما عيشهما الرَّخِيِّ [1] .

فهذا بُعْدُ نظر من أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه، فهو يرى أنه كلما زاد في الزهد في الدنيا والتقشف في المعـيشة فإنه حرِيٌّ بأن ينال مـزيدا من العـيش الرَّخِيِّ في الجنة ، فلهـذا قـال : « لئن اسـتطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلِّي أدرك معهما عيشهما الرخي» .

وهو يريد بذلك رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق رضي الله عنه .

ولقد كان شديد الالتزام بسنة رسول الله ﷺ ، وذلك حينما ذكَّر ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها بمعيشة رسول الله ﷺ ، وكان ذلك من أسباب عـصمته من الدنيا التي انفتـحت في عهده بشكل لم يسبق له مثيل في حياة العرب .

---

(١) الزهد / ١٢٥ .

ومن أمثلة ماكان يتصف به عمر رضي الله عنه من خشية الله تعالى ماأخرجه الإمام البخاري من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال : لما طُعن عمر جعل يألم ، فقال له ابن عباس - وكأنه يجزِّعه- : ياأمير المؤمنين ولئن كان ذاك لقد صحبتَ رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض ، ثم صحبت صَحَبَتَهم ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون ، قال: أمَّا ماذكرتَ من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه فإن ذلك مَنٌّ مِنَ الله تعالى مَنَّ به علي، وأما ماذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإن ذلك مَنٌّ من الله جل ذكره منَّ به علي، وأما ماترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك ، والله لو أن لي طِلاعَ الأرض ذهبا لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه (١) .

لقد كان عمر رضي الله عنه يخاف هذا الخوف العظيم من عذاب الله تعالى مع أن النبي ﷺ شهد له بالجنة ، ومع ماكان يبذل من جهد كبير في إقامة حكم الله والعدل والزهد والجهاد وغير ذلك من الأعمال الصالحة ، وإن في هذا لدرسًا بليغًا للمسلمين عامة في تذكر عذاب الله الشديد وأهوال يوم القيامة .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام ابن جرير الطبري من خبر سالم بن عبد الله بن عمر رحمه الله ورضي عن أبيه وجده قال: لما ولي عمر قعد على رزق أبي بكر الذي كانوا فرضوا له، فكان بذلك فاشتدت

---

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٩٢ (٧/ ٤٣).

حاجته، فاجتمع نفر من المهاجرين، منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير، رضي الله عنهم، فقال الزبير: لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه، فقال علي: وددنا قبل ذلك فانطلقوا بنا، فقال عثمان: إنه عمر، فهلموا فلنستبرئ ماعنده من وراء، نأتي حفصة فنسألها ونستكتمها، فدخلوا عليها وأمروها أن تخبر بالخبر عن نفر، ولاتسمى له أحدًا إلا أن يقبل ،وخرجوا من عندها فلقيت عمر في ذلك فعرفت الغضب في وجهه، وقال: من هؤلاء؟ قالت: لاسبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك، قال: لو علمتُ من هم لَسُؤْتُ وجوههم، أنت بيني وبينهم، أنشُدك الله ماأفضلُ ماقتنى رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس؟ قالت: ثوبين ممشَّقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجُمَع، قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت: خَبْزنا خبزة شعير فصبينا عليها وهي حارة أسفل عكَّة لنا فجعلناها هشَّة دسمة، فأكل منها وتطعَّم منها استطابةً لها، قال: فأي مُبسَط كان يبسطه عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء لنا ثخين كنا نربِّعه في الصيف فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه، قال: ياحفصة فأبلغيهم عني أن رسول الله ﷺ قدَّر فوضع الفضول مواضعها وتبلَّغ بالتزجية [أي الاكتفاء بالقليل]، وأني قدَّرت، فو الله لأضعنَّ الفضول مواضعها ولأتبلَّغن بالتَّزجية، وإنما مثلي ومثلُ صاحبَيَّ كثلاثة سلكوا طريقا، فمضى الأول وقد تزود زادا فبلغ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما(١).

(١) تاريخ الطبري ٣/٦١٦ - ٦١٧ .

فهذا دليل على زهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعفته حيث اكتفى بالقليل من بيت المال مقابل تفرغه لأمور الأمة، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم أن تولى الخلافة وافق على ترك التجارة ولم يقبل بأكثر من درهمين خصصهما له أهل الحل والعقد في اليوم، فاستمر ذلك في عهد عمر، ثم أدرك من جاء ذكرهم في الخبر من أهل الحل والعقد بأن هذا المبلغ لايكفي بعد أن توسعت دولة الإسلام فأرادوا أن يزيدوا في ذلك المخصص، فكان هذا الموقف الأخلاقي الرفيع الذي صدر من عمر رضي الله عنه .

وهذا الموقف يدل على ضخامة الحياة الآخرة في عين عمر وأنه كان يرتب سلوكه في الحياة الدنيا على اعتبار النظر إلى الرفعة في الآخرة ، فلذلك اكتفى بالقليل من المعيشة وفرض على نفسه وأسرته نظاما شديداً في التقشف والزهد، وجعل مثَلَه الأعلى في ذلك رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه ، فلزم السير على منهاجهما في حياة الزهد وإن كانت أنماط الحياة قد تغيرت بعض الشيء في عصره، وهذا يدل على غزارة علمه وقوة إيمانه .

ولقد كانت قناعته بهذا المنهج الزهدي كبيرة، حيث ثار غضبه من ذلك العرض الذي عرضته عليه ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها.

ومن أمثلة ورعه ماأخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر الربيع بن زياد الحارثي قال: كنت عند عمر رضي الله عنه فوضع يده

على بطنه، فقلت: مالك ياأمير المؤمنين ؟ فقال: طعام غليظ أكلته أُذيتُ منه، قلت: ياأمير المؤمنين إن أولى الناس بالمطعم اللين والملبس اللين لأنت، قال: فتناول عُصيّة فقرع بها رأسي وقال: كنت أحسب فيك خيرا ياربيع بن زياد، قلت: مالك ياأمير المؤمنين؟ قال: والله ماأردت بها إلا مقاربتي، أتدري مامثلي ومثلهم ؟ قال: مامثلك ومثلهم؟ قال: مثل قوم أرادوا سفرا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل وقالوا: أنفق علينا وعليك أفَلَه أن يستأثر عليهم ؟ قلت: لا، قال: فكذلك[1].

ففي هذا الخبر مثل من عفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وورعه، حيث ساوى نفسه بأوساط الناس ولم يؤْثر نفسه بشيء من أموال الأمة، والمثل الذي ضربه عمر للوالي والرعية يدل على شدة تحرِّيه في الأمور المالية، فإن الأموال العامة مشاعة بين الأمة، ومهمة الحاكم أن يتولى سياسة إنفاقها وتوزيعها بالعدالة ، كما يفعل ذلك من اختاره المسافرون لصرف نفقاتهم في السفر .

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر معدان ابن أبي طلحة اليعمري أنه قدم على عمر رضي الله عنه بقطائف وطعام، فأمر به فقسم، ثم قال: اللهم إنك تعلم أني لم أرزقهم ولن أستأثر عليهم إلا أن أضع يدي مع أيديهم في طعامهم، وقد خفت أن تجعله نارًا في بطن عمر .

قال معدان : ثم لم أبرح حتى رأيته اتخذ صحفة من خالص ماله فجعلها بينه وبين جفان العامة [2] .

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٦٩٧ - ٦٩٨ .

(٢) تاريخ المدينة المنورة / ٧٠٤ .

فأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يرغب في أن يأكل مع عامة المسلمين لما في ذلك من المصالح الاجتماعية، ولكنه يتحرج من أن يأكل من طعام صنع من مال المسلمين العام، فيأمر بإحضار طعام خاص له من خالص ماله، وهذا مثال رفيع في العفة، إذ أن الأكل من مال المسلمين العام معهم ليس فيه شبهة تحريم لأنه منهم ولكنه قد أعف نفسه من ذلك ابتغاء ماعند الله تعالى ، ولشدة خوفه من الله تعالى خشي أن يكون ذلك من الشبهات فحمى نفسه منه .

ومن ذلك ماأخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر عبدالرحمن بن نجيح قال: نزلت على عمر رضي الله عنه، فكانت له ناقة يحلبها ، فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبنا أنكره، فقال: ويحك من أين هذا اللبن لك ؟ قال: ياأمير المؤمنين إن الناقة انفلت عليها ولدها فشربها ، فحلبت لك ناقة من مال الله، فقال: ويحك تسقيني نارًا، واستحل ذلك اللبن من بعض الناس، فقيل هو لك حلال ياأمير المؤمنين ولحمها (١).

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث خشي من عذاب الله جل وعلا لما شرب ذلك اللبن مع أنه لم يتعمد ذلك، ولم تطمئن نفسه إلا بعد أن استحل ذلك من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم الذين يمثلون المسلمين في ذلك الأمر، وهذا الخبر وأمثاله يدل على أن ذكر الآخرة بما فيها من حساب ونعيم أو شقاء قد

---

(١) تاريخ المدينة المنورة ٢/ ٧٠٢ .

أخذ بمجامع قلب عـمر وملأ عليه تفكيره ، حتى أصبح ذلك موجها لسلوكه في هذه الحياة .

ومن ذلك ماأخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر قتادة بن دعامة السدوسي قال: خرج عمر رضي الله عنه من المسجد ومعه الجارود العبدي، فإذا امرأة برزة [1] على ظهر الطريق، فسلم عليها عمر رضي الله عنه فردت عليه السلام - أو سلمت عليه فرد عليها السلام- فقالت : هيـها ياعمر [2] عهدتك ياعمر وأنت تسمى عميرا في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سمِّيت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سمِّيت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت، فبكى عمر رضي الله عنه ، فقال الجارود : هيه[3] فقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته !! فقال عمر رضي الله عنه : أما تعرف هذه ؟ هذه خولة بنت حكيم امرأة عبادة بن الصامت التي سمع الله عز وجل قولها من فوق سماواته، فعمر أحرى أن يسمع لها[4] .

ففي هذا الخبر موقفان :

أولا : أنه مثل من الجرأة التي اتصف بها الصحابة رضي الله

---

(١) هي المرأة الكهلة التي تبرز للقوم يتحدثون معها .

(٢) اي تنبَّه وتفطَّن .

(٣) اي تنبَّهي .

(٤) تاريخ المدينة المنورة/ ٧٧٣ - ٧٧٤ ، وقد نزل في خولة بنت حكيم رضي الله عنها قول الله تعالى ﴿ قد سمع الله قول النبي تجادلك في زوجها﴾ الآية - المجادلة/ ١- .

عنهم رجالا ونساء في مخاطبة الولاة والتعبير عما في نفوسهم من إرادة الإصلاح، وقد تربوا على هذه الجرأة في ظل الإسلام، حيث جاءت الأوامر فيه بلزوم التناصح بين الراعي والرعية كما جاء في قول رسول الله ﷺ « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » أخرجه الإمام مسلم من حديث تميم الداري رضي الله عنه (١) .

ثانيًا : موقف لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي تمثل في الخشية من الله تعالى والتواضع لأفراد رعيته، وهذا دليل على قوة إيمانه وتعظيمه لله عز وجل وشدة استحضاره لمشاهد الحياة الآخرة، ومن كان كذلك فإنه ينسى نفسه ودنياه ويتوجه سلوكه إلى محاولة بلوغ الهدف الإسلامي الأعلى، وهو الظفر برضوان الله سبحانه ونعيم الجنة .

ومن ذلك ما أخرجه أيضا المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من حديث معيقب قال: أرسل إليَّ عمر رضي الله عنه مع الظهيرة فإذا هو في بيت يطالب ابنه عاصما، فقلت: على رسلك ياأمير المؤمنين فإنك تأخذ أمرك بالهوينَى، وإذا بعاصم في زاوية ، فقال -يعني أمير المؤمنين -: أتدري ماصنع هذا ؟ إنه انطلق إلى العراق فأخبرهم أنه ابن أمير المؤمنين فانتفقهم فأعطوه آنية وفضة ومتاعا وسيفا محلًّى، فقال: مافعلت، إنما قدمت على أناس من قومي فأعطوني هذا، فقال: خذه يامعيقب فاجعله في بيت المال، فجعلته فلما كان العشي حُدِّث القوم

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ٥٥ ، الإيمان (ص٧٤) .

شأنه، وانطلق عاصم فطلب إلى أناس في السيف، فقالوا: ياأمير المؤمنين، السيف أماله فإنه ليس له سيف ؟ قال: يامعيقب انزع حليته وأعطه النصل، قال: فما أصنع به؟قال: ماشئت، فأخذ النصل [1] .

فهذا مثل من التحري في المال الذي يكتسبه الإنسان عن طريق جاهه ومنصبه، فحيث شعر أمير المؤمنين عمر بأن ابنه عاصما قد اكتسب هذا المال لكونه ابن أمير المؤمنين تحرج من إبقاء ذلك المال عنده لكونه اكتسبه بغير جهده الخاص فدخل ذلك في مجال الشبهات .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: « إذا استأذنت أحدكم امرأته أن تأتي المسجد فلايمنعها، قال: وكانت امرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصلي في المسجد فقال لها: إنك لتعلمين ماأحب، فقالت: والله لا أنتهي حتى تنهاني، قال: فطُعِن عمر وإنها لفي المسجد[2] .

وأخرجه عبد الرزاق الصنعاني وذكر أن المرأة هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل [3].

ففي هذا الخبر مثل من تعظيم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لأمور الشريعة ، ووقوفه عند كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، حيث قدَّم تنفيذ ذلك على ماتحبه نفسه .

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٧٠٠ - ٧٠١ .

(٢) مسند أحمد ٧/٢ .

(٣) مصنف عبد الرزاق ١٤٨/٣ ، رقم ٥١١١ .

وفي هذا المعنى ماأخرجه محمد بن سعد من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال: جاء بلال يريد أن يستأذن على عمر فقلت: إنه نائم، فقال : ياأسلم كيف تجدون عمر ؟ قال: خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم، فقال بلال : لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه .

وأخرج أيضا من خبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: مارأيت عمر غضب قط فذُكِر الله عنده أو خُوِّف أو قرأ عنده إنسان آية من القرآن إلا وقف عما يريد [1].

ذلك لأن غضبه لله تعالى ، وأمره كله له سبحانه، فإذا ذكر به وخوف منه أو تليت عليه آياته غلبت عليه خشيته جل وعلا، فأمسك عما كان يريد الإقدام عليه من تأديب ونحوه .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب يوما - وخرجت معه حتى دخل حائطًا [2] فسمعته - يقول - وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بَخٍ ، والله لتتقين الله بُنَيَّ الخطاب أو ليعذبنك [3].

فهذا نوع من محاسبة النفس وتذكيرها بيوم الحساب حتى لاتغتر

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣٠٩ .

(٢) أي بستانا .

(٣) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٠ .

بالجاه الدنيـوي، فإن الناس يوم القيامـة يبعثون مجـردين من أموالهم وجاههم، ولايرافقهم إلا أعمالهم الصالحة .

وأخرج ابن عسـاكر أيضا من خبـر أبي مسلم الأزدي : أنه صلى مع عـمر بن الخطاب رضي الله عنه أو حـدثه من صلى مع عمـر بن الخطاب المغـرب، فمـسّى بها - أو شـغله بعض الأمر - حـتى طلع نجمان، فلما فرغ من صلاته تلك أعتق رقبتين (١) .

فهذا الخـبر يبين لنا شدة تعظيم أمير المؤمـنين عمر رضي الله عنه للصلاة وعظم خـشيته من الله تعـالى ، حيث كفَّر عن تأخـير صلاة المغرب عن أول وقتها بعتق مملوكَين .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام أحمـد من حديث مسروق بن الأجدع قال: دخل عـبد الرحمن - يعني ابن عـوف رضي الله عنه - على أم سلمـة رضي الله عنها فـقالت : سـمعت النبي ﷺ يقـول : إن من أصحابي لمن لايراني بعد أن أموت أبدا، قال: فخرج عبد الرحمن من عندها مـذعوراً حـتى دخل على عـمر رضي الله عنه فـقال: اسـمع ماتقول أمك، فـقام عمر حتى أتاها فـدخل عليها فسـألها، ثم قال: أنشدك بالله أمنهم أنا ؟ فقالت : لا ولن أبرئ بعدك أحدا (٢).

فهـذا مثال على ماكـان يتحلى به الصحـابة رضي الله عنهم من الخشـية لله تعالى، فـهذان الصحابيـان الجليلان كلاهمـا ممن بشرهم

---

(١) تاريخ دمشق ٣١١/٤٤ .

(٢) مسند أحمد ٣١٢/٦ .

النبي ﷺ بالجنة، ومع ذلك فزعا لما سمعا هذا الحديث ، ولم يكتف أمير المؤمنين عمر بذلك، بل ناشد أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها بأن تخبره إذا كان ممن ينطبق عليه هذا الوعيد، وهذا يدل على قوة الدين وعظمة الله تعالى في قلوب الصحابة رضي الله عنهم .

وأخرج الحافظ ابن عساكر من خبر مزيدة بن قعنب الرهاوي قال: كنا عند عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذ جاءه قوم فقالوا: إن لنا إماما يصلي بنا العصر فإذا صلى صلاته تغنى بأبيات، فقال عمر : قوموا بنا إليه، فاستخرجه عمر من منزله فقال: إنه بلغني أنك تقول أبياتا إذا قضيت صلاتك فأنشدنيها ، فإن كانت حسنة قلتها معك ، وإن كانت قبيحة نهيتك عنها ، فقال الرجل :

وفؤادي كلما نبهته ... عاد في اللذات يبغي تعبي
لاأراه الدهر إلا لاهيا ... في تماديه فقد بَرَّح بي
ياقرين السوء ماهذا الصِّبا ... فني العمر كذا باللعب
وشباب بان مني فمضى ... قبل أن أقضي منه أربي
ما أُرَجِّي بعده إلا الفنا ... ضيَّق الشيب عليَّ مطلبي
نفسُ لاكنتِ ولاكان الهوى ... اتقي المولى وخافي وارهبي

فقال عمر: نعم، نفس لاكنت ولاكان الهوى، وهو يبكي ويقول: اتقي المولى وخافي وارهبي، ثم قال عمر: من كان منكم مغنيا فليغنِّ هكذا (١).

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٣١٢ .

فهـذا مثل من رقة قلب أمـير المؤمنين عمـر رضي الله عنه وشدة خشيته من الله جل وعلا ، حيث بكى لما سمع هذه الأبيات الوعظية.

وفي قوله « فـإن كانت حسنة قلتـها معك » دلالة على تواضـعه وحسن أسلوبه في دراسة القضايا ، واحترامه آراء الآخرين.

وفي هذا الخبر دلالة على إقرار الصحابة رضي الله عنهم للأناشيد الإسلامـية واستـحسانهم لما كـان منها يشتـمل على الوعظ والتذكـير بالآخرة ، مع أن ذلك الإمـام كان يتـغنى بتلك الأبيات الشـعرية في المسجد وبعد صلاة العصر، فجواز ذلك خارج المسجد من باب أولى.

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة النميري من خبر عثمان بن عفان رضي الله عنه قـال: أنا آخركم عهدًا بعمر رضي الله عنه، دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عـبد الله بن عمر، فقال له: ضع خدي بالأرض، فقال: هل حجري والأرض إلا سواء؟ قال: ضع خدي بـالأرض لا أم لك - في الثانيـة أو الثالثـة - ثم شبك رجلـيه فـسمعـته يـقول : ويل لي وويل لأمي إن لم يغـفر الله لي ، حـتى فاضت نفسه (١).

فهذا مثل مما كان يتـصف به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من خشية الله تعالى، حتى كان آخر كلامه الدعاء على نفسه بالويل إن لم يغفر الله جـل وعلا له ، مع أنه أحد العشرة المبـشرين بالجنة، ولكن من كان بالله أعرف كـان من الله أخوف، وإصراره على أن يضع ابنه

---

(١) تاريخ المدينة المنورة ص ٩١٩ .

خـده على الأرض من باب إذلال النفـس في سـبيـل تعظيم الله عـز وجل، ليكون ذلك أقرب لاستجابة دعائه، وهذه صـورة تبين لنا قوة حضور قلبه مع الله جل وعلا .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الأحنف بن قيس التميمي قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لايحل لعمر من مال الله إلا حلتين : حلة للشتاء وحلة للصيف ومـاحج به واعتمـر عليه من الظهر [1]، وقوت أهلي كرجل من قـريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا رجل من المسلمين [2].

وهكذا كانت مـخصصـات أمير المؤمنين عـمر رضي الله عنه من بيت مال المسلمين مايكفي للقوت الضروري والكسوة الضرورية كأحد أوساط الناس، ومـازاد عن ذلك فإن عمر يتـورع عنه، ولو أن رجلا استأجر رجلا على أن يعمل له بطعامه وكسوته لم يقبل بذلك إلا عند الضرورة القصوى ، ولكن عمر فرض على نفسه ذلك تورعا منه.

وذكر الحافظ ابن حجر أن الكرابيسى أخرجه بسند صحيح [3].

ومن أمثلة خشـيته من الله تعالى ماأخرجـه الخطيب البغدادي من خبر قسامة بن زهير قال: وقف أعرابي على عمر بن الخطاب فقال:

يـاعمر الخير جُزيتَ الجنة جَـهـِّز بُنيَّاتـي وأمُـهـنَّـه

أقـسـم بـالـلـه لتـفـعـلنه

---

(١) أي الإبل .

(٢) تاريخ دمشق / ٢٧٠ .

(٣) فتح الباري ١٣/ ١٦١ .

قال: فإن لم أفعل ماذا يكون ياأعرابي ؟ قال :

أقسم أني سوف أمضينه

قال : فإن مضيت ماذا يكون يا أعرابي ؟ قال:

والله عن حالي لتسألنَّه ثَمَّ تكون المسألات ثمَّه

والواقف المسئول بينهنَّه إما إلى نار وإما جنه

قال :فبكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه، ثم قال: ياغلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره، والله ماأملك قميصا غيره[1].

وهكذا بكى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بكاء شديدًا تأثرا بشعر ذلك الأعرابي الذي ذكَّره بموقف الحساب يوم القيامة، مع أنه لايذكر أنه ظلم أحدا من الناس، ولكنه لعظم خشيته وشدة خوفه من الله تعالى تنهمر دموعه أمام كل من يذكِّره بيوم القيامة .

ومن أمثلة ورعه رضي الله عنه ماأخرجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري من خبر إياس بن سلمة عن أبيه [2] قال: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السوق ومعه الدِّرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال أمط عن الطريق، فلما كان في العام المقبل لقيني فقال: ياسلمة تريد الحج ؟ فقلت: نعم، فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال: استعن بها على حجك وأعلم

---

(١) تاريخ بغداد ٤/ ٣١٢ .

(٢) أبوه هو سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمي رضي الله عنه .

أنها بالخفقة التي خفقتك، قلت: ياأمير المؤمنين ماذكرتها، قال: وأنا مانسيتها [١].

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث شعر بأنه قد ضرب ذلك الرجل وهو غير مستحق للضرب، فعوضه بذلك المال إبراء لذمته ، وهو بذلك يقتدي برسول الله ﷺ كما تقدم الخبر عنه بذلك في يوم حنين وغيره .

من أخبار عثمان رضي الله عنه :

لقد اشتهر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بأنه من أهل الغنى والثروة ، ولكن مع هذه الشهرة فإنه قد رويت عنه أخبار تدل على أنه كان من الزاهدين في الدنيا .

فمن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد من حديث حميد بن نعيم : أن عمر وعثمان رضي الله عنهما دُعِيا إلى طعام، فلمَّا خرجا قال عثمان لعمر : قد شهدنا طعامًا لوددنا أنا لم نشهده ، قال : لِمَ قال: إني أخاف أن يكون صُنِع مباهاة [٢] .

فهذا فقه من عثمان بن عفان رضي الله عنه بمجالات السخاء الإسلامي ، فالسخاء في الإسلام لايكون بالتفاخر بالكرم والتباهي بنوع الطعام أو كثرته، وإنما يكون ببذل المال من غير إسراف ولاخيلاء مع شكر المنعم جل وعلا والتواضع للناس، وهذه النظرة من عثمان

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٤ .

(٢) الزهد / ١٢٦ .

تعتبر من التزهيد بالجاه الدنيوي، وهذا يدل على أنه كان من الزاهدين في ذلك .

ومن زهد عثمان رضي الله عنه وتواضعه مــاأخرجه الإمام أحمد من حديث ميمون بن مهران قال: أخبَرني الهمْداني أنه رأى عثمان ابن عفان رحمة الله عليه على بغلة وخلفه غلامه نائل وهو خليفة (١) .

وكذلك ماأخرجه من حديث الهمــداني قال : رأيت عثمان نائما في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين (٢) .

كماأخرج من حديث شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يــطعم الناس طعام الإمارة ويدخل إلى بــيته فــيأكل الخل والزيت (٣) .

فهــذه أمثلة جليلة من زهد أميــر المؤمنين عثــمان رضي الله عنه، وحينما يكون الزاهد متوسط الحال في المعيشة فإن زهده لايلفت النظر كثيرًا ولايثير العجَب، ولكن حينما يكون غنيا فإن زهده يكون مدهشا للمتأملين وعبرة للمعتبرين، ذلك لأن كثرة المال تغري بالانصراف نحو الملذات والتوسع في النفقات ، فلابد ليكون الغني زاهدا من قوة بالغة تصرفه عن ذلك وتضخِّم في عــينه النظر للآخرة وتقلل في عينه النظر إلى الدنيــا ، وهكذا كان عثــمان رضي الله عنه الذي كــان من أعظم الأثرياء في الإسلام قد غلبت قــوة إيمانه شهوته وهواه فكان من أعظم

(١) الزهد / ١٢٧ .

(٢) الزهد / ١٢٧ .

(٣) الزهد / ١٢٩ .

الزاهدين ، وضرب من نفسه مثلا لجميع الأغنياء بإمكان الجمع بين الغِنَى والزهد في الدنيا .

من أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

يعتبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أئمة الزاهدين مع شدة انفتاح الدنيا في عهده، ومن أخباره في الزهد ماروواه مجاهد بن جبر رحمه الله قال : قال علي رضي الله عنه : جُعت مرة بالمدينة جوعا شديدا فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة فإذا أنا بامرأة قد جمعت مَدَرًا (١) فظننتها تريد بلّه (٢) فأتيتها فقاطعتها(٣) كل ذَنوب (٤) على تمرة ، فعددت ستة عشر ذنوبا حتى مجلت يدي (٥) ثم أتيت الماء فأصبت منه ، ثم أتيتها فقلت بِكَفَّيَّ «هكذا» بين يديها (٦) فعدَّت لي ست عشرة تمرة ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فأكل معي منها (٧) .

في هذا الخبر بيان لشدة الحال التي مر بها الصحابة رضي الله عنهم في المدينة حيث ترك المهاجرون أموالهم بمكة ، ولم تكن أموال

---

(١) يعني الطين اليابس .

(٢) يعني بالماء .

(٣) أي اتفقت معها على أجرة .

(٤) يعني كل دلو .

(٥) يعني تورمت من العمل .

(٦) يعني بسطهما وضمهما .

(٧) صفة الصفوة ١/ ٣٢٠ .

الأنصار - بالرغم مما اتصفوا به من الإيثار - لتتسع لتغطية احتياج المهاجرين في كل الأحوال ، ولكنهم صبروا على تلك الحال حتى فرج الله تعالى شدتهم ، وكان بإمكانهم لو أرادوا الدنيا أن يبقوا في مكة وغيرها من البلاد التي هاجروا منها بدينهم ، وسيكونون - والحال تلك - أيسر حالا وأهنأ بالا في عرف عامة الناس ، ولكن ماحملوه من النور الإلهي يجعل السعادة كل السعادة في صحبة النبي ﷺ ، والتضحية بكل مالديهم من طاقة في سبيل الله تعالى ، وإن ألجأهم ذلك إلى أقسى الظروف المعيشية .. فلله درهم ماأسمى فكرهم ، وأرفع ذكرهم ، وأقوى صبرهم !!

وعبرة أخرى نأخذها من هذا الخبر تتعلق ببيان صورة من السلوك المشروع في مواجهة الشدائد ، حيث خرج علي رضي الله عنه للعمل بيديه للكسب المشروع ، ولم يجلس منتظراً ماتجود به أيدي المحسنين .

وصورة أخرى من قوة التحمل حيث قام بذلك العمل الشاق وهو يعاني من شدة الجوع مايضعف قوته .

وصورة أخيرة من إيثار الأحبة والوفاء لهم ، فهو على مابه من شدة الجوع وبالرغم مما قام به من ذلك العمل الشاق قد احتفظ بأجرته من التمر حتى لقي النبي ﷺ فأكل معه .

وقد تقدمت أخبار من زهده في سيرته من تاريخ الخلفاء الراشدين.

وأخرج البلاذري من خبر الحارث قال: كنت عند علي فأتته امرأتان فقالتا : ياأمير المؤمنين [إننا] فقيرتان مسكينتان . فقال: قد

وجب حقّكما علينا وعلى كلّ ذي سعة من المسلمين إن كنتما صادقتين، ثم أمر رجلاً فقال: انطلق بهما إلى سوقنا فاشتر لكل واحدة منها كراً من طعام(١) وثلاثة أثواب - فذكر رداءً أو خماراً وإزاراً- وأعط كل واحدة منهما من عطائي مائة درهم، فلما ولّتا سفرت إحداهما وقالت: ياأمير المؤمنين فضلني بما فضّلك الله به وشرّفك. قال: وبماذا فضلني الله وشرفني ؟

قالت : برسول الله ﷺ . قال : صدقت وما أنت ؟

قالت: [أنا] امرأة من العرب وهذه من الموالي، قال: فتناول شيئا من الأرض ثم قال: قد قرأت مابين اللوحين فما رأيت لولد إسماعيل على ولد إسحاق عليهما السلام فضلاً ولاجناح بعوضة(٢) .

ففي هذا الخبر أمثلة من أخلاق أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وذلك في الرحمة والتواضع والعدالة، ومما يلفت النظر عدم تفضيله تلك المرأة العربية على الأخرى التي هي من الموالي، وبيان أن الإسلام لايقر التفرقة في العطاء بين العرب والموالي ماداموا مسلمين، وفي هذا لفتة مهمة في تعديل نظرة العرب للموالي ليفهموا بأن العزة والرفعة بالإسلام لا بالعروبة .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الحافظ أبي نعيم الأصبهاني قال: وسمعت سفيان يقول: إذا جاءك عن علي رضي الله

---

(١) الكر : مكيال لأهل العراق فيه ستون قفيزا ، والقفيز ثمان مكاكيك، والمكوك صاع ونصف الصاع .

(٢) أنساب الأشراف / ٨٧٩ .

عنه شيء أُثبت لك فخذ بـه ، مابنى عليّ لبنة ولاقصبة على قـصبة، ولقد كان يجاء بحبوبه في جراب من المدينة (١).

في هذا الخبـر يربط العالم الكبيـر سفيـان بن سعيـد الثوري بين الزهد في الدنيا والعلم المتعلق بذلك، فـأمير المؤمنين علي رضي الله عنه كان من أئمة الزهد قولا وعملا، فأقواله في الزهد يكون لها الأثر الكبيـر لأنه كان طوال أيام خلافـته زاهدا يعيـش على رَيع مال له في المدينة ولم يبن له قصرا يناسب مركـزه الاجتماعي، فلذلك كان بحقٍّ أزهد الناس في عصره كما قال عنه عمر بن العزيز رحمه الله تعالى.

من أخبار أبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهما :

ومن أخـبـار الصـحـابة رضي الله عنـهم في الزهد مـارُوي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهمـا : أن عمر حين قدم الشام قال لأبي عبيدة رضي الله عنه : اذهب بنا إلى منزلك، قال : وماتصنع عندي؟ ماتريد إلا أن تعصـر عينيك عليّ ، قال: فدخل فلم ير شيـئًا، قال : أين متـاعك ؟ لاأرى إلا لَبَدًا وصحـفة وشنّـًا (٢)وأنت أمير ، أعندك طعام ؟ فـقام أبو عبيـدة إلى جونة (٣) فأخذ منها كـسيرات ، فبكى عمر، فقـال له أبو عبيدة : قد قلت لك إنك ستـعصر عينيك عليَّ ، ياأمير المؤمنين يكفـيك مايُبلُغك المقيل ، قال عمر : غـيَّرتْنا الدنيا كلَّنا غيرك ياأبا عبيدة .

(١) تاريخ دمشق / ٤٨٢ .

(٢) اللَّبد السرج والشنّ القربة القديمة .

(٣) يعني السلة .

ذكره الإمام الذهبي وقال : وهذا والله هو الزهد الخالص لا زهد من كان فقيرا معدما (١) .

فهــذا مثل بليغ في الزهد يقدمــه أحد عظماء الإسلام أمــام أحد عظمائه .

لقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حينما قَدِم إلى الشام قد جعل من أهدافــه المهمة أن يزور بيت أميــر الشام أبي عبيــدة عامر بن الجــراح رضي الله عنه لِيُثْلج صــدره برؤية مــظهر مــن مظاهر الزهد النادرة، ولكن أبا عبيدة كان يدرك ماستئول إليه حال عمر حينما يرى بيته فتلكأ قــليلا في الذهاب به ، ولم يتمالك عمر نفــسه حينما رأى ذلك البيت الذي كأنما هُجر من دهر فجاشت عيناه بالدموع.

ويَحْدُث مايدهش المتأمل حيث يقول أبو الزهد ومقنِّن مناهجه في عصره « غيَّرتنا الدنيا كلَّنا غيرك ياأبا عبيدة » .

هل حقا غيَّرت الدنيا عمر ؟!

إنه الحاكم العظيم الذي ســاس دولته على الزهد وكان قــدوة عليا للزاهدين !

ولكنه التواضع الكبير من الرجل الكبير !

فمــا أعظم هذا الحوار بين هذين الرجلين العظيــمين ! وما أعظم ماقدَّماه لأمة الإسلام من تضحية وفداء !!

ومن ذلك مــاذكــره ابن الجوزي عــن مالك الداري أن عــمــر بن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ١٧ .

الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة فقال للغلام : اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح . ثم تَلَهَّ ساعة في البيت حتى تنظر مايصنع .

فذهب الغلام قال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك ، قال : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالَي ياجارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى أنفذها .

فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال : اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتَلَهَّ في البيت ساعة حتى تنظر مايصنع ، فذهب بها إليه قال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال رحمه الله ووصله ، تعالي ياجارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، فاطَّلَعَت امرأته فقالت : ونحن والله مساكين فأعطنا ولم يبق في الخرقة إلا ديناران فَدَحَا بهما إليها ، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض (١) .

ومن هذه الأخبار تبين لنا ماكان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، ولاشك أن من وقع في يده مال هو بحاجته ففرقه من ساعته .. لاشك أنه قد تجرد قلبه من الميل إلى الدنيا ، ولايكون ذلك إلا بدافع قوي يهيمن على النفس فيصرف اتجاهها إلى مايخالف هواها ، هذا الدافع هو ماذكره الله تعالى بقوله

---

(١) صفة الصفوة ٤٩١/١ .

في مدح الصحابة رضي الله عنهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح: ٢٩] ومايزال عباد الله المخلصون يقاومون هوى نفوسهم حتى يكون هواهم خالصا فيما يحبه الله تعالى، ولذلك فإنهم يشتاقون إلى لقائه جل وعلا، ولايكرهون الموت لأنهم قد عاشوا لما بعد الموت، ولم تمثل الحياة الدنيا في شعورهم إلا كرحلة سفر، قد تم فيها الإعداد لما بعدها من الإقامة .

وعلى ضد ذلك الذين ذكرهم النبي ﷺ في آخر الزمان بقوله: «يوشك الأمم أن تَدَاعَى عليكم كما تداعى الأَكَلَة إلى قصعتها، فقال قائل: ومِنْ قِلَّة نحن يومئذ ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفَنَّ الله في قلوبكم الوهْن، فقال قائل: يارسول الله وما الوَهْن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت .

أخرجه الإمامان أبو داود وأحمد (١) .

من أخبار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

أخرج الحافظ ابن كثير في ترجمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: وفي رواية محمد بن عائذ الدمشقي عن الهيثم بن حميد عن مطعم عن المقدام وغيره أن سعدا قال: يارسول الله ادع الله أن يجيب دعوتي، فقال: إنه لا يستجيب الله دعوة عبد حتى يطيب مطعمه، فقال: يارسول الله ادع الله أن يطيِّب مطعمي، فدعا له .قالوا: فكان

(١) سنن أبي داود، رقم ٤٢٩٧، الملاحم ٤/ ٤٨٣، مسند أحمد ٢/ ٣٥٩ .

سعد يتورع من السنبلة يجدها في زرعه فيردها من حيث أُخذت[1].

ففي هذا الخبـر بيان لاهتمام سعـد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالورع واستقامته على ذلك، وكونه يهتم بسنبلة وقعت في أرضه دليل على قوة ورعه، فإن كثيرًا من الناس لايلتفتون لمثل هذا ، وإذا كان قد تورع عن هذا الشيء الحقير فإن تورعه عن الأمور الكبيرة الواضحة في الحـرام والشبـهات من باب أولـى، وهذا الحديث صـريح في أن أهم أسباب إجابة الدعاء الورع عن الحـرام والشبهات، وقد رُويت أحاديث أخرى في هذا المعنى عن رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ماأخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : أيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيـبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال : ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم** ﴾[المؤمنون : ٥١] ، وقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كل من طيبـات ما رزقناكم** ﴾[البقرة :١٧٢] قال: ثم ذكـر الرجل يطيل السفر أشـعث أغبر، يمد يديه إلى السمـاء : يارب ، يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حـرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام فـأنَّى يستجاب لذلك ! » [2].

من أخبار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

من أخباره رضي الله عنه في باب الخشية من الله تعالى ماأخرجه أبو عبد الله الحـاكم من خبر عمـرو بن ميمون قال: كـان عبد الله –

---

(١) البداية والنهاية ٨/٧٦ .

(٢) صحيح مسلم ، رقم ١٠١٥ ، الزكاة (ص ٧٠٣) .

يعني ابن مسعود رضي الله عنه - تأتي عليه السنة لايحدِّث عن رسول الله ﷺ ، فحدَّث ذات يوم عن رسول الله ﷺ بحديث فَعَلَتْه كآبة، وجعل العرق يتحادر على جبهته ويقول: نحوَ هذا أو قريبا من هذا.

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي (١).

فهذا مثل من شدة الوجل والخشية من الله تعالى، واهتمامٌ بالغ من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأداء ماسمع من النبي ﷺ من غير أن يغير منه حرفا ، وهذا النص يعتبر توثيقا لجميع مرويات ابن مسعود إذا صحت عنه، وعلى شاكلته كان علماء الصحابة رضي الله عنهم، لأنهم يعلمون جميعا أن هذا الأمر أداءٌ لدين الله تعالى، وأنَّ تحمُّل ذلك العلم وأداءَه مسئوليةٌ عظيمة .

من أخبار أبي أمامة رضي الله عنه :

من ذلك ماأخرجه الإمام الطبراني في معجمه الكبير من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى باهلة، فأتيتهم وهم على الطعام ، فرحبوا بي وأكرموني، وقالوا: تعال فكل ، فقلت : إني جئتكم لأنهاكم عن هذا الطعام (٢)، وأنا رسول رسول الله ﷺ أتيتكم لتؤمنوا به، فكذبوني وزبروني، وأنا جائع ظمآن ، فنمت فأُتِيت في منامي بشربة لبن فشربت ورويت وعظم

(١) المستدرك ٣/ ٣١٤ .

(٢) جاء في إحدى الروايات أنه كان طعامهم الدم ، وكانوا يستخرجونه من البهائم ويجعلونه في طعامهم، فلذلك لم يأكل أبو أمامة من طعامهم لأنه محرم .

بطني ، قـال القوم : أتاكم رجل من أشـرافكم وسَراتكم فـرددتموه، إذهبوا إليـه وأطعموه من الطعام والشـراب مايشتهي، فـأتوني بالطعام والشـراب ، فقلت : لاحـاجة لي في طعـامكم وشرابكم، فـإن الله أطعمني وسقاني ، فانظروا إلى الحـال التي أنا عليها، فنظروا فأريتهم بطني ، فأسلموا عن آخرهم .

ذكـره الحافظ الهـيـثمي وقـال : رواه الطبـراني بإسنادين وإسناد الأولى حسن (١) .

وهكذا أظهر هذا الصحابي الجليل عزة الإسلام فلم يدار المشركين في اقتراف شيء مما نهى الله تعـالى عنه ، فكان أهلا لأن تجرى على يديه كرامـة الله جل وعلا حيث أطـعمه وسقـاه، ثم هدى على يديه قبيلته بأكملها، وتلك من عاجل بشرى المؤمن في الحياة الدنيا ، مع ما ادخره الله تعالى له في الآخرة من الثواب العظيم .

وهذا مثل رائع في باب الورع والتـقوى ، وبيان واضح لأثر ذلك في نجاح الداعية ، كـما هو ظاهر في استجابة قـوم أبي أمامة، وقد كانوا كذبوه أولاً وزجروه ، ثم أكبروا فيه الامتناع عن الطعام والشراب تَدَيُّنًا مع شدة احـتياجـه إليه ، فلما رأوا مامَنَّ الـله به عليه من تلك الكرامة العظيمة خضعوا للحق فأسلموا .

ومن ذلك مـاروي عن مولاة لأبي أمـامة البـاهلي رضي الله عنه قالت : كان أبو أمامة رجـلا يحب الصدقة ويجمع لها من بين الدينار

---

(١) مجمع الزوائد ٩/٣٨٧ .

والدرهم والفلوس، ومايأكل، حتى البصلة ونحوها، ولايقف به، سائل إلا أعطاه ماتهيأ له حتى يضع في يد أحدهم البصلة .

قالت: فأصبحنا ذات يوم وليس في بيته شيء من الطعام لذلك- يعني لذلك الغرض وهو الصدقة - ولا لنا، وليس عنده إلا ثلاثة دنانير، فوقف به سائل فأعطاه دينارا ثم وقف به سائل فأعطاه دينارا، ثم وقف به سائل فأعطاه دينارا .

قالت: فغضبت وقلت: لم يَبْقَ لنا شيء ! فاستلقى على فراشه وأغلقت عليه باب البيت حتى أذن المؤذن للظهر، فجئته فأيقظته فراح إلى مسجده صائما، فرقت عليه فاستقرضت مااشتريت به عشاء فهيأت سراجا وعشاء، ووضعت مائدة ودنوت من فراشه لأمهده له، فرفعت المرفقة-يعني المخدة - فإذا بذهب، فقلت في نفسي، ماصنع إلا ثقة بماجاء به، قالت: فعددتها فإذا ثلاثمائة دينار، فتركتها على حالها حتى أنصرفَ على العشاء .

قالت : فلما دخل ورأى ماهيأت له حمد الله تعالى وتبسم في وجهي، وقال : هذا خير من غيره ، فجلس فتعشى ، فقلت : يغفر الله لك ، جئتَ بما جئت به، ثم وضعتَه بموضع مضيعة ! فقال: وماذاك ؟ فقلت : ماجئت به من الدنانير ، ورفعت المرفقة عنها ففزع لمَا رأى تحتها ، وقال : ويحك ماهذا ؟ فقلت : لاعلم لي به إلا أني وجدته على ماترى ، قالت : فكثر فزعه رضي الله عنه .

ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة والذهبي في تاريخه، وأشار

إليه فـي سير أعـلام النبلاء وقـال: لأبِي أمامـة كرامة باهـرة جزع هو منها[١] .

وإن مارأينـاه في هذا الخبـر شيء عجيب، فَـلأَنْ يتصـدق المسلم بمازاد عن حاجتـه فهذا ظاهر ، وله أمثلة كثيـرة من عمل الصالحين، لكن أن يتصـدق بثمن قوته الضروري فـإن هذا نادر المثال، وإنما يدل على إيمان قـوي وثقـة بالغة بمـا عند الله تعـالى من الخيـر في الدنيـا والآخرة ، فـأما الجزاء الأخـروي فأدلته ظـاهرة معلومة، وأمـا الجزاء الدنيوي ففي مثل قول رسول الله ﷺ « مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا » [٢] وقد ضاعف الله تعالى لأبي أمامة الخلف بمائة ضعف ، حيث رُزِق بثلاثمـائة دينار لايعرف مصدرها، بدلا من الثلاثة التي تصدق بها .

والمشهد العجيب الثاني أنه فزع لما رأى تلك الدنانير ، وزاد فزعه يوم أن جهل مصدرها ، في مقام يُتـوقع فيه الفرح والسرور، وماذاك إلا أنه وأمثاله ينظرون إلى الدنيا نظرة وجل وفَزع خوفًا من الوقوع في شيء من فتنتهـا على حسب عرف السابقين بالخـيرات، وإن كان ذلك يعتبر أمرًا معتادًا عند غيرهم، أما شدة فزعه حينما جهل مصدرها فهو مبني على شدة خشيتـه من الله تعالى أن يكون ذلك استدراجًا ، وأن

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٣٤ ، تاريخ الإسلام ٣/ ٣١٥ ، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٢ .

(٢) صـحيح البـخاري ، رقم ١٤٤٢ ، الزكـاة (٣/ ٣٠٤) ، صحـيح مسلم ، الزكـاة رقم٥٧ .

يداخل نفسه شيء من الإعجاب بالعمل الصالح، ولكن أنَّى يصدر ذلك ممن يحوِّلون مشاهد السرور والفرح إلى مشاهد الخوف والفزع!

من أخبار المقداد بن عمرو رضي الله عنه :

من الذين وردت عنهم الأخبار في الخشية والورع المقداد بن عمرو رضي الله عنه ،من ذلك ماأخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث المقداد بن عمرو رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ مَبْعَثا، فلما رجعت قال: كيف تجد نفسك؟ قلت: مازلت حتى ظننت أنَّ من معي خَوَلي[1]، وايم الله لاأعمل على رجلين بعدها، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي [2].

فهذا مثال للورع والشدة في محاسبة النفس، فحينما أحس المقداد رضي الله عنه بأن نفسه قد تعاظمت بعض الشيء من أثر احترام الناس وتقديرهم له نفرَ من تلك الولاية التي خاف على دينه منها وآلى على نفسه أن لايتولى عملا في حياته .

وإن في هذا الخبر درسا حَيّا للمسئولين الذين ينخدعون بمناصبهم فتتغير حالهم بعد توليهم المسئولية، ويداخلهم شيء من الغرور والكبرياء، وربما تلا ذلك شيء من ظلم الناس وتأخير حقوقهم، فليَعْلَم هؤلاء أنهم قد اختاروا الدنيا على الآخرة وآثروا حفظ أنفسهم على ابتغاء رضوان الله تعالى، ولئن خُيِّل إليهم أنهم قد كسبوا شيئا من الجاه الدنيوي فلقد خسروا كثيرًا حينما لم يضعوا في حسابهم العمل لما بعد الموت.

---

(١) أي خدم لي .

(٢) المستدرك ٣/ ٣٤٩ - ٣٥٠ .

من أخبار خبَّاب بن الأرَتّ رضي الله عنه :

ومما روي عن الصحابة رضي الله عنهم ماروي عن خبَّاب بن الأرَتّ رضي الله عنه وذلك فيما ذكره ابن الجوزي عن طارق بن شهاب قال : جاء خبَّابًا نَفَرٌ من أصحاب محمد ﷺ فقالوا: أبشر ياأبا عبد الله إخوانك تَقْدُمُ عليهم غدا ، فبكى وقال : أمَا إنه ليس بي جزع ولكن ذكرتموني أقوامًا وسمَّيتم لي إخوانا ، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هي ، وإني أخاف أن يكون ثواب ماتذكرون من تلك الأعمال ماأوتينا بعدهم (١) .

لقد فزع خباب رضي الله عنه وبكى من النعمة التي أوتيها مع أنها من خالص الحلال خشية أن يكون قد عُجِّل له بعض ثواب عمله الصالح ، وفي هذا دلالة على شدة خشيته من الله تعالى، وعظمة استحضاره للآخرة، حيث يخشى أن ينتقص أجره بما تقدم من نعمة في الدنيا ، وقد جرى ذلك من صحابة آخرين رضي الله عنهم، وهذا دليل على قوة إيمانهم وحرصهم الشديد على السلامة في الآخرة ورفعة الدرجات .

وإذا كان خباب قد فزع من تلك النعمة الحلال فكيف بمن يتقلَّبون في أنواعٍ من متاع الدنيا المكوَّن من كسب حرام أو مال مشتبه ؟!

من أخبار عائشة رضي الله عنها :

من ذلك ماأخرجه الحاكم من حديث أبي عمرو ذكوان مولى

---

(١) صفوة الصفوة ١/٤٢٧ .

عائشة رضي اللـه عنها : أن دُرْجًا (١) قَدِمَ إلى عمر مـن العراق وفيه جوهر، فقال لأصحابه : تدرون ماثمنه ؟ قالوا : لا، ولَمْ يدروا كيف يقسـمونه ، فقـال : تأذنون أن أبعث به إلى عائشـة لحُبٍّ رسول الله ﷺ إياها ؟ فقالوا : نعم ، فبعث به إليها فَفَـتَحتْه فقَالت : ماذا فُتِحَ على ابن الخطاب بعد رسول الله ﷺ اللهم لاتبقني لعطيته لقابل.

قال الحاكم : هذا حـديث صحيح على شرط الـشيخين إذا صح سماع ذكوان أبي عمرو ، ولم يخـرجاه ، وقال الذهبي : قلت : فيه إرسال (٢) .

ففي هذا الخـبر موقـفان : الأول في تصـرف أمير المؤمنين عـمر رضي الله عنه الحكيم ، وذلك حـينمـا ذهب فكره إلى بِرٍّ من يحبـه رسول الله ﷺ أكثر من غيره فتذكّـر عائشة رضي الله عنها، فاستأذن الصحابة رضي الله عنهم في إرسال ذلك الجـوهر إليها، وهذا موقف آخر يُذكَر له حيث لم يستبدّ برأيه مع كونه في عمل خيري، ومما يُذكَر له أيضًا في هذا التصرف أنه لم يراع في ذلك ابنتـه أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها ولم يدارها في ذلك ، بل خَلُص تفكيره لبِرٍّ من يحبها رسول الله ﷺ أكثر من غيرها .

والموقف الثاني : فـيما أبْدَتْه عائشـة رضي الله عنها من زهد في مظاهر الحـياة الدنيـا ، حـيث فزعت من رؤيـة ذلك الجوهر النفـيس وخشـيت على نفسهـا الفتنة به بدلا من أن تفـرح به حتى دعت على نفسها بذلك الدعاء ، وهذا مثال على كمال الزهد وقوة الإيمان .

---

(١) هو وعاء الجوهر .

(٢) المستدرك ٤/٨ .

ومن ذلك ماأخــرجه الإمــام أحمــد من حديث عبــد الله بن أبي مليكة عن ذكوان مولى عائشة رضي الله عنهــا أنه استأذن لابن عباس رضي الله عنهما على عائشة وهي تموت، وعندها ابــن أخيها عبد الله ابن عبد الرحمن ، فقال: هذا ابن عــباس يستأذن عليك وهو من خير بنيك، فقالت: دعني من ابن عــباس ومن تزكيته، فقــال لها عبد الله ابن عبــد الرحمن : إنه قارئ لكتــاب الله فقيــه في دين الله فأْذَني له فليسلِّم عليك وليــودعك، قالت : فأْذن له إن شئت، قــال: فأذن له فدخل ابن عــباس ثم سلم وجلس وقال: أبشــري ياأم المؤمنين فو الله مــابينك وبين أن يذهب عــنك كل أذًى ونصب- أو قــال: وصب- وتلقي الأحبة مــحمدًا ﷺ وحزبه - أو قال: أصــحابه- إلا أن تفارق روحك جسدك، فقالت: وأيضا، فقال ابن عباس: كنت أحب أزواج رسول الــله ﷺ إليه ولم يكن يحب إلا طيــبا ، وأنزل الله عــز وجل براءتك من فوق ســبع سمــاوات، فليس في الأرض مســجد إلا وهو يتلى فيــه آناء الليل وآناء النهار، وســقطت قلادتك بالأبواء فاحــتبس النبي ﷺ في المنزل والناس معه في ابتغائهــا- أو قال في طلبها- حتى أصــبح القوم على غــير مــاء فأنزل الله عــز وجل ﴿ **فتيمموا صعيدا طيبا** ﴾ الآية (١) فكان في ذلك رخصة للناس عامة في سببك، فوالله إنك لمباركة ، فقــالت: دعني ياابن عباس من هذا فو الله لوددت أني كنت نسيًا منسيًّا (٢).

(١) النساء / ٤٣ .

(٢) مسند أحمد ١/ ٣٤٩ .

فهذا مثال من خشية الله تعالى، وقوة استحضار الحياة الآخرة في القلب، فقد تناست أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كل فضائلها التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما والتي لم يذكر، ولم يبرز في فكرها إلا الحساب وأهوال الآخرة، وهذا دليل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين .

من أخبار زينب بنت جحش رضي الله عنها :

ومثل آخر من زهد أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أخرجه ابن سعد من حديث بَرْزَة بنت رافع قالت: لما خرج العطاء أرسل عمر إلى زينب بنت جحش بالذي لها، فلما أُدْخِلَ عليها قالت: غفر الله لعمر، غيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني، قالوا: هذا كله لك، قالت: سبحان الله !واستترت منه بثوب، وقالت: صبُّوه واطرحوا عليه ثوبا، ثم قالت لي: أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان، من أهل رحمها وأيتامها، حتى بقِيَتْ بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لك ياأم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حق، فقالت: فلكم ماتحت الثوب، فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهما، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم لايدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا، فماتت .

قال عبد الوهاب (١) في حديثه : فكانت أولَ أزواج النبي ﷺ لُحُوقًا به (٢) .

---

(١) يعني عبد الوهاب بن عطاء الذي روى عنه ابن سعد .

(٢) طبقات ابن سعد ٨/١٠٩ - ١١٠ .

فهذا موقف رفيع في الزهد والكرم من أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، حيث فزعت من ذلك المال الذي كان عطاءَها السنويِ ، وقد استترت من ذلك المال بثوب وكأنما صُوِّرت لها النار متمثِّلةً بذلك المال ، ولم يَقِرَّ لها قرار حتى فرَّقت ذلك المال على أقاربها، وأخيراً دعت على نفسها بعدم البقاء خشية الافتتان بالدنيا ، وهذا دليل على كمال الزهد والخشية .

من أخبار سلمان رضي الله عنه :

ومن أخبار زهد الصحابة رضي الله عنهم ماأخرجه الإمام الطبراني من حديث شقيق بن سلمة قال: دخلتُ أنا وصاحب لي إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فقال سلمان: لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن التكلف لتكلَّفْتُ لكم، ثم جاء بخبز وملح، فقال صاحبي: لو كان في ملحنا صعتر، فبعث سلمان بمِطْهرته فرهنها، ثم جاء بصعتر، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنَّعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قَنِعْتَ بمارزقك لم تكن مطهرتي مرهونة .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال: ورجاله رجال الصحيح غير محمد ابن منصور الطوسي وهو ثقة (١) .

فهذا مثال في الزهد والقناعة يقدمه صاحب من أكابر أصحاب النبي ﷺ .

لقد كان بإمكان سلمان رضي الله عنه أن يملك الكثير من المال، وأن يقدم لضيوفه الكثير من الطعام ، ولكنه كان يتصدق بعطائه ويأكل

---

(١) مجمع الزوائد ٨/ ١٧٩ .

متقشّفًا من عمل يده ، ويقدِّم لضيوفه ماتيسر له ليجعل من نفسه قدوة للتابعين في الزهد والقناعة .

ومع هذا الزهد البالغ فإنه لما حضره الموت كان يبكي من خشية الله تعالى كما رُوي عن ثابت البناني قال : لما مرض سلمان خرج سعد[1] من الكوفة يعوده ، فقدم فوافقه وهو في الموت يبكي ، فسلم وجلس وقال : مايبكيك ياأخي ؟ ألا تذكر صحبة رسول الله ﷺ ؟ ألا تذكر المشاهد الصالحة ؟

قال : والله مايبكيني واحدة من ثنتين : ماأبكي حيًّا بالدنيا ولاكراهية للقاء الله ، قال سعد : فما يبكيك بعد ثمانين ؟ قال : يبكيني أن خليلي عهد إليَّ عهدًا قال : « لِيكُنْ بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » وإنا قد خشينا أنا قد تعدينا [2] .

فهذا عجيب أن تبلغ الخشية عند سلمان رضي الله عنه إلى هذا الحد مع أنه الذي ضرب الأمثلة الرائعة في الزهد والورع، فهو الذي كان يسكن في بيت من الخوص وهو أمير المدائن !

إنه الإيمان القوي الذي يصنع العجائب ، حيث يصفو التفكير فيكون منطلقا نحو الآخرة ومافيها من حساب وجزاء فيتصور صاحبه أنه قد قصَّر في عمل الآخرة مع أنه قد بلغ درجات عالية في الكمال.

لقد كانت أقوال الرسول ﷺ وتوجيهاته الحكيمة ماثلة أمام أعين

---

(١) يعني سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٥٦ .

الصحابة رضي الله عنهم طوال حياتهم فكانت سدّاً منيعا يحول بينهم وبين التوغل في الدنيا .

لقد كانوا يسمعون منه ﷺ بوعي وإدراك وعزم أكيد على التنفيذ، ثم يطبقون حالاً ماسمعوا عمليا ، لايعتريهم الكسل، ولايدبُّ إلى حياتهم طول الأمل ، ولاتزيدهم سِنِيُّ العمر الطويلة إلا مضاعفةً في الخشية ومزيداً من العمل الصالح وترقِّيًا في مدارج التقوى والحذر من الفتن .

ومن أمثلة اتصافه باليقين المبني على قوة الخشية والرجاء ماأخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر بُقَيرةَ امرأة سلمان الفارسي رضي الله عنه قالت : لما حضر سلمان الموتُ دعاني وهو في عِلِّية لها أربعة أبواب، فقال: افتحي هذه الأبواب يابقيرة فإن لي اليوم زواراً لاأدري من أي هذه الأبواب يدخلون علي، ثم دعا بِمِسْك له ثم قال: أديفيه في تَوْر (١) ، ففعلتُ ، ثم قال: انضحيه حولَ فراشي، ثم انزلي فامكثي فسوف تَطَّلعين فترَيْني على فراشي، فاطَّلعت فإذا هو قد أُخِذَ روحُه فكأنه نائم على فراشه- أو نحواً من هذا - (٢) .

ففي هذا الخبر يخبر سلمان رضي الله عنه بقرب مجيء الملائكة عليهم السلام لقبض روحه، ويستقبل هذا الحدث المترقب بفرح واستبشار ، وهو مثل من عمق اليقين وبروز أحداث الآخرة في أذهان الصحابة رضي الله عنهم .

---

(١) أديفيه أي اخلطيه ، والتور إناء يوضع فيه الماء .

(٢) حلية الأولياء ١/٢٠٨ ، وانظر سير أعلام النبلاء ١/٥٥٣

فكم من الناس يحضره ملائكة الموت لقبض روحه وهو ساه لاه في دنياه، يضرب بفكره في طول الأرض وعرضها، وكأنه آمِنٌ من ملك الموت، أو كأنه يعيش في دار خلود.. ألا وإن دار الخلود هي التي نسيها ولها عنها بمطالب دار فانية.

وإذا كان كثير من الناس على هذه الشاكلة فإن صحابة رسول الله ﷺ لم يكونوا كذلك، بل كانوا ينظرون إلى الآخرة كَجَبَلٍ عظيم شاهق يُساق الناس إليه بما فيه من نعيم وجحيم، وهم في مسيرهم قد طمحت أبصارهم لذلك الجبل متناسين مايمرون به في طريقهم من رياض تُمتِّع أنظارهم، غير مبالين بما يفاجَئون به من حجارة وأشواك تُدمي أقدامهم.

ونجد سلمان رضي الله عنه وهو ينتظر ذلك اليوم الذي سيزوره فيه ملائكة الموت قد أعد شيئا من الطيب الفاخر الذي حرم منه نفسه ليقدمه لزائريه من رسل الله جل وعلا.. وهذا مظهر عالٍ من مظاهر اليقين ونفحة من شفافية الروح سَمَتّ حتى ظهرت على مطالب الجسد، فأصبحت مطالب الجسد مسخَّرة لمطالب الروح.

من أخبار ثابت بن قيس رضي الله عنه:

ومن ذلك ماأخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ [**الحجرات**: ٢] جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ فسأل

النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال : ياأبا عمرو ماشأن ثابت أَشْتكَى ؟ قال سعد : إنه لَجَاري وماعلمت منه بشكوى، قـال : فأتاه سعد فذكر له قول الـنبي ﷺ فقـال ثابت : أُنزلت هذه الآية ولقد علمـتم أني من أرفعكم صوتا عـلى رسول الله فأنا من أهل النار ، فذكـر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ، : بل هو من أهل الجنة .

وفي رواية لمسلم من حـديث أنس قال : كان ثابـت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار . . وذكر نحوه (١) .

وجاء في رواية أبي عبد الله الحاكم لهذا الخبر أن النبي ﷺ قال: ياثابت ألا ترضى أن تعيش حميدا وتقـتل شهيدا وتدخل الجنة؟ قال : بلى يارسول الله ، فعاش حميدا وقُتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب.

وقال الحـاكم : صحيح على شرط الـشيخين ولم يخرجـاه بهذه السياقة ، وأقره الذهبي (٢) .

وهكذا بلغت الخشـية بثابت بن قيس بن شـماس إلى حد المرض مع أنه لم يكن مقصـودا بتلك الآية ، ولكن لَمَّا كان خطيب النبي ﷺ في المناسبات خشي أن يكون رَفَع صوته فوق صوته فأصابه ما أصابه، وهذا دليل على قوة إيمانه وشـدة استحـضاره للحياة الآخـرة، وكانت تلك الخشية من ثـابت وماتبعها من تأثره سببـا في حصوله على تلك البشارة الغالية من رسول الله ﷺ .

---

(١) صحيح مسلم ، الإيمان رقم ١١٩ ص ١١٠ .

(٢) المستدرك ٣/ ٢٣٤ .

من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

وعن حمزة بن عبد الله بن عمر رحمه الله ورضي عن أبيه وجده عن عبد الله بن عمر قال: خطرت هذه الآية﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [**آل عمران**: ٩٢] فتذكرت ماأعطاني الله فما وجدت شيئًا أحب من جاريتي رميثة، فقلت: هذه حرة لوجه الله، فلولا أني لاأعود في شيء جعلته لله لنكحتها، فأنكحها نافعا وهي أم ولده(١).

فهذا مثل من الإسراع في فعل الخيرات وتطبيق التوجيهات الإلهية وإن كانت من النوافل التي تقاوم رغبات النفس وأهوائها .

وهكذا يحلق السابقون بالخيرات في أجواء عالية من الاستقامة ونسيان الذات في سبيل السمو نحو تطبيق الأهداف العليا للإسلام.

إن هوى النفس يظل مسيطرا على سلوك الإنسان مادام فكره يدندن حول المستقبل الدنيوي، ولكن حينما يكون المستقبل الأخروي هو الذي يشغل فكر الإنسان فإنه يتنازل طوعا واختيارا عن كثير من هواه ليحول ذلك إلى عمل صالح يرفع رصيده في الحياة الآخرة .

ومن ذلك مارواه الحافظ أبو نعيم من حديث قزعة قال : رأيت على ابن عمر ثيابا خشنة - أو جشبة - (٢) فقلت له: ياأبا عبدالرحمن إني أتيتك بثوب ليِّن مما يُصنع بخراسان، وتقرُّ عيناي أن أراه عليك، فإن عليك ثيابا خشنه - أو جشبة - فقال : أرِنيه حتى أنظر إليه قال: فلمسه بيده وقال : أحريرٌ هو ؟ قلت : لا إنه من قطن، قال: إني

---

(١) صفة الصفوة ١/٥٦٨ .

(٢) أي غليظة .

أخاف أن ألبسه، أخاف أن أكون مختالا فخورا، والله لايحب كل مختار فخور (١).

وهكذا ترك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ذلك اللباس مع أنه مباح خشية مشابهة أهل الفخر والخيلاء ، وفضَّل البقاء على لباسه الخشن لأنه أقرب إلى الزهد والتواضع .

ومن مواقفه رضي الله عنه في الخشية من الله تعالى ماروواه الإمام أحمد من حديث البراء بن سليم قال: سمعت نافعا يقول: ماقرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى ﴿ **وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ** ﴾ [**البقرة**: ٢٨٤] ثم يقول : إن هذا لإحصاء شديد (٢) .

وهذا يعتبر مثلا عاليا في تدبر كتاب الله عز وجل وحضور القلب معه وشدة الخشية منه بالرغم من تكرر تلاوته كثيرا ، وإن من يتصور حقيقةً أن الله تعالى سيحاسبه على مايُخفي ويعلن فإن خوفه من الله تعالى يعظم ومحاسبته لنفسه تشتدّ .

ومثل آخر رواه هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال: وجاء سائل إلى ابن عمر فقال لابنه : أعطه دينارا ، فلما انصرف قال له ابنه: تقبل الله منك ياأبتاه ، فقال : لو علمت أن الله يقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إليَّ من الموت ، أتدري ممَّن يتقبل ؟ إنما يتقبَّل الله من المتقين (٣) .

---

(١) الحلية ١/٣٠٢ .

(٢) صفة الصفوة ١/٥٧٦ .

(٣) صفة الصفوة ١/٥٨٦ .

وواضح أن مقصود ولد عبد الله بن عمر هو الدعاء لا الخبر، والدعاء جائز بل مطلوب من المسلم لأخيه، ولكن من شدة خشية ابن عمر من الله تعالى فإنه قارن حالاً بين التقوى وقبول العمل، فخشي أن لايكون من المتقين .

وهذا تواضع عظيم منه حيث لم يعتبر نفسه من المتقين مع أنه من أئمَّتهم حيث إنه من السابقين بالخيرات، واستحضار سريع لكتاب الله تعالى ومافيه من هداية وبيان، وإنما يدل على كثرة تلاوة كتاب الله تعالى مع التدبر لمعانيه .

وهذا منهج بليغ في التربية حيث يشدُّ سامعيه إلى بذل الجهد للوصول إلى درجة المتقين ليتقبَّل الله تعالى أعمالهم الصالحة .

وفيه فهم دقيق لمهمة المسلم في هذه الحياة، حيث أحب الانتقال إلى الآخرة لوضمن أنه الله تعالى تقبَّل منه عمله الصالح، ولكنه يواصل العمل عَلَّهُ يظفر بقبول من الله جل وعلا .

ومثل آخر رواه سمير الرياحي عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ماء مُبَرَّدًا فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له : مايبكيك ؟ فقال : ذكرت آية في كتاب الله عز وجل ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ** ﴾ [سبأ: ٥٤] فعرفت أن أهل النار لايشتهون شيئًا شهوتهم الماء وقد قال الله عز وجل - يعني عن أهل النار ﴿ **أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ** ﴾ [الأعراف: ٥٠] (١).

---

(١) صفة الصفوة ١/٥٧٨ .

وهو واقع مؤثر يدل على يقظة الضمير وصدق تمثُّل معاني الإسلام في النفوس .

إن صاحب القضية الذي يعيش لأجلها لابد أن يبرزها في كل مناسبة ، وإن القضية التي كانت تهيمن على حياة ابن عمر هي الحياة الآخرة ومافيها من مشاهد أهل الجنة وأهل النار .

فحينما جيء له بالماء المبرَّد تذكَّر حالاً عذاب أهل جهنم وقول الله تعالى ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ** ﴾ وقوله عنهم ﴿ **أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ** ﴾ فتذكر أن أشهى شيء إلى أهل النار هو الماء، فحصل له ماحصل من هذا التأثر والبكاء الشديد .

وذكر ابن الجوزي خبرًا عن سفيان قال: أراد ابن عمر مرة الصَّدَر من مكة فاتَّخذ له ابن صفوان سفرة - يعني طعامًا لسفره- من نقيٍّ وفالوذج وأخبِصَة - يعني ألوانًا من الطعام الفاخر - وبعث بها إليه، فأُتيَ بها ، فلما نظر إليها بكى وقال : ماهكذا كنا ، ماشبعت منذ أسلمت ، وأمر بها فقسمت على أهل الماء ، ودعا بسفرته وقال: لا خير إلا فيما يبقى نفعه غدا (1) .

الله أكبر ماأعظمه من موقف !

إذا كنت يا ابن عمر تبكي لرؤية مظاهر الدنيا وشيء من حياة الترف فلَكَمْ بكى أناس حسرة على الحرمان منها !

ولكن ماأبعد الفرق بين مطلبك الأسمى ومطالب هؤلاء الدَّنِيَّة !

إنه يمثِّل البُعْد الشاسع بين منزلة الآخرة ومنزلة الدنيا .

---

(1) صفوة الصفوة 1/ 575 .

وإذا كان أبناء الدنيا من أجلها يعملون ومن أجلها يفرحون ويحزنون ، فهنيئًا لك يا ابن عمر أن حَظيتَ بتوفيق الله تعالى لتكون من عباد الله المخلصين الذين وضعوا نُصْب أعينهم في هذه الحياة ذلك الهدف الأعلى ، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

من أخبار سعيد بن عامر بن حِذْيَم رضي الله عنه :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عبد الرحمن بن سابط قال: دعا عمر بن الخطاب رجلا من بني جمح يقال له سعيد بن عامر بن حذيم فقال له : إني مستعملك على أرض كذا ، فقال له : لاتفتنِّي ياأمير المؤمنين فقال : والله لاأدعك ، قلدتموها في عنقي وتركتموني ، فقال عمر - يعني بعد أن ولاه على عمله - : ألا نفرض لك رزقا ؟ قال: قد جعل الله في عطائي مايكفيني دونه - أو فضلا على ماأريد - .

قال : وكان إذا خرج عطاؤه ابتاع لأهله قوتهم وتصدق ببقيته، فتقول امرأته : أين فضل عطائك ؟ فيقول لها : قد أقرضته، - يعني بذلك الصدقة - فأتاه ناس فقالوا : إن لأهلك عليك حقا ولأصهارك عليك حقا ، فقال : ماأنا بمستأثر عليهم ولابملتمس رضا أحد من الناس لطلب الحور العين ، ولو اطلعت خَيْرة من خيرات الجنة لأشرقَتْ لها الأرض كما تشرق الشمس ، ومــاأنا بمتخلف عن العُنُق الأول بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول « يجمع الله عز وجل الناس ليوم الحساب فيجئ فقراء المؤمنين فَيَزِفُّون كما يَزِفُّ الحمام- يعني يسرعون - فيقال لهم : قفوا عند الحساب فيقولون : ماعندنا

حساب ولا آتيتمـونا شيئًا (١) ، فيـقول لهم ربهم : صدق عـبادي ، فيفتح لهم باب الجنة فيدخلونها قبل الناس بسبعين عاما » .

فبلغ عمـرَ أنه يمر به كذا وكذا لايدخّن في بيته فأرسل إلـيه عمر بمال، فأخذه فصـرّره صررا فتصدق به يمينا وشمـالا ، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « لو أنّ حوراء أَطْلَعت إصبعا من أصابعها لوجد ريحـها كل ذي روح » فـأنا أدعهـن لكنّ ! ، فوالله لأنتن أحـرى أن أدَعكُنَّ لَهُنَّ منهنَّ لَكُنَّ (٢) .

وعن مالك بن دينار قال : لما أَتَى عمر رضي الله عنه الشام طاف بكُورَها - يعني قراها - قال: فنزل بحضرة حـمص فأمر أن يكتبوا له فقراءهم ، قال : فَرُفع إليه الكتاب فإذا فـيه سعيد بن عامر بن حِذْيَم أميرها ، فقال : من سعيد بن عامر ؟ قالوا : أميرنا ، قال: أميركم؟ قالوا : نعم ، فعجب عمر ، ثم قال : كيف يكون أميركم فقيرا؟ أين عطاؤه ؟ أين رزقه ؟ (٣) .

قالوا : ياأمير المؤمنين لايمسك شيئًا ، قال : فبكى عمر، ثم عمد إلى ألف دينار فـصرها ثم بعث بهـا إليه وقـال : أقرئوه مني الـسلام وقولوا : بعث بـهذه إليك أميـر المؤمنين تستـعين بها على حـاجتك، قال: فـجاء بـها إليـه الرسول فنظر فـإذا هي دنانير ، قـال: فجـعل

---

(١) في الإصابة لابن حجر من رواية أبي يعلى والحسن بن سفـيان والبغوي « والله ماكان لنا شيء نحاسب عليه » - ٢/٤٧ - .

(٢) حلية الأولياء ١/٢٤٦ ، صفة الصفوة ١/ ٦١١ .

(٣) العطاء هو الذي يشتـرك فيه جميع أفراد الأمـة ، والرزق هو المال الذي يأخذه الولاة مقابل التفرغ للولاية .

يسترجع، قال: تقول امرأته : ماشأنك يافلان أمات أمير المؤمنين ؟ قال: بل أعظم من ذلك ، قالت : فما شأنك ؟ قال : الدنيا أتتني، الفتنة دخلت علي ، قالت : فاصنع فيها ماشئت ، قال : عندك عون؟ قالت : نعم قال : فأخذ دريعة - يعني ثوبا - فصرَّ الدنانير فيها صرارا ، ثم جعلها في مخلاة ، ثم اعترض جيشا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها ، فقالت امرأته : رحمك الله لو كنت حبست منها شيئا نستعين به ، قال : فقال لها : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو اطَّلعَت امرأة من نساء الجنة إلى أهل الأرض لَمُلأَتْ ريح مسك، وإني والله ماكنت لأختارك عليهن، فسكتَتْ (١) .

من أخبار أبي سعيد الخدري رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أصبحت وليس عندنا طعام وقد ربطت حجرا من الجوع، فقالت لي امرأتي : ائت رسول الله ﷺ فاسأله فقد أتاه فلان فسأله فأعطاه، وأتاه فلان فسأله فأعطاه، فقلت: لا حتى لا أجد شيئا، فطلبت فلم نجد شيئا فأتيت النبي ﷺ وهو يخطب، فأدركت من قوله: « من يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله » قال: فما سألت أحدا بعده، ومازال الله يرزقنا حتى ماأعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا، رضي الله عنه (٢) .

فهذا مثل من العفة عن المال مع الضرورة إليه طلبا لرضوان الله

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٦٦٤ .

(٢) صفة الصفوة ١/ ٧١٥ ، وقول النبي ﷺ أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٤ .

تعالى، ومثل من اليقين والثقة بوعد الله جل وعــلا، فأبو سعيد سعد ابن مالك الخدري رضي الله عنه مــاأن سمع كلام النبي ﷺ في الحث على العفة وما اشتمل عليه من الوعد بإغناء الله سبحانه للعبد المحتاج واعفافه برزق من عنده إذا هو أعف نفســه عن المسألة حتى ترك ماكان عازما عليه من ذلك واستمر على تلك العفة حتى رأى تحقق وعد الله جل وعلا فيه، فكان بعد ذلك من الأغنياء .

من أخبار سهيل بن عمرو رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجــوزي عن ابن قمادين قال: لم يــكن من كبراء قريش الذين تأخر إسلامهم فأسلموا يوم فتح مكة أكثر صلاة ولاصوما ولاصدقة ولاأقبــل على مايعنيه من أمر الآخرة من سهــيل بن عمرو، حتى إن كــان لقد شــحب لونه، وكان كثــير البكاء رقــيقــا عند قراءة القرآن، لــقد رئي يختلــف إلى معاذ بن جــبل يقرئه القــرآن وهو بمكة حتى خرج معاذ من مكة فقال له ضرار بن الخطاب: ياأبا يزيد تختلف إلى هذا الخــزرجي يقرئك القــرآن؟ ألا يكون اختــلافك إلى رجل من قومك من قــريش ؟ فقــال :ياضرار هذا الذي صنع بنا مــاصنع حتى سبــقنا كل السبق، أي لعــمري أختلف إليــه، لقد وضع الإســلام أمر الجاهلية، ورفع الله بالإسلام قوما كانوا لايذكرون في الجاهلية، فليتنا مع أولئك فتقدمنا (١).

فهذا الخــبر يحتوي على قبس من نور الهــداية بعد ظلام الغواية، فلقد كان أبو يزيد ســهيل بن عمرو بن عبــد شمس القرشي من أعظم

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٣١ - ٧٣٢ .

المناوئين للإسلام قبل فتح مكة، وهو الذي أبرم شروط الصلح الجائرة على المسلمين يوم الحديبية ، ولكنه بعدما اهتدى إلى الإسلام تحول إلى إنسان آخر . . لقد كان الهدف الذي يسعى له قبل أن يسلم هو أن يكتسب شيئا من مجد الدنيا وعزها، ولم يكن يؤمن بالآخرة حتى يحسب لها حسابا، وكان من أجل المجد الدنيوي يقف ضد دعوة الإسلام بإصرار وشدة ، لأن الإسلام في نظره - يحجب عنه المنزلة الاجتماعية العالية التي وصل إليها، ولكنه بعد أن أسلم أدرك أن الهدف الأعلى للإنسان هو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية، وعرف أن الدنيا بما فيها من مال ومجد ماهي إلا معبر للآخرة، فأدرك بثاقب بصره أن الاشتغال بالدنيا عن الآخرة حماقة وطيش، وأن العقل السليم يقتضي منه أن يشتغل بالغاية، وأن يسخر لها الوسيلة ، فكان مكبا على الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وصدقة وجهاد، حتى مات شهيدا يوم اليرموك رضي الله عنه .

ومن قوة دينه ورسوخ يقينه أنه لم يلتفت للعصبية القبلية، فجعل من نفسه وهو الكبير السن والمنزلة في قومه تلميذا لأحد شباب الأنصار يعلمه القرآن، ولما اعترض عليه في ذلك ضرار بن الخطاب أبان له بأن تلك التفرقة القبلية والاعتزاز بالقوم من أمر الجاهلية، وأظهر فضل السابقين إلى الإسلام وإن كانوا مملوكين فضلا عن أن يكونوا من قبائل أخرى .

من أخبار عبد الله بن السعدي رضي الله عنه :

ومن ذلك ماأخرجه الإمام البخاري من حديث حويطب بن

عبـدالعزى رضي الله عنه أن عـبد الله بن السعـدي رضي الله عنه(١) أخبره أنه قدم على عمر رضي الله عنه في خـلافته فقال له عمر: ألم أحدَّث أنك تلي من أعمال الناس أعمالا فإذا أُعطيت العُمالة كرهتها؟ فقلت : بلى ، فـقال عمر : ماتريد إلى ذلك؟ قـلت: إن لي أفراسًا وأعبدا وأنا بخير، وأريد أن تكون عـمالتي صدقة على المسلمين، قال عـمر: لاتفـعل فـإني كنت أردت الذي أردت فكان رسـول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول : أعطه أفقـر مني حتى أعطاني مرة مالا فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال النبي ﷺ : « خذه فتموَّله وتصدق به، فما جاءك من هذا المال - وأنت غـير مشرف ولاسائل- فـخذه، وإلا فلا تتبعه نفسك » (٢) .

فهذا من أمثلة العفة ، حيث كان عبد الله بن السعدي رضي الله عنه يعمل للمسلمين أعمالا يستحق عليها الأجرة، ثم يأبى أن يأخذها ليكون أجره الأخروي كاملا، فأرشده أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إلى مـاأرشده إليـه النبي ﷺ ، حيث يجـمع بين عملين صـالحين : التعفف عن مال المسلمين العام ، والتصدق به على الفقراء .

من أخبار الأمم الماضية :

من ذلك ماذكره وهب بن منبه اليماني قال: أتَى رجل من أفضل أهل زمانه إلـى ملك كان يفتن الناس على أكل لحم الخنزير ، فـأعْظَمَ

(١) هو من بني عبد شمس العامري القرشي وإنما قيل له السـعدي لأنه كان مسترضعا في بني سعد (الفتح ١٣/ ١٥١) .

(٢) صحيح البخاري رقم ٧١٦٣ ، الأحكام (١٣ / ١٥٠) .

الناس مكانه وهالَهم أمره ، فقال لـه صاحب شرطة الملك - سرّاً بينه وبينه - : أيها العالم اذبح جديًا ممـا يحل لك أكله ثم ادفعه إليَّ حتى أصنعه لك على حِدَته ، فإذا دعـا الملك بلحم الخنزير أمرتُ به فوُضع بين يديك فتأكـل منه حلالا ، ويرى الملك والناس أنك إنما أكلت لحم الخنزير ، فـذَبح ذلك العالم جـديًا ، ثم دفعـه إلى صاحب الشـرطة فصنعه له ، وأمر الطباخين إذا أمر الملك بأن يقدَّم إلى هذا العالم لحمُ الخنزير أن يضعوا بين يديه لحم هذا الجدي، واجتمع الناس لينظروا أمر هذا العـالم فـيـه ، أيأكل أم لا ! وقـالوا : إن أكل أكلنا وإن امـتنع امتنعنا، فجـاء الملك فدعا لهم بلحوم الخنازير فـوُضعت بين أيديهم، ووُضع بين يدَي العالم لحمُ ذلك الجدي الحلال المذكَّى .

فألهم الله ذلك العالم فألـقى في رُوعه وفكره، فقال : هبْ أني أكلت لحم الجدي الذي أعلم حلَّه أنا فماذا أصنع بمن لايعلم ؟ والناس إنما ينتظرون أكلي ليقتـدوا بي ، وهم لايعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنزير ، فـيـأكلون اقتـداء بي ، فـأكون مـمَّن يحـمل أوزارهم يوم القـيامـة، لاأفعل والله وإن قُـتلت وحُـرِّقت بالنار ، وأبَى أن يأكل، فجعل صاحب الشرطة يغمز إليه ويومئ إليه ويأمره بأكله ، أي إنما هو لحم الجدي ، فأبَى أن يأكل ، ثم أمره الملك أن يأكل فأبى فألحُّوا عليه فأبى ، فأمر الملك صاحب الشرطة بقتله .

فلما ذهبوا به ليقتلوه قـال له صاحب الشرطة : مامنعك أن تأكل من اللحم الذي ذكَّـيتَـه أنت ودفعـتَه إلي ؟ أظننت أني أتيـتك بغـيره وخُنتك فيمـا ائتمنتني عليه ؟ ماكنت لأفعل والله ، فـقال له العالم :

قد علمت أنه هو ولكن خفت أن يتأسى الناس بي ، وهم إنما ينتظرون أكلي منه ولايعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنزير وكذلك كل من أريد على أكله فيما يأتي من الزمان يقول : قد أكله فلان ، فأكون فتنةً لهم ، فقُتل رحمه الله [1] .

فهذا الخبر من روائع الأخبار التي حفظها وهب بن منبه اليماني رحمه الله تعالى عن أهل الكتاب ، ورواية هذا الخبر وأمثاله جائزة لقول رسول الله ﷺ « حدِّثوا عن بني إسرائيل ولاحرج » [2] ولكونه موافقا لما جاء في شريعة الإسلام .

وقد كان وهب بن منبه من أوعية العلم ، ومن أهل الصلاح والعبادة ، وهو من التابعين .

أما ذلك العالم الرباني الذي أخبر عنه وهب فقد كانت همته متوجهة إلى الآخرة وإلى تذكُّر موقفه للحساب بين يدي الله تعالى، فقد تذكَّر أن الله تعالى سائله عن تلك الأمة التي ستقتدي به وسترتكب الإثم بسببه ، فحالفه توفيق الله تعالى وهداه عقله السليم إلى أن النجاة من عذاب الدنيا مطلب رخيص لأنه لا يعادل ذرة من عذاب الآخرة ، وأن سعادة الدنيا لاتعدل ذرة من سعادة الآخرة، فقرر الامتناع من أكل ذلك اللحم مع يقينه بأنه من اللحم الحلال ، حتى لايفتن الناس في عصره ومن يأتون بعد ذلك، حيث إنه سيظهر للناس أنه قد أكل لحم الخنزير .

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٤ .

(٢) صحيح البخاري ، أحاديث الأنبياء ، رقم ٣٤٦١ (٦/ ٤٩٦) .

وهذا مثل رفيع في الورع والخشية ، وذلك مبني على المحافظة على استقامة الناس وهدايتهم ، وهذا مطلب مهم في الإسلام .

هذا وإن الورع من أفضل العبادات كما جاء في قوله رسول الله ﷺ « ياأبا هريرة كن ورعًا تكن أعبد الناس » أخرجه الإمام ابن ماجه، وقال البوصيري : إسناده حسن (١) .

من أخبار أبي مسلم الخولاني رحمه الله :

من الأخبار الواردة في ذلك ماذكره الحافظ أبو نعيم في ترجمة أبي مسلم الخولاني رحمه الله تعالى من حديث عثمان بن عطاءٍ عن أبيه قال : كان أبو مسلم الخولاني إذا انصرف إلى منزله من المسجد كبَّر على باب منزله فتكبِّر امرأته ، فإذا كان في صحن داره كبر فتجيبه امرأته وإذا بلغ باب بيته كبر فتجيبه امرأته ، فانصرف ذات ليلة فكبَّر عند باب داره فلم يجبه أحد ، فلما كان في الصحن كبَّر فلم يجبه أحد ، فلما كان عند باب بيته كبر فلم يجبه أحد ، وكان إذا دخل بيته أخذَت امرأته رداءه ونعليه ، ثم أتته بطعامه ، قال: فدخل البيت فإذا البيت ليس فيه سراج ، وإذا امرأته جالسة في البيت منكِّسة تَنكُتُ بعودٍ معها ، فقال لها : مَالَكِ ؟ قالت : أنت لك منزلة من معاوية وليسَ لنا خادم ، فلو سألتَه فَأخْدَمَنَا وأعطاك ، فقال : اللهم من أفسد عليَّ امرأتي فأَعْمِ بصرها .

قال : وقد جاءتها امرأة قبل ذلك فقالت لها : زوجك له منزلة من معاوية ، فلو قلت له يسأل معاوية يُخدِمه ويعطيه عِشْتُمْ .

قال : فبينا تلك المرأة جالسة في بيتها إذ أنكرَتْ بصرها، فقالت:

(١) سنن ابن ماجه رقم ٤٢١٧ ، كتاب الزهد .

مالسـراجكم طَفِئَ ؟ قالوا : لا ، فعرفَتْ ذنـبها فأقـبلَتْ إلى أبي مسلم تبكي وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها أن يرد عليها بصرها .

قال : فرحمها أبو مسلم فدعا الله لها فردَّ عليها بصرها (١) .

أبو مسلم الخولاني هو عبد الله بن ثُوَب الخـولاني اشتهر بكنيته ، كان مُجَـاب الدعوة ، وأبرز مواقفه وقوفـه أمام الأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة ، فأوقد له العنسي نارا وألقـاه فيها فلم تَضرَّه ، وهذه من الكرامات المشهورة (٢) .

وقد جـاء في هذا الخبـر أن أبا مسلم إذا انصرف إلى بـيته كـبَّر ، وهكذا يكون حـضور القـلب الصادق مع الله تـعالى ، فـإيذانه أهله بحضورِه تكبيرٌ لله تعالى ، وكأنه يُشعِر أهله ومن في بيته بأن الله تعالى أكبر من كل شيء فلا يليق بالمسلم أن يَشْغَله عن الله تعالى شيء ، وما الذكر اللسـاني إلا تنبيـه للقلب ليكون معـمورا بذكـر الله جل وعلا واستشعار عظمته وجـلاله ، وما وصل السابقون بالخيرات إلى ماصلوا إليه إلا بمحاولة استدامة حضور القلب مع الله تعالى .

وكان أبو مسلم يعـيش عيشة الزهد والقناعة وكـان قد ربَّى امرأته على هذه العيشة ، فلا خادم عنده ولايهـتم بشيء من كماليات الحياة التي قد يصرفه الاشـتغال بها عما هو أجل وأعلى وهو اسـتدامة ذكر الله عز وجل والاجتهاد في عبادته .

---

(١) حلية الأولياء ٢/١٢٩ .

(٢) وقد ذكـر خبـره هذا في المواقف الأخلاقيـة من هذا الكتاب/ مـواقف في الشجـاعة والجرأة/ من مواقف أبي مسلم الخولاني .

لقد كان زاهدا في الدنيا مع مقدرته على اكتسابها والتوسع فيها، وظلت امرأته معه في تلك الحياة سامعة له مطيعة إلى أن أنكر منها ذلك التصرف الذي طلبت فيه التوسع في المعيشة وتوفير الخادم لها مادام له حَظْوة عند أمير المؤمنين .

لقد أدرك أبو مسلم حالاً أن امرأةً من ذوات الكيد والإفساد قد دخلت بيته فأفسدت عليه أهله، حيث حولّتْ قناعتها ورضاها بذلك العيش المتواضع إلى سخط وتضجر ومطالبة برفع مستوى المعيشة حين تبين لها أن زوجها قادر على ذلك .

ولم يكنٍ عند أبي مسلم سلاح يلجأ إليه إلا دعاء الله تعالى على من ظلمه وغيَّر عليه أهله ، فدعا على المرأة التي فعلت ذلك بالعَمَى، فقد أفسدَتْ عليه بيته ، ولعلها أن تفسد بيوت آخرين من أصحابه الزهاد ، فيكون بذلك قد كفً شرها وشر غيرها ممن يبلغه خبرُها فيعتبُر بها ويكفُّ عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات .

وأصابت دعوته تلك المرأة ففقدت بصرها فجأة وأدركت سوء فعلها ، كما تذكرت في الحال صلاح أبي مسلم فتبادر إلى ذهنها أنه قد دعا عليها .

وهكذا كانت هذه العقوبة التي نالتها تلك المرأة تذكيرًا لها وعبرة لغيرها ممن يسيرون على ذلك الطريق .

ومن صفاته العالية عفة اللسان والزهد في الدنيا والنظر إلى الآخرة، ومن أخباره في ذلك مارُوي عن علقمة بن مرثد قال : انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين ، منهم أبو مسلم الخولاني فإنه لم يكن

يجالس أحـداً يتكلم في شيء من أمـر الدنيا إلا تحوَّل عـنه ، فدخل ذات يوم المسجد فنظر إلى نفر قد اجتمعوا ، فَرَجَا أن يكونوا على ذكر الله تعالى ، فجلس إليـهم وإذا بعضهم يقول : قدم غـلامي فأصاب كذا وكذا ، وقال آخر جهزت غلامي ، فنظر إليهم وقال: سبحان الله أتدرون مامثلي ومـثلكم ؟ كمثل رجل أصابه مطر غـزير وابل فالتفت فإذا هو بمصـراعين عظيمين فقال : لو دخلت هذا البـيت حتى يذهب هذا المطر ، فدخل فإذا البيت لاسقف له . . جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكر وخير فإذا أنتم أصحاب دنيا .

وقال علقمة بن مرثد في وصف عبادته ومداومته على صيام النفل في كبـر سنه : وقال له قائل حـين كبُر ورَقَّ : لو قـصرت عن بعض ماتصنع ، فـقال : أرأيتم لو أرسلتم الخـيل في الحلَبة ألسـتم تقولون لفارسها : دعها وارفق بها حتى إذا رأيتم الغاية لم تستَبْقُوا منها شيئا؟ قالوا : بلى ، قال : فإني قد أبصـرت الغاية ، وإن لكل ساعة غاية، وغاية كل ساعة الموت ، فسابق ومسبوق (١) .

وهكذا كان هذا العابد الصالح يشق على نفـسه بكثرة الصيام مع كبـر سنه ولما لامه في ذلك المشـفقون علـيه أقنعهم بهـذا المثل البليغ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

من أخبار سالم بن عبد الله رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة سالم بن عبد الله بن

---

(١) صفة الصفوة ٤/١٠٩ .

عمـر بن الخطاب رحمـه الله ورضي عن أبيه وجـده، قال: ولما حج هشام بن عبد الملك-يعني يوم أن كان أمـير المؤمنين- دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال: ياسالم سلني حـاجة، فقال: إني لأستحيى من الله أن أسأل في بيتـه غيره، فلما خرج سـالم خرج هشام في أثره فقال له: الآن قد خرجت من بيت الله فـسلني حاجة، فقال سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قال: من حوائج الدنيا، فقال سالم: إني ماسألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لايملكها ؟! (١).

فهذا مثل من تواضع أمير المؤمنـين هشام بن عبد الملك حيث كان يتفـقد أهل العلم ويسأل عـن حوائجهم ليـقضيـها ، وهذا دليل على فضله وأخلاقه العالية .

ومثلٌ من الزهد البليغ والورع الدقيق يقدمه الفقيه العالم سالم بن عبد الله بن عمر، فهو من زهده في الدنـيا لم يسأل الله تعالى شيئا منها، وهو سبـحانه المالك لكل شيء فكيف يسألهـا غيره؟ وهذا دليل على قوة إيمانه ورسـوخ يقينه ، حيث كان الهـدف الأعلى من وجود الإنسان في هذا الحـياة واضـحا أمامـه ، ألا وهو ابتغـاء رضوان الله تعالى والجنة ، كمـا قال الله جل وعلا في صفـة الصحابة رضي الله عنهم ﴿ **يبـتغـون فـضـلا من الله ورضـوانا** ﴾ ففـضل الله هو الجنة، ورضوانه أكبر من ذلك .

من أخبار طاوس بن كيسان رحمه الله :

ممن اشتهروا بالـعفة والورع طاوس بن كيسان اليمـاني رحمه الله

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٤ .

تعالى، ومن أخباره في ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر النعمان ابن الزبير الصنعاني: أن الأمير محمد بن يوسف -أو أيوب بن يحيى- بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار، وقال للرسول إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك .

قال : فخرج بها حتى قدم على طاوس الجند[1]، فقال: ياأبا عبدالرحمن نفقة بعث بها الأمير إليك، فقال: مالي بها من حاجة، فأراده على أخذها بكل طريق فأبى أن يقبلها، فغفل طاوس فرمى بها الرجلُ من كُوَّة في البيت ثم ذهب راجعًا إلى الأمير وقال: قد أخذها، فمكثوا حينا، ثم بلغهم عن طاوس مايكرهون- أو شيء يكرهونه- فقالوا: ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا، فجاءه الرسول فقال: المال الذي بعثه إليك الأمير رُدَّه إلينا، فقال: ماقبضت منه شيئا، فرجع الرسول إليهم فأخبرهم، فعرفوا أنه صادق، فقالوا: انظروا الذي ذهب بها إليه ، فأرسلوه إليه ، فجاءه فقال: المال الذي جئتك به ياأبا عبدالرحمن ، هل قبضت منه شيئا؟ قال: لا، قال: فقام إلى المكان الذي رمى به فوجدها كما هي وقد بنت عليها العنكبوت، فأخذها فذهب بها إليهم [2].

وهكذا تحلَّى هذا العالم الجليل بالعفة والورع، فأبى أن يأخذ من ذلك المال الذي أراد به ذلك الأمير شراءه ليكسب ولاءه له، وإذا كسب ذلك فإنه سيظفر بولاء الكثيرين ممن يحبون ذلك العالم ويحترمونه ، ولكن ذلك الأمير رأى أن موقف طاوس لم يتغير، وأنه

(١) الجند جبل في اليمن ذكره ياقوت الحموي .

(٢) البداية والنهاية ٩/٢٤٦ - ٢٤٧ .

مازال يقف منه موقف الناقد المصلح، فأراد أن يحرجه بطلب ذلك المال، وهو الذي يعرف جيدا أن الإمام طاوس لن يدخر ذلك المال، وإنما سيقسمه على الفقراء، فكان الأمر على ماجاء في هذا الخبر ورجع الحرج على ذلك الأمير الذي انكشف قصده من إهداء ذلك المال، وهكذا يضرب علماء الإسلام أمثلة رائعة في الترفع عن الدنيا والسمو نحو رضوان الله جل وعلا ونعيم الآخرة .

من أخبار عبد الملك بن مروان رحمه الله :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن بشير عن أبيه : أن عبد الملك بن مروان حين ثقل[(١)] جعل يلوم نفسه ويضرب بيده على رأسه وقال: وددت أني كنت أكتسب يوما بيوم مايقوتني واشتغل بطاعة الله .

فذكر ذلك لأبي حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت مانحن فيه ولانتمنى عند الموت ماهم فيه [(٢)].

نعم فالعبرة بما يختم للإنسان فيه من عمل، ولقد أدرك عبد الملك ابن مروان أنه في أثناء إمارته وماقبلها قد سفك الدماء وظلم، ولما كان قد تربى على يد العلماء وحصل في شبابه علما كثيرا فإنه قد أدرك عند وفاته أن ماكان يعمل له هو المجد الدنيوي وقد زال، وأنه كان الأولى به أن يعمل للمجد الأخروي ولو كان مغمورا بسيط الحال يكتسب رزق كل يوم بيومه .

---

(١) أي نزل به مرض الموت .

(٢) تاريخ دمشق ٣٧/١٥٧ .

وفي كلمة أبي حازم سلمة بن دينـار رحمه الله تعالى دلالة على تفوق العلماء الربانيين في الرأي والحزم والتدبير .

من أخبار إبراهيم بن أدهم رحمه الله :

في بيان حقيقة الزهد يقول الحافظ ابن كثير في ترجمة إبراهيم بن أدهم الزاهد المشـهور : وقـال له رجل : هذه جبـة أحب أن تقبلـها مني، فقال: إن كنت غنيا قبلتها، وإن كنت فقيرًا لم أقبلها، قال: أنا غني . قـال: كم عندك؟ قـال : ألفـان، قـال: تود أن تكون أربعـة آلاف؟ قال :نعم ، قال : فأنت فقير، لا أقبلها منك (١).

وهذا تعليم جـيد مـن إبراهيم بن أدهم رحمـه الله تعـالى لذلك الرجل، حـيث يبين له أن الغنَى الحقـيقي هـو غنى القلب، وليس غنى الجيب، وقد جعل مقياس مـعرفة الغني الحقيقي بالقناعة، وذلك بأن لا يكون لدى الإنسان رغـبة في تضاعـف المال عنده، لأنه-والحال هذه- يكون قد سخَّر نفسه لماله، فأما حين يرغب في جمع المال لا لذاته وإنما لينفـقه في وجـوه الخيـر فإنه، يـكون قد سـخَّر مـاله، وهذا هو الغنى الحقيقي.

وفي حقيقة الزهد يقول إبراهيم بن أدهم : الزهد ثلاثة ، واجب ومستحب وزهد سلامة، فأما الواجب فالزهد في الحرام، والزهد عن الشهوات الحلال مستحب ، والزهد عن الشبهات سلامة (٢).

ومن أخباره في الزهد والتوكل على الله تعالى ماذكره الحافظ ابن كثيـر قال: وقال حذيفـة المرعشي: أويت أنا وإبراهيم-يعني ابن أدهم-

(١) البداية والنهاية ١٠/١٤١ .

(٢) البداية والنهاية ١٠/١٤١ .

إلى مسجد خراب بالكوفة، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئا، فقال لي: كأنك جائع، قلت: نعم، فأخذ رقعة فكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود إليه بكل حال المشار إليه بكل معنى.

أنا حامد أنا ذاكر أنا شاكر   أنا جائع أنا حاسر أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها   فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك وَهْجُ نارٍ خضتُها   فأَجِرْ عُبَيْدك من دخول النار

ثم قال لي: اخرج بهذه الرقعة ولاتعلّق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه، فخرجت فإذا رجل على بغلة فدفعتها إليه، فلما قرأها بكى ودفع إلي ستمائة دينار وانصرف، فسألت رجلاً: مَنْ هذا الذي على البغلة؟ فقالوا: هو رجل نصراني، فجئت إبراهيم فأخبرته فقال: الآن يجيء فيسلم، فما كان غير قريب حتى جاء فأكبَّ على رأس إبراهيم وأسلم (١).

ففي هذا الخبر مثل بليغ في التوكل على الله تعالى واستحضار عظمته في القلب، وإذا تجرد قلب المسلم لله جل وعلا، فذكره وحده وعظمه وحده، وأنزل به حاجته وحده فإنه سبحانه يسخِّر قلوب العباد لعبده المؤمن الموحد، فيفرجُ له من الكربات وييسر له من الأمور مالا يخطر على باله.

فتلك الرقعة المشتملة على كلمات هي من كمال التوحيد سخَّر الله تعالى بها قلب ذلك الرجل النصراني، فدفع ذلك المبلغ الكبير، ثم كان لها الأثر البالغ على نفسه حيث دخل قلبه الإسلام.

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤٣.

ولقد كـانت فراسـة ذلك العالم الرباني إبراهيم بـن أدهم قوية، حيث توقع مجيء ذلك النصراني لـيسلم، فكان كما توقع، وذلك لأن الذي يتأثر إلى حد البكاء وبذل ذلك المبلغ الكبير يغلب على الظن أن عقله السليم يقوده إلى هذا الدين الذي خرَّج رجالا موحدين مثل ابن أدهم .

من أخبار إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة رحمهما الله :

من أخبار الـورع عن الجاه والسمعـة ماذكره الحافظ ابن كـثير عن المدائني قال : بعث عمـر بن عبد العزيز عـديَّ بن أرطاة على البصرة نائبا ، وأمـره أن يجمع بين إياس [يعـني ابن معاوية] والـقاسم بن ربيعة الجوشني ، فأيهما كان أفـقه فليولِّه القضاء ، فقال إياس - وهو يريد أن لايتولى - : أيهـا الرجل سل فقـيهَي البصـرة : الحسن وابن سيرين ، وكان إياس لايأتيهما ، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به - يعني بالقـاسم - لأنه كان يأتيهـما ، فـقال القاسم لـعدي : والله الذي لاإله إلا هو إن إياسًـا أفضل مني وأفـقه مني وأعلم بالقـضاء ، فإن كنتُ صادقا فولِّه وإن كنت كاذبا فما ينبغي أن تُولِّيَ كاذبًا القضاء، فقال إيـاس : هذا رجل أُوقف على شفير جـهنم فافتدى منهـا بيمين كاذبة ، يستغفر الله ، فقال عدي : أمَا إذا فطنت إلى هذا فقد ولَّيتك القضاء (١) .

فهذا مـثل في الورع يقدمه هذان العالمان الجليـلان ، وقد غلَّبا - لشدة خوفـهما من الله تعالى - جانب السـلامة من المآثم على جانب

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٠ .

اكتساب العمل الصالح ، فإن القضاء وسائر الولايات يعتبر من الأعمال الصالحة لمن وُفق فيها إلى العدل والسلامة من الزلل، ولكنها مزلة قدم وباب من أبواب الفتنة لمن لم يقدر على العدل والوقاية من المآثم .

وقد ظهر في هذا الخبر مقدرة إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة على التخلص من ذلك الأمر لولا ماوُفق إليه أمير البصرة عدي بن أرطاة من إلزام إياس بالقضاء .

من أخبار محمد بن واسع رحمه الله :

من العلماء الربانيين المشهورين بالزهد والورع والخشوع الإمام الصالح العابد محمد بن واسع الأزدي : وسنبدأ بذكر شيء من أقواله النيِّرة في الزهد والورع واليقين ، فمن ذلك قوله « إني لأغبط رجلا معه دينه ومامعه من الدنيا شيء وهو راض » (١) .

وإذا كان هذا الإمام يغبط أهل الدين المجردين من الدنيا فماأكثر من يغبطون أصحاب الأموال ، ومأبعد الفرق بين السابقين بالخيرات والمقصِّرين !

وقيل إنه قال لرجل : هل أبكاك قط سابق علم الله فيك ؟(٢) .

يعني أن المقربين مع مايقومون به من الورع والعمل الصالح يخشون من سابق قدر الله فيهم، حيث يخافون من سوء الخاتمة، فإن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ .

القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن جل جلاله يقلبها كيف يشاء.

وقيل له: كيف أصبحت ؟ قال: قريبًا أَجَلي، بعيدًا أملي، سيِّئًا عملي (١) .

وهذا من عمق الإدراك وقوة تصور مابعد الموت ، وإذا كان محمد بن واسع الذي قيل عنه إنه أفضل أهل البصرة في زمنه يتَّهم نفسه بطول الأمل وسوء العمل ، فكيف بحال المقصرين الظالمي أنفسهم ؟

وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصني ، قال : أوصيك أن تكون مَلِكًا في الدنيا والآخرة ، قال : كيف ؟ قال : ازهد في الدنيا (٢).

وهذه وصية نافعة من طبيب ماهر في طب القلوب، فهذا الرجل يطلب الوصية من محمد بن واسع فيوصيه بأعلى مرتبة تطمح لها النفوس عادة ، وهي أن يكون ملكا في الدنيا والآخرة ، فيتعجب ذلك الرجل لأنه لم يرد الدنيا حينما طلب مه الوصية، ثم كيف يجمع بين الأمرين فيكون ملكا في الدنيا والآخرة ! فلذلك استفهم منه استفهام تعجب ، فكان جواب ابن واسع له : ازهد في الدنيا .

وإذا كان الزهد يرفع من مقام صاحبه في الآخرة لما يترتب عليه من ترك بعض المحبوبات من أجل الله تعالى ، واجتناب مجال المحرمات والشبهات التي يدفع إليها حب الدنيا . . فكيف يكون الزهد رفعة في الدنيا ؟

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠ .

إنما كـان كـذلك لأمور مـنها : أن الزاهـد لايصل إلى الزهد في الدنيا إلا إذا وصل إلى مرحلة من القوة يملك فيها هواه، ويتحكم في جوارحه أن تطيش سهامهـا ذات اليمين وذات الشمال، والذي يتحكم في نفسه بعقله السليم هو أرفع الناس في الدنيا ، لأنه لايملك جوهرا في جسمه أغلى من العقل ، فإذا أخضع نفسه لعقله السليم الذي يسير على هدى الله تعـالى كـان في أعلى طبـقات المجـتـمع ، لأن فكره سيكون صحيحا ، وسلوكه سيكون قويما .

وقيل إن الوالي مالك بن المنذر دعا محمد بن واسع فقال: اجلس على القضاء ، فأبى ، فعـاوده وقال :لتجلسنَّ أو لأجلدنَّك ثلاثمائة، قال : إن تفعل فإنك مسلَّط، وإن ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة(١).

وهذا مثال للورع ، فقد كـان منصب القاضي يلي منصب الأمير في العلو ، وقد يكون أعـلى منه ،وهو بالنسبة للنظرة الـدنيوية يلبِّي شهوتـين . . شهوة المال وشهوة الجـاه ، ومع ذلك رفضه محـمد بن واسع حتى بعد التهديد بالجلد ، وبين أن سبب رفضه أن هذا المنصب يورث ذلة في الآخرة ، وذلك فيمـا إذا مال القاضي عن العدل أو لم يتمكن منه ، أو داخل نفسه شيء مـن العجب والنظر إلى الجاه ونحو ذلك ، وبيَّن أن ذلة الدنيا بالتعرض للجلد بسبب الرفض أهون من ذلة الآخرة بالحساب والعذاب .

وهذا لايعني أن القضاة كلَّهم مـعرضون لذلك ، بل إن العالم إذا آنس من نفسـه القوة على العدل، وضمن التـمكن من ذلك فإن تولِّي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٢ .

أمور المسلمين في القضاء وغيره يعتبر من الأعمال الصالحة ، وإنما تورع عنه هذا الإمام وأمثاله خشية عدم القدرة على العدل الكامل فيئول الأمر إلى اكتساب السيئات بدلا من الحسنات .

قيل : ودعاه بعض الأمراء فأراده على بعض الأمر فأبى، فقال: إنك أحمق ، قال محمد : مازلت يقال لي هذا منذ أنا صغير (١) .

يعني أن أهل الدنيا ينظرون إلى المصالح الدنيوية من المال والجاه ونحو ذلك ، فالذي يسير في حياته وهو يلاحظ مستقبله الدنيوي ويخطط له يُعتبر عندهم حصيف الرأي كامل العقل، وإنْ قصر في العمل لمستقبله الأخروي أو أهمل ذلك ، بينما يتّهمون من يعمل لآخرته ويهمل أمور دنياه بالحماقة وربما وصفوه بالجنون .

ورُوي أن قاصًا كان بقرب محمد بن واسع فقال: مالي أرى القلوب لاتخشع ، والعيون لاتدمع ، والجلود لاتقشعر ؟ قال محمد: يافلان ماأرى القوم أُتُوا إلا من قبَلك،إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب (٢) .

وهكذا كان محمد بن واسع صريحا مع ذلك الواعظ الذي وصف المشكلة والداء وأراد من محمد بن واسع أن يساعده في الحل والعلاج، ولم يَدْرِ ذلك الواعظ أنه هو مصدر المشكلة ومكمن الداء، فبيّن له محمد بن واسع أن المواعظ إذا صدرت من القلب وصلت إلى القلب ، وإذا صدرت من اللسان لم تتجاوز الآذان .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٢ .

وبهذا يُفسَّر كثرة المواعظ والخطب والدروس الدينية مع قلة التأثر وضعف الالتزام ، فالدُّرر تبقى في أصدافها حتى تجد من يحسن إخراجها .

ولكن ليس العيب دائما في المتكلم ، فقد يكون في السامع لعدم تجرده من الهوى ، وعلى ذلك يحمل عدم استجابة بعض المدعوين للرسل عليهم السلام ، وكلام محمد بن واسع محمول على أنه قد فهم من الواعظ عدم إخلاصه في تلك الموعظة .

وقال سعيد بن عامر : دخل محمد بن واسع على الأمير بلال بن أبي بردة فدعاه إلى طعامه فاعتل عليه ، فغضب وقال: إني أراك تكره طعامنا ، قال : لاتقل ذاك أيها الأمير ، فو الله لخياركم أحب إلينا من أبنائنا (١) .

وصدق محمد بن واسع وبرَّ في قسمه ، لأن الأمراء العادلين تطبَّق بهم الحدود ، ويثبت بهم الأمن ، ويعمُّ بهم الرخاء ، وتُحفظ بهم الحقوق ، ويقوم بهم الجهاد ، وتنتعش بهم الدعوة ، فهم أحب للمخلصين لدينهم من أبنائهم الذين ليسوا كذلك .

وإنما اعتذر محمد بن واسع عن طعام ذلك الوالي لأنه كان يصوم ويخفي صيامه فلعله كان صائما ذلك اليوم .

وذكر الإمام الذهبي عن ابن شوذب قال: قسم أمير البصرة على قرائها ، فبعث إلى مالك بن دينار فأخذ ، فقال له ابن واسع : قَبِلتَ جوائزهم ؟ قال : سل جلسائي ، قالوا : ياأبا بكر اشترى بها رقيقا

(١) سير أعلام النبلاء ٦ / ١٢٢ .

فأعتقهم ، قال : أنشدك الله أقلبك الساعةَ على ماكان عليه ؟ قال: اللهم لا ، إنما مالِكٌ حمار ، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع [1].

فهذا مثال رائع لدقة الإحساس والغيرة على الإيمان ، لأن الإيمان ينمو في القلب شيئًا فشيئًا بالتقوى في الفكر والعمل ،وإن من أهم مايحرص عليه أطباء القلوب أن يظل مستوى الإيمان في القلب في علو وتَرَقٍّي ، وإن مما يحذرون منه أن ينخفض مستوى الإيمان في القلب ، وإنما ينخفض بارتكاب شيء من المخالفات ، أو ترك بعض الطاعات ، وقد تكون المخالفة معتادة عند عامة الناس ، لكنها تكون ذات أهمية عند الخلَّص من أهل التقوى، وهم يشعرون بهذا الانخفاض إذا خالط إحساسهم شيء من القلق والضجر، لأن شفافية الإيمان الخالص لاتقبل أن يعانقها شيء من الكدر أو الغبش، فلذلك لما قال محمد بن واسع لمالك بن دينار : « أنشدك الله أَقَلْبُكَ الساعة على ماكان عليه ؟ أجابه بقوله : اللهم لا » فكأنما قال له انظر إلى قلبك في المرآة هل خالط صفاءه شيء من الكدرة ؟

ولقد كان مالك بن دينار صريحا حينما أخبر عن إحساسه بما خالطه من الكدر الذي يتمثَّل في تسرُّب شيء من تعظيم البشر إلى القلب ولو بنسبة ضئيلة ، حيث يزاحم ذلك وجود الإيمان بالله تعالى وحده ، وذلك له عواقبه المؤثرة على الفكر والسلوك إن لم يُحدث صاحبه تصحيحا وتوبة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠ .

ولئن كان مالك بن دينار قد حكم على نفسه بذلك الحكم القاسي فإنه محمول على التواضع والمبالغة في إهانة النفس، وإلا فهو العالم الرباني ذو المحامد المعروفة ، وإن من فضائله أن يتواضع أمام من يرى له فضلا عليه في اليقين والإيمان ، فيأخذ بنصحه ويثني عليه، ولو كان ممن غلبت عليهم سمعة الدنيا واعتباراتها المعروفة لأخذته العزة بالإثم ، ولردَّ على ذلك الإمام الرباني الناصح بما يقلل من مكانته ، ويُضعف من رأيه ، ولسوَّغ ماقام به هو من تصرف وأظهره بأنه هو الأمر المشروع الموافق للحكمة .

ولقد كانت سمعة محمد بن واسع عالية في الصلاح والتقوى حتى أصبح القادة يتيمَّنون بدعائه ، قال الأصمعي : لما صافَّ قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرهم . سأل عن محمد بن واسع ، فقيل له: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه ، يُبَصْبِص بإصبعه نحو السماء، قال: تلك الإصبع أحب إليَّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير[1].

وهذا فهم راسخ من قتيبة بن مسلم الباهلي لأهم أسباب النصر، ألاوهو التوكل على الله تعالى،وتوثيق الصلة به،واستلهام النصر منه.

ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده ، ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادي ، حيث يتجاوز المسلمون بالسلاح المعنوي حدود التكافؤ المادي في القُوَى بمراحل عديدة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ ، وشاب طرير يعني في مقتبل عمره قد طرَّ شاربه .

ولما كان محمد بن واسع في جيشه سارع إلى السؤال عنه، فلما أُخبر بأنه مستغرق في مناجاة الله تعالى ودعائه اطمأن قلبه وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده ، وقال تلك الكلمات العالية « تلك الإصبع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير » .

إن قُوَى الأرض كلَّها بيد الله تعالى ، وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد والعُدد والمواقع ، إنما هو من حسابات البشر والله جل جلاله قادر على تغيير هذه الموازين في لحظة، وإن من أهم استجلاب نصر الله تعالى دعاءَ الصالحين، فلذلك استبشر قتيبة خيرا حينما علم باستغراق محمد بن واسع في الدعاء.

وهذا الفهم العالي من قتيبة رحمه الله يبين لنا سببا مهما من أسباب انتصاراته الباهرة ، التي ظلت تتوالى أكثر من عشر سنوات، فبالرغم من كونه بطلا لايُشَقُّ له غبار ، وقائدًا مخططا يضع للأمور أقرانها ، وسياسيا محنكا لا يُخدع ، فإنه لم يغتر بكل ذلك بل اعتبر ذلك كله من الأمور الثانوية ، ونظر قبل ذلك إلى مدى توثيق الحبل الذي يصل جيشه بالله تعالى ، فلما عرف بأن محمد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء وبما سبق ذلك من شهرته بالإيمان القوي والعمل الصالح حصل له اليقين وزال عنه سبب من أسباب الخوف المتمثل بضعف الصلة بالله تعالى .

ولقد بلغت شهرة محمد بن واسع الدينية مبلغا عظيما في عصره، قيل إن حوشبًا قال لمالك بن دينار : رأيت كأن مناديًا ينادي:

الرحيلَ الرحيل ، فما ارتحل إلا محمد بن واسع فبكى مالك وخر مغشيّا عليه [1].

لقد فهم مالك بن دينار من هذه الرؤيا أن المراد بالرحيل كمال الخلاص والنجاة ، خصوصا وقد اقترنت بمحمد بن واسع الذي عُرف عندهم بأنه أفضل أهل بلده .

وإن هذا التأثر من مالك الذي وصل إلى حد البكاء ثم الإغماء يدل على قوة إيمانه وشدة خشيته من الله تعالى ، ومَنْ كان بالله أعرف كان من الله أخوف .

وفي وصف خشية محمد بن واسع يقول جعفر بن سليمان: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع كأنه ثكْلَى [2] .

إن العالم بالله الذي يرزقه الله اليقين والمعرفة تظهر آثار العبادة والخشية على وجهه ، وذلك لأن قلبه يكون قد امتلأ من تعظيم الله تعالى وخشيته ، وإذا امتلأ القلب بالإيمان فرض على الفكر أن يكون حاضرا مع الله تعالى مستحضرا عظمته ، متذكرا ماأعده لأوليائه من النعيم المقيم ، وماأعده لأعدائه من العذاب الأليم ، فلا غرابة أن يكون وجه صاحبه كالثكلى من الحزن والهم .

ولقد كان جعفر بن سليمان فقيهًا في معرفة علاج أمراض القلوب حينما قال هذا الكلام .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠ .

ألا ما أحوج الأمة إلى أطباء القلوب الذين في رؤيتهم شفاء القلوب من أمراضها ، وفي مواعظهم توجيه سديد للاستقامة على الصراط المستقيم !

من أخبار إبراهيم التيمي رحمه الله :

ومن أخبارهم في الورع ما أخرجه ابن سعد عن علي بن محمد قال : كان سبب حبس إبراهيم التيمي [1] أن الحجاج طلب إبراهيم النخعي، فجاء الذي طلبه فقال : أريد إبراهيم ، قال إبراهيم التيمي : أنا إبراهيم ، فأخذه وهو يعلم أنه يريد إبراهيم النخعي فلم يستحلّ أن يدلَّه عليه ، فأُتِيَ به الحجاج فأمر بحبسه في الديماس[2]،ولم يكن لهم ظل من الشمس ولاكِنٌّ من البرد ، وكان كل اثنين في سلسلة، فتغير إبراهيم فجاءته أمه في الحبس فلم تعرفه حتى كلمها ، فمات في السجن، فرأى الحجاج في منامه قائلاً يقول : مات في هذه البلدة الليلةَ رجل من أهل الجنة ، فلما أصبح قال : هل مات الليلة أحد بواسط ؟ قالوا : نعم إبراهيم التيمي مات في السجن ، فقال : حُلُم، نزغة من نزغات الشيطان ، وأمر به فأُلْقِيَ على الكناسة [3] .

فهذا مثال للورع الذي يكلف صاحب تضحية بالنفس ، فقد كان إبراهيم التيمي يعلم أن رسول الحجاج لايريده وإنما يريد إبراهيم النخعي، فلم يستحل أن يدله عليه وفداه بنفسه فأيٌّ عنصر زكي قد اشتمل عليه هذا العالم الجليل !

(١) هو الإمام الفقيه الواعظ إبراهيم بن يزيد التيمي من تيم الرباب .

(٢) الديماس يطلق على الحمام والسَّرَب ويسمى به سجن الحجاج كماذكر صاحب القاموس.

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٨٥ .

إن هذه التضحية نادرة المثال ، وإن مما ساعد التيمي على انتصاره على شهوات النفس وأهوائها ماشتهر به من الزهد في الدنيا والتخفف من مطالب الحياة ، فهو عبد لله تعالى قـد سعى حثيثا في إكمال هذه العبودية التي تقتضي من العبد أن يكون على مراد الله تعالى ، يتوجه حيثما وجهه الإسـلام ، كلما لاح له عمل صالح سارع إليه ، وكلما اعترضه عمل سيء اجتنبه وإن كان في ذلك زهاق نفسه .

من أخبار يونس بن عبيد رحمه الله :

ومن العلمـاء المشهورين بالورع الإمـام عبـد الله يونس بن عبـيد العبدي ومن أخباره في الورع والاحتياط في كسب المال الحلال وتحريه الشديد في ذلـك ماذكره الإمـام الذهبي عن الأصمعـي عن مؤمل بن إسماعيل قال : جاء رجل شـامي إلى سوق الخزازين ، فقال : عندك مُطْرَف بأربعـمائة ؟ فـقـال يونس بن عبـيـد : عندنا بمائتين ، فنادى المنادي : الصلاة ، فانطـلق يونس إلى بني قُشَيْر ليصـلي بهم ، فجاء وقد بـاع ابن أختـه المطرف من الشامي بأربعـمائة ، فـقال : مـاهذه الدراهم؟ قال : ثمن ذلك المـطرف ، فقال : ياعـبد الله هذا المطرف الذي عرضتـه عليك بمئتي درهم ، فإن شئت فخـذه وخذ مائتين وإن شئت فَدَعْه ، قال : من أنت ؟ وماسـمك ؟ قال : يونس بن عبيد، قال : فـو الله إنا لنكون في نحر العـدو فإذا اشتد الأمـر علينا قلنا: اللهم رب يونس فرِّج عنا ، أو شبيه هذا .

فقال يونس : سبحان الله سبحان الله ! (١)

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٩ .

قال الذهبي : وقال : أمية بن خالد : جاءت امرأةٌ يونسَ بن عبيد بجبة خزّ، فقالت له : اشترِها، قال : بكم؟ قالت : بخمسمائة، قال : هي خير من ذلك، قالت : بستمائة، قال : هي خير من ذلك، فلم يزل حتى بلغت ألفا.

وكان يشتري الإبريسم من البصرة فيبعث به إلى وكيله بالسوس، وكان وكيله يبعث إليه بالخز ، فإن كتب وكيله إليه : إن المتاع عندهم زائد لم يشتر منهم أبدا حتى يخبرهم أن وكيله كتب إليه أن المتاع عندهم زائد (١) .

قال : وقال بشر بن المفضل : جاءت امرأة بمُطْرَف خزٍّ إلى يونس ابن عبيد تعرضه عليه ، فقال لها : بكم ؟ قالت : بستين درهما ، فألقاه إلى جاره فقال : كيف تراه ؟ قال : بعشرين ومائة ، قال : أرى ذاك ثمنه أو نحوا من ثمنه ، فقال لها : اذهبي فاستأمري أهلك في بيعه بخمس وعشرين ومائة ، قالت : أمروني أن أبيعه بستين ، قال : ارجعي فاستأمريهم (٢) .

قال : وقال النضر بن شميل : غلا الخَزّ في موضع كان إذا غلا هناك غلا بالبصرة ، وكان يونس بن عبيد خزَّازا فعلم بذلك فاشترى من رجل متاعا بثلاثين ألفا ، فلما كان بعد ذلك قال لصاحبه : هل كنت علمت أن المتاع غلا بأرض كذا وكذا ؟ قال: لا ، لو علمت لم أبِعْ ؟ قال : هَلُمَّ إليَّ مالي وخذ مالك، فرد عليه الثلاثين الألف (٣) .

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٠ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٣ .

وبعد : فهذه أمثلة مهمة للأمانة والورع والمعاملة الإسلامية، فهذا يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يرد على الرجل الشامي نصف المبلغ الذي دفعه ثمنا لذلك الكساء ، وكان بإمكانه أن يسكت ويأخذ المبلغ كاملا مادام المشتري راضيا بذلك .

ونراه يرفع سعر الجُبَّة التي أراد شراءها من تلك المرأة إلى الضعف مع أنها قد عرضتها عليه بنصف ذلك الثمن .

ونراه يخبر التجار بزيادة الأسعار في البلاد الأخرى قبل أن يشتري منهم، ولما اشترى من أحد التجار قماشا وخشيَ أنه لم يعلم بزيادة الأسعار في بلد آخر يؤثِّر على سعر البلد عندهم جاء إليه فأخبره ثم رد عليه بضاعته .

ولما عرضت عليه تلك المرأة ذلك الكساء بستين رفع سعره إلى خمسة وعشرين ومائة .

فما الذي دفع يونس بن عبيد إلى التعفف عن ذلك المال الذي جاء برضًى من أصحابه ؟!

إنه شعوره القوي برقابة الله عز وجل،وإحساسه بأن أخذ ذلك المال لايُرضي الله سبحانه ، وإيمانه القوي الحي باليوم الآخر ومافيه من الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب،ثم المصير إلى الثواب العظيم أو العقاب الأليم .

إن هذا الشعور لايماثله ولايقاربه أي دافع آخر نحو العفة والنزاهة، لأنه يحول بين المرء وهواه المنحرف ، ويعدل سلوكه حتى

في الأمور التي لاتزال حبيسة الصدور ، ولم تظهر للناس .

وإن يونس بن عبيد بهذه المعاملة الإسلامية الكريمة ليُعتبر قدوة عالية للتجار في العفة والورع واكتساب المال الطيب .

من أخبار الإمام مالك رحمه الله :

من ذلك مارواه عبد الله بن مسلمة القعنبي قال : دخلت على مالك فوجدته باكيا ، فقلت : ياأبا عبد الله مالذي يبكيك ؟ قال: يا ابن قعنب على مافَرَطَ مني ، ليتني جُلِدْتُ بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط ولم يكن فرط مني مافرط من هذا الرأي ، وهذه المسائل ، قد كان لي سعة فيما سُبِقْتُ إليه (١) .

فالإمام مالك بن أنس رحمه الله يندم في هذا الخبر على ماصدر عنه من مسائل الاجتهاد الفقهية ، ويخشى أن يكون قد لحقه في ذلك إثم فيما لو خالف الصواب ، مع أنه يعلم أن المجتهد إذا كان من أهل الاجتهاد له أجر واحد إن أخطأ وأجران إن أصاب، ولكنْ غلب عليه مقام الورع و الخشية فقال هذا الكلام .

ولم يكن هذا الكلام بشعورٍ منه بالتَّعجل في الفتيا أو التفريط، فلقد كان شديد التحري في الفتوى ، بالغ الدقة في تحرير المسائل، ولقد نفع الله تعالى الأمة بمسائله وفتاويه في أمور لم يُفْتِ فيها من سبقوه من الأمور المستجدَّة ، وإنه ليُعتَبَر بهذا الكلام قدوةً حسنة للعلماء الذين قد يتعجل بعضهم بالفتوى ولايعتريه مع ذلك شيء من الخشية ولايدركه الورع .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦٤ .

من أخبار الإمام الشافعي رحمه الله :

من ذلك ماذكره المزني قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه ، فقلت : ياأبا عبد الله كيف أصبحت ؟ فرفع رأسه وقال: أصبحت من الدنيا راحلا ، ولإخواني مفارقا ، ولسوء عملي ملاقيا، وعلى الله واردا ، ماأدري روحي تصير إلى جنة فأهنِّيها ، أو إلى نار فأعزِّيها ، ثم بكى وأنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي دون عفوك سلَّما
تعاظَمَني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربِّي كان عفوك أعظما
فما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تَزَلْ تجود وتعفو مِنَّةً وتكرُّما[(١)]

فهذا مثل مما كان يتحلى به الإمام الشافعي من خشية الله تعالى، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ علمه، لأن من كان بالله أعرف كان منه أخوف .

من أخبار حجاج بن منهال رحمه الله :

لقد كان للعلماء مواقف عالية في القناعة والعفة،ومن أمثلة ذلك ماذكره الإمام أحمد بن عبد الله العجلي عن حجاج بن منهال،قال: كان-يعني حجاج بن منهال-سمسارًا يأخذ من كل دينار حبة فجاء خراساني موسر من أصحاب الحديث،فاشترى له أنماطًا،فأعطاه التاجر ثلاثين دينارا،فقال: ماهذه ؟ قال: سمسرتك،قال: دنانيرك أهون عليَّ من هذا التراب،هات من كل دينار حبة،فأخذ منه دينارًا وكسرا [(٢)].

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٧٥ - ٧٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/٣٥٣ .

فهذا الإمام العالم حجاج بن منهال الذي كان يعمل في التجارة قد رد ذلك المبلغ الكبير مع أنه يعلم أن التاجر الخراساني قد أعطاه ذلك المبلغ عن طيب نفس وأنه أراد صلته لكونه من العلماء الصالحين. فالمال حلال له والحال هذه ولكنه تورع عنه وقنع بحقه الذي يأخذه مقابل عمله .

ولقد كان في عمل هذا العالم الجليل قدوة حسنة للعاملين في التجارة، وهكذا حينما يدخل علماء الدين الربانيون في المجال التجاري فإنهم يقدمون للمجتمع الإسلامي وغير الإسلامي أروع النماذج في العفة والزهد والورع ، أما حين تقتصر الأسواق على النفعيين فإنها لاتكون بعيدة في الشكل والمضمون عن أسواق غير المسلمين ، فلا يستطيع المسلمون أن يقدموا من التجارة أمثلة حية في الدعوة إلى الإسلام والتمسك بتعاليمه السامية .

من أخبار ابن إدريس وعيسى بن يونس رحمهما الله :

لقد كان أغلب العلماء يحتسبون الأجر عند الله تعالى على نشر السنة ولايأخذون أجرة من طلاب العلم ولامن غيرهم مقابل ذلك، ومن أخبارهم في ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن مسروق بن عبدالرحمن الكندي قال : حدثني محمد بن المنذر الكندي جارٌ لعبد الله ابن إدريس قال : حج الرشيد فدخل الكوفة فلم يتخلف إلا ابن إدريس وعيسى بن يونس ، فبعث إليهما الأمينَ والمأمون، فحدثهما ابن إدريس بمائة حديث ، فقال المأمون : ياعم أتأذن لي أن أعيدها حفظًا ؟ قال : افعل ، فأعادها ، فعجب من حفظه ، ومضيا إلى

عيسى فحدثهما ، فـأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم فأبى ، وقال : ولاشربة ماء على حديث رسول الله ﷺ (١) .

فهذا مثـال من ورع العلماء وعفتهم حيث كـانوا لايأخذون أجرة ولامكافـأة على تعليم السنة النبويـة ، فقد رد هذا الـعالم عيـسى بن يونس بن أبي إسـحاق السـبيعـي مكافأة المأمـون مع أنها مـبلغ كبـير تستشرف له النفوس ، والغـالب على العلماء أنهم فقراء ، ومع ذلك قال هذا العالم الجليل « ولاشربة ماء على حديث رسول الله ﷺ » .

أما عبـد الله بن إدريس الأودي فإن المأمون لم يتجـرأ على منحه شيئًا من المال لما اشـتهر عنه من عدم أخذ منح السلطان المعـتادة فضلا عن أن تكون مقابل تعليم السنة النبوية .

إن هذين العالمين وأمـثالهمـا أصحابُ نفـوس كبيرة وطمـوحات عاليـة، فهـؤلاء العلماء الربانيـون ينظرون إلى الأعلى . . إلى الحـياة الآخرة ونعيـمها الدائم الذي لايدانيـه أي نعيم، ومن طمح بنظره إلى الأعلى فإنه لايُتصور منه أن ينحط ببـصره إلى الأسفل، فلذلك سهل عليهم اتقاء الشبهات والزهدُ في الدنيا .

ومما روي أيضًا عن عيسى بن يونس السبيعي من التعفف عن أخذ شيء من المال على تعليم السنة النبوية ماذكـره الإمام الذهبي من خبر أبي بلال الأشعـري عن جعفر البـرمكي قال : مارأينا في القُـرَّاء مثل عيسى بن يونس ، أرسلنا إليه ، فأتانا بالرَّقة ، فاعتل قبل أن يرجع . فقلتُ له : ياأبا عمرو ، قد أمرنا لك بعشرة آلاف . فقال: هيهِ. قلت:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٢٧٦ .

خمسون ألفًا. قال: لاحاجة لي فيها. فقلت: ولمَ ؟ والله؟ لأهنِّئَنَّكَها ، هي والله مئة ألف، قال: لا والله، لايتحدَّثُ أهلُ العلم أني أكلتُ للسنَّة ثمنًا، الا كان هذا قبلَ أن تُرسلوا إليَّ، فأما على الحديث، فلا، ولاشربة ماء، ولا إهْلِيلَجة [1][2].

من أخبار أمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال: وروى ابن عساكر عن إبراهيم المهدي قال: كنت يوما عند الرشيد فدعا طباخه فقال: أعندك في الطعام لحم جزور؟ قال: نعم ألوان منه، فقال: أحضره مع الطعام، فلما وُضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه فضحك جعفر البرمكي، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال: ممَّ تضحك؟ قال: لاشيء ياأمير المؤمنين ، ذكرت كلامًا بيني وبين جاريتي البارحة، فقال له: بحقي عليك لما أخبرتني به، قال: حتى تأكل هذه اللقمة، فألقاها من فيه وقال: والله لتخبرنِّي، فقال: ياأمير المؤمنين بِكَمْ تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوِّم عليك؟ قال: بأربعة ألف درهم، قال: لا والله ياأمير المؤمنين بل بأربعمائة ألف درهم ، قال: وكيف ذلك؟ قال: إنك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده فقلتَ: لايخلوَّ المطبخ من لحم جزور، فنحن ننحر كل يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين،

---

(١) الإهليلج ، بكسر الألف وفتح اللام ، وقد تكسر ، والواحدة بهاء : شجر ينبت في الهند وكابل والصين ثمره على هيئة حب الصنوبر الكبار .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٩٣ .

لأنا لانشتري من السوق لحم جزور، فصُرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم، قال جعفر: فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة، فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف.

قال: فبكى الرشيد بكاء شديدًا، وأمر بدفع السماط من بين يديه، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول: هلكتَ والله ياهارون، ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر، فخرج فصلى بالناس، ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر، وقد أمر بألفي ألف تصرف على فقراء الحرمين، في كل حرم ألف ألف صدقة، وأمر بألفي ألف يُتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة.

ثم خرج إلى صلاة العصر ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب، ثم رجع فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال: ماشأنك ياأمير المؤمنين باكيا في هذا اليوم؟ فذكر أمره وماصرف من المال الجزيل لأجل شهوته، وإنما ناله منها لقمة، فقال أبو يوسف لجعفر: هل كان ماتذبحونه من الجزور يفسد أو يأكله الناس؟ قال: بلى يأكله الناس، فقال: أبشر ياأمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية، وبما يسَّره الله عليك من الصدقة، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم، وقد قال الله تعالى: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾[الرحمن: ٤٦] فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف، ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غداؤه في ذلك اليوم عشاء(١).

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٥.

فهذا مثل جليل في الخشية من الله تعالى، فذلك البكاء الطويل كان بسبب خوف هارون الرشيد من عذاب الله جل وعلا مما وقع منه من الإسراف ، مع أنه لم يتعمد ذلك .

لقد كان طوال ذلك اليوم يتذكر وقوفه بين يدي الله تعالى يوم القيامة ومحاسبته على ذلك المال الكثير الذي صُرِف من أجل تحقيق متعته، فيبكي بكاء شديداً مع مابذله من تلك الصدقات العظيمة التي رجا بها محو مااكتسبه من ذلك الإثم، فلما دخل عليه العالم الكبير أبو يوسف القاضي أبان له أن مايأكله الناس لايعد من الإسراف، وأن أمير المؤمنين قد حصل له الثواب بذلك وبما تصدق من ذلك المال الكثير، وبما حصل له من الخشية والخوف من الله تعالى ذلك اليوم، فسُرِّي عنه وزال عنه الكرب والغم، لأنه عظيم الثقة بالقاضي أبي يوسف في دينه وعلمه .

وقال الحافظ ابن كثير في بيان مايتصف به أمير المؤمنين هارون الرشيد من التواضع والخشية : وقد استدعَى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث، قال أبو معاوية : ماذكرت عنده حديثا إلا قال : صلى الله وسلم على سيدي، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبل الثرى، وأكلت عنده يوما ثم قمت لأغسل يدي فصب الماء عليّ وأنا لاأراه ، ثم قال: ياأبا معاوية أتدري من يصب عليك الماء؟ قلت : لا ، قال: يصب عليك أمير المؤمنين، قال أبو معاوية: فدعوت له، فقال : إنما أردت تعظيم العلم (١).

(١) البداية والنهاية ١٠/٢٢٣ - ٢٢٤ .

فهذا موقف كبير من أمير المؤمنين هارون الرشيد في تعظيم العلم الديني واحترام أهله، وهذا دليل على نبله ورجاحة عقله، كما أن بكاءه من خشية الله دليل على حضور قلبه مع الله جل و علا .

قال الحافظ ابن كثير: وحدثه أبو معاوية يوما عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، فقال عم الرشيد : أين التقيا ياأبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضبًا شديدًا، وقال: أتعترض على الحديث؟! عليَّ بالنِّطع والسيف، فأُحضِر ذلك، فقام الناس يشفعون فيه، فقال الرشيد: هذه زندقة ، ثم أمر بسجنه وأقسم أن لايخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ماقال هذا له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا استغفر الله وأتوب إليه منها، فأطلقه (١).

وهذه غيرة عظيمة من أمير المؤمنين هارون الرشيد على حرمات الدين، وغضب لله تعالى يدل على قوة إيمانه، كما يدل ذلك على غزارة علمه، وقد حكم على صاحب ذلك السؤال بالزندقة مع أنه عمه وأراد قتله لولا شفاعة الناس فيه، ثم لما كان يعرف بأن عمه ليس ممن يتَّهمون في دينهم فإنه قد خطر له بأنه حمل تلك الكلمة عن بعض الزنادقة فأقسم أن لايخرجه من السجن حتى يخبره بمن ألقى إليه ذلك الاعتراض، وهذا اهتمام منه بتتبع الزنادقة والتحري عنهم، وقد كان هناك اهتمام كبير من خلفاء العصر العباسي الأول بالبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم وإقامة الحد عليهم .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٤ .

من أخبار وكيع رحمه الله :

لقد أُثِر عن العلماء أخبار كثيرة تدل على اهتمامهم بتطبيق التوجيهات والوصايا النبوية، واشفاقهم من التقصير في هذا الأمر.

ومن أمثلة ذلك ماوراه يحيى بن معين قال: سمعت وكيعًا(١) يقول: : وأي يوم لنا من الموت ؟ ورأيته أخذ في كتاب « الزهد » يقرؤه ، فلما بلغ حديثا منه ترك الكتاب، ثم قام فلم يحدث، فلما كان من الغد وأخذ فيه بلغ ذلك المكان قام أيضا ولم يحدث حتى صنع ذلك ثلاثة أيام .

قال عباس الراوي عن يحيى بن معين: قلت ليحيى: وأي حديث هو؟ قال: حديث « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (٢).

وهكذا تأثر هذا الإمام من قراءة هذا الحديث، وذلك لأنه وأمثاله من العلماء الربانيين ينظرون إلى العمل مع العلم، فإذا شعروا بأنهم علموا شيئا لم يطبقوه أدركتهم الخشية من الله تعالى فظهر ذلك في سلوكهم .

وحيث إن هذا الحديث يوصي بالزهد في الدنيا، ويضع حدا للزهد يجعل المسلم يسير في إقامته وكأنه مسافر فإنه قلَّما يصل المسلم إلى تطبيق ذلك، فلما قرأ وكيع هذا الحديث وقارن بين مدلوله وبين حاله مع ماهو فيه من الزهد المعروف رأى أنه لم يجعل متاعه في حياته كمتاع المسافر وأدركه الخوف من الله تعالى .

---

(١) هو وكيع بن الجراح الرؤاسي

(٢) تاريخ ابن معين / ٦٣١ - ٦٣٢ ، سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٩ .

وكان وكيع مشهوراً بكثـرة الصلاة والصوم، حتى وصلت شهرته بالعبادة إلى الحجاز وهو في العراق، وجرى له مع الفضيل بن عياض خبر في بدايته طرافة وفي نهايته حكمة، يقول سعيد بن منصور: قدم وكيع مكة وكان سمينا فقال له الفضيل بن عياض: ماهذا السِّمَن وأنت راهب العراق؟ قال: مِنْ فَرَحِي بالإسلام، فأفحمه [1].

فهذا جـواب حكيم وسديد، وذلك لأن الإنسان إذا غـمره الفرح غمـرته السعـادة ، وإذا كان سعـيداً في حيـاته لـم يتعـرض للأمراض المنهكة التي تضـعف الجسم، وليس هناك من الفرح عـند وكيع أعظم من نعمة الهداية إلى الإسلام ، ولما كان فرحه بهذه الهداية عظيما فإن ذلك قـد أنساه كل همـوم الدنيا ومـشكلاتها فلم تَعُـدْ تلك الهـموم والمشكلات تؤثر على جسمه .

وهذا الجواب النيِّر من الإمام وكيع رحمه الله تعالى يصوِّر مشاعر المسلمين الصادقين الذين تغمرهم الفرحـة الكبرى كلما تذكروا تحلِّيهم بنعمة الهداية إلى هذا الدين العظيم .

وكما ذكر وكيع من أن تلبُّسه بالصـحة بسبب فرحه بالإسلام فإن مايتمتع به المسلمون الذين يعتزون بإسلامهم من حياة الطمأنينة والصبر الجميل على الأذى والبراءة من الأمراض النفسية. . إن ذلك راجع إلى شعورهم بالسعادة الكبـرى لإيمانهم بالإسلام وركونهم في كل الملمات إلى قدرة خالق الكون جل وعلا .

وهذا الذي ذكره وكيع يعتبر تعبيراًعن أهم أسباب السعادة الروحية

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/١٥٦ .

الجالبة لصحة البدن، ولايعني ذلك إطِّرادَ هذا الأمر في كل المسلمين الصادقين، فقد يصيب الله تعالى العبد بالأمراض ليمحو بها خطاياه وليتقوّى إيمانه بالرجوع إليه تعالى ولغير ذلك من الحكم الجليلة، ولكن العبد المؤمن قد يُمرض جسمه ولكن لاتُمرض نفسه لإيمانه بقضاء الله تعالى وقدره .

من أخبار زكريا بن عدي رحمه الله :

من ذلك ماذكره ابن أبي حاتم : أن زكريا بن عدي اشتكت عينه، فأتاه إنسان بكحل، فقال: أنت ممن يسمع الحديث ؟قال: نعم، فأبى أن يأخذه (١) .

فحيث علم زكريا بن عدي أن ذلك الرجل ممن يأخذون عنه الحديث خشي أن يكون أخذ الكحل من تلميذه من باب أخذ الأجرة على الحديث .

من أخبار بشر بن الحارث رحمه الله :

ومن المواقف في الورع مارُوي عن بشر بن الحارث الملقَّب بالحافي أن رجلا جاء إليه وقبَّله وجعل يقول : ياسيدي أبا نصر، فلما ذهب قال بشر لأصحابه : رجل أحب رجلا على خير توهمه ، لعل المُحِبَّ قد نجا والمحبوبَ لايُدرَى ماحاله (٢) .

وعن أيوب العطار أنه سمع بشراً يقول : حدثنا حماد بن زيد. .

---

(١) الجرح والتعديل ٨/ ٤٥٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٥ .

ثم قال : أستغفر الله إن لِذِكْر الإسناد في القلب خيلاء [١] .

ورُوِي عنه أنه قال : مااتقى الله من أحب الشهرة [٢] .

فهذه نماذج من الورع المبني على سرعة التذكر والدقة في محاسبة النفس .

والذكر القلبي من أعظم النعم على المسلم ، فصاحب هذا الذكر كلما خطر في قلبه خاطر أو أراد أن يقوم بعمل أو خاطبه أحد تذكر الله جل وعلا حالاً وتذكر الحساب في الآخرة والجنة والنار فيكون كلامه وسلوكه مبنيّا على هذا التذكر ، وقلما يَضِلّ أو يَزِلّ من كان قلبه عامرًا بذكر الله تعالى واليوم الآخر ، لأنه مستمر في محاسبة نفسه في الدنيا حتى يلقى الله تعالى وقد محّص نفسه وطهرها من المخالفات .

وفي بشر بن الحارث يقول إبراهيم الحربي : ماأخرجَتْ بغداد أتم عقلا من بشر ولاَ أحفظ للسانه ، كان في كل شعرة منه عقل ، وَطِئَ الناس عقبه خمسين سنة ماعُرِف له غِيبة لمسلم ، مارأيت أفضل منه[٣] .

وهذا كلام جيد حيث وصفه بكمال العقل وجعل مسوغ ذلك كونَه راقب نفسه مراقبة تامة وسار بها على صراط مستقيم متجنبًا مواقع الزلل ، ولاأدلّ على ذلك من كونه عاش خمسين سنة متبوعًا من الناس ولم يُعرف له غيبة لمسلم .

ومن كلماته الراشدة التي تدل على تفوقه في هذا المجال قوله «إذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٠ - ٤٧١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٢ .

أعجبك الكلام فاصْمُتْ ،وإذا أعجبك الصمت فتكلم »[(١)] .

فهذا دليل على الاستسلام التام لله تعالى والبراءة من حظ النفس، فالكلام والصمت يحكمهما ابتغاء رضوان الله تعالى لا رغبة النفس ، فقد يكون الكلام في موطن أفضل لأنه يطهر النفس من الرياء وقد يكون الصمت أفضل لهذا السبب نفسه .

وذكر الحافظ ابن كثير خبر أخواته التقيات فقال : وذكر الخطيب أنه كان له أخواتٌ ثلاث وهن : مُخَّة ، ومُضغة وزبدة ، وكلهن عابدات زاهدات مثله وأشد ورعا أيضا ، ذهبت إحداهن إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت : إني ربَّما طَفِئ السراج وأنا أغزل على ضوء القمر ، فهل عليَّ عند البيع أن أُميز هذا من هذا ؟ فقال: إن كان بينهما فرق فميِّزي للمشتري، وقالت له مرة إحداهن : ربما تمرُّ بنا مشاعل بني طاهر في الليل ونحن نغزل فنغزل الطاق والطاقين والطاقات فخلِّصني من ذلك ، فأمرها أن تتصدق بذلك الغزل كله لَمَّا اشتبه عليها معرفة ذلك المقدار ، وسألته عن أنين المريض أَفيه شكوى؟ قال : لا ، إنما هو شكوى إلى الله عز وجل ، ثم خرجت فقال لابنه عبد الله : يابني اذهب خلفها فاعلم لي من هذه المرأة ! قال عبدالله: فذهبت وراءها فإذا هي قد دخلت دار بشر ، وإذا هي أخته مُخَّة[(٢)] .

فهؤلاء الأخوات الثلاث الطاهرات نشأن في بيت العالم العابد الزاهد بشر بن الحارث فرضعن من لبان الورع، ولبِسْن من لباس

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٢ .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٣١١ .

التقـوى، فكانت فيـهن تلك الاستقـامة التي تمثلت في العـفة والورع والخشية ،فحينما اشتبه الأمر عليهن فيما إذا غزلن تحت ضوء القمر أو تحت مشاعل الآخرين التي يصل ضـوؤها إلى بيتهن تورعن عن ذلك الكسب لورود الشبهة عليهن من ذلك، وهذا دليل على الحرص الأكيد لدى هؤلاء الأخوات على تنقية موارد الكسب من أي شبهة.

ونظرًا لسمو هذا التفكير ودلالته الواضـحة على قوة إيمان صاحبه وعمق يقـينه فإن الإمام أحمـد قد اهتم بمعرفة تلك الفـتاة التي أَلْقَتْ عليه تلك الأسئلة .

وإذا كان الإنسان دقيق المحاسبة لنفسه شديد الحرص على تخليص كـسبـه من الشوائب فـإنه لايُخشَـى عليه- بإذن الله تعـالى- من أن يصرف ماله في طريق المحـرمات أو الشبهـات،فإن الذي يحرص على دخول الدرهم الحلال يكون أحرص على خروجه في حلال .

من أخبار يوسف بن معدان رحمه الله :

قال الحافظ ابـن كثير في ترجمـة محمد بن يوسـف بن معدان: وكان لايشـتري خبـزه من خباز واحـد،ولابَقْلَه من بقال واحـد،كان لايشتري إلا ممن لايعرفه،يقول:أخـشى أن يحابوني فأكون ممن يعيش بدينه (١) .

فهذه صورة من صور الورع ، حيث كان هذا العابد الزاهد يتورع عن شراء حوائـجه ممن يعرفونه خشـية أن يراعوه في الثمـن لصلاحه وتقواه فيكون قد أكل الدنيا بدينه .

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٩٢ .

وهذا مـذهب جليل في الورع سبـقت له أمـثلة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره .

من أخبار الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله :

ومن أمثلة الخوف من الله تعالى وخشيته ماجاء في وصف الإمام أحـمد بن حنبـل ، قال المروذي : كـان أبو عـبد الله إذا ذَكـر الموت خنقته العبرة، وكان يقول : الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان عليّ كل أمر الدنيا ، إنما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس وإنـها أيام قلائل ، مـاأعدل بالفـقر شـيئًـا ، ولو وجدت السبيل لخرجت حتى لايكون لي ذِكْرَ [1] .

فهذا الإمام الجليل على ماشتهر من الإيمان القوي والعمل الصالح والورع الشديد يُؤثِّر عليه ذكر الموت حتى تخنقه العبرة، لامن التأسف على فراق الدنيـا ، فليس من أهل هذا الشأن ، وإنما خـشيـةً مما بعد الموت من الحساب والجـزاء ، فهو لقوة يقـينه ومعرفته بالـله تعالى قد عظمت خشـيتـه واشتد إشـفاقـه ، حتى تضاءل في إحـساسـه عمله الصالح، وتضخـم في ضميره الشعـور بالتقصيـر وفوات مايحب من الكمال ، ومَنْ كان بالله أعرف كان من الله أخوف .

ومن فـزعه من الدنيـا كان يهـرب من الشهـرة، ولكنها كـانت تلاحقـه ، فكان الناس يتكاثرون عليه، ويُكـثرون من مدحـه، وكان يخـشى على دينه من ذلك، ولكن إذا كـانت الخشـية من الله تعـالى تلازم المسلم فـإنه بإذن الله تعـالى يكون في حـصـانة من هذا المرض

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٦ .

الخطير من أمراض القلوب ، ألا وهو حب الجاه والسمعة .

ومن أخبـاره في الورع ماروُي عـن سليمـان الشاذكونـي قال في الثناء على الإمام أحمد بن حنبل : لقد حضرت من ورعه شيئا بمكة: أنه أرهن سطلاً عـند فـامِيّ [1] فأخذ منه شـيئًا لِيُقوِّته فـجاء فأعطاه فكَاكه، فـأخرج إليـه سطلين، فقال : انظر أيهـما سطلك ؟ فـقال : لاأدري أنت في حل منه ومـاأعطيتك ، ولم يأخـذه ، قال الفـامي : والله إنه لسطله، وإنما أردت أن أمتحنه فيه [2] .

فهذا مثال جـيد في الورع وترك الشبهات ، فحينمـا اشتبه الحلال بالحرام عند الإمام أحـمد ترك الحلال خشية الوقـوع في الحرام، وكان من شدة ورعـه أنه ترك السطلين حالاً ولم ينتظر حتى يبـحث الفامي ويتأكد من سطله خشية أن يعيِّن له أحدهما وقد يكون غيره .

ومما جاء في ورع الإمام أحمد بن حنبل ماذكـره أحمد بن محمد التسـتري قال : ذكروا أن أحمد بن حنبل أتى علـيه ثلاثة أيام ماطَعِم فيها فبعث إلى صديق له فاقترض منه دقيقا ، فجهزوه بسرعة، فقال: كيف ذا ؟ قالوا : تنور صالح مُـسْجَر ، فخبزنا فيه، فـقال: ارفعوا، وأمر بسدِّ باب بينه وبين صالح .

ذكره الذهبي وقال : لكونه أخذ جائزة المتوكل [3] .

وهكذا تورع الإمام أحمد عن أكل الخـبز الذي خُبِز في تنور ولده

---

(١) أي بائع الفوم أي الحِمِّص ويطلق على الحنطة وغيرها من الحبوب .

(٢) سير اعلام النبلاء ١١/٢٠٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤ .

صالح لكـونه قبل جائزة الخليفة، ولعله يعـتقـد بأن مصـدر المال قد اختلط بحرام فيكون مـشتبها فيه ، فامـتنع من الاستفادة منه بأي نوع وإن كان في هذا الشيء البسـيط مع شدة احتياجه للطعـام ، فما هذه النفس القـوية التي تحمل الجسـم على تحمُّل هذه الشـدائد ؟! وماهذا الإيمان القوي الذي يتحكم في السلوك هذا التحكم المتقن ؟!

ومن أخباره في الورع والعـفة ماذكره المرُّوذي قـال : سمعت أبا الفوارس، ساكنَ أبي عبد الله[1] يقول: قال لي أبو عبد الله: يامحمد أَلْقَى الصـبي المقـراض في البئـر، فنزلت فـأخرجـتـه فكتب لي إلى البـقـال: أعطه نصف درهـم ، قلت : هذا لايسـوى قـيـراط، والله لاأخذته، قـال: فلما كان بَعْـدُ دعاني فقـال : كم عليك من الكراء؟ فقلـت: ثلاثة أشهر ، قـال: أنت في حلٍّ ، ثم قال أبو بـكر الخلال: فـاعتـبروا ياأولي الألـباب والعلم، هل تجـدون أحـدًا بلغكم عنه هذه الأخلاق ؟![2].

نعم إنها أخلاق عالية في العفة والسماحة والكرم، فبالرغم من أن هذا الرجل الذي قدَّم هذه الخدمة للإمام أحمد قد أبى أن يأخذ مقابلها وأقسم على ذلك فإن أبا عبد الله قد أهمه هذا الأمر، وقد يكون فكر بأن ذلك الرجل إنما تعفف عن أخذ الأجرة إجـلالاً له، وأنه لو قدَّمها له غيره لأخذها ، وكأنه لايريد أن يخـرج من هذه الدنيا ولأحدٍ عليه حق وإن كان من باب بذل المعروف وقد سمحت نفس باذله به ، لأن

(١) يعني الإمام أحمد ، أي الذي يسكن في بيته بالأجرة .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٩ .

الإمام أحمد له مع نفسه سياسة شديدة في هذا الجانب، وهو أحرص على صحيفته يوم القيامة أن تدنس ولو بنقطة ضئيلة من السواد منه على بقاء كل مايملك من الدنيا .

ومن أخبار الإمام أحمد في الزهد والقناعة مارُوِي عن الحافظ إسحاق بن راهويه أنه قال : لما خرج أحمد إلى عبد الرزاق انقطعت به النفقة ، فأكْرَى نفسه من بعض الجمَّالين إلى أن وافى صنعاء، وعرض عليه أصحابه المواساة فلم يأخذ (١) .

وهذا يعتبر تواضعا من الإمام أحمد حيث عمل بالأجرة مع الجمالين ليسد بذلك حاجته الضرورية .

وعدم قبوله مواساة إخوانه دليل على شدة تحريه في الأمور المالية، فقد كان شديد الحذر من المشتبهات التي لايقطع بإباحتها، فكان يخشى أن يكون في أموال الناس ماهو كذلك، ومن طريقته أنه يغلِّب جانب الحرمة أو الكراهة في الأمور المشتبهة احتياطًا لدينه .

وكما كان الإمام أحمد زاهدًا في المال فإنه كان زاهدًا في الجاه، يقول الحافظ يحيى بن معين : مارأيت مثل أحمد ، صحبناه خمسين سنةماافتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير (٢) .

ويريد بالخير ماهو فيه من السمعة الدينية العالية ، ولعله أراد أيضًا رفعة النسب حيث كان أحمد بن حنبل من العرب، وأكثر العلماء الذين كانوا معه من الموالي كما جاء في بعض الأخبار .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤ .

ومن ذلك ماذكره الخَلاَّل قال : حدثنا المَرُّوذي قال: قلت لأبي عبد الله : قال لي رجل : مِنْ هنا إلى بلاد الترك يدعون لك [(١)] ، فكيف تؤدي شكر ماأنعم الله عليك ومابث لك في الناس ؟ قال: أسأل الله أن لايجعلنا مرائين [(٢)] .

في هذا الخبر بيان ماكان يتصف به الإمام أحمد من اليقين الراسخ والفقه العميق حيث لم ينخدع بثناء الناس عليه، بل ازداد بذلك إيمانا وخشية لله تعالى .

وقال المرُّوذي : أدخلتُ إبراهيم الحُصْريَّ على أبي عبد الله - وكان رجلا صالحا ، فقال : إن أمي رأت لك منامًا هو كذا وكذا، وذَكَرَتِ الجنة ، فقال : ياأخي إن سهل بن سلامة كان الناس يخبرونه بمثل هذا ، وخرج لسفك الدماء ، وقال : الرؤيا تسر المؤمن ولاتغره[(٣)].

نعم فالرؤيا الصالحة تسر المؤمن بما فيها من بشرى الخير، وقد سمى النبي ﷺ رُؤَى الخير مبشرات ، ولاتغره بالتكاسل عن العمل الصالح أو التساهل في مقارفة الأمور التي نهى عنها الإسلام، بل تدفعه إلى المزيد من التقوى ليكون أهلا لما بُشِّر به .

وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي يقول : وددت أني نجوت من هذا الأمر كفافا لاعلي ولا لي [(٤)] .

---

(١) يعني للإمام أحمد .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٣١٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/٢٢٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١١/٢٢٧ .

وهذا يعني أن خشيــة الله تعالى غلبت عليه فتــمنى أن ينجو من عــذابه وإن فــاته ثــوابه ، وهذا من دلائل تعظيم اللــه تعــالى وشــدة استــحضار أهــوال اليوم الآخر ، وقــد رُويت هذه الكلمات عن أمــير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبيل وفاته .

وقال عباس الدُّوري : حدثنا علي بن أبي فَزَارَة جارُنا قال: كانت أمي مقعدة من نحو عشرين سنة ، فقالت لي يوما : اذهب إلى أحمد ابن حنبل فسله أن يدعــو لي ، فأتيت فدققت عليــه وهو في دهليزه، فقال : مــن هذا ؟ قلت : رجل سألتني أمي وهي مقعــدة أن أسألك الدعاء ، فسمعت كلامه كلام مغضب ، فقال: نحن أحوج أن تدعو الله لنا ، فولَّيت منصرفــا ، فخرجت عجوز فقالت: قــد تركته يدعو لها، فجئت إلى بيتنا ودققت الباب فخرجَتْ أمي على رجليها تمشي.

ذكره الإمام الذهبي وقال :هذه الواقعة نقلها ثقتان عن عباس(1).

فهــذا مثل من تواضع الإمــام أحمــد الجمّ ، والتهــوين من شأن نفسه، ومحــاولة القضاء على أسباب الشرف الدنيوي ، فقــد استقبل ولد تلك المرأة بجفاء وأظهر الغــضب من طلبه ذلك، ولكنه بعد ذلك دعا لتلك المرأة في خلوته ومــاعلم أن تلك العجوز التي نقلت خــبره تسمع دعــاءه، فهــو قد تذمَّمَ من حــبس المعروف عن المسلمين فــدعا لتلك المرأة المقعدة ، ولكنه لايريد من الناس أن يــرفعوا من شأنه وأن يُكثروا من الثناء عليــه فجعل دعاءه ســرّا ، ليبلغ مقصــده من غير أن يترتب عليه شيء مما يحذره .

---

(1) سير أعلام النبلاء ٢١١/١١ .

ولقد بلغ هذا الإمام بذلك درجات عليا في مقام التوحيد، وهذا من أهم أسباب إجابة الله تعالى دعاءه .

وقال صالح بن أحمد: كان أبي إذا دعا له رجل يقول: الأعمال بخواتيمها (١) .

وهذه دعوة من الإمام أحمد إلى عدم الاغترار بالعمل ، فإن العبرة ليست بالعمل الحاضر وإنما هي بما يَخْتِم به الإنسان حياته، والذي يحمل هذا الشعور يكون لديه رصيد من الحصانة الإيمانية يمنعه- بإذن الله تعالى - من الانحراف عن الطريق المستقيم ، لأنه يحمل معه في فكره دائمًا الحذرَ من سوء الخاتمة، ومَن حذِر من شيء كان أجدر بالوقاية منه .

وقال محمد بن الحسن بن هارون : رأيت أبا عبد الله إذا مشى في الطريق يكره أن يتبعه أحد .

ذكره الإمام الذهبي وقال : إيثار الخمول والتواضع وكثرةُ الوجل من علامات التقوى والفلاح (٢) .

أقول : وإن هذا التواضع يعتبر من العواصم الواقية من عُجْب النفس، فإن كثرة الأتباع قد يكونون سببا في ابتلاء المتبوع بالغرور.

قال المرُّوذي : قلت لأبي عبد الله : ماأكثر الداعي لك ! قال: أخاف أن يكون استدراجا ، بأي شيء هذا ؟ وقلت له : قدِم رجل من طرسوس فقال : كنا في بلاد الروم في الغزو إذا هدأ الليل رفعوا

(١) سير اعلام النبلاء ٢٢٦/١١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢٦/١١ .

أصواتهم بالدعاء : ادعوا لأبي عبد الله ، وكنا نمد المنجنيق ونرمي عن أبي عبـد الله ، ولقد رُمي عنه بحـجر والعلج على الحـصن متـترس بدرقة فذهب برأسه وبالدرقة ، قال : فتـغيَّر وجه أبي عبد الله وقال: ليته لايكون استدراجا ، قلت : كلاً [1] .

هذا الخبـر يصور عِظَم منزلة الإمام أحـمد في قلوب معـاصريه، حيث يدعوا له المجاهدون في ليالي الجهـاد ، ويتيمّنون به في قتالهم، كمـا يبين عِظَم منزلتـه عند الله تعالى حـيث وَفَّق المجاهدين لإصـابة الهدف حينما جعلوا السهم باسمه .

وفيـه بيان لتواضع الإمـام أحمد الشـديد وعِظَم خشيـته من الله تعالى حيث خاف من أن يكون ما انتشر له من الذكر الحسن استدراجًا من الله تعالى .

لقد كان المظنون بعامة الناس أن يظهر على وجوههم الفرح حينما يسـاق إليهم مـثل هذا الخبـر ، لكن الإمـام أحمـد تغيـر وجهـه من الخوف، لأنه تذكر استدراج الله تعالى عبادَه ، فغلَّب جانب الحذر منه على الفرح بما يبشِّر برضاه عنه .

ومن ذلك مـاذكره الخـلال عن محـمـد بن علي بن بحر قـال: سمعت « حُسْنَ » أمَّ ولد أبي عبد الله - يعني الإمام أحمد بن حنبل- تقول : قلت لمولاي : اصرف فَرْدَ خلخـالي ، قال: وتطيب نفسك؟ قلت : نعم ، فبِيعَ بثمانية دنانير ونصف، وفرَّقتها وقت حملي، فلما

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٠ .

ولدت حَسَنًا أعطى مولاتي كـرامة درهما، فقال : اشتـري بهذا رأسًا فجاءت به فـأكلنا، فقال : ياحُسْنُ ماأملك غـير هذا الدرهم، قالت: وكان إذا لم يكن عنده شيء فرح يومه .

قالت أم ولده حُسْن: ولما خرج إلـى«سرَّ من رأى»كنت قد غزلت غزلاً لينا، وعملت ثوبا حسنا، فلما قدم أخرجته إليه، وكنت قد أعطيت كراءه خـمسـة عشـر درهمـا من الغلَّة، فلما نظر إليـه قال: مـاأريده، قلت: يامولاي عندي غير هذا، فدفعـت الثوب إلى «فورانَ»فباعه باثنين وأربعين درهما، وغزلت ثوبا كبيرا ، فقال : لاتقطعيه ، دعيه ، فكان كفنه(١).

فهذا مثل بليغ في القناعة باليسـير والزهد في متاع الدنيا، إنَّ تجرد النفس من التعلق بالدنيا دليل على تعلـقها بماهو أعظم من ذلك، فإن النفـوس مجبـولة على حب الدنيـا، ولاترتفع بتفكيـرها عن ذلك إلا بدافع من هيـمنة المعاني السامـية على النفس، وقـد كان تفكيـر الإمام أحمـد محصـورًا في بلوغ رضوان الله تعـالى والسعـادة في الآخرة، فأصـبح يفرح حـينما يخلو بيـته من المال حتى لاينشـغل به عن ذلك الهدف السامي.

ولقد أثَّر على من حوله بزهده وقناعته حتى جاءت أم ولده بشيء من حُلِيِّهـا فتصدقت بثمنـه خدمة لذلك الهدف السـامي الذي رسَّخه الإمام أحمد في نفوس من حوله .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٣٣٢ - ٣٣٣ .

ومن ذلك ماروِي عن إسماعيل الديلمي قال: كنت في البيت مع أحمد بن حنبل فإذا نحن بداقٍّ يدق الباب ، قال: فخرجت إليه فإذا أنا بفتى عليه أطمار شَعْر ، فقلت : ماحاجتك ؟ قال: أريد أحمد بن حنبل ، قال : فدخلت إليه فقلت : ياأبا عبد الله بالباب شاب عليه أطمار شعر يطلبك ، قال : فخرج إليه ، فسلم عليه ، فقال له : ياأبا عبد الله أخبرني ماالزهد في الدنيا ؟ فقال له أحمد ؟ حدثنا سفيان عن الزهري : أن الزهد في الدنيا قِصَر الأمل ، فقال له : ياأبا عبد الله صفه لي- قال: وكان الفتى قائما في الشمس والفيء بين يديه-قال: هو أن لاتبلغ من الشمس إلى الفيء، قال: ثم ذهب لِيولِّي، قال فقال له أحمد: قف، قال: فدخل فأخرج له صرة فدفعها إليه، فقال: ياأبا عبد الله من لايبلغ من الشمس إلى الفيء أيش يعمل بهذه، ثم تركه وولَّى (١) .

وهكذا روى الإمام أحمد بيان الزهد عن الإمام الزهري بهذه العبارة القصيرة ،ولكنها كانت كافية شافية ، فإن من رُزِق قصر الأمل في البقاء في الحياة الدنيا لاتطمح نفسه للتوسع في كماليات الحياة لأنه سيكون مشغولا بالعمل لما بعد الموت ولن يخطط لأعمال كبيرة في حياة قصيرة .

إن كثيرا من المسلمين الذين يبالغون في الاهتمام بأمور الدنيا إنما خدعهم طول الأمل بالبقاء على قيد الحياة، وقد يفاجِيءُ بعضَهم الأجلُ في وقت سريع لم يكن يتوقعه ولاقريبا منه .

---

(١) طبقات الشافعية ١٠٨/١ .

وعـبارة الإمـام الزهري ليست بيـانا لمعنى الزهد، وإنما هي بيـان لأهـم البواعث التي تبـعث على الزهد ، ولقد كان الإمام أحـمد يعلم أن ذلك الشاب يعرف معنى الزهد، وأنه إنما يريد معرفة أهم أمر يعينه عليه ، فكان جواب الإمام أحمد مناسبا لحال السائل .

ومن ذلك مـاأخرجه القـاضي محـمد بن أبي يعلى مـن حديث عبدالله بن الإمـام أحمدَ بن حنبل قال : مرَّت بـنا جنازة ونحن قعود على مسجد أبي ، فقال أبي : مـاكانت صَنْعَةُ صاحب الجنازة؟ قالوا: كانت يبيع على الطريق ، قال: فـي فنائه أو في فناء غيره؟ قالوا: في فناء غيره ، قال : عَزَّ عليَّ عَزَّ عليَّ ، إن كـان فناء يتيم أو غيره فقد ذهبت أيامه عُطلا ، ثم قال : قم نصلي عليـه عسى الله أن يكفِّر عنه سيـئاتـه ، قال : فكبَّـر عليه أربع تكبـيرات ، ثم حـملناه إلى قـبره ودفنَّاه، ونام أبي تلك الليلة وهو مُغتَمٌّ به ، فإذا نحن بامرأة من بعض جيـراننا جاءت إلى أبي ، فقـالت : ياأبا عبد الله ألا أبشـرك بشارة؟ فقال لها : قولي يامباركـة ، أنت امرأة صالحة ، قالت: نمت البارحة فرأيت صـاحب الجنازة الذي مررتَ مـعه وهو يجري فـي الجنة جَرْيًا وعليه حلَّتان خضراوان ، فقلت له : مـافعل الله بك ؟ قال: غضبان عليَّ وقت خروج روحي ، فـصلَّى علي أحمد بن حنبل فغـفر ذنوبي ومتَّعني بالجنة (١) .

في هذا الخبر مـثل من إحساس الإمام أحمد الدقـيق نحو الحلال والحرام والشبـهات ، فإنه لمَّا علم أن صاحب الجنازة يسـتعمل الطريق

---

(١) طبقات الحنابلة ٢/٥٨ .

العام للتجارة خشي أن يكون اعتدى على ما يخص بعض الجيران من المنافع التي تتبع البيوت فاهتمَّ بالدعاء له ، وقد أفادت تلك الرؤيا الصالحة بأن الله تعالى غفر لذلك التاجر بسبب دعاء الإمام أحمد له.

وهذا الذي لاحظه الإمام أحمد يغفل عنه بعض المسلمين، حيث ينافسون جيرانهم على المنافع التي تتبع دورهم ، وهم أولى بها من غيرهم ، وبهذا يقع هؤلاء في آثام لم يحسبوا لها حسابا .

ويمكن التمثيل لذلك فيما يتعلق بهذا العصر بالاستفادة من ظل البيوت في إيقاف السيارات فصاحب البيت أولى من غيره بذلك .

وإن من خير نتائج الورع أن صاحبه يكون من عباد الله المخلصين كما ذكر الحافظ ابن كثير عن عبد الله بن الإمام أحمد قال: حين احتُضِر أبي جعل يُكثر أن يقول : لا ، بَعْدُ ، لا ، بعد ، فقلت: ياأبة ماهذه اللفظة التي تلهج بها في هذه الساعة ؟ فقال: يابني إن إبليس واقف في زاوية البيت وهو عاضٌ على إصبعه وهو يقول: فُتَّنِي ياأحمد ! فأقول : لا ، بعد ، لا، بعد .

قال الحافظ ابن كثير : يعني لايفوته حتى تخرج نفسه من جسده على التوحيد ، كما جاء في بعض الأحاديث « قال إبليس : يارب وعزتك وجلالك ما أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله : وعزتي وجلالي ولاأزال أغفر لهم مااستغفروني » (١) .

فالإمام أحمد بن حنبل ممن دحروا الشيطان واستصغروه وكادوه

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٣٥٥ .

بإيمانهم الراسخ وعملهم الصالح ، ونجد أن الشيطان - كما جاء في هذا الخبر - تبدو عليه الحسرة إذا حضرت الوفاة مؤمنا تقيّا صالحا مخلَصا ، لأنه يكون قد فاته إغواؤه ، وقد كتب الله عليه أن لاسبيل له على إغواء عباد الله المخلَصين ، وقد سلَّم بذلك أمام الله تعالى كما جاء في قوله جل وعلا في حكاية قولة إبليس﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [**الحجر** : ٣٩، ٤٠] .

ونجد فقه الإمام أحمد حينما قال لإبليس « لا ،بعد ، لا بعد» يعني أنني أيها الشيطان لن أسْلَم منك مادامت روحي في جسدي.

وإذا كان الشيطان قد قال هذه الكلمة على سبيل التحسر والألم فإنها بالنسبة للإمام أحمد شهادة تزكية من عدو لدود، والحق ماشهدت به الأعداء .

من أخبار سَرِيّ السَّقطي رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة « سَرِي السَّقطي » قال: وكان عنده مرة لوز فساومه رجل على الكُرِّ [1] بثلاثة وستين دينارا، ثم ذهب الرجل فإذا اللوز يساوي : الكرُّ تسعين دينارا، فقال له[يعني الرجل] : إني أشتري منك الكر بتسعين دينارا، فقال له: إني إنما ساومتك بثلاثة وستين دينارا وإني لاأبيعه إلا بذلك، فقال الرجل: أنا اشتري منك بتسعين دينارا ، فقال : لا أبيعك هو إلا بما

(١) هو نوع من المكاييل الكبيرة .

ساومتك عليه ، فقال له الرجل : إن من النصح أن لاأشتري منك إلا بتسعين دينارا ، وذهب فلم يشتر منه [1] .

فهذا مثال جيد في العفة والورع والزهد في الدنيا ، ولقد كان كل من البائع والمشتري يتصفان بهذه الصفات العالية، فهما مثالان للتربية الإسلامية ، فلقد كان بإمكان كل واحد منهما أن يوافق صاحبه فيما عرض عليه ويأخذ المبلغ الكبير، لكنهما كانا يعتبران المبلغ الكبير هو في أن يكسبا حلالاً وإن قلّ ، وأنْ يُعفَّا أنفسهما من كل شبهة حاكت في النفس .

من أخبار ابن أبي حاتم رحمه الله :

ومن أخبار العلماء فيما يتعلق بالخشية والخوف من الله تعالى ماذكره الإمام الذهبي من خبر علي بن الحسين بن الجنيد قال: سمعت يحيى بن معين يقول : إنا لَنَطْعَن على أقوام لعلهم قد حَطُّوا رحالهم في الجنة من أكثر من مائتي سنة .

قال الذهبي : لعلها من مائة سنة ، فإن ذلك لايبلغ في أيام يحيى هذا القدر .

قال ابن مَهْرَوَيه : فدخلت على عبد الرحمن بن أبي حاتم وهو يقرأ على الناس كتاب « الجرح والتعديل » فحدثته بهذا فبكى وارتعدت يداه حتى سقط الكتاب ، وجعل يبكي ، ويستعيدني الحكاية.

قال الذهبي : أصابه على طريق الوجل وخوف العاقبة ،وإلا

(١) البداية والنهاية ١١/١٥ .

فكلام الناقد الوَرِع في الضعفاء من النصح لدين الله والذَّبِّ عن السنة[1].

فهذا مثل على الخشية والخوف من الله تعالى كما قال الإمام الذهبي وإلا فإن الحافظ ابن أبي حاتم كان من العبَّاد الورعين ولايُظَنُّ به أنه يتجنَّى على أحد من الرواة ، لكنْ لقوة خشيته وشدة خوفه من الله عز وجل تأثر وبكى خشية أن يكون لَحِقَه في دينه شيء من الكلام في الرواة .

فهذه كلمة صدرت من الإمام أبي زكريا يحيى بن معين ، لعله أراد بها الحدَّ من المسارعة في نقد العلماء ، وإلا فهو يعلم ويعلم غيره من علماء الجرح والتعديل أن المخلصين من النُّقاد ماأرادوا بنقدهم الحط من شأن الرواة ، وإنما أرادوا الذَّبَّ عن سنة رسول الله ﷺ .

ووصلت هذه الكلمة إلى مسامع عالم رباني بذل حياته في خدمة السنة النبوية، فيغلب عليه الخوف من الله تعالى ، وتهيمن على قلبه خشيته فيبكي ويسقط الكتاب من يده، لا لأنه تذكر مظلمة صدرت منه في حق العلماء، وإنما لغلبة مقام الخوف عليه الذي يغلب مقام تحكيم العقل، ويجعل صاحبه ينظر إلى الأمر بميزان وجدانه وعاطفته لابميزان تفكيره، فيغلبه البكاء من تذكر هول الحساب بغضِّ النظر عن كونه مُحِقًا في نقده لأولئك الرواة أو مبطلا .

وفي ذلكم المشهد يبدو الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم متين

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٨ .

الدين راسخ العقيدة، حيث غلب على قلبه حالاً مشهد الحساب وأهوال يوم القيامة فنسي في ذكرها مسوغات ذلك النقد ووجوه شرعيته.

وإذا كان هذا العالم الجليل وأمثالهُ يخشون الله تعالى ويخافون على دينهم في الكلام على الرواة مع أن هدفهم خدمة السنة النبوية والدفاع عن الدين فكيف بمن ينتهكون أعراض المسلمين ويشوهون سمعتهم لأغراض دنيوية ؟!

من أخبار الإمام البخاري رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ البغدادي من خبر أبي سعيد بكرِ بن منير قال: كان حُمِل إلى محمد بن إسماعيل -يعني الإمام البخاري- بضاعة أنفذها إليه فلان، فاجتمع بعض التجار إليه بالعشية فطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم، فقال لهم: انصرفوا الليلة، فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه تلك البضاعة بربح عشرة آلاف درهم فردهم وقال: إني نويت البارحة أن أدفع إلى الذين طلبوا أمس بما طلبوا أول مرة، فدفعها إليهم بماطلبوا - يعني الذين طلبوا أول مرة- ودفع إليهم بربح خمسة آلاف درهم وقال : لاأحب أن أنقض نيتي[1].

فهذا مثال عال في العفة والقناعة من الإمام البخاري فقد حاسب نفسه على نية البيع على التجار الأولين الذين ساموا البضاعة بنصف ماسامها به الآخرون ، مع أنه لم يتم بينهم عقد ولامجرد وعد بذلك.

---

(١) تاريخ بغداد ٢/١١ - ١٢ .

وهذا الخلق الكريم من لزوم ما لايلزم ابتغاء وجه الله تعالى دليل على قوة الإيمان وعمق اليقين وغلبة التفكير بالآخرة على التفكير بالدنيا.

وقال محمد بن أبي حاتم كاتبُ البخاري: وكان لأبي عبد الله- يعني البخاري - غريم قطع عليه مالا كثيرا ، فبلغه أنه قدم «آمل» ونحن عنده بفربر، فقلنا له : ينبغي أن تعبر-يعني النهر-وتأخذه بمالك، فقال: ليس لنا أن نروعه .

ثم بلغ غريمَه مكانُه بفربر فخرج إلى خوارزم، فقلنا: ينبغي أن تقول لأبي سلمة الكُشاني عامل آملَ ليكتب إلى خوارزم في أخذه واستخراج حقك منه، فقال: إنْ أخذت منهم كتابا طمعوا مني في كتاب، ولست أبيع ديني بدنياي، فجهدنا، فلم يأخذ حتى كلمنا السلطان عن غير أمره فكتب إلى والي خوارزم .

فلما بلغ أبا عبد الله ذلك وجد وجدا شديدا ، وقال: لاتكونوا أشفق عليَّ من نفسي ، وكتب كتابا ، وأردف تلك الكتب بكتب، وكتب إلى بعض أصحابه بخوارزم أن لايتعرض لغريمه إلا بخير .

فرجع غريمه إلى آمل وقصد إلى ناحية مرو، فاجتمع التجار وأُخبر السلطان بأن أبا عبد الله خرج في طلب غريم له ، فأراد السلطان التشديد على غريمه ، وكره ذلك أبو عبد الله وصالح غريمه على أن يعطيه كل سنة عشرة دراهم شيئًا يسيرا، وكان المال خمسة وعشرين ألفا، ولم يصل من ذلك المال إلى درهم ولا إلى أكثر منه(١).

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٤٦ .

وهكذا رأينا مثلا من سماحة الإمـام البخاري وكرمه حتى مع من أساء إليه ، فذلك الرجل الذي أخذ مـال أبي عبد الله ولم يقضه إياه يسيء إليه ويتهرب منه، ولكن أبا عبد الله يحسن إليه ، ولايرضى من تلامذته وأصحابه أن يروعوه .

وقد كان الإمام البخـاري بذلك من أبرز المطبقين لسنة رسول الله التي عكف على حفظها وتدوينها عمرا طويلا .

ولفتة كريمة من أبي عبد الله حينما عرض عليه أصحابه أن يكتب لوالي آمل ليستـخرج له حقـه من غريمه ، فتـذكَّر أن احتيـاجه للولاة يجعله أسـيرا لهم ، فكما قضـوا له هذه الحاجة فـهم قد يريدونه في حاجة من حوائجهم التي قد تشتمل على مخالفة ، ولعله ترجح لديه أن ذلك الوالي من هذا النوع وإلا فإنه ليس ممن يبخلون بالإحسان إذا كان خالصا لوجه الله تعالى وموافقا لشريعته .

فـمن أجل ذلك رفض ذلـك العـرض بشـدة ، وسـاءه تصـرف أصحـابه حينـما كلمـوا السلطان في أمره ، وكـتب الكتب في إبطال مفعول ذلك التصرف حتى لايمسوا غريمه بأي أذى .

فهـذا مثل على السـماحة وعـدم الإلحاح على الدنيـا وإن كانت بحق، فكيف بمن يلحون عليها وهي مشوبة بالباطل ؟!

ومن ذلك مـاذكـره الإمام الذهبي قـال: وقـال محـمـد بن أبي حاتم(١) ركبنا يوما إلى الرمي ونحن بِفِرَبْرَ ، فخرجنا إلى الدرب الذي يؤدي إلى الفُرضة (٢) ، فجعلنا نرمي ، وأصـاب سهم أبي عبد الله

(١) يعني كاتب الإمام البخاري .

(٢) أي جانب النهر .

وتد القنطرة التي على نهر ورّادة فانشق الوتد ، فلما رآه أبو عبد الله نزل عن دابته فأخرج السهم من الوتد وترك الرمي ، وقال لنا : ارجعوا، ورجعنا معه إلى المنزل فقال لي : ياأبا جعفر لي إليك حاجة تقضيها؟ قلت: أمرك طاعة ، قال : حاجة مهمة - وهو يتنفس الصُّعَداء - فقال لمن معنا : اذهبوا مع أبي جعفر حتى تعينوه على ماسألته، فقلت: أيّة حاجة هي ؟ قال لي : تضمن قضاءها ؟ قلت : نعم على الرأس والعين ، قال : ينبغي أن تصير إلى صاحب القنطرة فتقول له: إنا قد أخللنا بالوتد فنحبُّ أن تأذن لنا في إقامة بدله أو تأخذ ثمنه، وتجعلنا في حِلّ مما كان منا .

وكان صاحب القنطرة حميدَ بن الأخضر الفربري، فقال لي : أبلغ أبا عبد الله السلام وقل له : أنت في حل مما كان منك ، وقال: جميع ملكي لك الفداء ، وإن قلت نفسي أكون قد كذبت ، غير أني لم أكن أحب أن تحتشمني في وتد أو في ملكي ، فأبلغته رسالته، فتهلّل وجهه واستنار وأظهر سرورا ، وقرأ في ذلك اليوم على الغرباء نحوًا من خمسمائة حديث ، وتصدق بثلاثمائة درهم (١) .

ففي هذا الخبر مثل من خشية الله تعالى يقدمه الإمام أبو عبدالله البخاري ، فبالرغم من كون الخطإ الذي وقع فيه بسيطا فإنه قد أعظم ذلك واغتم منه واهتم للاعتذار منه كثيرا ، وهكذا يكون السلوك النابع من قوة الإيمان ورسوخ اليقين ،حيث تظل المخالفة ماثلة في الفكر وإن صَغُرَتْ حتى يطمئن صاحبها إلى زوال آثارها .

وفي هذا الخبر بيان اهتمام أبي عبد الله البخاري بالرماية بالرغم

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤ .

من شَغَل جُلَّ وقته بالعلم، وذلك من تطبيق سنة رسول الله ﷺ في الحث على تعلم الرمي، فهو يطبّق ذلك كما يطبق سائر الأوامر الشرعية.

وبهذا الاهتمام الجاد يصبح العلماء وطلاب العلم كلهم من الرماة المتفوقين، فيستطيعون بذلك أن يشاركوا في الجهاد إذا لزم الأمر، ويصبحوا جيشا احتياطيا للأمة.

وفي هذا الخبر موقف يشكر لهذا الرجل الذي أظهر احتراما بالغا لعلماء الدين حيث فدى البخاري بكل مايملك، وهذا دليل على قوة الإيمان وصفاء القلوب.

ومما جاء في هذا المعنى ماذكره كاتب الإمام البخاري ابنُ أبي حاتم قال: ورأيته [يعني الإمام البخاري] استلْقَى على قفاه يوما ونحن بِفِرَبْرَ في تصنيفه كتاب « التفسير» وكان أتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث فقلت له: ياأبا عبد الله سمعتك تقول يوما: إني ماأتيت شيئًا بغير علم قط منذ عقلت، فأي علم في هذا الاستلقاء؟ فقال: أتْعَبْنا أنفسنا في هذا اليوم، وهذا ثَغْر من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت أن أستريح، وآخذ أُهبَة ذلك، فإن غافَصَنا العدو كان بِنَا حِراك.

قال ابن أبي حاتم: وكان يركب إلى الرمي كثيراً فما أعلمُني رأيته في طول ماصحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين، فكان يصيب الهدف في كل ذلك، وكان لايُسْبَق (١).

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٤، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٤.

ومن ذلك مارواه الخطيب البغدادي من حديث علي بن محمد بن منصور قال : سمعت أبي يقول : كنا في مجلس أبي عبد الله محمد ابن إسماعيل ، فرفع إنسان من لحيته قذاة فطرحها على الأرض، قال: فرأيت محمد بن إسماعيل ينظر إليها وإلى الناس، فلما غفل الناس رأيته مد يده فرفع القذاة من الأرض فأدخلها في كمه، فلما خرج من المسجد رأيته أخرجها فطرحها على الأرض (١) .

فهذا إحساس قوي من الإمام أبي عبد الله البخاري بحرمة المسجد وقداسته ، فالقذاة وإن كانت مثل الذرة لاينبغي أن تُرَمى في المسجد.

وليس من الحزم والاحتياط للدين أن يتساهل المسلم في سقوط بعض القَذَى منه في المسجد وإن صغر ، اعتماداً على أن هناك من يقوم بتنظيف المسجد ، فإنّ تعمد تدنيس المسجد استهانة به .

ومن أمثلة ورع الإمام البخاري ماذكره الحافظ الذهبي من أن بعض أصحابه قال له : يقولون إنك تناولت فلانا ، قال: سبحان الله ماذكرت أحدًا بسوء إلا أن أكون ساهيا ، ومايخرج اسم فلان من صحيفتي يوم القيامة (٢) .

فهذا مثل من ورع الإمام البخاري وعفة لسانه ، فما أجمل هذه السيرة الحميدة التي لا يذكر فيها صاحبها أنه ذكر أحدا بسوء في يوم من الأيام ، وإن من استطاع أن يملك لسانه فإنه أقدر على حفظ جوارحه الأخرى .

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٥ .

ولقد كان من شدة ورعه أنه كان يقول : ماأردت أن أتكلم بكلام فيه ذكر الدنيا إلا بدأت بحمد الله تعالى والثناء عليه (١).

وإن عبدا لايتكلم بكلام الدنيا إلا بعد حمد الله تعالى والثناء عليه جدير بأن يعصمه الله تعالى من الزلل ، فلن يُخَيِّب الله تعالى رجلا لجأ إليه وقدم رضاه .

ومن مواقف أبي عبد الله الإمام البخاري في التقوى والورع ماذكره عبد الله بن محمد الصارفي قال : كنت عند أبي عبد الله في منزله فجاءته جارية ، وأرادت دخول المنزل فعثرت على محبرة بين يديه، فقال لها : كيف تمشين ؟ قالت : إذا لم يكن طريق كيف أمشي؟ فبسط يديه وقال لها : اذهبي فقد اعتقتك ، قال: فقيل فيما بعد : ياأبا عبد الله أغضبَتْكَ الجارية ؟ قال: إذا كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما فعلت (٢) .

فهذا مثل بليغ في الورع والتقوى ، فلمجرد أن الإمام البخاريَّ تكلم على تلك الجارية بذلك الكلام الذي ليس فيه عنف ولاشدة خشي من إثم ذلك فرأى أن الاحتياط لدينه أن يعتق تلك الجارية، وهذا يدل على فقهه وإيمانه القوي .

ومن أخبار الإمام البخاري في الخشية ماذكره محمد بن أبي حاتم قال : وسمعته يقول لأبي معشر الضرير : اجعلني في حل ياأبا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٥٢ .

معشر ، فقال : من أي شيء ؟ قال : رَوَيْتَ يومًا حديثًا فنظرت إليك وقد أُعجِبْتَ به وأنت تحرك رأسك ويدك فتبسمتُ من ذلك ، قال: أنت في حلٍّ رحمك الله ياأبا عبد الله (١) .

فهذا مثل من الإحساس الدقيق بالمخالفات وإن صغُرت واستصحاب الفكر لها وإن طال أمدها ، فإن أصحاب القلوب المعمورة بالإيمان واليقين لاينسون الزلات وإن قلَّ حجمها وماتزال ماثلة في أذهانهم وهم في حال من الندم حتى يتأكدوا من زوال آثارها، وحيث إن المخالفات المتعلقة بحقوق الناس لابد لكمال التوبة منها من عفو أصحاب الحقوق فإن أبا عبد الله البخاري قد اعتذر لأبي معشر الضرير من تلك الابتسامة التي وَقَرَ في نفسه التفكير فيها وخشي من مَغَبَّتها يوم الحساب .

من أخبار الإمام الطبري رحمه الله :

ومن أخبار العلماء في باب الورع ماذُكر عن الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، وفي ذلك يقول أبو محمد الفرغاني: حدثني أبو علي هارون بن عبد العزيز أن أبا جعفر لما دخل بغداد وكانت معه بضاعة يتقوَّت منها ، فَسُرِقَتْ فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه وكُمَّيْ قميصه ، فقال له بعض أصدقائه : تنشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحى بن خاقان ؟ قال: نعم ، فمضى الرجل فأحكم له أمره وعاد فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره مايلبسه فقرَّبه الوزير ورفع مجلسه ، وأجرى عليه عشرة دنانير في

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٤٤ .

الشهـر، فاشتـرط عليه أوقـات طلبه للعلم والصلوات والراحـة وسأله إسلاف رزق شهر، ففعل وأُدخِل في حجرة التأديب، وخرج إليه الصبي وهو أبو يحيى، فلما كـتَّبه أخذ الخادم اللوح، ودخلوا مسـتبشرين، فلم تَبْقَ جارية إلا أهْدَتْ إليه صينية فيها دراهم ودنانير، فردَّ الجميعَ وقال: قد شـورطت على شيء فلا آخذ سـواه، فَدَرَى الوزير ذلك، فـأدخلته عليه وسأله، فقال: هؤلاء عبيد وهم لايملكون، فعظُم ذلك في نفسه(١).

فـهذا مـثال على الورع والفـقه في الدين ، ولابد من اجـتمـاع الأمرين للاستقامة على دين الله تعالى ، فالذي يتحلَّى بالورع من غير فقه في الدين قد يقع في الحرام أو في الشبهات وهو لايدري ، والذي يتحلى بالفقه من غير ورع يقسو قلبه فيتساهل في الأمور المشتبهات.

ولقد كان الإمام الطبري جامعًا بين الأمرين، فدفعه فقهه إلى إدراك الحلال والحرام، ومنعه ورعه من تجاوز الحلال إلى الحرام أو الشبهات.

ومن ذلك ماذكره الفرغـاني قال : كتب إليَّ المراغي قال: لما تقلَّد الخاقـاني الوزارة وجه إلى أبي جـعفر الطـبري بمال كثـير فامـتنع من قبوله، فـعرض عليه القضاء فامـتنع، فعرض عليه المظالم فأبَى، فـعاتبه أصحابـه وقالوا: لك في هذا ثواب وتُحيي سنةً قد درَسَتْ، وطـمعوا في قبوله المظالم، فباكروه ليركب مـعهم لقبوْل ذلك، فانتهرهم وقال: قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتـموني عنه، قال: فانصرفنا خجلين (٢) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٥ .

وهكذا رفض الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري قبول ماعُرِض عليه من المال ومن المناصب احتياطا لدينه ، وفضَّل أن يعيش حياة الفقر والتواضع على أن يعيش حياة الغنى والجاه، وبقي الإمام الطبري إمامًا للأمة الإسلامية على مر الأجيال في العلوم الإسلامية، وفي ذلك عز الدنيا والآخرة .

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام محمد بن جرير الطبري قال: وقد أراد الخليفة المقتدر في بعض الأيام أن يكتب كتابَ وقف تكون شروطه متفقا عليها بين العلماء، فقيل له : لايقدر على استحضار ذلك إلا محمد بن جرير الطبري فطَلَب منه ذلك، فكتب له فاستدعاه الخليفة إليه وقرَّب منزلته عنده، وقال له: سل حاجتك ، فقال: لا حاجة لي، فقال: لابد أن تسألني حاجة أو شيئا، فقال: أسأل من أمير المؤمنين أن يتقدم أمره إلى الشرطة حتى يمنعوا السُّؤَّال يوم الجمعة أن يدخلوا إلى مقصورة الجامع ، فأمر الخليفة بذلك(١).

ففي هذا الخبر بيانٌ لسعة علم الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري وشهادة من أهل عصره بتفوقه العلمي، وإن الذي يقرأ كتابيه العظيمين في التفسير والتاريخ يظن أنه متفوق في هذين العلمين فقط، ولكن هذا الخبر يبين أنه أفقه علماء عصره، وكذلك يتبين توسعه في الفقه من كتاباته الفقهيه .

كما أن هذا الخبر شاهد على ماكان يتحلى به من الزهد والعفة،

---

(١) البداية والنهاية ١١/١٥٧ .

حيث أَبَى أن يأخذ من الخليفة عوضا ماليا عن تلك الفتوى، وكان طلبه إزالة أمر يعتبره من الأمور المنكرة في المساجد، ألا وهو وجود السُّؤَّال يوم الجمعة في المساجد، فكان هذا مثالا على اهتمامه بإصلاح مجتمعه وتعظيم بيوت الله تعالى .

ولقد ذكر له الحافظ ابن كثير أبياتا رائعة في الزهد وهي قوله :

إذا أعسرتُ لم يعلم رفيقي وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت ببذل وجهي لكنت إلى الغنى سهل الطريق(١)

من أخبار الإمام إبراهيم الحربي رحمه الله :

ومن أخبار القناعة والزهد ماذُكِر عن الإمام إبراهيم الحربي من أن الخليفة المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف فردًّا، فقيل له : ففرِّقها، فأبى ،ثم لما مرض سيَّر إليه المعتضد ألف دينار فلم يقبلها، فخاصَمْته بنته ، فقال : أتخشين إذا مت الفقر ؟ قالت : نعم ، قال: في تلك الزاوية اثنا عشر ألف جزء حديثية ولغوية وغير ذلك كتبتها بخطي، فبيعي منها كل يوم جزءًا بدرهم وأنفقيه (٢) .

وهكذا لم يقبل الإمام الحربي تلك الأعطيات بالرغم من كونه فقيرا ، ويعيش تحت ضغط مطالب الأسرة .

ولقد وَجد في كتبه متنفسًا يَخْرج به من إحراج بنته التي خافت

---

(١) البداية والنهاية ١١/١٥٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٣٦٩ .

على مستقبلها الدنيوي بعده، حيث أفادها بأنها ستستغنى ببيع كتبه بعد موته سنين عديدة ، ولو شاء أن يستمتع بقيمتها في حياته لصار ذا ثروة كبيرة .

خبر حمدون البرذعي مع أبي زرعة رحمهما الله :

لقد اقترنت حياة الزهد والقناعة بالثقة المتبادلة بين التلاميذ والشيوخ، فكان التخلق بهذا الخلق دافعا لطلاب العلم إلى الثقة بالعلماء ، بينما كان الميل إلى حياة الترف والمظاهر الدنيوية دافعا إلى نزع الثقة بالعلماء .

ومن الأخبار في ذلك مارواه الحافظ الخطيب البغدادي من حديث محمد بن الهيثم بن علي النسوي قال: لما أن قدم حمدون البرذعي على أبي زرعة لكتابة الحديث دخل عليه فرأى في داره أواني وفُرُشًا كثيرة - قال: وكان ذلك لأخيه - فهمَّ أن يرجع ولايكتب عنه، فلما كان من الليل رأى كأنه على شط بركة، ورأى ظل شخص في الماء، فقال: أنت الذي زَهِدْتَ في أبي زرعة ؟! أعلمت أن أحمد بن حنبل كان من الأبدال (١)، فلما أن مات أبدل الله مكانه أبا زرعة (٢) .

فهذا مثل لحساسية أهل العلم من مظاهر الحياة الدنيا، وهذا دليل على أنهم كانوا يقارنون بين العلم والعمل، فإذا رأوا العالم يتبسط في أمور الدنيا نفروا منه لأنه لم يعمل بماروى من أحاديث الزهد والقناعة.

---

(١) أي من العلماء الذين يخلفون من سبقهم في الإمامة في العلم والدين .

(٢) تاريخ بغداد ١٠/ ٣٣٣ .

ولما كانت تلك الأواني والفرش الكثيرة لأخي الحافظ أبي زرعة وليست له بَرَّأه الله تعالى بتلك الرؤيا الصالحة التي رآها حمدون البرذعي ، حيث رجع للسماع منه فعرف جلية الأمر .

من أخبار نصر بن علي الأزدي رحمه الله :

من أخبار زهد الصالحين في الجاه وخشيتهم من الله تعالى مارُوي عن أبي بكر بن أبي داود قال : كان المستعين بالله بعث إلى نصر بن علي(١) يُشْخِصُه للقضاء ، فدعاه عبد الملك أمير البصرة وأمره بذلك، فقال : أرجِعُ واستخير الله تعالى ، فرجع إلى بيته نصف النهار فصلى ركعتين وقال : اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني ، فنام فأنبهوه فإذا هو ميت (٢) .

فهذا الإمام قد دُعي إلى القضاء وهو مجال من مجالات العمل الصالح مع العدل وصلاح النية والسلامة من الوقوع في المآثم، ولكنه كره ذلك ونفر منه خشية التعرض لمجالات المآثم، وقد بلغ به الخوف من الإلزام بالقضاء إلى حد أنه سأل الله تعالى قبض روحه، فالحياة الدنيا في عرف هؤلاء العارفين المتقين مجال واسع رحب للأعمال الصالحة ، ولكنها أيضا مجال للأعمال السيئة ، ودرء المفاسد عندهم مقدم على جلب المصالح ، فانتهاء الحياة التي قد تُعرِّض صاحبها لفتنة في دينه أولى من عمارتها بأعمال صالحة قد خالطتها أعمال سيئة.

---

(١) هو أبو عمرو نصر بن علي الأزدي الجهضمي .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٣٦ .

من أخبار محمد بن سعيد الكوفي رحمه الله :

من المواقف الجيدة في الورع ماجرى من محمد بن سعيد الكوفي المعروف بعقدة والد أبي العباس أحمد بن عقدة الحافظ المشهور [(١)] وذلك فيما رواه الخطيب البغدادي بإسناده عن أبي علي النقار قال: سقطت من عقدة دنانير على باب دار أبي ذر الخزاز فجاء بِنَخَّال ليطلبها، قال عقدة : فوجدتها ، ثم فكرت فقلت : ليس في الدنيا غير دنانيرك ؟ ! فقلت للنخال : هي في ذمتك ، ومضيت وتركته[(٢)] .

فهذا مثل في التورع عن الشبهات حيث اشتبه عليه الأمر فخشي أن لاتكون تلك الدنانير هي التي فقدها ، فتركها مع أن الذي يغلب على الظن أنها هي لأنه يعرف الموضع الذي فقدها فيه .

قال أبو علي النقار : وكان - يعني عقدة - يؤدب ابن هشام الخزاز - فلما حذق الصبي وتعلم وجه إليه هشام دنانير صالحة فردها، فظن هشام أن عقدة استقلها فأضعفها له، فقال عقدة: مارددتها استقلالاً لها ولكن سألني الصبي أن أعلمه القرآن فاختلط تعليم النحو بتعليم القرآن، فلا أستحل أن آخذ منه شيئًا ولو دفع إليَّ الدنيا [(٣)] .

فهذا مثل آخر من ورع هذا العالم الفاضل حيث كان يأخذ أجرًا على تعليم اللغة فلما اختلطت دروسها بدروس القرآن ترك الأجر كله ، وكان العلماء الأتقياء يتورعون عن أخذ الأجرة على تعليم القرآن والسنة .

---

(١) سُمِّيَ عقدة لتعقيده في التصريف وكان عالما بالنحو .

(٢) تاريخ بغداد ٥/ ١٥ .

(٣) تاريخ بغداد ٥/ ١٥ .

من أخبار ابن الدجاجي رحمه الله :

ومن ذلك ماذكره السمعاني قال: قرأت بخط هبة الله السَّقَطي أن ابن الدجاجي كان ذا وجاهة وتقدم وحال واسعة، وعهدي به وقد أخْنَى عليه الزمان، وقصدتُه في جماعة مُثْرِين لنسمع منه وهو مريض، فدخلنا عليه وهو على بارية[1] وعلية جبة قد حرقت النار فيها، وليس عنده مايساوي درهما، فحمل على نفسه حتى قرأنا عليه بحسب شَرَه أهل الحديث .

فلما خرجنا قلت : هل معكم مانصرفه إلى الشيخ ؟

فاجتمع له نحو خمسة مثاقيل ، فدعوت بنته وأعطيتها، ووقفت لأرى تسليمها له، فلما أعطته لطم حُرَّ وجهه ونادى : وافضيحتاه، أنا آخذ على حديث رسول الله ﷺ عوضا؟ لا والله ، ونهض حافيا إلي، وبكى ، فأعدت الذهب إليهم فتصدقوا به (٢).

فهذا موقف كريم من هذا الشيخ الجليل يدل على درجة عالية من العفة والقناعة ، حيث رَدَّ ذلك المبلغ بأسلوب مؤثر بيَّن فيه شناعة أخذ الأجرة على تعليم حديث رسول الله ﷺ ، مع أن هذا الشيخ كان في حال يُرْثَى لها كما جاء في وصف السمعاني .

فما أعظم هذه النماذج العالية التي يقدِّمها علماء الأمة في العفة والقناعة والزهد والورع وغير ذلك من مكارم الأخلاق !

---

(١) هي فراش يصنع من القصب وهو من الفرش الخشنة .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٦٣ .

من أخبار القاضي محمد بن المظفر رحمه الله :

من أخبار العلماء في مجال الورع والعفة ماذُكِر عن الإمام أبي بكر محمد بن المظفَّر الحموي أنه لما تولَّى القضاء لم يأخذ على القضاء رزقا، ولاغيَّر مأكله ولاملبسه، وكان يسوِّي بين الناس، فانقلب عليه الكبراء، وكان نَزِهًا ورعا على طريقة السلف، له بيت يؤجره كل شهر بدينار ونصف وكان يقتات منه ، فلما ولي القضاء جاء إنسان فدفع فيه أربعة دنانيرَ فأبى ، وقال لا أغيِّر ساكني، وقد ارتبت بك ، هلاّ كانت هذه الزيادة من قبل القضاء ؟! (١).

فهذا مثل من الورع والثبات على الحق وإن غضب من ذلك كبراء الناس في عرف أهل الدنيا ، فإن هؤلاء الكبراء لايرضون إلا عن القضاة الذين يحققون لهم شيئًا من مصالحهم الدنيوية ، ويغضون الطرف عن الأمور التي تؤثر على دنياهم .

وهذا من الأمور التي جعلت بعض العلماء يفرون من تولِّي القضاء، لأنهم إن عدلوا تمام العدل وساووا بين الناس غضب منهم الكبراء وناصبوهم العداء، ولكن إذا كان القاضي قوي الإيمان راسخ اليقين كهذا العالم الجليل أبي بكر محمد الحموي فإن الكبراء يحترمونه في الأخير ويسلِّمون للحكم الشرعي إما عن قناعة وتأثر بموقفه القوي، وإما استسلامًا لقوته وثباته .

ولقد كلل هذا القاضي الجليل عمله الكبير في العدل بامتناعه من أخذ المال الذي يخصص للقضاة من قِبَل الولاة ، وهذا دليل على

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/٨٦ .

عفته وقناعته ، وكذلك عدم قبوله الزيادة في أجرة المسكن الذي يؤجره بعد توليه القضاء يدل على ورعه .

من أخبار أبي عبد الله الحميدي رحمه الله :

من أمثلة الورع والخشية ماذكره الحسين بن محمد بن خسرو قال: جاء أبو بكر بن ميمون فدقَّ الباب على الحميدي (١)،وظن أنه أذن له، فدخل فوجده مكشوف الفخذ،فبكى الحميدي وقال: والله لقد نظرت إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت (٢) .

فهذا الإمام الجليل أبو عبد الله الحميدي يبكي من خشية الله تعالى لما رأى أحدُ زواره فخذه مكشوفة،وهذه الحساسية المرهفة من خشية الوقوع في المآثم دليل على قوة الإيمان بالله تعالى وشدة استحضار حسابه وجزائه .

من أخبار أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله :

من أخبار العلماء في الورع ماذكره الإمام الذهبي عن السمعاني قال: دخل أبو إسحاق (٣) يومًا ليتغدَّى فنسي دينارًا ، ثم ذكر فرجع فوجده، ففكر وقال: لعله وقع من غيري فتركه (٤) .

فهذا مثل للاحتياط للدين ، فالغالب أن الدينار هو دينار أبي إسحاق، ومع ذلك تركه تورعًا خشية أن يكون قد سقط من غيره .

---

(١) هو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن فُتوح الحميدي الأزدي الأندلسي .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٢٢ .

(٣) هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي الفيروزبادي الشيرازي .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٥٦ .

من أخبار أبي الفتح النابلسي رحمه الله :

من أمثلة العفة والقناعة ماذُكِر عن الفقيه أبي الفتح نصر بن إبراهيم النابلسي ، قال غيث بن علي الأَرْمَنَازي : سمعت من يحكي أن الملك تَتَشْ بن أَلْب أرسلان زار الفقيه نصرًا يومًا . . . فسأله عن أَحَلِّ الأموال التي يتصرف فيها السلطان ، قال: أحلُّها أموال الجزية، فقام من عنده وأرسل إليه بمبلغ وقال: هذا من الجزية ففرِّقه على الأصحاب، فلم يقبله وقال: لاحاجة بنا إليه ، فلما ذهب الرسول لأَمَه الفقيه نصر المصِّيصى ، وقال: قد علمت حاجتنا إليه، فقال: لاتجزع من فواته فسوف يأتيك من الدنيا مايكفيك فيما بعد، فكان كما تَفَرَّس فيه (١) .

فهذا موقف يُذكر للإمام الفقيه نصر بن إبراهيم النابلسي حيث رد ذلك المال الذي وصل إليه من الوالي بالرغم من شدة حاجته وحاجة من حوله، وبالرغم من كون ذلك المال من الجزية التي كان أفتى الوالي بأنها أحل أمواله .

وهكذا نجد نماذج رائعة مما يقوم به هؤلاء العلماء الأعلام من العمل الدائب في تطهير نفوسهم ، وفطامها من كل ماهو محرم أو مشتبه فيه ، أو يجرُّ المسلم إلى حرام أو شبهة .

وهذا دليل على تضاؤل حظ الدنيا في قلوبهم ، وتضخم حظ الآخرة في وجدانهم ، وأن التفكير في أمر الآخرة قد استحوذ على

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/١٣٩- ١٤٠ .

نفوسهم فأصبح سلوكهم منسجما مع هذا الاعتقاد الصحيح المتَّزن.

من أخبار أبي سعد ابن البغدادي رحمه الله :

ومن أمثلة ذلك ماذكره أبو الفتح محمد بن علي النَّطَنْزي قال: كنت ببغداد فاقترض مني أبو سعد ابن البغدادي عشرة دنانير، فاتفق أني دخلت على السلطان مسعود بن محمد فذكرت له ذلك فبعث معي إليه خمسمائة دينار ، فأبى أن يأخذها (١) .

فهذا مثل في العفة والورع ، فقد يكون هذا العالم ردَّ ذلك المبلغ لكونه يرى أنه قد اختلط الحلال بالحرام في مال ذلك الأمير فيكون التنزه عنه من باب الورع ، وقد لايكون ذلك بسبب شبهة عرضت له فيه فيكون التنزه عنه من باب العفة والقناعة .

من أخبار أبي العباس ابن الحطيئة رحمه الله :

لقد كان بعض العلماء يشتغلون بنسخ الكتب والعيش من ذلك حتى لايحتاجوا إلى غيرهم ومن ذلك ماذُكِر عن الإمام أبي العباس أحمد بن عبد الله اللخمي المعروف بابن الحطيئة أنه كان يعيش من الوِرَاقة ، وأنه علَّم زوجته وبنته الكتابة فكتبتا مثله ، فكان يأخذ الكتاب ويقسمه بينه وبينهما فينسخ كل منهما طائفة من الكتاب ، فلا يُفرَّق بين الخطوط إلا في شيء نادر، . وكان لايقبل من أحد شيئًا مع العلم والعمل والخوف والإخلاص (٢) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٢٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٤٥ .

وهكذا كان نسخ الكتب مصدراً مهما لأولئك العلماء الذين يتورعون عن الشبهات ويخشون أن يدخل عليهم في دينهم شيء إذا قبلوا الأموال التي تُوهب لهم .

من أخبار أبي عُبيد ابن سلاَّم رحمه الله :

من أخبار القناعة مارواه الخطيب البغدادي من حديث الفُسطاطي قال: كان أبو عُبَيد - يعني القاسم بن سلاَّم - مع ابن طاهر فوجه إليه أبو دُلَف يستهديه أبا عبيد مدة شهرين، فأنفذ أبا عبيد إليه، فأقام شهرين، فلما أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم، فلم يقبلها وقال : أنا في جَنَبَةِ رجل مايُحوجني إلى صلة غيره، ولا آخذ مافيه علي نقص ، فلما عاد إلى طاهر وصله بثلاثين ألف دينار، بدل ماوصله أبو دلف ، فقال له : أيها الأمير قد قبلتها ولكن قد أغنيتني بمعروفك وبرِّك وكفايتك عنها ، وقد رأيت أن أشتري بها سلاحا وخيلا وأتوجه بها إلى الثغر ليكون الثواب متوفرا على الأمير، ففعل(١) .

فهذا موقف جليل في العفة والقناعة من أبي عبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالى ، فهو لم يقبل من أبي دُلَف لما أعطاه ، وخشي أن يكون في ذلك نقص في دينه، وحينما أعطاه عبد الله بن طاهر ذلك المبلغَ الكبير عفَّ عنه وقنع بما هو فيه من إنفاق ابن طاهر عليه وأنفق ذلك المبلغ في سبيل الله تعالى .

وهنا يأتي تساؤل : كيف استطاع أبو عبيد أن يغلب هوى النفس

---

(١) تاريخ بغداد ١٢/٤٠٦ .

التي تميل غالبـا إلى الاستزادة من الدنيـا ، خصوصـا وأن المعطِي قد أعطى برضاه ومن ماله فليس هناك شبهة تحريم في ذلك المال ؟!

فيـقال : إن هناك دافـعا آخر يدفـع النفس إلى العمل غـيرَ حب الدنيـا، ألا وهو حب الآخرة، فـإذا كان ارتبـاط الفكر بالدنيـا أقوى تشكَّل سلوك الإنسان على الاسـتجابة لحب الدنيا ، وإذا كـان ارتباط الفكر بالآخرة أقـوى توجهت الأوامـر للنفس بالعمل لما يتـرتب عليه الرفعة في الآخرة .

وهكذا كان أبو عـبيد ، فـقد كان عقله الحـصيف قد قـرر تقديم الآخرة فصدر الأمر لنفسه بأن تَعفَّ عن ذلك المال ، وأن تقنع باليسير الذي فيه الكفاية وأن تُوَجِّه ذلك المبلغ لعمل الآخرة .

من أخبار الإمام محمد الذهلي رحمه الله :

ومن مـواقف الورع المروية عن الإمام الحـافظ محـمد بن يحـيى الذهلي ماذكره الخطيب البغـدادي من روايته عن أبي العباس الأزهري قال: سـمعت خادمـة محمـد بن يحيى - وهو يغـسَّل على السرير- تقول: خـدمت أبا عبد الله ثلاثين سنة وكنت أضع له الماء فـما رأيت ساقه قط وأنا ملك له (١) .

فهذا الخـبر يدل على ورع الإمام محمـد بن يحيى الذهلي حيث منع نفسه من أمر مباح له مبالغـة في الستر والحياء،والحياء الديني يدل على قوة الإيمان لقول رسول الله ﷺ« و الحياء شعبة من الإيمان»(٢) .

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٤١٩ .

(٢) صحيح البخاري رقم ٩ ، صحيح مسلم رقم ٥٨ .

من أخبار الربيع بن صبيح رحمه الله :

من هذه المواقف ماروُي عن الربيع بن صبيح أنه كان بالأهواز ومعه صاحب له فتعرضَتْ لهما امرأة فبكى الشيخ، قال له صاحبه مايبكيك ؟ قال : إنها لم تطمع في شيخين إلا وقد رأت شيوخا قبلنا يتابعونها، فلذا أبكي (١) .

فهذه غيرة صادقة وإحساس قوي من ذلك الشيخ الذي تذكَّر حال رؤيته ذلك المنظر البشع أنه له سابقةً من شيوخ ضعفاء في إيمانهم غَرَّرُوا بمثل تلك الفتاة فتجرأت بسبب ذلك على الرذيلة .

إن قراءة ماوراء الأحداث إلهام يلهمه الله تعالى السابقين إلى الخيرات الصادقين في إيمانهم وأعمالهم ، ومن هذه القراءة وأمثالها تكون المواعظ والعبر .

من أخبار أبي علي ابن شاذان رحمه الله :

ومن المواقف المأثورة في الخشية ماروُي عن محمد بن يحيى الكرماني قال: كنت يوما بحضرة أبي علي ابن شاذان فدخل شاب فسلم، ثم قال: أيكم أبو علي ابن شاذان ؟فأشرنا إليه، فقال: أيها الشيخ رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: سل عن أبي علي بن شاذان، فإذا لقيته فأَقْرِه مني السلام، وانصرف الشاب، فبكى الشيخ وقال: ماأعرف لي عملا استحق به هذا إلا أن يكون صبري على قراءة الحديث وتكرير الصلاة على النبي ﷺ كلَّما ذُكر ثم قال الكرماني: ولم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٨٩ .

يلبث أبو علي بعد ذلك إلا شهرين أو ثلاثة حتى مات[1].

وهكذا بكى الإمام أبو علي بن شاذان من خشية الله تعالى، وكان متواضعا حينما قال هذا الكلام وإلا فإن سيرته تشهد بالجليل من الأعمال الصالحة رحمه الله تعالى .

موقف في القناعة والأمانة :

أخرج القاضي محمد بن أبي يعلى من خبر القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزاز الأنصاري قال: كنت مجاورا بمكة - حرسها الله تعالى - فأصابني يومًا من الأيام جوعٌ شديد لم أجد شيئًا أدفع به عني الجوع ، فوجدت كيسا من إبريسم مشدودًا بشرَّابة من إبريسم أيضا ، فأخذته وجئت به إلى بيتي ، فحللته فوجدت فيه عقدا من لؤلؤ لم أر مثله، فخرجت فإذا الشيخ ينادي عليه، ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار وهو يقول : هذا لمن يردُّ علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ ، فقلت : أنا محتاج وأنا جائع . فآخذ هذا الذهب فأنتفع به ، وأردُّ الكيس ، فقلت له : تعال إليَّ ، فأخذته وجئت به إلى بيتي ، فأعطاني علامة الكيس وعلامة الشرابة وعلامة اللؤلؤ وَعَدَده ، والخيط الذي هو مَشدُود به، فأخرجته ودفعته إليه. فسلم إلي الخمسمائة دينار ، فما أخذتها، وقلت : يجب عليّ أن أعيده إليك ولا آخذ له جزاء، فقال لي : لابد أن تأخذ. وألح علي كثيرًا ، فلم أقبل ذلك منه ، فتركني ومضى .

وأما ماكان مني : فإني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر، فانكسر

(١) سير أعلام النبلاء ١٧/٤١٧ - ٤١٨ .

المركب وغرق الناس، وهلكَتْ أموالهم، وسلمتُ أنا على قطعة من المركب، فبقيت مُدّةً في البحر لاأدري أين أذهب، فوصَلتُ إلى جزيرة فيها قوم، فقعَدتُ في بعض المساجد، فسمعوني أقرأ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليّ وقال: علمني القرآن. فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال .

قال : ثم إني رأيتُ في ذلك المسجد أوراقًا من مصحف، فأخذتها أقرأ فيها فقالوا لي : تحسن تكتب؟ فقلت : نعم، فقالوا: علمنا الخط ، فجاءوا بأولادهم من الصبيان والشباب ، فكنتُ أعلمهم، فحصل لي أيضًا من ذلك شيء كثير فقالوا لي بعد ذلك: عندنا صبيّةٌ يتيمة ، ولها شيء من الدّنيا نريد أن تتزوج بها، فامتنعتُ، فقالوا : لابد ، وألزموني ، فأجبتهم إلى ذلك .

فلما زفوها إليَّ مددتُ عيني أنظر إليها ، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقا في عنقها، فما كان لي حينئذ شغل إلا النظر إليه. فقالوا: ياشيخ ، كسرتَ قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد، ولم تنظر إليها ، فقصصتُ عليهم قصة العقد فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة ، فقلتُ : مابكم؟ فقالوا: ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية، وكان يقول: ماوجدتُ في الدنيا مسلمًا إلا هذا الذي ردَّ علي هذا العقد، وكان يدعو ويقول : اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي ، والآن قد حصلت ، فبقيتُ معها مدة ورزقتُ منها بولدين .

ثم إنها ماتت فورثت العقد أنا وولداي،ثم مات الولدان فحصل

العقد لي فبعته بمائة ألف دينار. وهذا المال الذي ترون معي من بقايا ذلك المال. هكذا ساق هذه الحكاية يوسف بن خليل الحافظ في معجمه.

وساقها ابن النجار في تاريخه، وقال: هي حكاية عجيبة، وأظن القاضي حكاها عن غيره [(١)] .

فهذا الخبر العجيب فيه بيان تخلق صاحبه بخُلق العفة والورع، فقد كان بأمس الحاجة إلى مبلغ من المال يشتري به أشياءه الضرورية، ومع ذلك رفض ذلك المبلغ الكبير الذي دفعه إليه صاحب العقد مع إلحاح ذلك الرجل عليه .

وفي الخبر مثل من رزق الله تعالى الذي يسوقه لأوليائه الصالحين مكافأة لهم على ورعهم وعفتهم مع ما أعده لهم من نعيم أعظم بكثير في الآخرة .

من أخبار الوزير ابن هبيرة رحمه الله :

قال أبو حامد أحمد بن محمد بن عيسى الحنبلي : حدثني الوزير عون الدين[(٢)] قال: كان بيني وبين بعض مشايخ القرى معاملة مضيت من أجلها من الدُّور إلى قريته فلم أجده، فقعدت لانتظارهم حتى هجم الليل ،فصعدت إلى سطحه للنوم فسمعت قومًا يسفَهون بالهُجر من الكلام، فسألت عنهم فأُخبرت أنهم يعصرون بالنهار الخمر

---

(١) طبقات الحنابلة ١٩٨/٣ ، وقوله « حكاها عن غيره » يعني ليس هو صاحب القصة وإنما حكاها عن غيره .

(٢) هو الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني .

ويسفهون في الليل، فقلت: والله لابِتُّ بهـا فقيل: ولم ؟ فقلت: أخاف أن ينزل بهم عذاب وسخط فأكـون معهم، فإن لم يكن خسفا حقـيقيا كان خسفا معنويا، مما يدخل علـى القلب من القساوة والفتور عن ذكر الله تعالى بسماع هذا الكلام، ومضيت ذلك الوقت إلى الدُّور (١) .

فهـذا مثـال من خشـية الله تعالـى يقدمه الوزير عـون الدين ابن هبيرة، ولاشك أن خـشية الله جل وعلا دليل على تعظيمـه وحضور القلب معـه، وأن تذكُّر سـخط الله تعالى ومايـنزلـه من العذاب على عُصاته دليل على سـعة علم العبد وكمال عقلـه حيث يأخذ حذره من سخط ربه جل وعلا ونقمته .

وليس من شأن المسلم أن يغتر بالسـلامة ومايحصل من الله تعالى من إمهال المجرمين ، بل المؤمن حَـذِرٌ يقظ يخشى من نزول نقمة الله تعالى في أي وقت .

ولقد نبَّه ابن هبـيرة إلى أن المؤمن ليس من شأنه أن يلاحظ نزول سخط الله تعالى فقط ، بل عليه أن يلاحظ مـاتحدثه مجاورة المجرمين من قساوة القلوب والاشتغال بهم عن ذكر الله تعالى وعبادته .

من أخبار أبي عبد الله السَّعدي الصالحي رحمه الله :

من ذلك ماذُكِـر عن المحدث القـدوة شمس الدين أبي عـبد الله محـمد بن عبـد الرحيم السعـدي الصالحي، فقـد حُكِي عنه أنه كان يحضر مكانا في جبل الصالحية لـبعض شأنه فوجد جرَّة مملوءة دنانير، وكانت زوجته مـعه تعينه على الحفر، فاستـرجع وطمَّ المكان كما كان

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٢٦١ .

أوَّلاً ، وقال لزوجته : هذه فتنة ، ولعل لها مستحقِّين لانعرفهم، وعاهدها على أنها لاتُشعر بذلك أحدًا ولاتتعرض إليه، و كانت صالحة مثله ، فتركا ذلك تورُّعًا مع فقرهما وحاجتهما .

قال اليونيني الذي روى هذه الحكاية : وهذا غاية الورع والزهد رحمهما الله تعالى (١) .

وهكذا ترك هذا العالم الجليل وزوجته ذلك المال مع حاجتهما الشديدة إليه لتذكُّره احتمال أن يكون هناك مستحقون لذلك الكنز، وهذا دليل على اتصافهما بالزهد في الدنيا والتورع عن الشبهات، فما أعظم هذه النفوس التي ترتفع عن شهواتها مع شدة الحاجة من أجل بلوغ الهدف الأعلى للمؤمن في هذه الحياة، وهو أن يحصل على رضوان الله تعالى والنعيم المقيم في الآخرة !!

* * *

(١) طبقات الحنابلة ٣٢١/٤ ، توفي عام ٦٨٨هـ .

مواقف وعبر

فى

العمـــــل الصـــالح

من مواقف عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

من الأعمال الصالحة المترتبة على قوة الإيمان والتي تدل على كمال الطاعة وقوة الاستسلام لله تعالى ولرسوله ﷺ ماذكره الإمام الذهبي من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أتى النبي ﷺ وهو يخطب فسمعه وهو يقول : اجلسوا، فجلس مكانه خارج المسجد حتى فرغ من خطبته ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: زادك الله حرصا على طواعية الله ورسوله [١] .

إن هذا العمل الذي قام به عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يعتبر مثلا من أمثلة الاستسلام لله تعالى ولرسوله ﷺ في أمور الدين حتى فيما لاتعلم حكمته ، فقد نفذ ابن رواحة أمر النبي ﷺ وهو لايدري لِمَ أمر الناس بالجلوس ، وإنما يكون ذلك من قوة الإيمان الذي يبرز في ذهن المؤمن فيحصر مشاعره في لزوم الطاعة والاستسلام ، ولايكون في ذهنه مجال للتفكير في ذلك الأمر ، هل هو على ظاهره أم يراد به شيء آخر .

ومع أن النبي ﷺ كان قد وجه الأمر للواقفين في المسجد ليجلسوا ، ولم يرد من القادمين أن يجلسوا خارج المسجد فإنه دعا لعبد الله بن رواحة بأن يوفقه الله تعالى إلى زيادة الحرص على طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ، مما يدل على أن هذا الأمر أهم من كونه وافق مراد النبي ﷺ من الأمر أو لم يوافقه لأن قضية الطاعة قضية إيمانية ، فهي أهم من الأمر نفسه الذي ترتب عليه هذا الموقف ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٣٢ .

ولذلك ترك النبي ﷺ تصحيح ذلك الأمر ، واهتم بهذا الموقف الإيماني، فدعا لابن رواحة بمزيد من التوفيق في ذلك .

ويشبه هذا الموقف ماجرى من الصحابة الذين أخروا صلاة العصر حتى خرج وقتها لما أمرهم النبي ﷺ بالخروج إلى بني قريظة فقال: «لايصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأدرك بعضهم العصر في الطريق ، فقال بعضهم : لانصلي حتى نأتيهم وقال بعضهم : بل نصلي، لم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدا منهم » أخرجه الإمام البخاري (١) .

فهؤلاء الذين أخروا صلاة العصر حتى فات وقتها قد أخذوا الأمر على ظاهره ، وكان دافعهم في ذلك الاستسلام والطاعة لأمر رسول الله ﷺ ، ولذلك لم ينكر عليهم رسول الله ﷺ هذا التأخير، لنبل مقصدهم الذي دفع إليه قوة إيمانهم .

ألا ما أحوج الأمة الإسلامية إلى لزوم طاعة الله تعالى في جميع أوامر الدين سواء فهموا الحكمة منها أو جهلوها، وأن تكون الرغبة الشديدة في تنفيذ الأوامر الشرعية بارزة وسابقة محاولة فهم الحكمة من الأوامر ، فإن تبينت الحكمة فذلك مما يزيد في اليقين والطمأنينة، لكن التنفيذ سابق على ذلك بدافع من الإيمان القوي الذي يسير بصاحبه نحو بلوغ الهدف الأعلى، وهو الوصول إلى رضوان الله تعالى واجتناب سخطه .

---

(١) صحيح البخاري رقم ٤١١٩ .

من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

أخرج الإمام الطبراني من خبر عامر بن سعد قال : بينما سعد [يعني ابن أبي وقاص رضي الله عنه] يمشي إذ مرَّ برجل وهو يشتم عليّا وطلحة والزبير ، فقال له سعد : إنك تشتم أقواما قد سبق لهم من الله ما سبق ، والله لتكفَّنَّ عن شتمهم أو لأدعونَّ الله عز وجل عليك، قال : يخوفني كأنه نبي ! فقال سعد : اللهم إن كان يشتم أقواما قد سبق لهم منك ما سبق فاجعله اليوم نكالا ، فجاءته بُختيَّة[1] فأفرج الناس لها فتخبَّطته ، فرأيت الناس يتبعون سعدا يقولون : استجاب الله لك يا أبا إسحاق .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح [2] .

فهذا موقف محمود من سعد رضي الله عنه في الدفاع عن إخوانه الصحابة رضي الله عنهم، والدفاع عن الغائبين دليل على قوة الإيمان خصوصا إذا كانوا قد غادروا هذه الحياة ، لأن الذي يدافع عن إخوة له قد توفاهم الله عز وجل لاينتظر منهم أن يقابلوه فيلوموه على التقصير في حقهم،ولا أن يشكروه على الدفاع عنهم،فالباعث على الدفاع عنهم-والحال هذه- هو الخوف من الله تعالى ورجاء ماعنده، وفي هذا تهوين من شأن الدنيا وتعظيم من شأن الآخرة ، لأن كل عامل ينال جزاءه على نيته من إرادة الدنيا أو الآخرة .

---

(١) أي ناقة .

(٢) مجمع الزوائد ٩/ ١٥٤ .

من مواقف أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي العالية، عن أُبَيّ بن كعب قال: عليكم بالسبيل والسنّة فإنه ليس من عبد على سبيل وسنّة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسَّه النارُ، وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعرّ جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة يبس ورقُها فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتّ عنها ورقها، إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحاتّ عن هذه الشجرة ورقُها، وإن اقتصاداً في سبيل وسنَّة خيرٌ من اجتهاد في خلافٍ من سبيل وسنة[1].

فهذا تنبيه مهم من عالم كبير وصفه أمير المؤمنين عمر بأنه سيد المسلمين ، يعني في العلم رضي الله عنهما، فقد أوصى أبي بن كعب بتحقيق الركن الثاني من أركان العمل الصالح، وهو اتباع منهج رسول الله ﷺ وسنته، فإذا اجتمع مع ذلك الركن الأول وهو الإخلاص لله تعالى كان العمل صالحا .

ولعل أبي بن كعب لاحظ في بعض التابعين ميلا إلى التعبد على غير سنة رسول الله ﷺ فبين لهم أنه وإن ظهرت عليهم علامات الإخلاص من البكاء والقشعريرة من خشية الله تعالى فإن أثر ذلك في محو الذنوب والوقاية من النار مترتب على لزوم السنة .

ثم يبين أن العمل القليل مع لزوم السنة خير من العمل الكثير مع مخالفتها، لأن ذلك العمل القليل قد توفرت فيه عناصر القبول، بينما تخلف من ذلك العمل الكثير عنصر مهم وهو اتباع السنة النبوية .

(١) صفة الصفوة ١/٤٧٦ .

من مواقف أبي أمامة رضي الله عنه :

من ذلك ماذكر ابن الجوزي من خبر رجاء بن حيوة عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: أنشأ رسول الله ﷺ غزوا فـأتيته فقلت: يارسول الله ادع الله لي بالشهادة، فقال : اللهم سلِّمهم وغنمهم، قال: فغزونا وسلمنا وغنمنا .

ثم أتيتــه بعد ذلك فقلت: يارســول الله مرني بعــمل آخذه عنك ينفعني الله عز وجل به. قال: عليك بالصوم فإنه لامثل له .

قال: فكان أبو أمامة وامرأته وخادمـه لايُلقون إلا صياما فإذا رأوا نارًا أو دخانًا بالنهار في منزلهم عرفوا أنه قد اعتراهم ضيف .

قال: ثم أتيته بعد ذلك فـقلت: يارسول الله إنك قد أمرتني بأمرٍ وأرجو أن يكون الله عز وجل قد نفعني به، فـمُرني بأمر آخر ينفعني الله عز وجل بـه. قال: اعلم أنك لاتسجـد لله عز وجل ســجدةً إلا رفع الله عز وجل لك بها درجةً أو حط بها عنك خطيئة (١).

فهذه سلسلة من الأعمال الصالحـة يقوم بها هذا الصحابي الجليل أبو أمامة صُدَيّ بن عجــلان الباهلي رضي الله عنه ابتغاء رضوان الله تعالى والسعــادة الأخروية، فهو حينمــا أدرك أن أقرب طريق للوصول إلى هذا الهدف هو الشهــادة طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بها، لكنه دعا له ولرفــقته بالسلامــة، فلما فاتته الشــهادة طلب من النبي ﷺ أن يدله على عمل يحقق له ذلك الهدف فأرشده إلى الصوم، ثم طلب منه مرة أخرى فأرشده إلى الصلاة، ولقد حقق ذلك كله رضي الله عنه.

---

(١) صفة الصفوة ١/٧٣٣ - ٧٣٤ .

من مواقف ربيعة بن كعب رضي الله عنه :

أخرج الإمـام أحمد من حـديث ربيعة بن كـعب الأسلمي قال: كنت أخدم رسول الـله ﷺ وأقوم له في حوائجه نهـاري أجمع حتى يصلى رسـول الله ﷺ العشـاء الآخرة، فأجلـس ببابه إذا دخل بيـته أقول: لعلها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجـة، فما أزال أسمعه يقول رسول الله ﷺ : سبحـان الله، سبحان الله، سبحـان الله وبحمده، حتى أَمَلَّ فأرجع، أو تغلـبني عيني فأرقد، قال: فـقال لي يوما - لما يرى من خفتي له وخدمتي إياه -: سلني ياربيعة أعطك، قال فقلت: أنظر في أمـري يارسـول الله، ثم أعلمك ذلك، قـال: فـفكرت في نفسي فـعرفت أن الدنيا منقـطعة زائلة، وأن لي فيـها رزقا سـيكفيني ويأتيني ، قال فقلت: أسأل رسـول الله ﷺ لآخرتي فإنه من الله عز وجل بالمنزل الذي هو به، قال: فجـئته فقال: مافعلـت ياربيعة، قال فقلت: نعم يارسـول الله أسألك أن تشفع لي إلى ربك فيـعتقني من النار، قال فقال : من أمرك بهذا ياربيـعة؟ قال فقلت: لا والله بعثك بالحق ماأمرني به أحد، ولكنك لما قلت: سلني أعطك وكنت من الله تعالى بالمنزل الذي أنت به نظرت في أمري وعـرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لي فـيها رزقـا سيـأتيني، فقلت: أسـأل رسول الله ﷺ لآخرتي، قال: فصـمَتَ رسول الله ﷺ طويلا ثم قال لي: إني فاعل فأعني على نفسك بكثرة السجود(١) .

وقبل أن أذكر موقف ربيعـة فإنه لابد من الإشارة إلى ماذكره من

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٥٩، وأخرجه الإمام مسلم مختصراً، رقم ٤٨٩، الصلاة (ص٣٥٣).

استغراق النبي ﷺ بذكر الله تعالى ، حيث يردد التسبيح كثيرا ولايمل من ذلك، وهذا يعني حضور القلب مع الله تعالى حضوراً كاملا .

إن الذي يكون حاضر القلب مع الله جل وعلا يعيش في جو روحاني رفيع، وينسى الدنيا ومافيها من خير أو شر، فلذلك لايسأم من تكرار صيغة واحدة من الدعاء مائة مرة أو أكثر، لأن انشغال قلبه بتصور عظمة من يناجي جل جلاله يجعله يستمر في الذكر، بدون انقطاع، وهو يشعر بمتعة روحية عالية، يعجز البيان عن تصويرها، ومن ذلك جاء توجيه النبي ﷺ بتكرار الذكر كالأذكار المشروعة عقب الصلوات المفروضة وكقول لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة .

أما موقف ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه فإنه مثل من اليقين والوعي الديني، حيث عرف حقيقة الدنيا في ضآلتها وانقطاعها، فقدَّرها بمايناسبها، وعرف قدر الآخرة العظيم فادَّخر لها هذه المسألة العظيمة، ولو سأل الدنيا لأعطيها، ثم زالت وزال .

وهكذا رأينا هذا الشاب لم يفكر بمستقبله الدنيوي، مع أنه بحاجة إلى بناء البيت والزواج وتكوين الأسرة ونحو ذلك من مطالب الدنيا ولكنه - وهو في سنٍّ مبكرة- فكر بمستقبله الأخروي، وهذا من توفيق الله إياه، كما أنه يعتبر مثالا على أن الذي يهيمن على تفكير أبناء ذلك المجتمع الصالح هو التخطيط لما بعد الموت، فإن ماقدره الله تعالى من الرزق كائن لامحالة، والسعيد هو الذي يتخفف من أعباء الدنيا ليتفرغ كثيراً لعمل الآخرة .

من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

من ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة النميري من خبر مجاهد بن جبر قال : مرَّت بابن عمر رضي الله عنهما رفقة فقال: مَن القوم ؟ فقال حادي ابن عمر : قريش ، فقال ابن عمر : قريش قريش !! نحن المهاجرون (١) .

فهذه ملاحظة جليلة من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أراد أن يلفت النظر فيها إلى أن مِنْ واجب المسلم أن يعتزَّ بإسلامه، فينتمي إلى الاسم المنبثق من الإسلام، فالمسلمون من قريش الذين هاجروا إلى المدينة أصبح اسمهم الإسلامي المهاجرين، فهم لهذا يعتزون بأنهم مهاجرون ولايُلقون بالاً لكونهم من قريش مع أن قريشا أعلى قبائل العرب نسبًا .

وبهذه النظرة الإسلامية التي ضخمت من شأن الانتماء الإسلامي، وأضعفت من شأن الانتماء القبلي كان اتحاد قلوب الصحابة رضي الله عنهم وقوتهم على أعدائهم ، ومن يوم أن وُجد الانتماء القبلي والوطني بعد ذلك ضعف المسلمون وتمكن منهم أعداؤهم، لأن ذلك الانتماء كان له أثر في تفريق المسلمين .

من مواقف القاسم بن محمد رحمه الله :

من الأمثلة الجيدة على خُلُق السماحة ماروي عن الإمام القاسم ابن محمد أحد فقهاء المدينة في عهد التابعين، يقول الإمام مالك بن أنس : وكان يكون بينه وبين الرجل المداراة في الشيء فيقول له

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٤٨٨ .

القاسم: هذا الذي تريد أن تخاصمني فيه هو لك ، فإن كان حقا فهو لك فخذه ولاتحمدني عليه، وإن كان لي فأنت منه في حل وهو لك(١).

وبهذا يضرب هذا العالم الرباني مثلاً عاليا في السماحة والبعد عن الخلاف والمراء ، وهذا الخلق الكريم ينطبق عليه الثواب الجزيل الذي ذكره رسول الله ﷺ بقوله « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه (٢).

وهذا الخلق الكريم مبني على الزهد في الدنيا والتجرد من حظ النفس، ومن نتائجه الطيبة قطع أسباب النزاع والشقاق ، وتقوية المودة والأخوة بين المؤمنين .

من مواقف عبد الله بن عون رحمه الله :

من المواقف العالية في العمل الصالح وتطبيق العلم الديني ماذكره بكّار بن محمد السِّيريني عن الإمام الرباني عبد الله بن عون قال: وكان إذا جاءه إخوانه كأنما على رؤوسهم الطير ، لهم خشوع وخضوع، ومارأيته مازح أحدًا، ولاينشد شعرا، كان مشغولا بنفسه، وماسمعته ذاكرًا بلال بن أبي بردة بشيء قط، ولقد بلغني أن قوما قالوا له : يا أباعون بلال فعل كذا ، فقال: إن الرجل يكون مظلوما فلا يزال يقول حتى يكون ظالما ، ماأظن أحدا منكم أشد على بلال مني.

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٥٧ .

(٢) سنن أبي داود ، رقم ٤٨٠٠ ، الأدب (٥/ ١٥٠) ، سنن الترمذي ، رقم ١٩٩٣، البر(٤/ ٣٥٨) وقال : هذا حديث حسن ، سنن ابن ماجة رقم ٥١ (١/ ١٨) .

قال : وكان بلال ضربه بالسياط لكونه تزوج امرأة عربية [1] .

فهذا مثل على عفة اللسان والتورع عن قيل وقال ، فقد نهى هذا الإمام الجليل عبد الله بن عون أصحابه عن الكلام في الأمير بلال بن أبي بردة مع أنه كان قد أساء إليه وضربه بالسياط .

وهذا نموذج من العمل الصالح الذي كان ثمرة العلم النافع ، ومن أبرز ماأفاده ابن عون أن المظلوم إذا تكلم في عرض ظالمه فإنه يشاركه في الظلم ما لم يكن ذلك على سبيل التبليغ عن منكر لمن يستطيع إنكاره ، إضافة إلى أن المظلوم يُهدِرُ ثوابه بالتظلم وعدم الصبر على الأذى ويكتسب إثما باغتياب ظالمه .

هذا وإن ماقام به الأمير ابن أبي بردة من عقوبة الإمام ابن عون على زواجه بامرأة عربية يعتبر من التعصب الممقوت المبني على الجهل بأحكام الدين ، وكان الواجب عليه أن يتأدب مع العلماء وأن يأخذ الفتوى في هذا الأمر من ابن عون وأمثاله .

ولقد كان هذا العالم الرباني قد جمع بين أنواع من العمل الصالح تدل على شمول فهمه للإسلام ، فلقد كان من أبرز المجاهدين في سبيل الله تعالى ، إلى جانب بروزه في علوم الدين وتفوقه في العبادات الخاصة كما تقدم .

من مواقف سفيان الثوري رحمه الله :

هذا وإن أخبار الإحسان والرحمة لم تقتصر على الإنسان وإنما شملت حتى الحيوان ، ومن الأخبار الجيدة التي جاءت في ذلك

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٧٠ .

ماروي عن الإمام الرباني سفيان الثـوري ورحمته بالطائر ، فقد أخرج أبو نعيم من حـديث عارم قال : أتـيت أبا منصور أعوده فـقال لي : بات سفيـان في هذا البيت ، وكان هنا بلبل لابني، فـقال: مابال هذا محبوسا ؟ لو خُـلِّي عنه ، قلت : هُوَ لابْني وهو يهبه لك ، قال: لا ولكن أعطيه دينارًا ، فأخذه فـخلّى عنه ، فكان يذهب ويرعى فيجيء بالعَشِيّ فيكون في ناحـية البيت ، فلما مات سـفيان تبع جنازته فكان يضطرب على قبـره ، ثم اختلف بعد ذلك ليالي إلى قـبره فكان ربما بات عليه ، وربما رجع إلى البيت ، ثم وجدوه ميتا عند قبره ، فدفن عنده .

قال الذهبي : أبو منصور هو بسر بن منصور السَّليمي كان سفيان مختفـيا عنده بالبصرة بعد أن خرج من دار عبـد الرحمن بن مهدي، قاله الطبراني [1] .

وهكذا أدركت رحـمة هذا العالم الـرباني ذلك الطير المحـبوس، وساءه تقييد حـريته ، وهذا ثمرة من ثمرات العلم النافع، وهذا يعني أن شعوره بمشاعر إخوانه المسلمين أعظم من ذلك بكثير .

ولقد كـان هذا الإمام مُربِّيـا ناجحا ، خبـيرًا بأحاسـيس النفوس وآلامهـا وآمالها ، فحـينما عرض عليه والـد الطفل ذلك الطير هدية ليطلقـه أبَى أن يقبل ذلك ، فـهو ليس ممن تدركـه الرحـمة بالحـيوان وينسى أحاسيس الإنسان ، فالطفل متعلق بطيره، ولو ذهب منه بدون مقابل لأصابه الحزن ولتأثرت نفـسه بذلك ، ولكن حينما تتم مواساته

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦٦/٧ .

ويعوض عنه بما يحب فإنه لن يحصل له شيء من التأثر، وسيظل محبا لذلك الشيخ الذي جبر قلبه وقدَّر مشاعره .

وإن ماجرى من ذلك الطائر من تعلقه بالشيخ حال حياته وبعد وفاته حدث عجيب ، وإنه يعطي مثلا حيا على مدى الألفة والانجذاب بين الإنسان والحيوان .

من مواقف بعض المجاهدين رحمهم الله :

أخرج أبو نعيم بإسناده عن حاتم الأصم قال : كنا مع شقيق البلخي ونحن مصافُّو الترك في يوم لاأرى فيه إلا رؤوسا تندر ، وسيوفا تقطع ، ورماحا تقصف ، فقال لي شقيق ونحن بين الصّفين: كيف ترى نفسك ياحاتم [في هذا اليوم] ؟ تراه مثله في الليلة التي زُفَّتْ إليك امرأتك ؟ قلت : لا والله ، قال : ولكني والله أرى نفسي في هذا اليوم مثله في الليلة التي زفت فيها امرأتي ، قال : ثم نام بين الصفين ودَرَقته تحت رأسه حتى سمعت غطيطه .

قال حاتم : ورأيت رجلا من أصحابنا في ذلك اليوم يبكي، فقلت: مالك ؟ قال : قُتل أخي ، قلت : حظ أخيك صار إلى الله وإلى رضوانه ، قال : فقال لي : اسكت ، ماأبكي أسفًا عليه ولا على قتله ، ولكني أبكي أسفًا أن أكون دريت كيف كان صبره لله عند وقوع السيف به .

قال حاتم : فأخذني في ذلك اليوم تركي فأضجعني للذبح فلم يكن قلبي به مشغولا ، كان قلبي بالله مشغولا، أنظر ماذا يأذن الله له

فيّ ، فبينا هو يطلب السكين من خفّه إذا جاء سهم عائِر فذبحه فألقاه عني [(١)] .

ففي هذا الخبـر يصور شقيق رحـمه الله شعوره نحـو الجهاد في سبيل الله تعالى وقد التـقى الصفّان ، وبرزت الأهوال، فيصف هول ذلك اليوم بأنه يشـبه في جلب السـعادة للنفس ونشوة الفـرح دخوله على زوجته ليلة عرسه .

إن هذه الصورة المشرقة من المشاعـر قد لايتصورها بعض الناس، وقد لا يصـدقونها عند سمـاعها لِبُـعْدِ مابين الصورتين: صـورة الظفر بسببٍ مشروع من أسـباب الوصول إلى قمة اللذة الجسـمانية، وصورة التوغلً في سبب من أسباب الهـلاك وانقطاع كل اللذات الجسمانية ، ولكن هذه الصورة وإن كان فيها التـعرض للأذى الجسماني وقطع كل اللذات الجسمانية فإن تلك اللحظات التي يمارس فيها المجاهد الإثخان في العدو والتعرض لأنواع الأذى والهلاك تعتـبر قمة في متعة الروح، فالوصول إلى كسر شوكة الأعداء والنكاية فـيهم متعة روحية عالية لا يماثلها إلا لذة مناجاة الله تعالى وخاصة في جوف الليل .

والشوق إلى الشهادة في سبيل الله تعـالى متعة عالية تجعل الروح تحلّق بأحلامها بين جنبات الجنة وفي أحضان حورها العين.

فلا غرابة إذًا أن يتصور هذا العالم الرباني المجاهد التماثل بين قمة الوصول إلى لذة الجسم وقمة الوصول إلى متعة الروح .

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٦٤ ، سير أعلام النبلاء ٩/ ٣١٤ .

وسهم عائِر أي لايعرف راميه .

إن هذا التصـوير المقارن مجردُ تمثيـل للتقريب بين صورة مُـحَسَّة معـروفة لدى كل الناس وصـورة متخـيلة في الذهن لدى الكثـيرين، ومُحَسَّة مـعروفة لدى القلائل ، وإلا فإن بُعْدَ مابين الصـورتين كبير، لأن متعة الروح لايماثلها شيء من متعة الجسم .

ولقد صور خالد بن الوليد رضي الله عـنه هذا المعنى بتعبير أبلغ حيث يقول: مامن ليلة يُهدى إلي فـيها عروس أنا لها محب أحب إلي من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد وأنا في سرية أُصبِّحُ فيها العدو [1] .

وفي المقطع الثـاني من الخبـر نجد حاتما الأصم يصـف حال رجل يبكي لأنه لايدري كيف كـان صبر أخـيه عند وقوع السيف به، فـهو لايبكي أسفًـا على فقد أخـيه ولكنه يبكي إشـفاقًا منه على أخـيه أن لايكون قد حاز درجة عـالية من الصبر ساعة مواجهـته سلاح العدو، وهذا مـثل رفيع من صـدق التصـور وعلو الهـمة حـيث يكون الفكر منحصرا في كيفية بلوغ رضوان الله تعالى والدرجات العُلَى في الجنة .

وفي المقطع الثـالث من الخبـر يصور حـاتم الأصم شعـوره حال مواجـهته الذبح عـلى يد ذلك الرجل فقد كـان قلبه حـاضرا مع الله تعالى، حيث كان فكره متـرددًا بين أن يكتب الله تعالى له الشهادة أو يُمِدَّه بنصر من عنده فينقـذه من بين يدي ذلك العدو ، وقد أنقذه الله جَل وعلا بذلك السهم الذي لايدري من أين أتَى ، وإن ارتباط الفكر في تلك الساعة بالله تعالى دليل على قوة الإيمان وعمق اليقين .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٧٥ .

من مواقف أبي عبد الرحمن عبدان الأزدي رحمه الله :

رُوي عن الإمام الحافظ أبي عبد الرحمن عبد الله بن عثمان الأزدي بالولاء المروزي المعروف بـ « عبدان » أنه قال في بذل المعروف والإحسان : ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي ، فإن تم وإلا قمت له بمالي ، فإن تم وإلا استعنت بالإخوان فإن تم وإلا استعنت بالسلطان (١) .

فلقد عبر عبدان بهذا القول عن وجوه الإحسان الممكنة ، فالإحسان يكون ببذل النفس ويكون ببذل المال ، وقد ينشط بعض الناس للإحسان ببذل النفس ولاينشط لبذل المال ، وقد يكون الأمر بضد ذلك فينشط لبذل المال ولاينشط لبذل النفس .

والإحسان يكون بعد ذلك بالاستعانة بالإخوان ، ثم يكون بعد ذلك بالاستعانة بالسلطان .

وقد يقف بعض الناس عند الإحسان ببذل المعروف بالنفس والمال، ثم يرى أنه قد أعذر وفعل ما يُطلب منه ، لكن الذين يملكون أنفسًا وثابة نحو المعالي لايقفون عند هذا الحد ، فإذا عجزوا عن فعل المعروف بأنفسهم وأموالهم استعانوا على ذلك بإخوانهم ، ولايرون في ذلك غضاضة ، لأن الهدف الذي يكون ماثلا أمام أعينهم هو النجاح في القضية التي دخلوا فيها ، وليس مجرد الحصول على العذر والرضى ممن تصدوا لحل قضيته ، وذلك من منطلق أن المعروف عمل صالح ، وإذا كان لايتم إلا بالاستعانة بالإخوان فليسهموا في ذلك .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٠ .

وقد تُقضى الحاجة بذلك ، ولكنها قد يَتعسر قضاؤها إلا عن طريق السلطان ، وهنا يأتي بذل الجاه عند السلطان لقضاء حاجة المحتاجين ، وهو باب من أبواب العمل الصالح يلج فيه من يُقدِّرون هذا العمل كما كان يصنع الإمام عبدان رحمه الله تعالى .

وكما كان هذا الإمام مشهوراً ببذل جاهه فقد كان مشهوراً ببذل ماله كما قال أحمد بن عبدة الآملي : تصدق عبدان في حياته بألف ألف درهم (١) .

من مواقف أبي جعفر المنصور رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر أحمد ابن خالد الفقيمي ، أن عدة من بني هاشم حدثوه : أن المنصور كان شُغلُه في صدر نهاره بالأمر والنهي في الولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل ، والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية ، لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره ، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سُمَّاره من ذلك فيما أَرَبَ ، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سُمَّاره ، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه، وصفَّ في محرابه حتى طلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في إيوانه (٢) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧١ .

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٧٠ ، وانظر البداية والنهاية ١٠/١٢٨ .

فهذا مثل من البراعة في تنظيم الوقت، والمقدرة الفائقة على القيام بمجموعة من الأعمال الجليلة في يوم واحد ، فمع أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور يحكم دولة تمتد من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا فإنه قد وجد وقتا لعبادة الله تعالى بقيام الليل، حيث خصص ثلث الليل الأخير للصلاة ، ومن المعلوم أن مقدرته العالية على القيام بمسئولية أعظم دولة في العالم وتغلُّبه على جميع المناوئين له كان من أثر صلاته بالليل ، حيث إن الصلاة تزوِّد المسلم بطاقة عالية في العمل ومقدرة كبيرة على التحمل والصبر وتحدي المشكلات والخروج من المآزق، وإننا لنفهم هذا من قول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل: ١-٥] ، فبعد أن أمره الله جل وعلا بصلاة الليل أخبره بعِظَم المسئولية التي بعثه تعالى بها ليكون له من مناجاته لله تعالى وتصور عظمته زاد قوي يجابه به المخالفين ويصبر على أذاهم .

من مواقف أبي عثمان الحيري رحمه الله :

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي عثمان سعيد بن إسماعيل الحِيري من خبر عبد الكريم بن هوازن سمعت أبا عثمان يقول : منذ أربعين سنة ماأقامني الله تعالى في حالة فكرهتها ولانقلني إلى غيرها فسخطتها (١) .

فهذا تعبير بليغ عن الرضى بقضاء الله تعالى وقدره ، وهذا مقام

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٢٢ .

عالٍ في التوحيد لايبلغه إلا أقوياء الإيمان، والذي يعين على بلوغ هذا المقام التجرد من حظ النفس والتسليم الكامل لله تعالى .

والرضى بقضاء الله جل وعلا منزلـة أعلى من منزلة الصبر، وقد جاء في كتاب أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما : أما بعد فـإن الخير كله في الرضى ، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر (١) .

وقـال الإمام ابن القـيم في حقـيـقة الرضى : وليس من شـرط الرضى أن لايحسَّ بالألم والمكاره ، بل أنْ لايعـترض على الحكم ولا يتـسخطه ، ولهـذا أشكل على بعض النـاس الرضى بالمكروه وطعنوا فيـه، وقالوا : هذا ممتنع على الطبـيعة وإنما هو الصـبر ، وإلا فكيف يجتمع الرضى والكراهة وهما ضدان ؟

قال : والصواب أنه لاتناقض بينهمـا ، وأن وجود التألم وكراهة النفس لـه لا ينافي الرِّضى، كـرِضَى المريض بشـرب الـدواء الكريه، ورضى الصائم في اليـوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجـوع والظمإ، ورضى المجـاهد بمايحـصل له في سبـيل الله تعـالى من ألم الجـراح وغيرها (٢).

قال الحافظ ابن كثير : وكان أبو عثمان [يعني الحيري] يُنشد :

أسأتُ ولم أحسن وجئتك هاربـا
وأيـن لعبد عـن مواليه مـهرب

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٧٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٧٥ .

يــؤمِّل غفرانًا فــإن خـاب ظـنه

فما أحدٌ منه على الأرض أخيب [(١)]

وهذا مثل من الأدب الإسلامي ، حيث سخـر هذا العالم موهبته الشعرية في التـعبير عن اعتـرافه بالتقصيـر ولجوئه إلى الله جل وعلا وطلب المغـفرة منه، ويشبِّـه نفســه في فراره إلى الله تعـالى بالعبـيد المملوكين في الدنيا الذين لايسـتطيعون الفرار من مـواليهم ، وإن كان المشبه به لايعتبر شيئًا في مـقارنته بالمشبه لأن الخالق جل وعلا لايقارن بالمخلوق ، ولكنه أراد أن يقول : إذا كان العـبد لا يستطيع الفرار من مـواليه فـمن باب أولى أني لا أسـتطيع الفـرار من ربي إلا إليــه جل وعلا .

قــال الحافظ ابن كـثيـر : وروى الخطيب أنه [يعني أبا عـثمـان الحيـري] سئل : أي أعــمالك أرجى عندك ؟ قال : إنــي لما ترعرعت وأنا بالرَّيِّ - وكانوا يــريدونني على التزويج فأمـتنع - فجـاءتني امرأة فقــالت: ياأبا عثـمان قد أحـببـتك حبا أذهب نــومي وقراري ، وأنا أسألك بمقلب القلوب وأتوسل به إليك إلاَّ تزوجـتني ، فقلت : ألك والد ؟ فقالت : نعم ، فأحـضرتْه فاستدعى الشهود فتـزوجتها، فلما خلوت بها إذا هي عوراء عرجاء شـوهاء مشوهة الخلق، فقلت: اللهم لك الحمد على ما قدرته لي ، وكان أهل بيتي يلومونني على تزويجي بها، فكنت أزيدها برًا وإكـراما ، وربما احتبسـتني عندها ومنعتني من الحـضور إلى بعض المجـالس ، وكـأني كنت في بعض أوقـاتي على

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٢٢ .

الجمر وأنا لا أبدي لهـا من ذلك شيئًا ، فمكثت كذلك خـمس عشرة سنة، فمـا شيء أرجى عندي من حفظي عليهـا ماكان في قلبـها من جهتي [1] .

فهذا مثل جليل في الصبر على المكروه والرضى بقضاء الله وقدره جل وعـلا ، وفي صبـره هذا تقدير عظيم للعـمل الصالح والـثواب الأخروي .

إن الذي يتحمل المشقـة في سبيل إسعاد الآخرين قـد بلغ مستوًى عاليًـا في مكارم الأخلاق ، حيث اتصف بخـلق الإيثار الذي هو من صفات الكمال .

وإن في هذا الخبر موعـظةً للذين يرون من زوجاتهم مايكرهون، فإنهم يثابون على الصبر على ذلك مادامو قد رضوا عن زوجاتهم من ناحية الاستقامة على أمور الدين .

وإنهم بذلك يطبـقون ماجاء فـي توجيه النبي ﷺ حـيث يقول: «لاَيَفْرَكْ [2] مؤمن مؤمنة ، إن كره منهـا خلقا رضي منها آخر » رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [3] .

من مواقف هُدْبَة بن خالد رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثيـر من خبر المحدِّث هُدْبَة بن خالد القيسي مع أمير المؤمنين المأمـون ، قال : وحضر عند المأمون هدبة بن

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) أي لايبغض .

(٣) صحيح مسلم ، رقم ١٤٦٩ ، كتاب الرضاع (ص ١٠٩١) .

خالد ليتغدى عنده ، فلما رُفعت المائدة جعل هدبة يلتقط ماتناثر منها من اللباب وغيره ، فقال له المأمون : أما شبعت ياشيخ ؟ فقال : بلى، حدثني حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « من أكل ماتحت مائدته أمِنَ من الفقر » ، قال : فأمر له المأمون بألف دينار (١) .

فهذا مثل من شكر النعمة والوعي الجيد للعلم والتطبيق الدقيق للسنة يقدمه العالم المحدث هدبة بن خالد القيسي، وقد حاز بذلك إعجاب أمير المؤمنين المأمون بعدما أنكر عليه ذلك العمل .

وهكذا ينبغي للعالم أن يكون واعيًا بعلمه ، مستحضرا له عند المناسبات ، وأن يطبقه عمليا ليكون قدوة لغيره .

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد بالله رحمه الله :

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة أمير المؤمنين المعتضد بالله أحمد ابن الموفق العباسي : وذكر الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب قال: كنت يوما عند المعتضد وخادمٌ واقف على رأسه يذبُّ عنه بمذبَّة(٢) في يديه، إذ حركها فجاءت في قلنسوة الخليفة فسقطت عن رأسه، فأعظمتُ أنا ذلك جدا وخفت من هول ماوقع ، ولم يكترث الخليفة لذلك، بل أخذ قلنسوته فوضعها على رأسه ، ثم قال لبعض الخدم: مُرْ هذا البائس ليذهب لراحته فإنه قد نعس ، وزيدوا في عِدَّة من يذبُّ بالنوبة ، قال الوزير : فأخذنا في الثناء على الخليفة والشكر له

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٠ .

(٢) أي بمروحة .

على حلمه، فقـال: إن هذا البائس لم يتـعمد مـاوقع منه وإنما نعس، وليس العتاب والمعاتبة إلا على المتعمد، لا على المخطئ والساهي(١).

فهذا مثل من أخـلاق أمير المؤمنين المعتضد بالله الـعالية ، حيث كان يتصف بالحلم والسماحة مع ماكان يتصف به من الشجاعة والحزم والشدة ، وهذا يبين أن شدته كانت على المتجبرين الظالمين، والمفرطين الذين كانوا يتعمدون الإهمال والتـقصير ، وكان يقصد من وراء ذلك تحقيق مصالح رعـيته ، أما الضعفاء فإنه كـان رحيما بهم، يحلم عن جاهلهم ويغفر زلة مخطئهم .

قال الحافظ ابن كـثير : ورفع [يعني عبيـد الله بن سلمان] إلى المعتضد قوما يجتمعون على المعـصية فاستشار وزيره في أمرهم فقال: ينبغي أن يُصلب بعضهم ويحرق بعـضهم ، فقال: ويحك لقد بردّتَ لهب غضبي عليـهم بقسوتك ، أما علمت أن الرعـية وديعة الله عند سلطانها ، وأنه سائله عنها ؟ ولم يقابلهم بما قال الوزير (٢) .

وهذا أيضا مثل من رحـمة المعتضد بالله وعدله ، فـالعقوبات إذا كان فيها حكم شرعي فإنه لايجوز للوالي مخالفته ، أما إذا كانت من باب التعـزيرات فإنه لايجوز للوالي أن يتـجاوز بها حدود الاعـتدال، لأن ذلك من الظلم ، وهو مفسد للعلاقات بين الراعي والرعية .

من مواقف الوزير علي بن الجراح رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحـافظ ابن كثير في ترجـمة أبي الحسن علي بن

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٩٧ - ٩٨ .

(٢) البداية والنهاية ١١/ ٩٨ .

عيسى بن الجراح وزير الخليفتين المقتدر والقاهر قال : كان ثقة نبيلا فاضلا عفيفا ، كثير التلاوة والصلاة والصيام يحب أهل العلم ويكثر مجالستهم .

قال : ورُوي عنه أنه قال : كسبت سبعمائة ألف دينار ، أنفقت منها في وجوه الخير ستمائة ألف وثمانين ألفا .

قال : ولما دخل مكة حين نُفِيَ من بغداد طاف بالبيت وبالصفا والمروة في حرٍّ شديد ، ثم جاء إلى منزله فألقى نفسه وقال: أشتهي على الله شربة ثلج ، فقال له أصحابه : هذا لايتهيأ هنا ، فقال: أعرف ولكن سيأتي به الله إذا شاء ، وأصبر إلى المساء ، فلما كان في أثناء النهار جاءت سحابة فأمطرت ، وسقط منها بَرَدٌ شديد كثير، فجمع له صاحبه من ذلك البرد شيئًا كثيراً وخبأه له ، وكان الوزير صائما، فلما أمسى جاء به، فلما جاء المسجد أقبل إليه صاحبه بأنواع الأشربة وكلها ثلج، فجعل الوزير يسقيه لمن حواليه من الصوفية والمجاورين، ولم يشرب هو منه شيئا، فلما رجع إلى المنزل جئته بشيء من ذلك الشراب كنا خبأناه له، وأقسمت عليه ليشربنَّه فشربه بعد جهد جهيد، وقال: أشتهي لو كنت تمنيت المغفره، رحمه الله وغفر له (١).

ففي هذا الخبر مثل جليل في البذل والإنفاق في سبيل الله تعالى، وهذا العطاء الكثير من هذا الوزير المحسن يدل على قوة إيمانه وشدة استحضاره للحياة الآخرة التي يكون فيها الثواب الجزيل على الأعمال الصالحة.

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٢٣١ .

وكان من عاجل البشرى له في الدنيا أن استجاب الله تعالى له فحقق له وجود ماتمناه من الثلج في مكة التي لايمكن وجود الثلج فيها لبعدها الشاسع عن الجبال التي ينقل منها الثلج ، حيث نزل ذلك المطر المشتمل على البَرَد فتوفر له ما اشتهاه من الثلج ، ولكنه بعدما حصل له ما اشتهاه ندم على تمني ذلك واشتهى أن يكون تمنى المغفرة ، لأن الله جل وعلا حقق له مراده فأحبّ أن يكون ماخطر على باله هو مغفرة ذنوبه ليكون هذا الأمر محقّقا ، وهذا دليل على تعظيمه لله تعالى وشدة استحضاره ثوابه وعقابه .

وإن ما حصل له من استجابة دعائه دليل على إخلاصه في عمله لله تعالى ، خاصة ماكان من إنفاقه الكثير من ماله في سبل الخير، رحمه الله تعالى .

من مواقف أبي بكر الباقلاني رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال: ذكر الخطيب وغيره عنه أن عضد الدولة بعثه في رسالة إلى ملك الروم ، فلما انتهى إليه إذا هو لايدخل عليه أحد إلا من باب قصير كهيئة الراكع، ففهم الباقلاني أن مراده أن ينحني الداخل عليه كهيئة الراكع لله عز وجل، فدار بقفاه إلى الملك ودخل الباب بظهره يمشي إليه القهقرى، فلما وصل إليه انفتل فسلم عليه ، فعرف الملك ذكاءه ومكانه من العلم والفهم فعظمه .

قال : ويقال إن الملك أحضر بين يديه آلة الطرب المسماة بالأرغل، ليستفز عقله بها ، فلما سمعها الباقلاني خاف على نفسه أن

يظهر منه حـركة ناقصـة بحضرة الملك ، فـجعل لايألو [1] جهدًا أن جرح رجله حتى خرج منها الدم الكثير ، فاشتغل بالألم عن الطرب، ولم يظهر عليه شيء من النقص والخفة ، فعجب الملك من ذلك، ثم إن الملك اسـتكشف الأمـر فـإذا هو قـد جرح نفـسـه بما أشـغله عن الطرب، فـتحـقق الملك وفـور همتـه وعلو عـزيمته ، فـإن هذه الآلة لايسمعها أحد إلا طرب شاء أم أبى .

قال : وقد سـأله أحد الأساقفـة بحضرة ملكهم فقـال: مافعلتْ زوجـة نبيكم ؟ ومـاكان من أمـرها بما رُمـيت به من الإفك ؟ فقـال الباقـلاني مجيبـا له على البديهة : همـا امرأتان ذُكرتا بسـوء : مريم وعائشة ، فبرأهمـا الله عز وجل ، وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مـريم بولد ولم يكن لهـا زوج - يعني أن عائشـة أولى بالبراءة من مريم - وكلاهما بريئة مما قيل فيها ، فإنْ تطرق في الذهن الفاسد احـتمال ريبة إلى هذه فـهو إلى تلك أسرع، وهما بحـمد الله منزهتان مبرأتان من السماء بوحي الله عز وجل ، عليهما السلام [2] .

ففي هذا الخبر فهم ثاقب وعلم غزير وقوة في الدين، حيث فهم القاضي أبو بكر الباقلاني مقـصود ملك الروم في محاولة إذلال علماء المسلمين ، فتفادى ذلك بتلك الحركة الجيدة ، حيث دخل ذلك الباب على قفاه ، ثم اسـتدار إلى الملك ففوَّت عليه مـراده من الدخول عليه على هيئة الركوع له ، وفي هذا الـسلوك العالي إعزاز للإسلام وأهله وإذلال للكفر وأهله .

---

(١) أي لايقصر .

(٢) البداية والنهاية ١١/ ٣٧٤ .

وحينما أراد ملك الروم أن يستفز عقل الباقلاني بتلك الآلة حتى يطرب - وهو يعلم أن المسلمين المتقين لايفعلون ذلك - تخلص من ذلك الموقف بإقدامه على جرح نفسه ليشغله الألم عن التأثر بتلك الآلة الموسيقية ، وهذا مثل من الحزم الشديد والعقل الرشيد والإيمان الراسخ والصبر القوي ، وبهذا التصرف الحكيم فوَّت هذا العالم على ذلك الملك الفرصة في استفزازه وتحطيم معنويته ، وكان بذلك محل إعجاب ذلك الملك وتقديره .

ثم يظهر علم الباقلاني وفهمه ونباهته في جوابه لذلك الأسقُفْ الذي أراد إهانة النبي ﷺ بلمْز عائشة رضي الله عنها ، حيث دافع عنها بجواب مُسكت محيِّر ، وذلك بأن قرن ذكرها بذكر مريم عليها السلام التي يعظمها النصارى ، ثم ذكر تبرئة الله جل وعلا لهما .

وهكذا ينبغي أن يُختار وفود المسلمين إلى زعماء الكفار حتى يظهروا عظمة الإسلام والمسلمين .

موقف لأبي مسلم أحمد الأبار رحمه الله :

من الأمثلة الجيدة على حرص العلماء على تطبيق التكاليف الشرعية ماذكره جعفر الخُلْدي عن الإمام الرباني أبي مسلم أحمد بن علي الأبَّار ، قال : كان الأبَّار من أزهد الناس ، استأذن أمه في الرحلة إلى قتيبة فلم تأذن له ، ثم ماتت فخرج إلى خراسان ، ثم وصل إلى بَلْخ وقد مات قتيبة ، فكانوا يعزُّونه على هذا ، فقال: هذا ثمرة العلم ، إني اخترت رضى الوالدة (١) .

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٣ .

فهذا فـقه عميق من هذا الإمـام ، فإن أهم شيء يُطلب له العلم هو العمـل الصالح ، وإن من أزكى الأعـمال الصالحـة برَّ الوالدين، فلئن فاته عُـلوُّ الإسناد في بعض الأحاديث فلقـد أدرك ماهو أهم من ذلك وهو ثمـرة العلم الـنافع ، وهذا مـثل من الاعـتـدال في طلب العلم، فلا ينبـغي أن يكون عائقًا عن أداء الواجبـات الدينية، ولا أن يُهَمل بأن تقدَّم عليه النوافل التي هي أقل أهمـيةً ، فضلا عن أن تقدَّم عليه مطالب الدنيا وشواغلها .

من مواقف بقيّ بن مخلَّد الأندلسي رحمه الله :

ومن نماذج الإحـسـان مـاروي عن الإمـام بقيٍّ بن مـخلَّد عـالـم الأندلس أن امرأة جاءت إليه فـقالت : إن ابني في الأسر ولاحيلة لي فيـه، فلو أشرت إلى من يـفديه فإني والـهة ، قال : نعم، انْـصَرِفي حتى أنظر في أمـره ، ثم أطرق وحرك شفـتيه ، ثم بعد مـدة جاءت المرأة بابنهـا ، فقـال : كنت في يد ملك فـبيـنا أنا في العمل سـقط قَيدي، قال : فذكر اليوم والسـاعة ، فوافق وقت دعاء الشيخ ، قال: فصاح عليَّ المُرَسَّم بنـا، ثم نظر وتحير ، ثم أحضر الحـداد وقيَّدني ، فلما [فـرغ منه] ومشـيت سقط القيـد ، فبُهِـتوا ودعـوا رهبانهم ، فقالوا: ألك والدة ؟ قلت : نعم ، قالوا : وافق دعاءها الإجابة .

ثم قالوا : قد أطلقك الله فلا يمكننا أن نقيدك ، فزودوني وبعثوا بي(١) .

فهذا مثل من بذل المعروف والإحـسان عن طريق الدعاء الصالح،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٠ .

فقـد قام هذا العالم الرباني بما يسـتطيعه من تلبـية طلب تلك المرأة ، حيث تـوجه إلى الله تعـالى أن يخلِّص ابنها من الأسـر، وهذا دليل على اهتمامه بأمر تلك المرأة وابنهـا ، وقد أجاب الله تعالى دعاءه بأن نزع من تلك القـيود فعـاليتهـا فأصـبحت تسقط ولاتثـبت على ذلك الرجل رغم محاولتـهم تثبيتهـا ، فأدرك رهبانهم أن وراء ذلك الرجل دعاء صـالح قد اختـرق حجب الغيـب وسقط معـه مفعـول الوسائل والأسباب المادية ، فأطلقوا ذلك الأسير وأكرموه.

وهذه من خـوارق العادات التي أكـرم الله تعالى بهـا ذلك الولي الصالح فاستجاب دعاءه .

من مواقف ظهير الدين الأهوازي رحمه الله :

من ذلك ماذكـره الحافظ ابن كثيـر في ترجمة الوزير أبي شـجاع ظهير الدين مـحمد بن الحسين الأهوازي ، حـيث قال عنه : كان من خيار الوزراء كـثير الصدقة والإحـسان إلى العلماء والفقـهاء ، وسمع الحديث من الشيخ أبي إسـحاق الشيرازي وغيره ، وصنف كـتبا منها كتـابه الذي ذيَّله على تجارب الأمم ، وَوَزَرَ للخليـفة المقتـدي ، وكان يملك ستمائة ألف دينار فأنفقها في سبيل الخيرات والصدقات .

قال له رجل: إلى جانبنا أرملة لها أربعة أولاد وهم عراة وجياع، فبعث إليهم مع رجل من خاصته نفقة وكسوة وطعاما، ونزع عنه ثيابه في البرد الشـديد وقال : والله لا ألبسـها حتى ترجع إليَّ بخـبرهم ، فـذهب الرجل مـسـرعـا بما أرسله على يـديه إليـهم، ثم رجع إليـه فأخبرهم أنهم فرحوا بذلك ودعوا للوزير ، فسُرَّ بذلك ولبس ثيابه.

قــال : وجيء إليه مــرة بقطائف سكرية فلــما وُضــعت بين يديه تنغَّص عليه بمن لايقدر عليــها ، فأرسلها كلها إلى المســاجد، وكانت كثيرة جدا فأطعمها الفقراء والعميان .

قال : وكان لايجلس في الديوان إلا وعنده الفقهاء ، فإذا وقع له أمر مشكل ســألهم فحكم بما يفتونه ، وكان كثــير التواضع مع الناس خاصتهم وعامتهم (١) .

فهــذه أخلاق عاليــة من الوزير أبي شجــاع ، فقد كــان متصــفا بالتواضع والرحمة والعدل ، وكــونه يخلع ثيابه في ذلك اليوم الشديد البرد حــتى يتأكد من وصــول نفقتــه إلى المحتاجين دليل على شــعوره البالغ بمآسي رعيته ، ورغبته في مواساتهم ، وكأنه أراد بتعرضه للبرد أن يعاتب نفســه على تقصيره في تفــقد أمور الفقراء الذين يتــعرضون لقسوة البرد ، ليكون بإحساســه بألم البرد أقدر على تذكر آلام الفقراء وتحقيق آمالهم .

وحينمــا وُضع بين يدي هذا الوزير ذلك الطعام الفاخــر تذكر من لايستطيعــون الحصول عليه من رعيــته فزهد فيــه وآثر به الفقراء على نفــســه، وهذا نوع من الزهد الرفــيع ، حــيث يــتم كــبح النفس عن شهــوتها مع كمــال القدرة على تحــقيقــها ، وإحســاسٌ دقيق بأحقــية المحرومين الذين لم يخطر ببالهم أن يحصلوا على تلك النعم .

من مواقف أبي علي حسان بن سعيد الخالدي رحمه الله :

ومن الذين اشتــهروا ببذل المعــروف والإحسان الــشيخ الجليل أبو

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ١٦٠ - ١٦١ .

علي حسان بن سعيد الخالدي المخزومي المنيعي ، وهو ينتسب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه .

قال عنه المؤرخ عبد الغافر :هو الرئيس أبو علي الحاجي [١] شيخ الإسلام المحمود بالخصال السنيَّة ، عم الآفاق بخيره وبرِّه، وكان في شبابه تاجرا ، ثم عَظُم حتى كان من المخاطبين من مجالس السلاطين، لم يستغنوا عن رأيه ، فرغب إلى الخيرات، وأناب إلى التقوى ، وبنى المساجد والرباطات ، وجامعَ مرو الروز ، يكسُو في الشتاء نحواً من ألف نفس ، وسعى في إبطال الأعشار عن بلده، ورَفَع الوظائف عن القرى ، واستدعى صدقةً عامة عن أهل البلد ، غنيِّهم وفقيرهم ، فتُدفع إلى كل واحد منهم خمسةُ دراهم ، وتم ذلك بعده ، وكان ذا تهجد وصيام واجتهاد [٢] .

فهذا مثل على الاهتمام الكبير ببذل المعروف والإحسان ، وقد تعددت أنواع بر هذا الشيخ الجليل فشملت مواساة الفقراء ، والإحسان إلى جميع أهل بلده بما يشبه العطاء المعمولَ به في عصر صدر الإسلام ، وبناءَ المساجد والمساكن للمحتاجين ، إلى جانب سعيه في إزالة الضرائب عن أهل بلده .

فلقد كان يعمل بعمل عدد من المحسنين ، وإذا عظم الدافع الإيماني واليقين القلبي أتى صاحبه بالعجائب من الأعمال الجليلة .

قال الإمام الذهبي : وقيل : إن امرأة أتته بثوب لينفق ثمنه في

---

(١) الحاجي بلغة العجم الذي حج بيت الله الحرام .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/٢٦٦ - ٢٦٧ .

بناء الجامع ، يساوي نصف دينار ، فاشتراه منها بألف دينار، وسلَّمت المال إلى الخازن لإنفاقه ، وخبَّأ الثوب كفنًا له [1] .

فهذا موقف كبير في السماحة والسخاء ، حيث دفع هذا الشيخ الجليل ألف دينار ثمنا لذلك الثوب ليكون هذا المبلغ في بناء المسجد.

وإحساس مرهف نحو الحياة الآخرة ، وذلك في اهتمامه بذلك الثوب الذي قد يكون هو كل ماتملكه تلك المرأة ثم جادت به لله تعالى، وجاد هو بألف دينار ليكون كفنا له بعد الموت .

فما أبلغ اهتمام هذا الشيخ بدينه ومستقبله بعد الموت !

من مواقف عماد الدين إبراهيم المقدسي رحمه الله :

ومن مواقف العلماء في العمل الصالح والإحسان إلى الناس ماذكره الشيخ ضياء الدين المقدسي من أخبار الشيخ عماد الدين إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي ، فمنها ماذكره عن عباس بن عبد الدايم المصري الكناني قال : كنا يوما نمشي مع الشيخ العماد إلى دعوة فلقي في السوق رجلا أعمى يسأل ، فقال : يافلان تعال معنا، قال: فاستحيَى الضرير كثيرا من أجل سؤاله ، قال : فلما دخلنا إلى البيت انبسط الشيخ مع الضرير وقال : يافلان كلُّنا سُؤَّال ، وما زال يقول له حتى زال ماكان عنده من الحياء [2] .

فهذا سلوك نبيل من هذا الشيخ الجليل في مواساة الفقراء والرفع من معنويتهم ، وقد جمع الشيخ العماد في هذا بين المواساة المادية

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) طبقات الحنابلة ٤/ ٩٨ .

والمعنوية ، فحينما رأى ذلك السائل قد انكسرت نفسه وغلبه الحياء صار يلاطفه حتى زال ماخطر في نفسه وارتفعت معنويته .

وقد ذكر له الشيخ الضياء أخباراً في بذل المعروف ، فمن ذلك ماذكره الحافظ ابن رجب في ترجمته قال : ثم ذكر الضياء من كرمه وحسن عشرته أن بعض أصحابه كانت تكون له الحاجة إليه فيمضي إلى بيته فيقيم عنده اليوم واليومين ، قال : ومارأيته يشكي من ذلك شيئًا قال : وما أظن أني دخلت عليه قط إلا عرض علي الطعام .

قال : ولم يزل هذا دأبه من وقت ماعقلنا ، وكان يتفقد الناس ويسأل عن أحوالهم كثيرا ، وربما بعث إلى الناس نفقةً سرّاً .

وذكر أنه كان إذا غاب أحد من إخوانه أرسل إلى بيته النفقة وغيرها، وربما جاء بنفسه إليهم ، قال : وربما كان بعض الناس يرسل إليه يشتري له حاجة فربما زاد على ثمنها من عنده ولايُعلمه بذلك وكان يَلْقى الناس بالبشر الدائم (١) .

من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

من مواقف بذل المعروف والإحسان ماكان من شيخ الإسلام أحمد ابن عبد الحليم ابن تيمية ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة الأمير قطلوبك المنصوري : أن ابن تيمية دخل عليه مع تاجر يشفع له في قضاء حقه فقال له قطلوبك : إذا رأيتَ الأمير بباب الفقير فنعم الأمير ونعم الفقير ، وإذا رأيت الفقير بباب الأمير فبئس الأمير وبئس

---

(١) طبقات الحنابلة ٤/ ٩٧ .

الفقير [1] ، فقال له ابن تيمية : كان فرعون أنحس منك وموسى خيراً مني ، وكان يأتي إلى بابه كل يوم يأمره بالإيمان ، وأنا آمرك أن تدفع لهذا حقه ، فلم يسَعْه إلا امتثال أمره ووفَّى الرجل حقه [2] .

فهذا موقف جليل من الإمام ابن تيمية حيث بذل جاهه لصاحب الحق وشفع له عند السلطان ، ولمَّا استشهد ذلك السلطان بالقول المذكور الذي لم يكن موافقا للحكمة نبهه ابن تيمية إلى أن الأمر ليس على إطلاقه بل إن مجيء العالم إلى الأمير لموعظته أو الشفاعة لأهل الحقوق أمر مطلوب شرعا ، وقد كان ابن تيمية رحمه الله موفقا للأسلوب المؤثر حينما ضرب المثل بموسى عليه السلام وفرعون .

من مواقف أبي الحسين ابن سمعون رحمه الله :

من مواقف العلماء في الحرص على تطبيق الأحكام الشرعية ماذُكِرَ عن الإمام أبي الحسين محمد بن أحمد البغدادي ، المعروف بابن سمعون ، يقول صاحبه أبو محمد السُّنِّي : كان ابن سمعون في أول أمره ينسخ بالأجرة وينفق على نفسه وأمه ، فقال لها يوما : أحب أن أحج ، قالت : وكيف يمكنك ؟ فغلب عليها النوم، فنامت وانتبهت بعد ساعة وقالت : ياولدي حُجَّ ، رأيت رسول الله ﷺ في النوم يقول : دَعيه يحج فإن الخير له في حجه ، ففرح وباع دفاتره، ودفع إليها من ثمنها ، وخرج مع الوفد ، فأخذت العرب الوفد،

---

(١) المراد بالفقير العالم ، وذلك على اصطلاح الصوفية حيث كانوا يسمون أنفسهم الفقراء.

(٢) الدرر الكامنة ٣/ ٢٥٣ .

قال: فبقيت عريانا ، فجعلتُ إذا غلب عليّ الجوع ووجدت قوما من الحجاج يأكلون وقفت فيدفعون إليّ كسرة فأقتنع بها ، ووجدت مع رجل عباءة فقلت : هَبْهَا لي أستتر بها فأعطانيها فأحرمت بها ورجعت.

قال : وكان الخليفة قد حرَّم جارية وأراد إخراجها من الدار، قال السُّنِّي : فقال الخليفة : اطلبوا رجلا مستورا يصلح أن نُزوِّج هذه الجارية به ، فقيل : قد جاء ابن سمعون ، فاستصوب الخليفة ذلك وزوجه بها .

فكان يعظ ويقول : خرجت حاجا . . ويشرح حاله . ويقول : ها أنا اليوم عليَّ من الثياب ماترون !!

قال الذهبي : كان فاخر الملبوس (١) .

فهذا الخبر يبين حرص أهل العلم والإيمان على أداء الفروض والواجبات حتى ماكان منها مقيدا بالاستطاعة كالحج ، فهذا العالم الجليل ابن سمعون كان يعيش فقيراً مع أمه ، ومع ذلك فإن نفسه تطمح إلى الحج ، وقد تعجبت أمه من طلبه ذلك لأنهما لايملكان أكثر من القوت الضروري ، ولكن الله تعالى سخر له تلك الرؤيا التي رأتها أمه ، فكانت مقنعة لها بالسماح له بالحج ، فباع وسيلة رزقهما وهي الدفاتر ليتمكن من نفقة الحج .

ويُبْتَلَى هذا العالم فَيَسْلُبَ ما معه قطَّاعُ الطريق ويبقى بدون ثياب ولاطعام ، ومع ذلك يواصل طريقه إلى الحج ، ثم يقارن بين حاله

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٥٠٦ - ٥٠٧ .

تلك وحاله بعد أن أنعم الله تعالى عليه ليشكر ربه جل وعلا ، وليجعل من حياته عبرة للآخرين في الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء .

إنِ الاهتمام بالعمل الصالح - وخاصة أداء الواجبات - دليل على ارتفاع مستوى الإيمان ، ويكون الإيمان أعظم رسوخا وقوة حينما لاتتيسر أسباب أداء العمل ، فيبيع الإنسان مايملك من أجل أداء هذا العمل كما فعل الإمام ابن سمعون رحمه الله تعالى .

*   *   *

مواقف وعبر
فى
مجـــال العبـــادة

في هذا الفصل سيتم بإذن الله تعالى بيان شيء من مواقف سلف هذه الأمة في مجال العبادة .

وإنما أدخلت هذا المجال في المواقف الإسلامية لأنه نوع من جهاد النفس ، فالذي يصبر على السهر الطويل والجوع والعطش يوما بعد يوم لاشك أنه رجل عظيم ، وأنه شديد القوة حينما ملك هوى نفسه ، ثم إن الإنسان العابد يعتبر داعية إلى الله تعالى بالقدوة الحسنة، ومن هذا الباب تحوَّل كثير من الموالي في تلك العصور الذين كانوا مماليك إلى رجال صالحين أتقياء ، وبرز منهم عدد كبير في العلم، وذلك لأنهم نشئوا في أحضان أسر مسلمة صالحة، وأصبحوا يشاهدون أرباب الأسر وهم يقومون في الليل ويصومون في النهار كثيرا، ويعاملونهم بالمواساة ومكارم الأخلاق، فاقتدوا بهم في هذه الصالحات.

ومما ينبغي أن نلاحظ أننا حينما نطلق لفظ العبادات على الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام فإن هذا لايعني أن غير هذه من الأعمال الصالحة لايدخل تحت دائرة العبادة، فالعبادة تشمل كل أمر مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى ، سواء فيما أمر الله به من الواجبات والمستحبات ، أو في ترك مانهى عنه من المحرمات والمكروهات، أو فيما أذن به من المباحات، فالمواقف الإسلامية التي مرت معنا في مجال الجهاد والعلم والأخلاق وغير ذلك داخلة في المفهوم الشامل للعبادة .

ومما يدل على المفهوم الشامل للعبادة قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، فالعبادة هنا ليست الشعائر التعبدية وحدها ، وإنما تشمل جميع تكاليف الدين، وكذلك قول الرسول ﷺ « ياأبا هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس»(١) وقوله ﷺ « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أولَ مرة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها » (٢) وقوله « قال الله عز وجل: أحب ماتعبدني به عبدي النصح لي » (٣) .

وإنما أردت بالعبادات هنا الشعائر التعبدية، وسِرْت في تسميتها على ماسار عليه العلماء من إطلاق لفظ العبادات عليها بناء على المصطلحات العلمية التي ميَّزوا بها بين العلوم الدينية .

نماذج من عبادة النبي صلى الله عليه وسلم :

يجدر بنا أن نبدأ بذكر نماذج من عبادة النبي ﷺ على سبيل التمثيل ، فمن ذلك ماأخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث عروة بن الزبير رحمه الله تعالى عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطر(٤) رجلاه، قالت عائشة : يارسول الله أتصنع هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك

---

(١) أخرجه ابن ماجه وقال البوصيري : إسناده حسن - سنن ابن ماجه، رقم٤٢١٧، كتاب الزهد .

(٢) أخرجه الإمام أحمد - مسند أحمد ٥/ ٢٦٤ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد - المسند ٥/ ٢٥٤ .

(٤) أي تتشقق وأصله تتفطر فحذفت التاء .

وما تأخر ؟ فقال : ياعائشة أفلا أكون عبدا شكورا ! » (١) .

فهذا الخبر يصور لنا شدة اجتهاد النبي ﷺ في العبادة ، حيث كان يقوم من الليل يصلي ويطيل الصلاة حتى تشققت قدماه من طول القيام، وحينما تعجبت عائشة رضي الله عنها من هذا الاجتهاد في العبادة من رسول الله ﷺ ، الذي بلغ إلى حد الإجهاد مع أن الله تعالى قد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر أجابها بأن هناك دافعًا إلى العبادة أعظم من مغفرة الذنوب ، ألا وهو شكر المنعم جلا وعلا على نعمه العظمى التي أجلُّها الهداية إلى الحق وهداية الأمة إليه .

إنه بقدر إيمان العبد بالله تعالى تكون عظمته جل وعلا في قلبه، ولاأحد أقوى إيمانا من رسول الله ﷺ ، وبالتالي كان شكره لله تعالى بأمور منها هذه العبادةُ الطويلة الشاقة، وإن النبي ﷺ إذ يتقرب إلى الله تعالى بهذه العبادة شكرًا له فإنما يَسُنُّ لأمته شكر الله تعالى على نعمه بالأعمال الصالحة .

ومما جاء في بيان طول صلاة النبي ﷺ ماأخرجه الإمامان البخاري ومسلم - واللفظ له - من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : صليت مع النبي ﷺ فأطال حتى هممت بأمر سوء، قيل : وماهممت به ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه (٢) .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب المنافقين ، رقم ٢٨٢٠ ص ٢١٧٢ صحيح البخاري ، التهجد، رقم ١١٣٠ (٣/١٤) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، رقم ٧٧٣ ، ص٥٣٧ صحيح البخاري، التهجد ، رقم ١١٣٥ (٣/١٩) .

فهـذا الخبر يبين طول صـلاة النبي ﷺ في الليل ، فعـبد الله بن مسعود كان في شبابه وكان قوي الإيمان، ومع ذلك همَّ بالقعود، وهذا دليل على أن قيام النبي ﷺ غـير مقدور عليه لأفـراد الناس إلا بمشقة بالغة .

ولهـذا الطول العظيم في صـلاته ﷺ كانت ركـعـاته لاتزيد عن إحدى أو ثلاث عشرة ركعة .

وهذه الصلاة الطويلة العظيمـة إنما يغذِّيها ويسهلها ويشـوق إليها الحب الكبير العميق لله تعالى ، والخـضوع الكامل لعظمته، وحضور القلب التام مع جلاله وكبريائه جل وعلا .

ولقد كان ﷺ قدوة عليا للصالحين من بعده، الذين ترسَّموا خطاه وساروا على منهاجه .

ولقد كـان ﷺ لعظمة طمـوحه وشـدة شوقه لطول مـناجاةربه، والتغني بتـلاوة كتابه لاتحـمله رجلاه أحيـانًا من شدة التعب فـيصلي بعض صـلاة الليل قاعـدا، كمـا أخرج الإمام الـترمذي من حـديث عبـدالله بن شقـيق قال : سـألت عائشـة رضي الله عنهـا عن صلاة النبيﷺ، عن تطوعه فـقالت : كان يصلي ليلا طويلا قـائما، وليلا طويلا قاعدا ، فإذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهو قائم، وإذا قرأ وهو جالس ركع وسجد وهو جالس (١) .

ومما ورد في خشوع النبي ﷺ في الصلاة مـاأخرجه ابن خبان في صحيحه عن عُـبَيد بن عمير أنه قال لعائشـة رضي الله عنها: أخبرينا

---

(١) مختصر الشمائل المحمدية رقم ٢٣٦ ص١٥٢ ، وصححه الشيخ الألباني .

بأعجب شيء رأيتـه من رسول الله ﷺ ، قال : فـسكتَتْ ثم قالت : لما كان ليلةٌ من الليالي قال: ياعـائشة ذريني أتعبد الليلة لربي، قلت: والله إني أحب قربك وأحب مـايسرك ، قالت: فـقام فتطهـر ثم قام يصلي، قالت : فلم يزل يبكـي ﷺ حتى بلَّ لحيتـه، قالت: ثم بكى حـتى بلَّ الأرض، فـجاء بلال يُؤْذنه بالـصلاة فلمـا رآه يبكي قـال: يارسول الله تبكي وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر؟! قال: أفلا أكـون عبـدا شكورا ؟ ! لقد نزلت عليَّ الليلة آية ويـل لمن قرأها ولم يتفكر فـيها ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِـلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٦٤] (١) .

وهكذا رأينا مظهـرًا من مظاهر المثل الأعلى لرسـوخ الإيمان وقوة حضور القلب مع الله تعالى ، تمثَّل في بكاء النبي ﷺ من خشيته جل وعلا عند مناجاته وتلاوة كتابه .

إنه حينمـا يتلو كتـاب الله تعالى يتذكـر هيمنة الملك الجـبار جل شأنه، ويحلِّق فكره بين جنبات الأفـق الأعلى، حيث الملائكة المقربون والحياة الآخرة بما فيها من نعيم وعذاب .

وإذا مرَّ بقصص الأمم الماضية انطلق فكره في تأمُّل مـسيرة معركة الحق مع البـاطل عـلى أيدي من اصطفـاهم الله تـعـالى لرسـالتـه،

---

(١) الترغيب والترهيب ٣/ ٣٢ .

ومايَعْقُب ذلك من مصـارع الأمم الضالة، ثم يُلقي نظرة على الحائرين التائهين مـن حوله وهم يكررون ملحـمة الطغاة السـابقين، وينتظرون مصيرهم ومصير تابعيهم المحزن إن لم يثوبوا إلى رشدهم .

وهكذا كانت الصلاة منتهى سعـادة النبي ﷺ كما قال: « وجُعِلَ قرة عيني في الصلاة » (١) وكما قال : « أرحنا بالصلاة يابلال » (٢) .

وكان ﷺ لايترك صلاة الليل حتى في السـفر وفي ليالي الجهاد، وكان إذا جَـدَّ به السيـر في الليل صلى على راحلته قـاعدا، وإذا نزل صلى في مكانه الذي ينزل فيه .

ومما جاء في ذلك مـاأخرجه الإمـام الترمـذي من حديث زيد بن خالد الجهـني قال : « لأَرْمُقَنَّ صلاة النبي ﷺ فـتوسَّدت عتـبته- أو فـسطاطه - فصلى رسـول الله ﷺ ركـعتين خـفـيفـتين ، ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين ، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما ، ثم صلى ركعتين وهمـا دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما ، ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة » (٣) .

من أخبار أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه :

من ذلك ماأخرجـه الإمام البخاري من حديـث عائشة رضي الله عنها في خبرٍ عن أبيها الصديق أبي بكر رضي الله عنه يوم أن كان في مكة في بداية الإسلام وقد جاء فيـه « ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا

(١) مسند أحمد ٣/١٢٨.

(٢) مسند أحمد ٥/ ٣٦٤ .

(٣) مختصر الشمائل المحمدية ص١٤٨ ، وصححه الشيخ الألباني .

بفناء داره وبرز ، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقصَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاءً لايملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين(١) .

وهكذا كان أبو بكر رضي الله عنه يبكي عند تلاوة كتاب الله تعالى، وهذا يدل على رسوخ يقينه وقوة حضور قلبه مع الله تعالى ومع معاني الآيات التي يتلوها، والبكاء مبعثه قوة التأثر إما بحزن شديد أو فرح غامر، والمؤمن الحق يظل بين الفرح بهداية الله تعالى إلى الصراط المستقيم ، والإشفاق من الانحراف قليلا عن هذا الصراط، وإذا كان صاحب إحساس حيّ وفكر يَقِظٍ كأبي بكر رضي الله عنه فإن هذا القرآن يذكِّره بعظمة الله تعالى وهيمنته العظمى على خلقه ، كما يذكِّره بالحياة الآخرة ومافيها من حساب وعقاب أو ثواب، فيظهر أثر ذلك في خشوع الجسم وانسكاب العبرات، وهذا المظهر يؤثر كثيرا على من شاهده ، ولذلك فزع المشركون من مظهر أبي بكر المؤثر وخَشُوا على نسائهم وأبنائهم أن يتأثروا به فيدخلوا في الإسلام .

من أخبار عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

ومما جاء في خشوع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ماأخرجه أبو نعيم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: صليت خلف عمر فسمعت حنينه من وراء ثلاثة صفوف (٢) .

(١) صحيح البخاري رقم ٢٢٩٧ ، ٣٩٠٥ .

(١) حلية الأولياء ١/ ٥٢ .

وهذا دليل على خشوع قلبه واستحضاره الجيد لمعاني الآيات التي يتلوها ، وهذا من أهم مايُطلب من القراء وخاصة الأئمة منهم .

من أخبار عثمان بن عفان رضي الله عنه :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عثمان بن عبد الرحمن التيمي قال: قال أبي(١) : لأغلبن الليلة على المقام، قال: فلما صليت العتمة تخلصت إلى المقام حتى قمت فيه، قال: فبينا أنا قائم إذا رجل وضع يده بين كتفي، فإذا هو عثمان بن عفان، قال: فبدأ بأم القرآن فقرأ حتى ختم القرآن، فركع وسجد، ثم أخذ نعليه، فلا أدري أصلى قبل ذلك شيئا أم لا .

وأخرج من خبر محمد بن سيرين قال: قالت امرأة عثمان بن عفان حين أطافوا به يريدون قتله : إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يحيي الليل كله في ركعة يجمع فيها القرآن (٢) .

ففي هذين الخبرين شيء من اجتهاد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه في العبادة ، وكونه يقرأ القرآن كله في ركعة يدل على مقدرة فائقة على طول الوقوف في الصلاة ، لأن ذلك يعني أنه قد وقف طوال الليل، مع أنه كان كبير السن، حيث جاء في رواية اخرجها ابن عساكر أن ذلك كان يومئذ وهو أمير (٣) وهذا لايتأتى لأحد إلا مع طوال المران بكثرة الصلاة .

---

(١) أبوه هو عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي وهو صحابي رضي الله عنه، وهو ابن أخي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه .

(٢) حلية الأولياء ١/٥٦ - ٥٧ .

(٣) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٣٢ .

وأخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الحسن بن أبي الحسن البصري قال: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : لو أن قلوبنا طهرت ماشبعنا من كلام ربنا ، وإني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر في المصحف، قال : وما مات عثمان حتى خرق مصحفه من كثرة ماكان يديم النظر فيه (١) .

فهذا تذكير من أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بأهمية تلاوة القرآن في المصحف، فهو مع أنه يحفظ القرآن جيدًا فإنه لا يأتي يوم إلا وهو ينظر في المصحف، وقد بين أن سبب الإعراض عن تلاوة القرآن هو ما تشتمل عليه القلوب من الانصراف إلى ماهو أدنى ، وهذا نوع من فساد القلوب .

وصف علي لعبادة الصحابة رضي الله عنهم :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر أبي أراكه قال: صلى عليٌّ الغداة ثم لبث في مجلسه حتى ارتفعت الشمس قيد رمح كأن عليه كآبة، ثم قال: لقد رأيت أثرا من أصحاب رسول الله ﷺ فماأرى أحدا يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثا غبرا صفرا بين أعينهم مثل ركب المعزى، قد باتوا يتلون كتاب الله تعالى ، يراوحون بين أقدامهم وجباههم ، إذا ذكر الله جل وعلا مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين(٢) .

---

(١) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٣٢ .

(٢) حلية الأولياء ١/ ٧٦ .

فهذا وصف دقيق لعبادة الصحابة رضي الله عنهم، وعلي رضي الله عنه من أول من يدخل في هذا الوصف، فقد وصفهم في إخباتهم وخشوعهم لله تعالى، وقد تذكرهم لما عاشر خلَفَهم فوجد الفارق الكبير بين المجتمعين .

ونجد عليا رضي الله عنه وقد عاشر أخلاطا من التابعين في أيام خلافته يجد بعض الوحشة من ذلك المجتمع الذي غلب على بعض أفراده اختلاط النية فظهر عليهم إرادة الدنيا فيذكِّره ذلك بمجتمع الصحابة رضي الله عنهم فيصفهم هذا الوصف الدقيق، حيث أشار إلى العوامل المؤثرة في استقامة سلوكهم، وذلك بالمحافظة على قيام الليل وبذل الجهد في العبادة ومداومة ذكر الله تعالى مع التأثر بذلك، ويقارن بينهم وبين أناس عاصروه يقومون من نومهم مبتهجين باستقبال دنياهم، فيصفهم بالغفلة لأنهم شغلوا بالدنيا الفانية وغفلوا عن الإعداد للآخرة الباقية .

ولاشك أنّ التابعين يوجد فيهم من يتصف بصفات الصحابة المذكورة ، بل إن عصرهم هو أفضل العصور بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم ولكنه أراد نسبة الكل إلى الكل، فإذا نسب عموم التابعين إلى عموم الصحابة تبين الفرق، خاصة وأن الذين يبرزون عند الفتن هم أهل الدنيا، وقد كان عصر علي رضي الله عنه مليئا بالفتن.

من أخبار أبي موسى الأشعري رضي الله عنه :

من أخبار اجتهاده في العبادة مارواه صالح بن موسى الطلحي عن أبيه قال : اجتهد الأشعري قبل موته اجتهادا شديدا فقيل له:لو

أَمَسكْتَ ورفـقت بنفسك ، قال : إن الخيل إذا أُرسلت فـقاربت رأس مـجراها أخـرجت جمـيع ماعنـدها ، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك(١) .

فهذا فـقه من أبي موسى عبد الله بن قـيس الأشعري رضي الله عنه حيث تنامَى شعوره بلزوم رفع رصـيده من الحسنات مع تقدم سِنِّه فاجتهد في العبادة وضَعُفَ تعلقه بالدنيا، وهذا من علامات التوفيق .

ورَوَى ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَدِمنا البصـرة مع أبي موسى فقام من الليل يتـهجد ، فلما أصـبح قيل له: أصلح الله الأمـير، لو رأيت إلى نـسوتك وقـرابتك وهم يستـمعـون لقراءتك، فقال: لو علمت لزيَّنت كتاب الله بصوتي ولحبَّرته تحبيرا(٢) .

فهذا اهتمام من أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بحسن تلاوة كـتاب الله تـعالى، وهذا يدل على قـوة تأثره به، وكلمـا كـان القلب حاضـرا أثناء التلاوة متـذكِّرا معـاني كتاب الله عـز وجل يكون التأثر أقوى ويكـون تفاعل الإنسـان مع القرآن أعظم فـيظهر الخشـوع على تلاوته .

وعن أبي بردة بن أبي مـوسى الأشعـري عن أبيـه رضي الله عنه قال: غزونا في البحر فسرنا حـتى إذا كنا في لُجَّة البحر سمعنا مناديا ينادي : يا أهل السفينة قِفُوا أخبـركم ، فقمت، فنظرت يمينا وشمالا فلم أر شيـئا حـتى نادى سبع مرار ، فـقلت : ألا ترى في أي مكان

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٩٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٩٢ .

نحن، إنا لا نستطيع أن نقف ، فقال: ألا أخبرك بقضاء قضى الله على نفسه : إنه من عَطَّش نفسه لله في يوم حار كان حقا على الله أن يرويه يوم القيامة ، قال: وكان أبو موسى لاتكاد تلقاه في يوم حارّ إلا صائما (١) .

فهذه بشرى عظيمة للصائمين الذين لايمنعهم اشتداد الحرّ من مواصلة مااعتادوا عليه من الصيام ، وقد كان أبو موسى الأشعريّ من الذين يتقربون إلى الله تعالى في صيام الأيام الحارة، وهذا دليل على اهتمامه الكبير بالعمل الصالح .

من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه :

من أمثلة اهتمامه بعمران بيته بعبادة الله تعالى ماروُي عن أبي عثمان النهدي قال: تضيَّفت أبا هريرة سبْعًا ، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثا : يصلي هذا ، ثم يوقظ هذا ، ويصلي هذا ثم يوقظ هذا (٢) .

فهذا بيت حيّ عامر بالصلاة طوال الليل، فأين تجد الشياطين لها مكانا في هذا البيت ؟!

إنها تربية عالية على التقوى والعمل الصالح من الحافظ الكبير والعالم الرباني أبي هريرة رضي الله عنه، واستجابةٌ كريمة من امرأة طاهرة زكية وخادم صالح مطيع .

إن أبناء الدنيا حينما يكلِّفون خدمهم بعمل كبير فإنما يكلفونهم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٩٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٠٩ .

بأعمال الدنيا ، ويرون أنه لامصلحة لهم بتكليفهم بعمل الآخرة، أما أبناء الآخرة فإنه من كمال سرورهم أن يروا خدمهم يجتهدون في أعمال الآخرة ، لأنهم يكسبون بذلك أجرا على حسن توجيههم .

من أخبار شداد بن أوس رضي الله عنه :

من ذلك ماروُي عنه رضي الله عنه : أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه ، لايأتيه النوم فيقول: اللهم إن النار أذهبَتْ مني النوم ، فيقوم فيصلي حتى يصبح (١) .

فهذه يقظة حية وإحساس قوي من شداد بن أوس رضي الله عنه، فقد مَنَع تذكرُ النار عنه الرقاد .

ولك أن تقارن هذا بمن حمل همًّا كبيرا من هموم الدنيا فأقضَّ مضجعه وأسهر ليله،فإنَّ من عُمِرت قلوبهم بتذكر الآخرة أعظم من ذلك .

من أخبار ابن عباس رضي الله عنهما :

من ذلك مارواه ابن أبي مليكة قال: صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة ، فكان يصلي ركعتين (٢) ، فإذا نزل قام شطر الليل ويرتِّل القرآن حرفا حرفا ، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب (٣) .

وعن أبي رجاء قال: رأيت ابن عباس وأسفلُ مِنْ عينيه مثل الشِّراك من البكاء (٤) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٤٦٦ .

(٢) يعني يقصر الصلاة الرباعية فيصليها ركعتين .

(٣) (٤) سير أعلام النبلاء ٣/٣٥٢ .

فهذا يبين لنا ماكان يتصف به حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى واستحضار عظمته وجلاله وتذكُّر الحياة الآخرة ، فكل ذلك يؤثر في النفس تأثيرا قويا يبعث صاحبها على البكاء المتواصل .

من أخبار أنس بن مالك رضي الله عنه :

من ذلك مارواه ثابت البناني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مارأيت أحدًا أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من ابن أم سُلَيم - يعني أنسا - (١) .

وقال أنس بن سيرين : كان أنس بن مالك أحسن الناس صلاة في السفر والحضر (٢) .

وعن ثمامة قال : كان أنس يصلي حتى تفطَّر قدماه دمًا مما يطيل القيام رضي الله عنه (٣) .

فهذه الأخبار تبين لنا حُسْنَ صلاة أنس بن مالك رضي الله عنه من ناحية التمام والإتقان ، وأن صلاته تشبه صلاة رسول الله ﷺ ، ولاغرابة في ذلك فقد خدمه عشر سنين فهو حَرِيٌّ بأن يتأسَّى به، كما تُبيِّن كثرة صلاته في الليل وطولَها إلى الحد الذي أثر على قدميه، وهذا دليل على قوة إيمانه ورغبته الصادقة في بلوغ رضوان الله تعالى ورفعة الدرجات في الجنة .

ولقد كان من أثر هذا الإيمان القوي والعمل الصالح أنه كان مُجَاب الدعوة كما في خبرٍ رواه ثابت البناني قال: جاء قَيِّمُ أرض

(١) (٢) (٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٠٠ .

أنس فقال : عطشت أَرَضُوك ، فتردَّى أنس[1] ، ثم خرج إلى البَرِّية، ثم صلى ودعا، فثارت سحابة وغشيت أرضه ومطرت، حتى ملأت صهريجه وذلك في الصيف، فأرسل بعض أهله فقال: انظر أين بلغَتْ؟ فإذا هي لم تَعْدُ أرضه إلا يسيرا [2] .

وهكذا يستجيب الله تعالى دعاء أوليائه في الضراء ، تكريمًا لهم لأنهم كانوا معه في السراء بالشكر والدعاء والعبادة .

ومن أمثلة اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بالعبادة ماروى الجريري قال: أحرم أنس بن مالك من ذات عرق، قال: فما سمعناه متكلمًا إلا بذكر الله تعالى حتى حلَّ ،قال فقال له: ياابن أخي هكذا الإحرام [3] .

فهذا مثل من حضور القلب مع الله تعالى أثناء العبادة،وكون أنس بن مالك لم يُسمَع متكلِّما منذ أحرم حتى حلَّ إلابذكر الله تعالى يعتبر من الصبر العظيم،وهذا الخبر يعتبر نموذجا للحج الكامل،كما أنه يبين فهم الصحابة العالي لأحكام الشريعة ودقتهم في تطبيقها.

من أخبار أسامة بن زيد رضي الله عنهما :

من أخبار اجتهاده رضي الله عنه في العبادة ما روي عن مولى أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : كان أسامة يركب إلى مالٍ له بوادي القرى فيصوم الإثنين والخميس في الطريق، فقلت له: تصوم

---

(١) أي لبس رداءه .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٠٠ .

(٣) طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢ .

الإثنين والخميس في السفر وقد كبرت وضعفت - أو رققت - فقال: إن رسول الله ﷺ كان يصوم الإثنين والخميس وقال : « إن أعمال الناس تعرض يوم الإثنين والخميس » (١) .

ففي هذا الخبر بيان اهتمام أسامة البالغ باتباع السنة حيث يصوم الإثنين والخميس مع كِبَر سنِّه ومع أن الله تعالى أباح الفطر في السفر لمن صام رمضان فكيف بصيام النفل وهذا دليل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على الأعمال الصالحة وإن تعرضوا لمشقة في سبيل ذلك.

من أخبار ابن عمر رضي الله عنهما :

من أخباره في الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى أثناء أداء العبادة مارُوِي عن عروة بن الزبير قال: خطبتُ إلى ابن عمر ابنته ونحن في الطواف ، فسكت ولم يجبني بكلمة فقلت : لو رضي لأجابني والله لا أراجعه بكلمة ، فقدِّر له أنه صدر إلى المدينة قبلي، ثم قدمت فدخلت مسجد الرسول ﷺ ، فسلمت عليه وأدَّيت من حقه ماهو أهله وأتيته فرحب بي وقال: متى قدمت؟ قلت هذا حين قدومي ، فقال : كنتَ ذكرت لي سورة بنت عبد الله ونحن في الطواف نتخايل الله بين أعيننا، وكنتَ قادراً أن تلقاني في غير ذلك الموطن ، فقلت : كان أمراً قدِّر ، فقال : مارأيك اليوم ؟ قلت: أحرص ماكنت قط ، فدعا ابنيه سالما وعبد الله فزوجني (٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٥٠٦ .

(٢) حلية الأولياء ١/٣٠٩ .

فهذا تذكير بليغ من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بما يجب أن يكون عليه المسلم في أثناء أدائه العبادة، فالطواف صلاة إلا أن الله تعالى أباح فيه الكلام، ولكن إباحة الكلام لاتعني أن ينصرف الطائف عن موضوع الطواف ويتحدث في أمور الدنيا، بل إنما يباح الكلام للحاجة الطارئة .

وفي هذا الخبر بيان ماكان يتصف به عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من الخشوع في العبادة وحضور القلب مع الله تعالى .

وكان عبد الله بن عمر من المكثرين من صلاة الليل كما رَوَى مولاه نافع عنه أنه كان يحيي الليل صلاة ، ثم يقول : يانافع أسْحَرْنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة إلى أن أقول: نعم، فيقعد ويستغفر ويدعو حتى يصبح [1] .

والمقصود بقوله «كان يحيي الليل صلاةً» أنه كان يقوم أكثر الليل، لأن النبي ﷺ نهى عن قيام الليل كله، كما في خبر الثلاثة الذين قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر: أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني » [2] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٣٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب النكاح رقم ٥٠٦٣ .

صحيح مسلم ، كتاب النكاح رقم ١٤٠١ .

ويستثنى من ذلك العشر الأواخر من رمضان لأن النبي ﷺ أحياها بالصلاة كلها .

واهتمام ابن عمر بالاستغفار في السحر يعتبر تطبيقا لقول الله تعالى ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨] .

ومن ذلك مارواه نافع مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن ابن عمر كان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيَى ليلته (١) .

فهو بهذا يرى أنه لايكفِّر هذا التقصير إلا إحياء الليل كله بالصلاة، أخذًا بقول الله تعالى﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود:١١٤] .

من أخبار الحسن بن علي رضي الله عنهما :

من ذلك مارواه عبد الله بن عبيد بن عمير قال قال ابن عباس: ماندمت على شيء فاتني في شبابي إلا أني لم أحج ماشيا، ولقد حج الحسن بن علي خمسا وعشرين حَجَّة ماشيًا وإن النجائب لَتُقَادُ معه، ولقد قاسم الله مالَه ثلاث مرات، حتى إنه يعطى الخف ويُمسك النعل(٢) .

فهذا مثل من لزوم مالا يلزم شرعا يقوم به الحسن بن علي رضي الله عنهما ، حيث لازم الحج ماشيًا خمسًا وعشرين حَجَّة ، وهذا يدل على فضيلة المشي في الحج كما يؤيد ذلك ندم ابن عباس رضي

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٣٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٠ .

الله عنهمـا على عدم قيامـه بذلك أيام شبابه ، ومداومـة الحسن على ذلك مع مافيه من مشقة تدل على قـوة إيمانه ورغبته الصادقة في المزيد من الأعمال الصـالحة ، والمقصود بالمشي في الحج من مـكة إلى عرفة ثم من عرفة إلى مكة،وليس المقصود أن يحج الحاج ماشيا من بلده.

من أخبار ابن الزبير رضي الله عنهما :

من أخباره في الخشـوع في الصلاة ماروي عن ثابت البناني قال : كنت أمُـرُّ بابن الزبير وهو خلف المـقام يصلي كـأنه خشـبة منصـوبة لاتتحرك (١) .

وقال عمرو بن دينار : كـان ابن الزبير يصلي في الحِجْر والمنجنيق يصب توبه (٢) فما يلتفت – يعني لمَّا حاصروه – (٣) .

وعن عمر بن قـيس عن أمه أنها دخلت على ابن الزبير بيـته فإذا هو يصلي ، فسقطت حـية على ابنه هاشم فصاحوا :الحيـة الحية، ثم رموها،فما قطع صلاته (٤) .

فهذه الأخبار تدل على اهتمام عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما بالصـلاة واستغـراقه التـام في صلاته من غـير التـفات إلى مـاحوله ولاتفكير في أمور دنياه ، وقد كان مشهورًا بالعبادة إلى جانب شهرته بالشجاعة والفصاحة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٩ .

(٢) التوب حجر المنجنيق .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٩ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٧٠ .

ومن أخبار اهتمامه بالعبادة ماروُي عن مجاهد أنه قال: ماكان بابٌ من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلَّفه ابن الزبير، ولقد جاء سيل طبق البيت فطاف سباحة (١) .

وهذا من حرصه على مداومة القيام بالعمل الصالح حتى لو كان في ذلك مشقة عليه .

ولقد كان ابن الزبير بسبب هذا الاجتهاد في العبادة موفقا في دنياه، يقول عمر بن قيس : كان لابن الزبير مئة غلام يكلم كل غلام منهم بلغة أخرى ، فكنت إذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت : هذا رجل لم يُرِد الدنيا طرفة عين، وإذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت: هذا رجل لم يرد الله طرفة عين (٢) .

هذا فضل الله يؤتيه من يشاء،ولاغرابة في ذلك فإن من أهم آثار العبادة بالصلاة والصيام أنها تمنح فاعلها قوة كبرى على أمور الدنيا . .

إن المسلم بقدر مايتضرع إلى ربه بالعبادة في الليل يمنحه القوة في النهار على تحمل أعباء الحياة ومصاعبها .

من أخبار عبد الله بن عمرو رضي الله عنه :

من الذين اشتهروا بالإكثار من العبادة من الصحابة عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، ومن أخباره في ذلك ماأخرجه الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عمرٍو أنّ النبي ﷺ قال له : كيف تصوم ؟ قال قلت : كل يوم ، قال: وكيف تختم ؟ قلت: كل

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٧٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/٣٦٨ .

ليلة ، فقال : صم كل شهر ثلاثة أيام واقرأ القرآن في كل شهر، قال قلت : فإني أطيق أكثر من ذلك ،قال :صم ثلاثة أيام في الجمعة قال قلت : أطيق أكثر من ذلك،قال:أفطر يومين وصم يوما، قال قلت : أطيق أكثر من ذلك ، قال : صم أفضل الصوم صومَ داود عليه السلام،صيامَ يوم وإفطار يوم،واقرأ في كل سبع ليال مرة(١)(٢).

فهذه همة عالية وطموح كبير من عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما لكنه زاد عن حدود الاعتدال الذي ينتج عنه الإخلال بواجبات الإسلام الأخرى فأعاده النبي ﷺ إلى حدود الاعتدال في الصلاة والصيام .

من أخبار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

من أخباره رضي الله عنه في الخشوع في الصلاة والبكاء من خشية الله تعالى ماذكره الذهبي من حديث عبيد الله بن عبد الله قال: كان عبد الله [يعني ابن مسعود رضي الله عنه] إذا هدأت العيون قام فسمعتُ له دويّا كدوي النحل .

وكذلك ما ذكره من حديث زيد بن وهب قال: رأيت بعينَيْ عبدالله أثرين أسودين من البكاء (٣) .

وهذا يدل على كثرة بكاء ابن مسعود رضي الله عنه من خشية الله تعالى .

(١) يعني أن يختم القرآن كل أسبوع .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، رقم ١٩٧٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩٤ - ٤٩٥ .

من أخبار أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه :

وكان بعضهم يوقظ أهله لصلاة الليل كما ذكر الإمام الذهبي عن أبي برزة الأسلمي نَضْلَةِ بن عبيد رضي الله عنه أنه كان يقوم إلى صلاة الليل فيتوضأ ويوقظ أهله ، وكان يقرأ بالستين إلى المائة (١).

يعني أنه يقرأ في الركعة مابين ستين آية إلى مائة .

من أخبار مسروق بن الأجدع رحمه الله :

من أخباره في طول القيام مارُوي عن أنس بن سيرين عن امرأة مسروق قالت : كان مسروقُ يصلي حتى تورم قدماه، فربما جلست أبكي مما أراه يصنع بنفسه .

ومسروق هو ابن الأجدع الوادعي الهمداني من أكابر علماء التابعين ، وكما كان مجتهدا في الصلاة فإنه كان كذلك في الصيام، كما رُوي عن الشعبي قال : غُشِيَ على مسروق في يوم صائف، وكانت عائشة رضي الله عنها قد تبنَّته ، فسمَّى بنته عائشة، وكان لايعصى ابنته شيئًا، قال : فنزلَتْ إليه فقالت : ياأبتاه أفطر واشرب، قال: ماأردتِ بي يابنية ؟ قالت : الرِّفق ، قال : يابنية إنما طلبت الرفق لنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٢) .

وهكذا كان هذا العالم الرباني قد جمع بين العلم والعبادة بالصلاة والصيام ، إضافة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، فقد شلَّت يده يوم القادسية وأُصيب في رأسه ، ولاغرابة في ذلك فقد تربَّى تحت رعاية

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٧ - ٦٨ .

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وهكذا كان الصحابة والتابعون يجمعون في باب النوافل بين مختلف الأعمال الصالحة ويؤدونها بتكامل واتّزان .

من أخبار الأحنف بن قيس رحمه الله :

ومن أخبار التابعين في هذا المجال ماذكره الإمام الذهبي عن الأحنف بن قيس التميمي رحمه الله تعالى أنه قيل له : إنك كبير والصوم يضعفك ، قال : إني أعده لسفر طويل ، وقيل :كانت عامة صلاة الأحنف بالليل (١)،وكان يضع إصبعه على المصباح ثم يقول: حَسْ(٢)،ويقول: ماحملك يا أحنف على أن صنعت كذا يوم كذا؟(٣).

فهذا الخبر يبين لنا شدة إحساس الأحنف بن قيس بالحياة الآخرة ومافيها من نعيم وأهوال وعذاب ،ولقد كان مشهوراً بالشجاعة وحسن الإدارة في السلم والحرب،والتخلق بمكارم الأخلاق،وقد أضاف إلى هذه الفضائل اهتمامه بصلاة الليل وصيام النفل ،وهذا دليل على قوة إيمانه وحضور قلبه مع الله تعالى والحياة الآخرة .

من أخبار همام النخعي رحمه الله :

من ذلك مارُوي عن الفقيه همام بن الحارث النخعي أنه كان يدعو: اللهم اشفني من النوم اليسير ، وارزقني سهراً في طاعتك ، فكان لاينام إلا هنيهة وهو قاعد (٤) .

---

(١) يعني النوافل المطلقة التي لم تحدد بزمن .

(٢) حَسْ كلمة تقال عند الألم .

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٩١ - ٩٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٨٤ .

وهكذا استجاب الله تعالى دعاء هذا الولي الصادق الذي غلب عليه الشوق إلى مناجاة الله تعالى والتضرع إليه أطول وقت ممكن، وفضَّل العمل للآخرة على راحة النفس ، فأصبح يكفيه اليسير من النوم، واغتنم هذه الفرصة لمضاعفة العمل الصالح .

من أخبار سعيد بن المسيب رحمه الله :

من ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر عمران بن عبد الله قال عن سعيد بن المسيب : مافاتته صلاة الجماعة منذ أربعين سنة، ولانظر في أقفائهم (١).

وهذا مثال على حرصه على اكتساب الحسنات ورفعة الدرجات، حيث إن صلاة الجماعة تعادل سبعا وعشرين صلاة من صلاة الفرد.

وقوله « ولانظر في أقفائهم» يعني أنه دائما في الصف الأول، فليس أمامه مصلون .

من أخبار زبيد بن الحارث رحمه الله :

من الذين كانوا يحيون بيوتهم بالتهجد طوال الليل الحافظ زُبَيْد بن الحارث اليامي الكوفي ، قال ابن شبرمة : كان زبيد يجزِّئ الليل ثلاثة أجزاء : جزءًا عليه وجزءًا على ابنه وجزءًا على ابنه الآخر، فكان هو يصلي ثم يقول لأحدهما : قم ، فإن تكاسل صلى جزءه ، ثم يقول للآخر : قم ، فإن تكاسل صلى جزءه فيصلي الليل كله (٢) .

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ١٣١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٩٦ .

فهـذا عمل جليل من زبيـد بن الحارث في تنوير بيـته بالإيمان ، وإحيائه بالصلاة ، وله أسوة في ذلك بأبي هريرة رضي الله عنه الذي كان يقسم الليل أثلاثا ، يقوم ثلثه ، وتقوم زوجته ثلثه، ويقوم خادمه ثلثه كما تقدم .

من أخبار أيوب السختياني رحمه الله :

ومن الذين كـانوا يحيون الـليل بالتهـجد الإمام الحـافظ أبو بكر أيوب بن أبي تميمة كيسان السخـتياني : يقول سلاَّم بن مسكين : كان أيوب السختياني يقوم الليل كله ، فيخفي ذلك ، فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة (١) .

وكون هذا الإمـام وأمثـاله يقومون الليل كـله مع أن ذلك خلاف السنة كمـا تقدم محـمول على أنهم واثقون مـن أن ذلك لايمنعهم من أداء التكاليف الشرعية ، وأنهم مع ذلك قد استطاعوا أن يعملوا توازنًا بين مطالب الشريعة .

من أخبار سليمان التيمي رحمه الله :

وممن اجتـهد كثـيرا في الصلاة والصـيام أبو المعـتمر سليـمان بن طرخان التيمي،وفي ذلك يقول محمد بن عبد الأعلى: قال لي معتمر بن سليـمان:لولا أنك من أهلي مـاحـدثتك ، مكث أبي أربعين سنة يصوم يوما ويفطر يوما،ويصلي صلاة الفجر بوُضوء العشاء الآخرة.

ويقول مـعاذ بن معاذ : مـاكنت أشبِّه عـبادة سليمان التـيمي إلا

(١) سير أعلام النبلاء ١٧/٦ .

بعبادة الشاب أول ما يدخل في تلك الشِّدة والحِدَّة (١) .

فهذا الذي طبقه الإمام سليمان التيمي يعتبر مثالا لبذل الجهد الكبير في العبادة ، والصبر على ذلك هذه المدة الطويلة من غير كسل ولاوهن ، وهذا العمل لايقوى عليه إلا من زهد في الدنيا وعظم نظره في الآخرة .

وماجاء في الخبر الثاني من وصف عبادته بعبادة الشاب في هدايته إلى الاستقامة يدل على صلاح المجتمع ، حيث يتوجَّه الشباب إلى بذل الجهد الكبير في العبادة .

من أخبار أبي العالية وأصحابه رحمهم الله (٢):

من أخبارهم في إحياء الليل بالعبادة ماأخرجه ابن سعد من حديث أبي خلْدة خالد بن دينار قال : سمعت أبا العالية يقول: كنا عبيدا مملوكين ، مِنَّا من يؤدِّي الضرائب ومِنَّا من يخدم أهله، فكنا نختم كل ليلة مرة ، فشقَّ ذلك علينا فجعلنا نختم كل ليلتين مرة، فشقَّ ذلك علينا فجعلنا نختمُ كل ثلاث ليال مرة، حتى شكا بعضنا إلى بعض ، فلقينا أصحاب رسول الله ﷺ فعلَّمونا أن نختم كل جمعة - أو قال : كل سبع - فصلَّينا ونمنا ولم يشقَّ علينا (٣) .

وهذا طموح كبير وهمة عالية من هؤلاء الشباب مع أنهم آنذاك مازالوا مملوكين ، وهذا دليل واضح على صلاح مجتمع التابعين، وأن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) أبو العالية هو رُفَيع بن مهران الرياحي .

(٣) طبقات ابن سعد ٧/ ١١٣ .

الذين كانوا يحيــون جزءًا من الليل بالصلاة عدد كبيــر حيث أصبحت صلاة الليل ظاهرة عامة جعلَت المملوكين يتأسَّون بسادتهم ومَنْ حولهم من الصالحين .

من أخبار الربيع بن خُثَيم رحمه الله :

ومن الذين كــانوا يحيــون الليل الإمــام أبو يزيد الربيع بن خُثَــيم الثوري، وكان من تلاميذ أبي عبد الرحــمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وكان يحــبه ويُكبره، حتى إنه قــال له يوما : ياأبا يزيد لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك ، ومارأيتك إلا ذكرتُ المخبتين (١) .

وكان الــربيع من العبَّــاد المكثرين من العــبادة ، وكــان لاينام في الليل،حتى أشفقَتْ عليه ابنته فكانت تقول له :ياأبتاه ألا تنام؟! فيقول كيف ينام من يخاف البيَات (٢) .

وهكذا كان ذكــر الموت ملازما له ، وكان ذلك يمنعــه من الراحة ويحول بينه وبين النوم ، فلقــد شبَّه نفسه في ترقــبه الموت بمن يترقب هجوم العدو عليه في الليل .

من أخبار الإمام أبي حنيفة رحمه الله :

ومن الذين اشتهروا بإحياء الليل بالتهــجد الإمام الفقيه أبو حنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب المشهور في الفقه .

رُوي عن القاضي أبي يوسف قال : بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة إذ سمعت رجــلا يقول لآخر : هذا أبو حنيفة لايــنام الليل، فقال أبو

---

(١) (٢) سير أعلام النبلاء ٢٥٨/٤ ، ٢٦٠ .

حنيفة : والله لايُتَحدَّث عني بما لم أفعل ، فكان يحيي الليل صلاة وتضرعا ودعاء [1].

فهذا أمر عجيب من هذا الإمام الذي بذل نفسه لتعليم الناس وفتواهم ، ومع ذلك يقوم بهذا الجهد الكبير في إحياء الليل بالعبادة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولعل علمه العميق ومقدرته على تلبية طلبات طلاب العلم والعامة كان من بركة قيامه في الليل .

من أخبار الحسن بن صالح وأخيه علي رحمهما الله :

من أخبار الإمام الحسن بن صالح بن حيّ الهمداني وأخيه ماذكره الحافظ وكيع الرؤاسي قال : كان الحسن بن صالح وأخوه وأمهما قد جزّؤوا الليل ثلاثة أجزاء ، فكل واحد يقوم ثلثا ، فماتت أمهما فاقتسما الليل ، ثم مات علي فقام الحسن الليل كله [2] .

وأخوه هو الإمام علي بن صالح ، وهكذا كانت هذه الأسرة المباركة تحيي الليل مجزَّءًا بين أفرادها، إلى أن بقي الإمام الحسن بن صالح وحده فأحيا الليل كله، وفي هذا إشارة إلى أنهم كانوا يستحبّون أن تُحْيَى بيوتهم بالعبادة .

من أخبار داود الطائي رحمه الله :

ومن هؤلاء الإمام الفقيه داود بن نصير الطائي ، قال إسحاق السلولي : حدثتني أم سعيد بن علقمة - وكان سعيد من نُسَّاك النَّخَع

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٦٩ .

وكانت أمه طائية – قالت : كـان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير، فكنت أسمـع حنينه عامة الليـل لايهدأ، قالت : ولربما سـمعـته في جوف الليل يقول : اللهم همُّك عطَّل عليّ الهموم، وحالَ بيني وبين السُّهاد ، وشوقي إلى النظر إليك منع مني اللذات والشهوات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب .

قالت : ولربَّما ترنَّم في السَّحَـر بشيء من القرآن فأرى أن جميع نعيم الدنيا جُمِع في ترنُّمه تلك الساعة .

قـالت : وكان يكـون في الدار وحده، وكـان لايصـبح – تعني لايسرج – [1].

وهكذا كان هذا العابد الرباني وأمثاله مصابيح هداية وقدوةً حسنة لمن كانوا حـولهم ، وقد وصفت هذه المرأة تـرنُّم داود بالقرآن بوصف بليغ يدل على صلاحهـا وتأثرها بما سمعَتْ، حيث اعتبرت سـماعها لتلاوته أفضل من جميع نعيم الدنيا .

من أخبار محمد بن واسع رحمه الله :

ومن العبَّـاد الإمام الرباني محمد بـن واسع الأزدي أحد الأعلام في العلم والعـبادة والجهـاد وسائر الأعمـال الصالحة، يـقول عنه أبو الطيب مـوسى بن يسار : صـحبت مـحمـد بن واسع إلى مكة فكان يصلي الليل أجمعه، يصلي في المحمل جالسًا ويومئ [2].

(١) أي لايوقد السراج، حلية الأولياء ٧/ ٣٥٦ – ٣٥٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠ .

وهكذا كانوا يستمرون على ماألفوه من العبادة حتى في السفر.

من أخبار عبيد الله القواريري رحمه الله :

ومن هؤلاء العبَّاد الإمام عبـيد الله بن عمر القواريري، رُوي عنه أنه قال: لم تكن تكاد تفوتني صلاة العتـمة في جماعة (١). فنزل بي ضيف فـشغلت به فخـرجت أطلب الصلاة في قـبائل البصـرة، فإذا الناس قد صلـوا ، فقلت في نفسي : يُروَى عن الـنبي ﷺ أنه قال: «صلاة الجميع تفضل على صـلاة الفذ إحدى وعشرين درجة » ورُوِي «خمسا وعشرين » وروي « سـبعا وعشرين » (٢) فانقلبت إلى منزلي فصليت العتمة سبعا وعـشرين مرة ، ثم رقدت فرأيتني مع قوم راكبي أفراس وأنا راكب ، ونحن نتـجارى وأفراسـهم تسبق فرسي فـجعلت أضربه لألحقـهم ، فالتفت إليَّ آخرهم فقال: لاتُجْـهِدْ فرسك فلست بلاحقِنا قال: فقلت : ولِمَ ؟ قال: لأنا صلينا العَتَمة في جماعة (٣).

فهـذا اجتـهاد بالغ من هذا الإمـام في تدارك صلاة العـشاء التي فاتته، فقد دار على مساجـد البصرة ليدركها فلم يحصل له ذلك، ثم اجتهد فصلى سـبعا وعشرين مرة ليحصل على فضيلة الجـماعة، فما أعظم هذا الحرص على درجـات الثواب من هذا الإمـام ! وكم قضى

---

(١) أي صلاة العشاء .

(٢) في رواية البخـاري ومسلم « صـلاة الجماعـة أفضل من صلاة الفـذ بسبع وعـشرين درجة»- صـحيح البخـاري ، رقم ٦٤٥ ، الأذان (٢/ ١٣١) ، صحـيح مسلم ، رقم ٢٤٩، المساجد (ص٤٥٠) .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٤٤ .

من الوقت والجهد في هذه الصلوات من أجل تدارك مافاته من مضاعفة الأجر بصلاة الجماعة !

ولكنه مع ذلك رأى تلك الرؤيا العجيبة المباركة التي تدل على أن المسلم وإن كرَّر الصلاة سبعا وعشرين مرة في بيته فلن يلحق بالثواب من حضروا صلاة الجماعة ، وهذا دليل على أهمية الصلاة مع الجماعة في المساجد وعِظَم منزلتها في الدين .

فكم يخسر الذين يصلون الصلوات الخمس أو بعضها في بيوتهم! وكم أضاعوا من درجات من الثواب عالية تُعَدُّ بالألوف والملايين !

إن في هذا الخبر لتذكرةً للغافلين واستنهاضًا لِهِمَم المتكاسلين، وقُرَّة عين للفائزين السابقين .

من أخبار عبد الله بن عون رحمه الله :

ومن أخبار الاجتهاد في العبادة ماذُكِر عن الإمام أبي عون عبدالله ابن عون البصري ، قال بكار بن محمد السِّيريني : كان ابن عون يصوم يوما ويفطر يوما ، وقال : وكان له سُبُع يقرؤه كل ليلة، فإذا لم يقرأه أَتَمَّهُ بالنهار ، وكان يغزو على ناقته إلى الشام فإذا صار إلى الشام ركب الخيل ، وقد بارز روميا فقتل الرومي [1] .

فهذا الإمام الرباني كان يسير في صلاة الليل وصيام النفل على توجيه النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ومع بذل هذا الجهد فإنه كان متفوقا في الجهاد، حيث كان يخرج للغزو

(١) سير أعلام النبلاء ٦/٣٦٦ ، ٣٧٠ .

ويشارك في أشد فنون القتال وهو المبارزة ، وهذا هو المنهج الذي كان يسير عليه الصحابة رضي الله عنهم .

من أخبار الإمام الأوزاعي رحمه الله :

وممن اشتهر بكثرة العبادة الإمام أبـو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي عالم أهل الشام ، وفي عبادتـه يقول الوليد بن مَزْيَد : كان الأوزاعي من العبادة على شيء ماسمعنـا بأحد قَوِيَ عليه، ماأتى عليه زوالٌ قطّ إلا وهو قائم يصلي .

ويقول ضَمُرة بن ربيعة : حججنا مع الأوزاعي سنة خمسين ومائة فما رأيته مضطجعـا في المحمل في ليل ولانهار قط ، كان يصلي فإذا غلبه النوم استَنَد إلى القَتَبْ .

ويقول أبو مسـهر عن الأوزاعي : كان يحيي اللـيل صلاة وقرآنا وبكاء ، وأخبرني بعض إخواني مـن أهل بيروت أن أمه كانت تدخل منزل الأوزاعي وتتـفقّد مـوضع مصـلاه فتجـده رطبا من دمـوعه في الليل(١) .

وإنا لنجد من آثار هذه العبادة ماشـتهر عنه من القوة في أمر الله تعالى والشدة في الإنكار على المخالفين ، حـيث كان رفيع القدر عند الناس مرهوب الجانب .

من أخبار الإمام سفيان الثوري رحمه الله :

ومن الأئمة الذين اشتهـروا بالعبادة أبو عبد الله سفيـان بن سعيد

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ١١٩ - ١٢٠ .

ابن مسروق الثوري، الإمام الكبـير في العلم والزهد والورع والعبادة، الذي حاز كثـيرا من صفات الكمـال، ومن أخباره في العبـادة ماذكره على بن الفضيل قـال: رأيت الثوري ساجدًا فطفت سبعـة أسابيع قبل أن يرفع رأسه (١).

أي أنه طاف سـبـع مـرات كـاملة والثـوري لم يـرفع رأسـه من السجود، وهذا مثل عالٍ في الخشوع المبني على حضور القلب مع الله تعالى وجمع الفكر كله في هدف الصلاة .

وقال ابن مهـدي :كنت لا أستطيع سمـاع قراءة سفيـان من كثرة بكائه (٢).

وبهذا الإمام وأمثاله كان صلاح كـثير من أبناء المجتمع الإسلامي لأن رؤيته واللقـاء به وسمـاع كلامه وتلاوته . . كل ذلك يـذكِّر بالله تعالى والحياة الآخرة ، وينفِّر من اللهو بالدنيا والاغترار بها .

من أخبار سعيد التنوخي رحمه الله :

ومن هؤلاء الأئمة سعيد بن عـبد العزيز ابن أبي يحيى التنوخي، يقول أبو عبد الرحمن الأسدي : قلت لسـعيد بن عبد العزيز: ماهذا البكاء الذي يعرض لك في الصلاة ؟ فقال: ياابن أخي وماسؤالك عن ذلك ؟ قلت :لعل الله أن ينفـعني به، فقـال: ماقـمت إلى صلاة إلا مُثِّلَتْ لي جهنم (٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٧٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٧٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣١ .

وهذا الخبر يكشف لنا سراً من أسرار خشوع أولئك الصالحين واستغراقهم في الصلاة الطويلة وعدم شعور بعضهم بما يكون حولهم، وكثرة بكائهم .

ويقول محمد بن المبارك عن سعيد بن عبد العزيز : كان سعيد إذا فاتته صلاة الجماعة بكى(١) .

وهذا دليل على شدة خشيته من الله تعالى .

من أخبار عبد الله بن إدريس رحمه الله :

ومن هؤلاء الأئمة عبد الله بن إدريس الأودي الحافظ المقرئ، قال حسين العنقزي : لما نزل بابن إدريسَ الموت بكَتْ بنته، فقال: لاتبكي يابنية فقد ختمْتُ القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة(٢) .

وهذا شاهد على كثرة تلاوته وعبادته،وكونه رد على ابنته لمابكت بهذا الرد دليل على فقهه لأن الذي يُبكَى عليه هوالذي فرط في أمره، وقَدِم على ربه بمعصية أو ترك واجب،أما الذي قد عمر بيته بالصلاة والتلاوة ولم يرتكب مأثما فلاأسف على فقده لأنها آجال مكتوبة وفراق محدود،ثم يلتقي المؤمنون في دار خالدة لايفترقون فيها أبدا.

من أخبار وكيع بن الجراح رحمه الله :

ومنهم الإمام الحافظ أبو سفيان وكيع بن الجراح الرؤاسي، قال يحيى بن أيوب: حدثني بعض أصحاب وكيع الذين كانوا يلزمونه أن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣١ .

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٤٢١ .

وكيعًا كان لاينام حتى يقرأ جزءه من كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر .

وقال أحمد بن سنان : رأيت وكيعًا إذا قام في الصلاة لايتحرك منه شيء ، لايزول ولايميل على رجل دون أخرى (١).

فهذا دليل على كثرة صلاته وعلى خشوعه، ومع هذا السهر في الليل للعبادة فإنه يجلس في النهار لطلاب العلم ويَروي لهم ماحفظ من السنن والآثار، وذلك من توفيق الله تعالى لهذا العالم الرباني وأمثاله.

من أخبار الفُضَيْل بن عياض رحمه الله :

ومن المجتهدين في العبادة الفضيْل بن عياض التميمي اليربوعي، قال عنه إسحاق بن إبراهيم الطبري: مارأيت أحدا أخوف على نفسه، ولا أرجى للناس من الفضيل، كانت قراءته حزينة شهيَّة بطيئة مترسلة، كأنه يخاطب إنسانا، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يُردِّد فيها ويسأل، وكانت صلاته بالليل أكثر ذلك قاعدا، يُلقَى له الحصير في مسجده فيصلِّي من أول الليلة ساعة، ثم تغلبه عينه فَيلقِي نفسه على الحصير، فينام قليلا ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام ثم يقوم، هكذا حتى يصبح، وكان دأبه إذا نعس أن ينام، ويقال: أشد العبادة ماكان هكذا(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/١٤٨ ، ١٥٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٧ .

هذا الخبر فيه نموذج من صلاة الصالحين وهي تشتمل على الصفات التالية : الترسل والتأني في القراءة ، وظهور الحزن في صوت القارئ ، وترديد الآيات التي فيها ذكر الجنة مع الدعاء بالظفر بها .

ومن هذا الخبر يتبين لنا قوة إحساس الفضيل واهتمامه بالصلاة ، فهو إذا غلبه النوم نام قليلا ، ثم قام وعاد إلى الصلاة ، ولم تكن الساعات المُنَبِّهة موجودة في ذلك الوقت، ولكن دقة إحساس الفضيل وأمثاله تفوق أثر كل الساعات المنبهة .

من أخبار العابد أحمد بن حرب رحمه الله :

ومن ذلك ماذكر عن أبي عبد الله أحمد بن حرب النيسابوري قال أبو عمرو محمد بن يحيى : مَرَّ أحمد بن حرب بصبيان يلعبون، فقال أحدهم : أمسكوا فإن هذا أحمد بن حرب الذي لاينام الليل، فقبض على لحيته وقال : الصبيان يهابونك وأنت تنام ؟ فأحْيَي الليل بعد ذلك حتى مات (١).

ففي هذا الخبر مثل من اهتمامات الصبيان في ذلك العصر فقد وصفوا الإمام أحمد بن حرب بأنه لاينام الليل ، وكان وصفهم على سبيل المدح ، وكان لهذا مهيبًا عندهم ، وهذا دليل على صلاح المجتمع آنذاك حيث يُعِزُّ أفراده أهل الاجتهاد في العبادة .

وليس المراد بقول أحمد بن حرب عن نفسه « وأنت تنام » أنه كان ينام الليل كله ، بل كان ينام بعضه ، فلما سمع مقالة الصبي علم أنْ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٣ .

قد طارت له في المجتمع شائعة بأنه لكثرة صلاته بالليل لاينام، فعزَّ عليه أن تكون سمعته عند الناس أعلى من واقع عبادته فكان بعد ذلك يُحيى الليل كله ولاينام .

من أخبار الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله :

ومن العلماء الذين اشتهروا بالعبادة الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، وفي ذلك يقول المروذي : رأيت أبا عبد الله يقوم لورده قريبا من نصف الليل حتى يقارب السحر ، ورأيته يركع فيما بين المغرب والعشاء .

وقال ابنه عبد الله : ربما سمعت أبي في السحر يدعو لأقوام بأسمائهم ، وكان يكثر الدعاء ويخفيه، ويصلي بين العشاءين، فإذا صلى عشاء الآخرة ركع ركعات صالحة، ثم يوتر وينام نومة خفيفة، ثم يقوم فيصلي وكانت قراءته ليِّنة ربما لم أفهم بعضها، وكان يصوم ويُدْمِن ثم يفطر ماشاء الله ، ولايترك صوم الإثنين والخميس وأيام البيض، فلما رجع من العسكر أدمن الصوم إلى أن مات .

وقال المروذي : سمعت أبا عبد الله يقول : حججت على قدمي حَجتين وكفاني إلى مكة أربعة عشر درهما (١).

في هذه الأخبار وصف لعبادة الإمام أحمد في الصلاة والصيام والحج ، وكونه يشغل أكثر الليل بالصلاة مع اشتغاله بالنهار بتعليم العلم والفتوى ومقابلة الوافدين يعتبر من البركة التي منَّ الله تعالى بها عليه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٢٢٣ .

ويقول عاصم بن عصام البيهقي : بت ليلة عند أحمد بن حنبل فجاء بماء فوضعه ، فلما أصبح نظر إلى الماء بحاله فقال : سبحان الله! رَجُلٌ يطلب العلم لايكون له ورد بالليل (١).

وهكذا تعجَّب الإمام أحمد من ذلك الشاب الذي بات عنده كيف ينام الليل كله وهو يطلب العلم ! إنَّ طلب العلم لابد أن يرافقه العمل، وكيف يمرُّ طالب العلم بالأحاديث المرغِّبة في قيام الليل ثم لايطبق ماجاء فيها !

إن طلاب العلم عند الإمام أحمد ينبغي أن يكون لهم سماتٌ خاصة ومنهج خاص، من جملته أن يبادروا إلى التسابق في أداء النوافل، وأن لايكتفوا بالقليل منها الذي يطبقه عامة الناس .

وبهذا المنهج التربوي الذي كان العلماء يأخذون به طلابهم كان الصلاح يغلب على طلاب العلم في تلك العصور .

من أخبار محمد بن أسلم رحمه الله :

ومن الذين عرُفوا بالاجتهاد في العبادة الإمام أبو الحسن محمد بن أسلم الخراساني ، يقول محمد بن القاسم الطوسي :صحبت محمد ابن أسلم أكثر من عشرين سنة لم أره يصلي حيث أراه ركعتين من التطوع إلا يوم الجمعة ، وسمعته كذا وكذا مرة يحلف: لو قدرت أن أتطوع حيث لايراني ملكاي لفعلت، خوفا من الرياء ، وكان يدخل بيتًا له ويُغلق بابه ولم أدر مايصنع حتى سمعت ابنًا له صغيرا يحكي بكاءه ، فنهته أمه ، فقلت لها : ماهذا ؟ قالت: إن أبا الحسن يدخل

(١) سير أعلام النبلاء ١١/٢٩٨ .

هذا البيت فيقـرأ ويبكي ، فيسمعه الصبي فـيحكيه، وكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه واكتحل فلا يُرى عليه أثر البكاء .

وكان يَصِل قـومًا ويكسوهم ويقول للرسـول : انظر أن لايعلموا مَنْ بعثه ، ولا أعلـم منذ صحبته وصل أحـدًا بأقل من مائة درهم إلا أن لايمكنه ذلك (١).

فهذا خبر رائع يشتمل على مواقف عالية في العبادة من الإمام أبي الحسن محمد بن أسلم الخراسـاني ، فهو لايكاد يصلي في المسجد إلا الفرائض بعدًا عن الرياء ، ولكنه يحيى بيته بصلاة الليل ، ويبكي من خشية الله تعالى بكاء يُسمع من خـارج الغرفة التي أقفل بابها، ويبذل جهده في إخفـاء آثار البكاء ، ولكن ذلك ظهر على لسان ذلك الطفل الذي أصبح يحكي بكاءه ليكون في سيرته عبرةٌ للناس في عصره وبعد ذلك .

ولقد كـان لخلوته لعبادة ربه في الـليل أثر كبيـر في رسوخ إيمانه وقوة شـخصيـته ، حيث أصـبح قَوَّالاً بالحق آمرًا بالمعـروف ناهيًا عن المنكر داعيًا إلى الله تعالى لايخشى في الله لومة لائم، ولما مات صلى عليه أكثر من ألف ألف .

قيل للإمام أحـمد بن نصر : ياأبا عبـد الله صلى عليه ألف ألف وقـال بعضـهم : ألف ألف ومـائة ألف من الناس ،يقـول صالحـهم وطالحهم : لم نعرف لهذا الرجل نظيرا ، فقال أحمد بن نصر: ياقوم أصلحوا سرائركم بينكم وبين الله ، ألا ترون رجـلا دخل بيته بطوس

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٠٠ - ٢٠١ .

فأصلح سره بينه وبين الله ، ثم نقله الله إلينا فأصلح الله على يديه ألف ألف ومائة ألف من الناس ! (١).

وهكذا أدرك الإمام أحمد بن نصر أثر العبادة الخفية في صقل النفوس وتطهيرها وتقْوِيتها على قول الحق وإصلاح الناس .

من أخبار الإمام البخاري رحمه الله :

من أخبار اهتمام الإمام البخاري بالصلاة ماذكره كاتبه محمد بن أبي حاتم قال : دُعي محمد بن إسماعيل إلى بستان بعض أصحابه، فلما صلى الظهر قام للتطوع فأطال القيام ، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه فقال لبعض من معه : انظر هل ترى تحت قميصي شيئا؟ فإذا زنبور قد أَبَرَه في ستة عشر أو سبعة عشر موضعا، وقد تَوَرَّم من ذلك جسده وكان آثار الزنبور في جسده ظاهرة ، فقال له بعضهم : كيف لم تخرج من الصلاة في أول ماأَبَرَك ؟ قال : كنت في سورة فأحببت أن أتمها (٢).

فهذا اهتمام كبير من أبي عبد الله البخاري بالصلاة حيث تحمل لسع الزنبور المتواصل حتى تورم جسده ولم يقطع صلاته أو يسرع فيها، لأنه كان قد بدأ في سورة فأحب أن يتمها .

وقد أشبه في ذلك عَبَّاد بن بشر رضي الله عنه يوم أن كان هو وعمار بن ياسر رضي الله عنه يحرسان جيش المسلمين ، وكان عباد يصلي في نوبته فأصابه أحد الأعداء بثلاثة أسهم فلم يقطع صلاته،

---

(١) حلية الأولياء ٩/ ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ١٢ - ١٣ .

وحينما عـاتبه في ذلك عمار قال : كنـت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها [١].

من أخبار محمد بن نصر رحمه الله :

ومن أمثـلة الخشوع في الصـلاة ماذكـره محـمد بن يعـقوب بن الأخـرم قال : مـارأيت أحسن صـلاة من مـحمـد بن نصر ، كـان الذباب[٢] يقع على أذنه فـيسيل الدم ولايَـذبُّه عن نفسه ، ولـقد كنا نتعجب مـن حسن صلاته وخشوعـه وهيئته للصـلاة، كان يضع ذقنه على صدره فينتصب كأنه خشبة منصوبة [٣].

فهذا مـثل من الخشوع في الصلاة إلى الحد الذي يترك فـيه الإمام محمد بن نصر المروزي ما أباحه الله له من إزالة تلك الحشرة المؤذية، وهذا يعتبر من المبالغة في احترام الصلاة وتعظيم قدرها، كيف لا وهو صاحب الكتاب النفيس « تعظيم قدر الصلاة » ؟

من أخبار محمد بن خفيف رحمه الله :

ذكر الإمام الذهبي في ترجمة أبي عبـد الله محمد بن خفيف أنه كان به وجـع الخاصرة فكـان إذا أصابه أقعـده عن الحركـة، فكان إذا نودي بالصلاة يُحـمل على ظهر رجل ، فـقيل له : لو خـففت على نفسك ؟ قـال : إذا سمـعتم حيَّ على الصـلاة ولم تروني في الصف فاطلبوني في المقبرة [٤].

---

(١) تقدم هذا الخبر في غزوة ذات الرقاع .

(٢) يعني الزنبور .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤/٣٦ - ٣٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٦/٣٤٦ .

فهذا اهتمام كبير من هذا العالم الجليل بالصلاة مع الجماعة في المسجد، فهو معذور بمرضه لو صلى في بيته، ولكنه يكلف من يحمله إلى المسجد لأداء الصلاة حتى لايفوته الأجر المضاعف لمن أدى الصلاة مع الجماعة في المسجد .

وهو في هذا يطبق قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : حافظوا على هذه الصلوات الخمس حيث يُنادَى بهن فإنهن من سنن الهدى، وإنكم لو صلَّيتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لخالفتم سنة نبيكم ، ولو خالفتم سنة نبيكم لضللتم ، ولقد رأيتُنَا ومايتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، حتى إن الرجل ليُؤْتَى به يُهادَى بين الرجلين حتى يقام في الصف .

وفي قول ابن خفيف « إذا سمعتم حيَّ على الصلاة ولم تروني في الصف فاطلبوني في المقبرة » تعبير بليغ عن أهمية صلاة الجماعة في المسجد ، حيث اعتبر أن المانع منها هو الموت، وهو محمول على الأمراض التي يستطيع صاحبها الوصول إلى المسجد ولو بواسطة ، أما مع عدم الاستطاعة فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وقد قال الله تعالى ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ (١)وقال رسول الله ﷺ « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ماستطعتم» (٢).

وإذا كان هذا العالم وأمثاله يكلفون أنفسهم الوصول إلى المسجد

---

(١) التغابن / ١٦ .

(٢) صحيح البخاري ، رقم ٧٠٨٧ ، الاعتصام (١٣/ ٢٥١) ، صحيح مسلم، رقم١٣٣٧، الحج (ص٩٧٥) .

مع المشقة فكيف بالمقصرين الذين يتركون الصلاة في المسجد وهم يتمتَّعون بنعمتي الصحة والأمن ؟!

من أخبار ابن دقيق العيد وتلميذه رحمهما الله :

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني : وقرأت بخط محمد بن عبدالله العثماني قاضي صفد: أخبرني الأمير سيف الدين بلبان الحسامي قال: خرجت يوما إلى الصحراء فوجدت ابن دقيق العيد في الجبَّانة واقفا يقرأ ويدعو ويبكي، فسألته فقال: صاحب هذا القبر كان من أصحابي وكان يقرأ علي، فمات فرأيته البارحة، فسألته عن حاله فقال: لما وضعتموني في القبر جاءني كلب أبقع(١) كالسبع وجعل يروعني فارتعبت ، فجاء شخص لطيف في هيئة حسنة فطرده وجلس عندي يؤنسني، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا ثواب قراءتك سورة الكهف يوم الجمعة(٢) .

فهذه رؤيا صالحة رآها العالم الفقيه محمد بن علي المنفلوطي المعروف بابن دقيق العيد، والرؤى الصالحة بين الأحياء والأموات تكررت كثيراً في محيط العلماء وطلاب العلم، وذلك يعبر عن قوة العلاقة القلبية بين من رأى الرؤيا ومن رُؤيت له، فإذا فقد المحب حبيبه وكان من أهل الصلاح والتقوى وشعر بشيء من الوجد والإشفاق عليه فإن الله تعالى يقدر له أن يراه في المنام ليخفف مما في نفسه من الهم ونحوه .

---

(١) أي لونه سواد في بياض .

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤/ ٩٥ - ٩٦ .

والشيء الذي يلفت النظر ويحقق العبرة في هذه الرؤيا بيان فضل قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ، حيث تجسم هذا الثواب بصورة رجل لطيف في هيئة حسنة فأزال المكروه عن صاحب ذلك الثواب وأدخل عليه السرور والأنس .

من أخبار العالم العابد جلال الدين التبريزي رحمه الله :

قال الشيخ عبد الحي الندوي سافر إلى بغداد وصحب الشيخ الكبير شهاب الدين عمر السهروردي مدة طويلة حتى بلغ رتبة الكمال، وقدم الهند مرافقًا للشيخ بهاء الدين أبي محمد زكريا الملتاني فأقام ببدايون برهة من الزمان .

ثم ارتحل إلى بنكاله ، هو ممن أدركه الشيخ محمد بن بطوطة المغربي الرحالة الذي قدم الهند عام أربع وأربعين وسبعمائة .

وأدركه الشيخ ابن بطوطة في جبال كامَرُ - بلدة بينها وبين سد كانوان مسيرة شهر - وهي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل ببلاد التبت .

قال ابن بطوطة في كتابه: إن هذا الشيخ من كبار الأولياء وأفراد الرجال، له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة، وهو من المعمرين، أخبرني أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد وكان بها حين قتله التتر .

قال: وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات ابن مائة وخمسين وأنه كان نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولايفطر إلا بعد مواصلة عشر، وكانت له بقرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله، وكان نحيف الجسم

طوالاً خفيف العارضين، وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ولذلك أقام بينهم ، قال: وأخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد وأوصاهم بتقوى الله وقال لهم : إني أسافر عنكم غداً إن شاء الله وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو، فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها، ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبراً محفوراً عليه الكفن والحنوط، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به، ثم ذكر الشيخ ابن بطوطة كرامات عديدة له(١).

فهذا العالم العابد استطاع بخشوعه وعبادته المتواصلة أن يؤثر على أهل تلك الجبال، فاهتدوا إلى الإسلام لإعجابهم الكبير بهذا الشيخ، ولاشك أن الذين يتسابقون إلى الدنيا ويتنافسون عليها يعجبهم أن يروا رجلا يعيش في أفكاره في عالم آخر، فيحرم نفسه في الليل من لذيذ النوم ، ويحرم نفسه في النهار من لذيذ الطعام والشراب، في الوقت الذي يغطُّ فيه الآخرون في نومهم ويتمتعون بطعامهم وشرابهم .

فالذين يرون حياة هذا الرجل الزاهد سيتساءلون : ما الذي جعله يحرم نفسه من ملذات الدنيا وهو يملك الغرائز التي يملكها الآخرون؟ وحينما يعلمون أنه إنما ترك نعيم الدين من أجل أن يسعد بنعيم الآخرة الخالد يبدؤون بالتساؤل عن الحياة الآخرة ومصير الإنسان بعد الموت، وهذا يقودهم إلى الإسلام لأنه ليس هناك أي دين على وجه الأرض يستطيع أن يجيب على هذه التساؤلات إلا الإسلام، وهذا يدفعهم إلى الإيمان بهذا الدين الذي ينقلهم من الجو المادي المحض إلى جو روحاني

(١) المختار المصون / ٢٦٢ عن كتاب الإعلام للندوي .

لايتنافى مع مطالب الجسم المادية المعـتدلة ، بل يهذبها وينظمـها حتى تأخذ حجمها اللائق بها .

* * *

المَوَاقِف التّربويّة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

رقم الإيداع القانوني
٩٧ / ٥٦٣٢

الترقيم الدولي ISBN:
977-253-151-8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: ٢ ش منشا - محرم بك - الإسكندرية. ت: ٤٩٠١٩١٤ - ٤٩٠٧٩٩٨ - ٤٩٠
فاكس: ٥٩٥١٦٩٥

يطلب من الدار العربية للتوزيع
١٧ ش توفيق الهلالي التعاون فيصل القاهرةت: ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع
حي السلامة - شارع عبدالرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب: ٤٢٣٤٠ - جدة: ٢١٥٤١ هاتف / فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر
(٢٠)

المواقف التربوية

دكتور
عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

من مواقف رسول الله ﷺ :

مرت بنا أحاديث كثيرة من مواقف رسول الله ﷺ التربوية اثناء عرض سيرته المباركة .

ويحسن بنا أن نذكر في هذا الفصل بعض مواقف رسول الله ﷺ مما لم يتقدم ذكره، فمن ذلك ماأخرجه الإمام أحمد من خبر أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي رضي الله عنه قال: إن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه (١)، فقال : ادنه فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: اتحبه لأمك ؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك ؟ قال: لا والله يارسول الله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك ؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم ، قال: أفتحبه لعمتك، قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء (٢) .

وهكذا أقنع النبي ﷺ ذلك الفتى بالعدول عن رغبته الجامحة

---

(١) أي اسكت .

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٢٥٦ - ٢٥٧ .

وذلك بنقله من الأنانية والقصور على التـفكير بالذات إلى التفكير في مصلحة أفراد المجتمع الآخرين .

لقد كـان - وهو يبدي رغبـته في الزنى - يحمل فكرًا عـدوانيًا، فهو لايريـد الضرر لأهل بيته ولكنه يطلب الإذن في أن يكـون مصدر أذى للآخرين، ولقـد كان - وهو يبدي تـلك الرغبة - لايتـصور أنه سيهتك أعراض الناس، ولم تتـبلور في مخيلته فكرة المقارنة بين أهله وأهالي الناس الذين سيعتدي على أعراضهم، فلما أن ساءله النبي ﷺ وعقد له مقارنة بين نساء أسـرته ونساء الآخرين تبين له أن مقدم على جريمة كبيرة وتخريب لبيوت الناس .

وإن أي إنسان عاقل لو تصور أن تلك الضحية التي ستكون هدفا للمعتدين إنماهي إحدى محارمه فإنه ستقشعر نفسه من الزنى وستنقطع عنه وساوس الشيطان .

وإن هذه المحاورة لتبين لنا ماجبل عليه رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق، حيث لم ينتهر ذلك الشاب الذي تقدم بذلك الطلب الشاذ، وإنما أخـذه بالحوار الهـادئ حتى استـل من نفـسه سـيطرة الشهـوات ونزغـات الشيطان، كـما تبين لنا من هذه المحـاورة مقـدرة النبي ﷺ الفائقة على الإقناع وتغيير الاتجاهات الفكرية .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه[1] قال قال

(١) كلمة زجر بمعنى : اسكت وهي هنا بمعنى مابالك ؟

رسول الله ﷺ: لاترزموه[1] دعوه، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: إن هذه المساجد لاتصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن -أو كما قال رسول الله ﷺ -قال: فأمر رجلا من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنه عليه[2].

وأخرجه الإمام البخاري مختصرا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفيه « فإنما بعثتم[3] ميسرين ولم تبعثوا معسرين »[4].

فهذا مثل من منهج رسول الله ﷺ التربوي الرحيم، فبالرغم من شناعة المخالفة التي ارتكبها ذلك الأعرابي فإن النبي ﷺ ينهى أصحابه عن معاملته بالقسوة ويأخذه باللين والهدوء، ويبين له أن تلك المخالفة التي ارتكبها تتنافى مع قدسية المساجد والأهداف التي بنيت من أجلها.

ولاشك أن هذه المعاملة الرحيمة ستترك أثرا طيبا في نفس ذلك الأعرابي، وهذا الأثر الطيب سيقوده إلى الإسلام إن كان لم يسلم بعد، كما سيقود الآخرين ممن يسمعون بهذا الخبر، إضافة إلى أنه يعتبر تربية بالقدوة الحسنة للمسلمين كي يعاملوا الكفار باللطف والرحمة ليتألفوهم إلى الإسلام، كما يشير إلى ذلك قول رسول

---

(١) أي لاتقطعوا عليه بوله .

(٢) أي فصبه عليه - صحيح مسلم رقم ٢٨٥ ، الطهارة (ص٢٣٦) .

(٣) أي إنما كلفتم بالدعوة والتبليغ .

(٤) صحيح البخاري ، رقم ٢٢٠، الوضوء (١/ ٣٢٣) .

اللهﷺ في هذا الحديث« فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام النسائي من خبر عبد العزيز بن عبدالملك بن أبي محذُورة أن عبد الله بن مُحيريز أخبره وكان يتيمًا في حجر أبي محذُورة حتى جهزه إلى الشام قال قلتُ لأبي محذُورة[1] إني خارج إلى الشام وأخشى أن أسأل عن تأذينك، فأخبرني أن أبا محذورة قال له : خرجت في نفر فكنا ببعض طريق حنين مقفل رسول الله ﷺ من حُنين فلقينا رسول الله ﷺ في بعض الطريق فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول اللهﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن عنه متنكبون فظللنا نحكيه ونهزأ به، فسمع رسول الله ﷺ الصوت فأرسل إلينا حتى وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ : أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع فأشار القوم إليَّ وصدقوا فأرسلهم كلهم وحبسني، فقال: قُمْ فأذن بالصلاة فقُمتُ فألقى عليَّ رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه، قال: قل الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال ارجع فامدد صوتك ثم قال قل أشهد أن لا إله إلا اللهُ أشهد أن لا إله إلا الله أشهدُ أن محمداً رسول الله أشهد أن محمد رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرةً فيها شيء من فضة، فقلت: يارسول الله مرُني بالتأذين بمكة فقال: قد أمرتك به،

---

(١) هو أوس بن مِعْيَر الجمحي .

فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ (١) .

فهذا مثال لمنهج رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الإسلام عن طريق تأليف القلوب بالأخلاق الفاضلة والمعاملة الكريمة وإهداء المال، فبعد أن كان أبو محذورة أوس بن مِعْيَر الجمحي- حيث كان ومن معه من الذين استسلموا لقوة الإسلام ولم يدخل الإيمان قلوبهم- أصبح يطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له بالأذان في مكة المكرمة، وذلك بعد أن هداه الله تعالى فآمن حقا بالإسلام .

وهكذا يَسُلُّ النبي ﷺ سخائم الصدور، ويطهر القلوب من أمراض الغل والحقد والحسد، ويصحح العقول من الشك والتردد بمعاملة الناس بمكارم الأخلاق. . من الحلم والأناة والبشاشة واللطف والسخاء . . فإذا بأقسى الناس قلبا يكون من ألين الناس عريكة وأسرعهم استجابة ، وإذا بأشدهم تمسكا بالباطل يكون من ألطفهم انقياداً للحق واستسلاما له .

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

إن مواقف الصحابة رضي الله عنهم تشمل كل جوانب الحياة، ولئن كانوا قد تفوقوا في المجال الحربي والسياسي والإداري فإنهم قد تفوقوا في المجال التربوي، ، وبهذا تأسى بهم علماء الدين من بعدهم وغيرهم من أهل التقوى والصلاح.

ومن مواقف عمر رضي الله عنه ماأخرجه الإمام البخاري من

(١) سنن النسائي ، كتاب الأذان ٢/ ٥ ، وانظر مسند أحمد ٣/ ٤٠٩ .

قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه« تفقهوا قبل أن تسُودوا » (١) يعني : تعلموا العلم قبل أن تتولوا المناصب فتكونوا سادة على الناس، فهذه وصية نافعة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، حيث إن طلب العلم يحتاج إلى قدر كبير من التواضع، وقد يمنع المنصب من الجلوس في حلقات العلم كما ذكر الحافظ ابن حجر، إضافة إلى أن العلم لايرسخ في الذهن إلا مع فراغ البال من الهموم والمشكلات، والمناصب -.عادة - لاتخلو من شغل الفكر بأمور الناس.

ومن ذلك ماأخرجه محمد بن سعد من خبر نافع مولى عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها، قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأوعدهم فيها، وأمر بها فقُطِعت (٢).

فهذا موقف لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في حماية التوحيد، والقضاء على موارد الفتن، حيث قام أولئك التابعون بعمل لم يعمله الصحابة رضي الله عنهم، فهو أمر مبتدع، وقد يؤدي بعد ذلك إلى عبادة تلك الشجرة حينما يفشو الجهل ويقلّ العلم .

ومن ذلك ماأخرجه الإمام الطبري بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر رضي الله عنه قال لناس من قريش : بلغني أنكم تتخذون مجالس، لايجلس اثنان معا حتى يقال: مَنْ صحابة فلان؟

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب العلم ب ١٥ (١/ ١٦٥) .

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ١٠٠ .

من جلساء فـلان ؟ حتى تُحُومِيَت المجـالس، وايم الله إن هذا لسريع في دينكم سـريع في شـرفكم ، سريع في ذات بـينكم، ولكأني بمن يأتي بعدكم يـقول : هذا رأي فلان ، قـد قسمـوا الإسلام أقسـاما، أفيضوا مجالسكم بينكم، وتجالسوا معًا فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس [(١)] .

في هذا النص المهم نجد إدراكًا مبكرًا من أمـير المؤمنين عمر لخطر الفرقة في الدين وهو الداء الذي عانت منه الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل ومـازالت كذلك، وإنه لدلالة واضـحة على أنه كـان ملهـما محدَّثا كما أخبر عنه رسول الله ﷺ .

إن هذا الدين لايقـوم إلا بالجماعـة واجتمـاع الكلمة، وقـد يبدأ التفرق في الدين بأمر يسـير لايقيم له الناس وزنا، ولكنه يتطور وينمو حتى يكون سببا في التفرق والخلاف .

لقد كان الصحابة في عهد عمر -كما جاء في هذا الخبر- يجلس بعضهم إلى بعض ويتخـذون لأنفسهم مجالس معروفـة، يتم اجتماع الجلساء فيها حسب التآلف والانسـجام ، ثم لاتلبث يسيرا حتي يُعرف كل مجلـس بأبرز من يجلس فيـه، فيقـال: هذا مجلس فـلان ، فلا يجلس فيه غالبا إلا أصحابه، وهـذا الأمر يبدو عاديا فيما إذا لم يكن هناك عداء لأصحـاب المجالس الأخرى أو انتقـاد لهم، وهكذا كانت مجـالس الصحابة رضي الله عنهم، ولكن أمـير المؤمنين عمر بحـسِّه المرهف وإدراكه الدقـيق - بعد إلهـام الله إياه- أدرك أن هذه المجالس

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٣ .

المتـميزة ربما تـكون بداية خطر يجر على المسلـمين شيـئا من التـفرق والاختـلاف، ولقد أدرك أن التفـرق في المجالس ربما يولد تفـرقا في الرأي فينـسب كل رأي إلى البارزين في تلك المجـالس، فيـقال: هذا رأي فلان ويتـعصب له أناس من المعجـبين والأتباع، وهذا يؤدي إلى انقسام المسلمين، وإذا كـانت هذه الآراء في الدين فإن ذلك يؤدي إلى تقـسيم الإسـلام كمـا استـنتج عمـر رضي الله عنه، فـيكون بعض الإسلام منسوبا إلى فلان وبعض إلـى فلان، وهكذا يكون التفرق في الدين الذي نهى الله تعالى عنه .

ولقد حـاول عمر بوصيـته هذه العظيمة أن يجـفف الجداول التي تنشطر من النهر العظيم حـتى لايتلاشى هذا النهر في الأخـير ويصبح عدة جداول صغيرة لاشأن لها ولاخطر .

لقد منع الصحابة من التميز في المجالس وأمرهم بأن يختلطوا فيها حتى تدوم ألفتهم وتبقى جماعتهم،وتستمر هيبتهم في عيون أعدائهم.

إن أعظم غنيمـة يغنمها المنافـقون ويقدمونهـا لأعداء المسلمين أن يروا أبناء هذه الأمة متفرقين مختلفين ، وخاصة دعاة الإسلام منهم.

وإن أول أسباب التفرق والانقسام ماأدركه عمر رضي الله عنه من ميل المسلمين إلى التميز والتفرق في مجالسهم .

إن النفـوس تميل إلى من تألـف وتحب، ولكن لايجـوز أن يكون ذلك على حساب وجود الجماعة المسلمة، بل لابد لكل مسلم أن يُكرِه نفسه على ما لاتحب إذا كان في ذلك رفـعة الإسلام وتماسك الجماعة الإسلامية .

ومن هذه المواقف ماأخرجه الإمام الطبري أيضا بإسناده عن عروة ابن الزبير أن عمر رضي الله عنه خطب فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكَّر الناس بالله عز وجل واليوم والآخر، ثم قال: ياأيها الناس إني قد وُلِّيت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ماتوليت ذلك منكم، ولكَفَى عمر مهمّا محزنا انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها، ووضعها أين أضعها، وبالسير فيكم فكيف أسير! فَرَبِّي المستعان، فإن عمر أصبح لايثق بقوة ولاحيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده (١) .

هذا الخبر يعتبر مثلا عاليا للتجرد والبعد عن مجد الدنيا، فقد بين أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه لم يقبل بتحمل الخلافة إلا لشعوره بتعينها عليه لما في ذهنه من الأعمال الكبيرة التي يرجو أن يحققها الله تعالى على يديه، سواء في مجال السلم من ترسيخ الدولة الإسلامية وتثبيت قواعد العدل وإعطاء الصورة العالية للحاكم المسلم كي يكون قدوة صالحة لمن يأتي بعده أو في مجال الحرب من دفع علم الجهاد وتحطيم قوى البغي والطغيان في الأرض حتى تكون كلمة الله هي العليا ويُفسح المجال للمستضعفين في العالم ليعرفوا الباطل على حقيقته ويروا نور الحق على نصاعته، وتتحقق لهم حريتهم الكاملة في اختيار طريق الهدى والرشاد .

ثم يذكر ماسيواجهه يوم القيامة من الحساب على ماتحمله من هذه

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٤ .

المسئولية العظيمة ، وأنه لولا مايؤمله من الثواب على الأعمال الصالحة التي يقوم بهـا من خلال هذه المسئوليـة لكان تذكُّر يوم الحساب كـافيا للتنفير من قبول الولاية .

ثم يشير إلى ضعف حوله وقوته وأنه مع مـايبذل من جهد لخدمة الإسـلام وإصلاح الأمـة فإنه مـفتـقر إلـى رحمـة الله تعالى وعـونه وتأييده، وهذا يعـبر عن قـوة الإيمان وسمو التـوحيد، وتذكـر أحوال الآخرة بشكل مؤثر على مشاعره ضاغط على سلوكه.

ومن ذلك مارواه الإمام الطبري عن مجـالد قال : بلغني أن قوما ذكروا لعمر بن الخطاب رجلا فقالوا: ياأمير المؤمنين ، فاضل لايعرف من الشر شيئا قال: ذلك أوقع له فيه (١) .

وهذا تنبيـه إلى أن السلامة من الشر لاتكون بالبـعد عن معـرفته والعزلة منه، وإنما تكون بالخـبرة التامة به مع اجتنـابه ، فإن من جهل الشر وطرقـه وأساليب أهل الشـر الظاهرة والخفيـة يوشك أن يقع في شيء منه وهو لايشعـر، وإن أعظم ماغُـزيت به الأمة الإسلامـية في أفكارها وعقائدها إنما كان بسبب جهل بعض أبنائها بمخططات أعدائها وكيدهم المتلوِّن الذي يحمل طابع التجدد والابتكار في كل زمن .

ومن مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في المواعظ والحِكَم ماجاء في قـوله في إحدى خطبه : أيها الناس إن بعـض الطمع فقر، وإن بعض اليـأس غنى، وإنكم تجـمـعون مـالا تأكلون، وتأملون مـا لاتدركون، وأنتم مؤجلون في دار غرور ، كنتم على عهد رسول الله

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢١٤ .

ﷺ تُؤخذون بالوحي، فمن أسرَّ شيئا أُخذَ بسريرته، ومن أعلن شيئا أُخذ بعلانيته، فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر، فإنه من أظهر شيئا وزعم أن سريرته حسنه لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننَّا به حُسْنا، واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق، فأنفقوا خيرًا لأنفسكم ﴿ ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر : ٩] .

أيها الناس أطيبوا مثواكم وأصلحوا أموركم، واتقوا الله ربكم، ولاتُلبسوا نساءكم القباطي فإنه إن لم يَشِفَّ فإنه يَصِف .

أيها الناس إني لوددت أن أنجو كفافا لا لي ولا عليّ، وإني لأرجو إن عمِّرت فيكم يسيرًا أو كثيرًا أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله، وأن لايبقى أحد من المسلمين وإن كان في بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله، ولايُعمل إليه نفسه ولم ينصب إليه يوما، وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله، ولَقَليل في رفق خير من كثير في عنف، والقتل حتف من الحتوف يصيب البَّر والفاجر، والشهيد من احتسب نفسه .

فقد استفتح عمر رضي الله عنه خطبته بِحِكَمٍ عظيمة بين فيها أن الغنى الحقيقي يكون بالقناعة، وأن الفقر الحقيقي يكون بالطمع، فأصل القناعة الإياس مما في أيدي الناس، فمن أيس مما عند غيره قنع بماعنده، ومن قنع بما عنده استغنى وإن كان فقيرًا، ومن أخذ به الطمع واستشرف لما في أيدي الناس افتقر في نفسه وإن كان غنيا في ماله، فإن ماله لايغنيه، لأن الغنى غنى النفس .

وأن العقل السليم يقتضي أن لايجمع الإنسان من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه، وأن لاتكون آماله الدنيوية معلقة بما لايملك، وأن ينظر إلى الدنيا على أنها دار زوال، وأن لايغتر بما فيها من جواذب ومغريات.

وفي هذه الخطبة تقرير لما استقر عليه الأمر بعد انقطاع الوحي من أخذ الناس بظاهرهم وترك سرائرهم إلى الله تعالى، وفيه إشارة إلى أن الوالي ليس مسئولا عن الحكم على سرائر القلوب، ولن يستطيع ذلك، ولكنه مسئول عن صلاح ظواهر الناس، ومن صلاح الظاهر يتكون المجتمع الصالح فإنه يُحكم للمجتمع بذلك إذا صلح ظاهره ولم تُعْلَن فيه الفواحش ولم يبرز فيه من يجاهر بالفسوق أو يدافع عنه، وإن كان فيه أفراد قد ساءت بواطنهم، لأن وجود المجتمع الصالح ظاهرًا وباطنًا بكامل أفراده لم يحصل حتى في عهد النبي ﷺ، فإن المعوَّل عليه صلاح الظاهر، لأن الفواحش إذا تستر عليها أصحابها لم تضر غيرهم، فإذا استعلنوا بها أضرت بالمجتمع كله، وإذا كان الظاهر طاهرًا نقيا تكونت الأسوة الحسنة وسارت التربية في طريقها الصحيح، لأن العرف الاجتماعي - والحال هذه - يكون سائرًا مع ما أُعلن من الصلاح ومكارم الأخلاق، أما ماخفي من الانحراف فإن العرف الإسلامي يرفضه فيضطر أصحابه إلى التستر والانزواء.

وقوله « واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق» واضح في الذين يتقاعسون عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، وهم يرون دُولاً وطوائف من أمتهم يعتدي عليهم الكفار وتنتهك أعراضهم وتنتهب

بلادهم، فينهض هؤلاء المعتدى عليهم للجهاد، ولكن لايجدون إلا القليل من المسلمين الذين يساعدونهم بأموالهم، ولقد وصف الله تعالى المنافقين بالشح عن الإنفاق في سبيله جل وعلا كما في قوله ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] وقوله ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ [المنافقون: ٧] فالمنافقون هم الذين يقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، والذين يوجهون اللوم للمنفقين ويصدون عن سبيل الله جل وعلا، والذين أصيبوا بمرض الشح من المؤمنين قد اتصفوا بالنفاق العملي، وهو علامة على ضعف الإيمان .

وقول عمر رضي الله عنه «ولوددت أن أنجو كفافًا لا لي ولا عليّ» إحساس مرهف وتصور بالغ الدقة في إدراك المسئولية، فإن تحمل الولاية إقدام على عمل من أعلى الأعمال الصالحة، ولكن فيه مزالق خطيرة قد تحيله إلى عمل من أسوء الأعمال، وكم من مسئول كان عمله رافعًا ذكره عند الله تعالى وعند الصالحين من الناس لمايقوم به من محاسبة نفسه على كل صغيرة وكبيرة، وكم من مسئول كان عمله بضد ذلك لكونه أتبع نفسه هواها وقدَّم رِضَى الناس على رِضَى الله تعالى.

ولقد كان عمر رضي الله عنه من أبرز عظماء التاريخ الذين مثلوا العدالة في أبلغ صورها، ومع ذلك يقول هذه المقالة، ويحمله خوفه العظيم من الله تعالى على تناسي مالعمله في الولاية من أجر مقابل أن يخرج طاهر الأردان مما فيها من وزر .

فلله دره ماأعظمه عبدًا متواضعا لله تعالى خاضعًا بين يديه مشفقًا من سخطه !

وماأعظمه زعيمًا قويا أرهب الأمم وأخضع الملوك، ونكَّس رايات الكفر كلَّها على هذه الأرض !

ونجد عمر رضي الله عنه يربي الأمة على الاستقامة بتعاهد ولاته وإلزامهم بالسير على المنهج الإسلامي، وفي ذلك يقول عمارة بن خزيمة بن ثابت الأنصاري : كان عمر إذا استعمل عاملا كتب له عهدا، وأشهد عليه رهطًا من المهاجرين والأنصار، واشترط عليه أن لايركب برذونا ، ولايأكل نقيًّا - يعني من الدقيق الممتاز- ولايلبس رقيقا، ولايتخذ بابا دون حاجات الناس (١).

وهذه الشروط تعني الالتزام بحياة الزهد والتواضع للناس، وهي خطوة أولى في إصلاح الأمة بحملها على التوسط في المعيشة واللباس والمراكب، وبهذه الحياة التي تقوم على الاعتدال تستقيم أمورها، وهي خطة حكيمة ، فإن عمر لايستطيع أن يلزم جميع أفراد الأمة بأمر لايعتبر واجبًا في الإسلام، ولكنه يستطيع أن يلزم بذلك الولاة والقادة، وإذا التزموا فإنهم القدوة الأولى في المجتمع، وهي خطة ناجحة في إصلاح المجتمع وحمايته من أسباب الانهيار .

وقد كان رضي الله عنه يطبق على نفسه قبل ذلك حياة الورع والزهد ، ومن أمثلة ذلك ماأخرجه الإمام الطبري من حديث عبيد بن البراء بن معرور أن عمر رضي الله عنه خرج يوما حتى أتى المنبر،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٧ .

وقـد كان اشـتكى شكوى له، فنُعِتَ له العسل، وفي بيت المال عكة فقال: إن أذنتم لي فيها أخذتها وإلاَ فهي عليَّ حرام (١).

وهذا مثل فـي غاية السمـو والرفعـة في لزوم الحق، والاحتـياط البالغ في الورع، فـإن ماترك عمر رضي الله عنه من حـقه لبيت المال أعظم بكثير من قيمـة ذلك العسل، وهو مثل أعلى في تحجيم النفس مع القدرة على إفساح المجال لها بالتوسع .

ومن ذلك ماأخـرجه الحـافظ ابن عساكـر من حديث شـهاب بن خراش عن عمه وغيره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ثلاث يصـفين لك ود أخيك : تـبدؤه بالسـلام إذا لقـيتـه ، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه (٢) .

فهذه درر من توجيهات أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه التربوية، التي تهدف إلى تصفيـة الود بين الإخوة، وماأحوج المسلمين إلى المودة بينهم وتصفية قلوبهم من الغش والكدر، فالبدء بالسلام إعلان بالمودة، والتوسعة في المجلس إظهار للحفاوة والعناية، وإخراج للأخ القادم من الحرج ، والدعـوة بأحب الاسماء مـراعاة للشعـور، وكلها تؤدي إلى تحقيق المحبة وتصفيتها من الكدر .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكـر من خبر محمد بن الحكم عن عوانة قال: كتب عمر بن الخطاب إلي ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أمـا بعد فإن من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليـه كفاه،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٠٨ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/٣٥٩ .

ومن أقرضــه جزاه، ومن شكره زاده، فلتكن التـقوى عمــاد عملك، وجلاء قلبك ، فإنه لاعــمل لمن لانية له ، ولامال لمن لارفق له، ولا جديد لمن لاخَلَق له (١).

فهذه مــوعظة بليغة اشتملت على حكم جليلة، تعـتمد على ربط المسلم بربه جل وعــلا، فــالإنسان ضـعيف مـحـتاج إلى حـفظ الله وحمــايته في الدنيــا وهو أحوج إلى ذلــك في الآخرة، وماعلـيه كي يتمتع بحفـظ الله تعالى ووقايته إلا أن يتقيه وأن يتــوكل عليه، وتقواه إنما تكون بطاعته، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

ثم يحث ابنه عبد الله على الصدقة والشكر والإخلاص في العمل والزهد في الدنيا، وكل هذه من الأمور المهمة في الدين .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما قــال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من كتم سره كانت الخـيرة في يديه، ومن عرض نفسه للتهـمة فلا يلومن من أساء به الظن ، ولاتظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءًا وأنت تجد لها في الخـير مدخلا، وضــع أمر أخيك على أحســنه حتى يأتيك منه مايغلبك، ولاتكثر الحلف فيهينك الله، وماكافأت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيــه، وعليك بإخوان الصدق، اكتســبهم فإنهم زين في الرخاء عدة عند البلاء (٢) .

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٣٥٦ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/٣٥٩ .

فهذه حكم بالغة ، وكل حكمة تعبر عن فصل من فصول التربية .

فالحكمة الأولى « من كتم سره كانت الخيرة في يديه» فالإنسان حاكم نفسه مادام سره بين جنبيه ، فإذا أفشى السر لواحد من الناس أو أكثر فإنه لو رأى أن المصلحة في عدم الإفشاء لم يستطع رد أمره إلى السرية .

والثانية : « ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن» فالإنسان هو المسئول عن نفسه قبل الناس ، فعليه أن يحاول إبراء ساحته بكل مايستطيع ، وإذا ظن أن بعض الناس قد يفهمون من سلوكه خلاف مراده فليسارع إلى كشف أمره وإن كان موضع الثقة وسمعته عالية في المجتمع فإن النبي ﷺ قال للرجلين الذين رآياه ومعه أمرأة تسير في الليل « على رسلكما إنها صفية بنت حيي» .

والثالثة : « ولاتظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءًا وأنت تجدلها في الخير مدخلا، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه مايغلبك» فهذا توجيه جليل في التحرز من سوء الظن، فإحسان الظن بالمسلمين مطلوب من المسلم، وأن يحاول تأويل الكلمات التي ظاهرها الشر بما تحتمله من خير حتى يجد أن تلك الكلمات متمحضة للشر، فذلك مطلوب من المسلم مع أخذ الحذر لنفسه ولمن هم تحت ولايته حتى لايؤخذ على غرة .

والرابعة « ولاتكثر الحلف فيهينك الله » فالحلف بالله تعالى تعظيم له، فإذا كان الحلف بقدر الحاجة وفي حال التعظيم لله تعالى وخشيته كان ذلك من توحيده وإجلاله جل وعلا، أما إذا أكثر المسلم

من الحلف بالله تعالى حتى في الأمور الحقيرة فإنه لن يصاحب ذلك تعظيم له سبحانه ، بل يدخل في باب الاستهانة وعدم المبالاة ، فتكون عاقبة ذلك تعرض المكثر من الحلف لإهانة الله تعالى إياه، ومن تعرض لذلك فقد خسر خسرانا مبينا .

الخامسة : « وما كافأت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه» فإذا كان بينك وبين أحد خلاف فعصى الله تعالى بسببك، إما بالاعتداء عليك أو انتهاك عرضك أو أخذ مالك فإن أفضل جزاء تجازيه به أن تطيع الله جل وعلا فيه ، وذلك بالتزام الأدب الإسلامي في الخلاف، وحفظ حق أخيك المسلم، بأن لاترد عليه بالمستوى الهابط الذي خاطبك به، ثم إن عفوت عنه وتنازلت عن حقك فذلك من كمال طاعة الله سبحانه .

السادسة : « وعليك بإخوان الصدق» نعم فرب أخ لك لم تلده أمك، بل إن إخوان الصدق الذين ائتلفت قلوبهم على التقوى أعظم تضحية وإحسانا من إخوان النسب إذا لم يكونوا كذلك، فإخوان الصدق سعادة للإنسان في وقت الرخاء، يسر بلقائهم، ويشترك معهم في أعمال البر والإحسان والإصلاح، فإذا نزل البلاء وجد الجد فهم عدة لإخوانهم يتسابقون إلى البذل والتضحية ويتنافسون في أداء الأعمال الشاقة، ويؤثرون على أنفسهم وإن كانوا في مسيس الحاجة.

من مواقف أبي عبيدة رضي الله عنه :

من ذلك ماأخرجه الفسوي من طريق عمران بن نمران : أنا أبا عبيدة رضي الله عنه كان يسير في العسكر فيقول: ألا رُبَّ مُبيِّضٍ لثيابه

مُدَنِّسٍ لدينه، ألا رُبَّ مكرم لنفسه وهُوَ لها مُهين، بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات (١) .

في هذا الخبر نجد أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يقارن بين نصاعة المظهر ونقاوة المَخْبَر، فالله سبحانه قد شرع هذا الدين ليخرج رجالاً قد صفَتْ سرائرهم وطهرت معتقداتهم، وأصبحوا ينظرون إلى جمال الظاهر على أنه مكمل لجمال الباطن، فماأجمل اجتماع الجَمالَين بهذا الاعتبار ! وما أقبح بناء الجمال الظاهر على خراب الباطن!

ونجد في هذا الخبر مقارنة بين العرف الإسلامي في إكرام النفس، والعرف المنبثق من الجاهلية، حيث يقوم إكرام النفس في الإسلام على تطهيرها من دنس السيئات، وتزكيتها بالطاعات، فمن جاهد نفسه على سلوك هذا الطريق فقد أكرمها وحفظها، ومن أسلس لها القياد لتهيم في كل واد فقد أهانها وضيعها.

ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد من طريق ثابت البناني قال قال أبوعبيدة بن الجراح وهو أمير على الشام: يا أيها الناس إني امرؤ من قريش وما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى إلا وددت أني في مِسْلاخه (٢).

وفي هذا إبراز ظاهر لمقياس الكرامة في الإسلام، فأبو عبيدة وهو من قبيلة قريش أفضل القبائل العربية لم يكن يفخر بذلك بل يثبت أنه لو اجتمع المتقون من سائر قبائل العرب وجميع الأمم فإنه سيكون في

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ١٨ .

(٢) طبقات ابن سعد ٤/ ٤١٢ .

جمعهم، وهذا مثل من أمثلة رسوخ العقيدة ووضوحها، وهذا المبدأ السامي كان وراء انتصارات المسلمين العظمى في عهد الصحابة رضي الله عنهم، حيث رفضوا كل ألوان العصبية القبلية ، واجتمعوا تحت راية الإسلام وشعار التقوى، مهتدين بقول الله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣] وقول رسول الله ﷺ « ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » (١).

من مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

من ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عامر بن شراحيل الشعبي قال قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إني لأستحيي من الله أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لايواريها ستري، أو خلة لايسدها جودي (٢).

فهذه أربع صفات من النقص قابلهن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأربع صفات من الكمال، فالحياء من الله عز وجل يقتضي من الإنسان أن يتصف بالعفو عند المقدرة، وذلك فيما إذا لم يكن الذنب فيه حد من حدود الله تعالى، وأن يتصف بالحلم الذي يحتوي جهل الجاهلين، وأن يكون ستارا لعيوب الناس، وأن يتسع كرمه لسد حاجة من احتاج إليه .

---

(١) مسند أحمد ٥/ ٤١١ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٢/ ٥١٧ .

ومما أعطى هذه الحكم وزنها الراجح أن عليا رضي الله عنه ربطها بالحياء من الله تعالى، فهذه الصفات الأربع تعتبر من صفات الكمال عند العقلاء، لكن كثيراً من العقلاء يتصف بها لكسب السمعة الدنيوية وسياسة الأمور بكسب محبة الناس ورضاهم، أما عليٌّ رضي الله عنه فإنه ربطها بالحياء من الله تعالى لأن هدفه الأعلى ابتغاء رضوان الله جل وعلا وفضله في الجنة ولاتهمه سمعته في الدنيا، ولاشك أن من هذا هدفه سيكون تمثيله لهذه الصفات أقوى بكثير ممن كان هدفه دنيويّاً.

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أبي عبد الرحمن السلمي قال: خطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منبر الكوفة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن أخوف ماأخاف عليكم طول الأمل واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا إن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة مقبلة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولاتكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولاحساب، وغداً حساب ولاعمل [1].

فقد أشار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في هذه الخطبة إلى أمرين خطيرين لهما تأثير كبير في حياة الناس وهما طول الأمل بالبقاء على قيد الحياة، فإنه يخدع الإنسان فيَشغلَه بمشاريعه وطموحاته الدنيوية، وينسيه الحياة الآخرة، فيتضخم عمله للدنيا ويتضاءل عمله

---

(١) تاريخ دمشق ٤٢/ ٤٩٤ .

للآخرة ، ولو أن كل إنسان وضع في مخيـلته أنه معرَّض للموت في كل ساعة لأصبح العمل للدنيا قـليلا بقدر الضرورة، ولأصبح العمل للآخرة كثيرًا لأنه هو الذي سيبقى بعد الموت .

أما اتباع الهوى فإنه يغير اتجاه صاحبه، ويجعل الهدف الأعلى في فكره هو تحـقيق هوى نفـسه وهوى من يعـمل تحت إدراتهم، وينسى الهدف الإسلامي الأعلى الذي هو ابتغاء رضوان الله تعالى وفضله في الجنة، وبناءً على تغير الأهداف فإن مناهج العمل تتغير فتصبح مناهج دنيوية يُـراد منها تحقـيق أهداف لاتتجـاوز الحياة الـدنيا، كمـا تتغـير العلاقات والروابط ، فتصبح الأخـوة قائمة على المصالح الدنيوية بدلا من الإيمان والتقوى ، إلى غير ذلك مما يترتب على تغيُّر الأهداف .

ومن ذلك ماأخـرجه أبو نعيم من خبـر الحسين بن علي عن علي رضي الله عنهما قال: أشـد الأعمال ثلاثة : إعطاء الحق من نفسك، وذكر الله على كل حال، ومواساة الأخ في المال (١).

فهـذه ثلاثة أعمال عظيمـة تحتاج إلى شيء من مـجاهدة النفس، فإعطاء الحق من النفس يـعني التجرد من حظهـا وإرغامها على قـبول الحق وإن كان ضدها، وإذا بلغ الإنسـان إلى درجة أنه يعطي الحق من نفسه فإنه سيعطي الحق من أقاربه وأصحابه .

أما ذكر الله تعالى فإن المداومة عليه تحتاج إلى صبر ويقظة وتمرين للنفس على استحضار رقابة الله عز وجل الدائمة على العبد .

وأما مـواساة الأخ بالمال فإن النفس تحـتاج إلى جهـاد لتتنازل عن

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٨٥ .

محبوبها وهو المال، فإذا نجح المسلم في جهاد نفسه فإنه سيجد بعد ذلك راحة في إنفاق المال في وجوه الخير .

فكل هذه الأعمال الثلاثة تحتاج إلى جهاد ومحاولات، فلذلك كانت أشد الأعمال الصالحة على النفوس[(١)] .

من مواقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

من ذلك ما رواه عبد الرحمن بن حجيرة عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول إذا قعد: إنكم في ممرِّ الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، من زرع خيراً يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرّاً يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، ولا يُسْبَقُ بطيء بحظّه، ولا يدرك حريص مالم يقدَّر له، فمن أُعطِي خيراً فالله تعالى أعطاه، ومن وُقِي شراً فالله تعالى وقاه. المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومُجالستهم زيادة[(٢)] .

وهذا تذكير للمسلمين بمايتعرضون له من تناقص الآجال بمضي العمر، وأن كل يوم يمر على المسلم فإنه ينقضي بماكتب فيه من خير أو شر، فالعاقل لايمنِّي نفسه بالعمل في المستقبل؛ لأنه إن عاش فقد خسر الأيام التي قصر فيها، وإن باغته الأجل لم يكن هناك فرصة لمضاعفة العمل.

ويذكِّر بما سيواجهه العاملون عند حصاد زرعهم، فإذا كان الزارع يحاول أن يُحسِّن نِتاج زرعه ويقيه من الآفات فإن المسلم الذي يعمل لآخرته أولى به أن يرفع رصيده من الحسنات وأن يخفض رصيده من

---

(١) تقدمت مواقف تربوية لعلي رضي الله عنه في سيرته ج ١٢ص٤١٩ .

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٣٣، سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩٧.

السيئات؛ فإن الجزاء الأخروي يكون ـ بعد فضل الله ورحمته ـ بموجب هذا الرصيد، حيث تزول القوى البشرية، وتنحلُّ الروابط الدنيوية، ويصبح كل فرد مشغولاً بنفسه، مشفقًا من الهلاك، مؤمِّلاً بالنجاة، فالملك لله تعالى وحده، هو الذي يعطي بكرمه وفضله، ويمنع بحكمته وعدله.

ويختم ابن مسعود رضي الله عنه موعظته ببيان طبقات الأمة العليا، فيذكر أن المتقين هم سادة الأمة وأن الفقهاء هم قادتها، فالمتقون سادة الأمة لأن الأمة مكوَّنة من أقوياء الإيمان ومتوسطي الإيمان وضعفاء الإيمان، فالمتقون هم أقوياء الإيمان، وأقوياء الإيمان يجب أن تكون لهم السيادة في جميع شئون الحياة، والفقهاء في الدين من هؤلاء لهم القيادة العليا؛ لأنهم هم أهل البصيرة في الدين؛ فهم الذين يتمكنون من الإشراف على تطبيق الإسلام في الأرض.

ويشير ابن مسعود بقوله « ومجالستهم زيادة » إلى أن من يحسُّ بضعف في إيمانه بما يرى في نفسه من تقصير في الطاعات أو مقارفة للسيئات فعليه أن يجالس أقوياء الإيمان وأن يرتبط بهم حتى يزيد إيمانه ويلحق بركب المتقين.

ومن ذلك ما رواه قيس بن حبتر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حبذا المكروهان الموت والفقر، وايم الله ما هو إلا الغنى والفقر، ما أبالي بأيهما ابتُدِئْتُ، إن كان الفقر إنّ فيه للصبر، وإن كان الغنى إن فيه للعطف؛ لأن حق الله في كل واحد منهما واجب (١).

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩٦، حلية الأولياء ١/ ١٣٢.

وفي هذا الخبر فقه عظيم لمقاصد الإسلام، فالفقر نعمة لأنه يترتب عليه أداء واجب يثاب عليه فاعله وهو الصبر، فهو إذًا سبب عمل صالح، والغنى نعمة لأنه يترتب عليه أداء واجب آخر وهو الشكر، وما يترتب عليه من العطف على الفقراء وبذل المال في سبيل الله تعالى.

وهذا من الأمور العجيبة حيث يجتمع أمران متضادان في الإيصال إلى نتيجة واحدة، وهي الظفر برضوان الله تعالى وثوابه، بما يترتب على هذين الأمرين من عمل صالح.

وفي هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ « عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له »رواه الإمام مسلم (١).

وهذا الحديث يبين لنا حقيقة السعادة الروحية التي يعيشها المسلم في هذه الحياة الدنيا؛ لأن الأمور المتضادة تصبح منسجمة غاية الانسجام بالنسبة للمؤمن، وإنما يكون ذلك بالشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء، ومما يترتب على الشكر عند الرخاء السلامة من الآفات النفسية المترتبة على حدوث النعمة، ومنها التكبر على الناس، والغرور والخيلاء، وهذه الأمراض تجلب لصاحبها بغض الناس له وحقدهم عليه، ثم محاولة الانتقام منه، ومما يترتب على الصبر عند البلاء السلامة من المصائب النفسية الناتجة عن الضجر وضعف الإيمان بالقدر.

فلهذه النتائج وغيرها من النتائج العظيمة كان الجمع بين هذين

---

(١) صحيح مسلم رقم ٢٩٩٩، كتاب الزهد (ص ٢٢٩٥).

الأمرين خيـرًا للمؤمن في دنياه إلى جانب كونه خـيرًا له في آخرته لما يترتب عليه من الأجر العظيم.

ومن ذلك مـا أخـرجه الحـافظ أبو نعـيم عن أبي الأحـوص عن عبدالله بن مـسعود رضي الله عنه قال: لا يقلـدنّ أحدكم دينه رجلاً فإن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإن كنتم لا بـد مقتدين فاقتدوا بالميت؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

وعن عـبد الرحمـن بن يزيد قال قـال عبد الـله بن مسـعود: لا تكونَنَّ إمَّعة. قالوا: وما الإمعة يا أبا عبد الرحمن؟ قال: يقول أنا مع الناس إن اهتـدوا ا هتديت وإن ضلوا ضـللت ، ألا ليوطِّنَنَّ أحـدكم نفسه على أنه إن كفر الناس أن لا يكفر (١).

فـقد بين ابن مـسـعود رضي الله عنـه في هذين النصين خطورة التقليد في أمـور الدين إذا لم ينضبط بالضوابط الشرعـية، فالأصل في الإسلام أنه الاستسلام الكامل لله تعـالى وحده، وأن يسير الإنسان في هذه الحـياة وِفْقَ الضـوابط التي شرعـها الله جل وعـلا، ومن المعلوم الواقع أنه ليس كل المسلمين علمـاء بشريعة اللـه تعالى، فلا بد لعـامة المسلمين إذًا من الرجـوع إلى علـماء الدين ، والاسـتـهـداء بعلمـهم واجتهـادهم في فهم الدين، وهذا الاقتداء لا يعـتبر تقليدًا مـذمومًا إذا كان العلماء قـد جمعوا بين العلم النافع والعمـل الصالح وهم العلماء الربانيون، أما إذا وضع المسلم قياده لرجل ليس من أهل العلم بالدين، وليس من أهل التقوى فإن هذا من التقليد المذموم.

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٣٦-١٣٧، وانظر صفة الصفوة ١/ ٤٢١.

والتقليد قـد يكون في مسائل جزئية مما يَعْـرِضُ للمسلم في يومه فيستـفتي العلماء في حكم الإسلام في تلك المسائل، فهـذا أمره يسير إذا تحرى المسلم في ذلك.

وقد يكون التقليد في أصل الإسلام مما يترتب عليه الإيمان والكفر فهذا أمره خطير، وهو الذي عناه ابن مسعود في هذين الخبرين.

وقد يكون التأسي والتـقليد في أمور كلية تتـعلق بتطبيق الإسلام في هذه الحياة ودعوة الناس إلى ذلك، وهذا أمر له أهميته وخطورته؛ إذ قد تـكون دعوة بعض الدعـاة مقـصورة على تطبـيق بعض أحكام الإسلام، مع غضِّ الطرف عن الأحكام الأخـرى، وقد يتجـاوز الأمر ذلك إلى التهوين من شأن هذه الأحكام أو إخراجها من الإسلام، فيما إذا وقع الجدل والـنقاش مع الدعاة الآخـرين، وقد تكون الـدعوة إلى مفاهيم غريبة عن الإسلام بينما تُعرض على أنها هي الإسلام.

فالمسلـم الحق الذي يرجو الله و اليـوم الآخر يسعى إلى تـطبيق الإسلام كـاملاً كمـا جاء من عند الله تعالـى، ويدعو الناس إلى هذا الكمال في التطبيق، ويستفيد من تجارب الدعاة الذين نجحوا في تطبيق هذا المنهج.

وقول ابن مسعـود « فإن كنتم لا بد مقتدين فاقـتدوا بالميت؛ فإن الحيَّ لا تُؤمَن عليه الفتنة » المقصود به وضع الثقة الثابتة التي لا تتغير؛ لأن العالـم المقـتدَى به إذا مات وهو على الهدى ولم يتـأثر بالفتن فإن التأسي به يكون ثابتًا لعدم احتـمال وقوعه في الفتن، أما إذا كان على

قيد الحياة، فإذا وقع في حبائلها جَـرَّ معه من تأسَّوا به ووضعوا ثقتهم به فانحرفوا عن الطريق بسببه.

أما التـأسي بأهل العلم من الأحياء من غـير التزام بالثبات على منهجهم إذا عرض لهم بعض الانحـراف فإنه أمر لا بُدَّ منه في تطبيق الإسـلام؛ إذ أن الإسلام نصـوص من الكتاب والسنة مـحفـوظة في الكتب، ولكن تطبيق هذه النصوص في واقع الحـياة يحتاج إلى نماذج عـالية من البـشـر ليكونوا قـدوة للآخرين في تطبـيق هذه النصـوص وتحويلـها إلى واقع ملمـوس، ولذلك بعث الله تعالى الرسل علـيهم السلام ليقـوموا بتبليغ الرسالات وتطبيق الشرائع على أنفـسهم؛ حتى يكونوا مُثُـلاً عالية للأمم في تطبـيق شرائع الله تعـالى، والعلماء هم ورثة الأنبياء فهم قدوة لعامة الناس في تطبيق هذا الدين.

ولكن الخطورة تكون في الثبـات على اجتـهاد العـالم وإن تبين خطؤه واعتبار ذلك شرعاً ملزمًا للناس.

كمـا أن من الخطأ الواضح التـأسي بالعلماء الأمـوات في قضـايا اجـتهـدوا فيـها بمـا يناسب عصـرهم، ثم تغـير الوضع بعـدهم، وأصبحت القضايا بحاجة إلى نظر جديد يتناسب مع عصرها الحاضر؛ إذ أن بعض الأتباع تحملهم الثقة بالعالم الذي أسس المذهب أو الجماعة على تقليده في كل مـا توصل إليه من اجتهاد. وهذا يعـتبر خللاً في الاتجاه وتقصيرًا في بذل الجهد في تطبيق الإسلام من ناحية القصور في فقه الواقع المعاصر.

ومن ذلك مـا رواه موسى بن أبي عيـسى الحناط المدني قـال قال

عبـد الله بن مسعود رضي الله عـنه: « من اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله، ولا تحمدنَّ أحدًا على رزق الله،ولا تلومنَّ أحدًا على ما لم يؤتك الله؛فإن رزق الله لا يسوقه حرص الحريص ولا تردُّه كراهية الكاره، وإن الله بقسطه وحكمه وعدله وعلمه جعل الرَّوح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهمَّ والحزن في الشك والسخط (١).

فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه يبين لنا في هذا الأثر شيئًا من مظاهر اليقين، والمقصود بذلك علم اليقين، وهو ذروة الإيمان، وذلك بأن لا يتطرق إلى قلب المسلم أي شبهة أو شك، و أن لا يتسرب إليه أي مؤثر يحرك مشاعره ويوجه سلوكه غير إيمانه بالله عز وجل.

وهذه المظاهر اليقينية المذكورة في الأثر تتلخص في أمرين:

الأول: مراعاة جانب الله تعالى في الرضى والسخط بحيث تكون ملاحظة اجتناب مـا يسخط الله والعمل بما يرضيـه هي المعيار الذي يزن به المسلم سلوكـه مع نفسـه ومع الآخرين،وفي هذا المعنـى يقول رسول الله ﷺ:« من التـمس رضا الله بسخط الناس كفـاه الله مُؤْنة الناس،ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس» (٢).

الثاني: اعتبـار أن الله تعالى وحده هو الرازق وهو وحده المعطي والمانع، وبالتالي فإن المؤمن يحمـده وحده على النعم ويرضى بقضائه وقدره إذا حُرِمَ من ذلك، فإذا تحوَّل السلوك إلى حمد المخلوقين الذين جرى على أيديهم رزق الله تعالى ولومهم على تخلف هذا الرزق فإن ذلك من ضعف اليقين.

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٤١٥.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الزهد حديث رقم ٢٤١٤ (٤/ ٦٠٩).

ثم يذكر نتيجة اليقين ونتيجة الشك، فاليقين ينتج عنه الرَّوح والفرح في الحياة الدنيا، إلى جانب السعادة الأخروية، والشك ينتج عنه الهم والحزن إلى جانب الشقاء الأخروي.

فالمسلم الموقن بالله تعالى وبقضائه وقدره لا يهتم بما فات من أمر الدنيا ولايحزن على مكروه أصابه، وتُنْسِيه حلاوة الأجر مرارة الصبر، فيكون في فرح وسرور دائم سواء كان فيما ظاهره نعمة أو نقمة، بخلاف من تعتريه الشكوك ويتخلف عنه اليقين فإنه لا يكاد يفرح بالنعم الظاهرة حتى يعتريه أضعاف ذلك من الهم والحزن؛ بدافع الخوف من فوات المحبوب ومواجهة المكروه.

هذا ونجد عبد الله بن مسعود في أثر آخر يثني على الصحابة رضي الله عنهم ويصفهم باليقين والوعي الديني حيث يقول لتلاميذه من التابعين: أنتم أكثر صيامًا وأكثر صلاة وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم، قالوا: لِمَ يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هم كانوا أزهد في الدنيا وأ رغب في الآخرة [1].

ففي كلام ابن مسعود هذا بيان للمقصد الإسلامي الأعلى الذي امتدح الله جل وعلا الصحابة به في قوله ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ**

(١) حلية الأولياء ١/ ١٣٦، صفة الصفوة ١/ ٤٢٠.

عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(١) فالفضل من الله هو الجنة، وهو مترتب على بلوغ رضوان الله تعالى.

وقد أشار ابن مسعود إلى المنهج الموصل إلى هذا الهدف وهو عبادة الله تعالى، وذكر أن بعض عُبَّاد التابعين أكثر اجتهادًا من الصحابة في تطبيق بعض محتويات هذا المنهج لكثرة صيامهم وصلاتهم، ولكنهم كانوا أقل اجتهادًا من الصحابة في تحقيق الهدف الأعلى للمسلم في هذه الحياة وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة، وقد استدل بأبرز مظاهر الرغبة في تحقيق هذا الهدف وهو الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

ومن هذا نعلم أن العبرة من الأعمال بمقاصدها ودوافعها لا بحجمها، فَرُبَّ عمل قليل مع صدق النية أفضل من عمل كثير مع اختلاطها، وذلك كله مبني على درجة الإخلاص لله تعالى، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم متفوقين في هذا الجانب، حيث لا يتسرب إلى قلوبهم شيء من إرادة غير الله تعالى، فإذا تسرب إلى القلب حب ثناء الناس وتهيئة الوصول إلى مكانة عالية في المجتمع فإن ذلك يؤثر على صلاح العمل وقبوله وإن كان صاحبه قد وصف بالاجتهاد في كثرة العمل.

هذا ونجد أحد كبار التابعين وهو أبو العالية رحمه الله يشير إلى نحو هذا المعنى وهو يقارن بين عبادة التابعين والصحابة فيقول لِعُبَّاد

---

(١) الفتح/ ٢٩.

التابعين: أنتم أكثر صلاة وصيامًا ممن كان قبلكم ولكن الكذب قد جرى على ألسنتكم (١).

وهذا يفيد بأن الذين كان يخاطبهم أبو العالية كانوا يتنافسون في الإكثار من الشعائر التعبدية من غير أن يكون لها أثر كبير في السلوك، مما يدل على أن تعبُّدهم لم يكن يشتمل بدرجة كافية على الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى، أما تعبُّد الصحابة بالصلاة والصيام فإنه وإن كان أقل مما يفعله بعض التابعين فإن له أثرًا بالغًا في تزكية نفوسهم وتقويم سلوكهم.

هذا ومما تجدر الإشارة إليه أن المفاضلة بكثرة العمل بين عُبَّاد التابعين والصحابة قد اقتصرت على العبادات الخاصة كالصلاة والصيام، أما العبادات المتعدية فلا شك أن الصحابة كانوا متفوقين فيها على التابعين، وذلك كالجهاد في سبيل الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة دولة الإسلام على منهج هذا الدين.

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي عن طارق بن شهاب عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن الرجل يخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه منه شيء، يأتي الرجل لا يملك له ولا لنفسه ضرًا ولا نفعًا فيقسم له بالله إنك لذيت وذيت، فيرجع وما حُبِي من حاجته بشيء ويسخط الله عليه (٢).

ففي هذا الخبر بيان مهم لأمر من أمور العقيدة وهو وجوب

---

(١)سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٠.

(٢) صفة الصفوة ١/ ٤١٨.

الالتـجاء إلى الله تعـالى وحده في جلب النفع ودفع الضـرر، والمراد بالذين أنكر عليهم ابن مـسعود وحكم بهـلاك دينهم الذين ينسون الله تعالى، ولايدعونه في حوائجـهم، بل يبادرون إلى من أنعم الله عليهم ومكَّنهم في الأرض فيـسألونهم قضاء حـوائجهم، وفي ذلك نوع من الانحـراف في التـصـور نتج عنـه الانحـراف في السلوك، حـيث إن التصور الـصحيح في الإسلام أن يكون شـعور المسلم متَّجهًـا قبل كل شيء إلى الله تعـالى على أنه المتصـرف بكل شيء المعطي المانع النافع الضار وحده جل وعلا، ثم يتجه الشعور إلى أن الله سبحانه سنَّ سُننًا لخلقه تقوم عليها حيـاتهم، وأن مما سنَّه لهم أن يكون بعضهم سببًا في تحـقق قدر الله تعـالى وذلك بوصـول النفع أو الضرر للآخـرين، وأن يؤمن بأن الله تعالى هو الذي خلق في الأسباب فاعليـتها مثل حصول الشـفـاء بالدواء المناسب للمـرض، واندفـاع المحسـنين لسد حـاجـة المحتاجين، وهجوم المعتدي من الإنسان والحيوان لإلحاق الضرر بالمعتَدَى عليه، وأن الله سبحانه الذي جعل في هذه الأسـباب فاعليتها بمقدرته أن ينزع منها هـذه الفاعلية، وأن يحـوِّل اتجاهها إلـى تصرف سلبي أو إيجابي مضادٍّ لما كان مألوفًا منها.

وقوله « فيرجع وما حُبي من حـاجته بشيء » بيان لإحدى الصور التي تنتج عن الخطأ في التـصور والسلوك، حيث تُـطلَب الحوائج من غير مالـكها الحقيقي فلا يحـصل الطالب من ذلك على شيء مبارك، وقد يحصل له مـا يتوهم في الظاهر أنه يسد حاجتـه ولكنه لا يحالفه التوفيق من الله تعـالى؛ لأنه تخلَّى عن الله ومن تخلَّى عن الله تخلى

الله عنه، فتُنتزع بركة ذلك المال، ولاتحصل به الثمرات الطيبة من القناعة والطمأنينة وغنى القلب.

وإن لهذا المعنى الذي استنتجه ابن مسعود شاهدًا من حديث رسول الله ﷺ حيث يقول: « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل » أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح ثابت، وأخرجه الحاكم وصححه (١).

أما الصورة الثانية التي تنتج عن هذا الخطأ فقد ذكرها ابن مسعود بقوله « ويسخط الله عليه » وسخط الله تعالى متحقق على من أنزل حاجته بغيره سواء قضى الناس حاجته في ظاهر الأمر أو لم يفعلوا ذلك.

هذا ومن الوصايا المهمة في مجال العقيدة ما أخرجه الحافظ أبونعيم عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه رضي الله عنه قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن علمني كلمات جوامع نوافع، فقال: اعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وزُلْ مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدًا بغيضًا ومن جاءك بالباطل فاردده عليه وإن كان حبيبًا قريبًا (٢).

ففي هذه الوصية أمور:

١ - الاستقامة على سلامة الهدف والمنهج، فأما سلامة الهدف

---

(١) الترغيب والترهيب ١/ ٥٩٣ .

(٢)حلية الأولياء ١/ ١٣٤، وانظر صفة الصفوة ١/ ٤١٩.

ففي لزوم التوحيد، وذلك باجتناب الشرك بجميع أنواعه، وذلك في قوله « اعبد الله ولا تشرك به شيئًا » وفي ذلك تحقيق قول الله تعالى ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (١). وقوله في بيان خلاصة دعوة الرسل ﴿ **فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ** ﴾ (٢) .

وأما سلامة المنهج فتتحقق بلزوم كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ التي هي بيان للقرآن، وقد عبر عن ذلك ابن مسعود بقوله«وزُلْ مع القرآن حيث زال»وفي هذا التعبير إشارة إلى لزوم الاستسلام الكامل لله تعالى وما نزل من عنده من ناحية التصور والسلوك؛حيث جعل القرآن كأنه قائد مجموعة من الناس يسلك بهم ذات اليمين وذات الشمال، ويعلو بهم ويهبط، وهم وراءه لايراجعونه، ولايتقاعسون عنه.

٢ - الولاء الكامل للحق الذي بيَّنه هذا المنهج وقبوله بالرضى والتسليم ممن جاء به ورفض جميع المؤثرات التي تؤثر على ذلك، ومنها كون القائل بالحق بعيدًا عن السامعين، إما لكونه من جماعة أخرى أو بلد آخر أو غير ذلك، ومنها كونه بغيضًا عندهم، إما لسبق مواقف من الخلاف الدائر بينهم، أو تدخُّل آخرين بتشويه سمعته أو غير ذلك.

٣ - البراءة التامة من الباطل وردّه على أهله، ورفض جميع المؤثرات ومنها كون صاحب الباطل قريبًا من المُتَلقِّي، أو كونه محبوبًا

---

(١) الذاريات / ٥٦.

(٢) المؤمنون/ ٣٢.

عنده.

وإن هذا التجرد في النظر إلى الحق والباطل هو ميزان الاستقامة في هذه الحياة، وهو الذي يجعل المسلم ثابتًا على المبدأِ الحق حيث لا تؤثر فيه الأمور التي تلابس القضايا.

ومن ذلك ما أخرجه أبو نعيم من خبر عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يَحُلَّ بذروته، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والتواضع أحب إليه من الشرف، وحتى يكون حامده وذامُّه عنده سواء. قال ففسرها أصحاب عبد الله قالوا: حتى يكون الفقر في الحلال أحب إليه من الغنى في الحرام، والتواضع في طاعة الله أحب إليه من الشرف في معصية الله، وحتى يكون حامده وذامُّه عنده في الحق سواء (1).

يبين ابن مسعود رضي الله عنه أن المؤمن لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يبلغ ذروته، فما هي هذه الذروة؟ ومتى يبلغها المسلم؟

إن ذروة الإيمان تعني قمته ومنتهاه في العلو، وإن قوته وضعفه وما بين ذلك من درجات تعني مقدار هيمنته على القلب، فإذا امتلأ القلب بالإيمان بالله تعالى بحيث لا يبقى فيه أيُّ مجال لغيره فإن هذا يعني منتهاه وذروته، وإن من أبرز مظاهر ذلك الاستسلامَ لله تعالى في كل شئون الحياة، وأن تكون القوة المحركة نحو العمل واحدة هي قوة الإيمان، فإذا خالط ذلك الإيمانُ بقوى أخرى تتعارض معه فإن هذا

---

(1) حلية الأولياء 1/ 132، وانظر صفة الصفوة 1/ 417.

الإيمان يضعف بقدر حجم هذه المخالطة التي تسربت إلى القلب؛ فالقوة التي تهيمن على القلب هي التي تتحكم في تصوير الفكر والمشاعر، وبالتالي تتحكم في توجيه السلوك والعمل.

فالمسلم لا يكون مؤمنًا حقًّا حتى يمتلئ قلبه بالإيمان بالله تعالى، وهذا يعني تجرد قلبه تمامًا من القوى الأخرى المشاركة، وهذا هو التوحيد الخالص.

ومن وصية عبد الله بن مسعود هذه المفسَّرة من أصحابه نخرج بنماذج من معالم الإيمان التي ترفع مستواه وتوصله إلى الذروة العليا:

المعلم الأول: أن يقتصر نظر المسلم على الكسب الحلال وإن ظل حياته فقيرًا، وأن لا تجْمَحَ به أحلامه إلى التطلُّع للغنى عن طريق الكسب الحرام، فإذا فعل ذلك فإنه يجفف منابع حب الدنيا من القلب فيجرده شيئًا فشيئًا من التعلق بالدنيا، وإذا كان دافع ذلك هو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة فإن الإيمان بالله جل وعلا يتقوى فيملأ حَيِّز القلب، ويصبح نظر الإنسان إلى المال نظر استخدام واستعمال في طاعة الله تعالى، فإنه مهما اكتسب وأنفق لا يؤثر ذلك في إضعاف إيمانه، بل يقويه إذا صلحت النية؛ لأنه يكون قد اكتسب عملاً صالحًا.

فالمقصود بالفقر في هذا الأثر القناعة بالقليل من الحلال والاستغناء به عن المال الحرام، وقد حث رسول الله ﷺ على القناعة وعدم التطلع إلى ما في أيدي الناس كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أَتَى النبيَّ ﷺ رجل فقال: يا رسول الله

أوصني وأوجز . فقال النبي ﷺ : « عليك بالإياس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وإياك وما يُعتذر منه» ذكره الحافظ المنذري وقال: رواه الحاكم والبيهقي في كتاب الزهد، واللفظ له، وقال الحاكم: صحيح الإسناد(١).

وكما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ليس الغِنَى من كثرة العَرَض ولكن الغِنَى غِنَى النفس » أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي كما ذكر الحافظ المنذري (٢).

المعلم الثاني: أن تكون نظرته للشرف والجاه في الحياة الدنيا من خلال تحقيقه طاعة الله تعالى، وذلك بأن يكون مقصوده الأول هو طاعة الله سبحانه وإن عاش حياته خامل الذكر، فإذا تحقق الجاه من خلال طاعة الله تعالى فهو خير على خير.

أما إذا تطلع المسلم للجاه والشرف الدنيوي، وقصد إليه على أنه غاية في نفسه فإنه يستوي عنده أن يصل إليه بطاعة الله تعالى أو بمعصيته ، وقد يفضل طاعة الله تعالى، لكنه لا يلتزم بها إذا تعارضت مع ما يطمح إليه من الجاه في الدنيا، ومَنْ كان هدفه المجد الدنيوي فإنه أحيانًا يكون مطيعًا لله تعالى ويقوم بأعمال المتقين الأخيار، وأحيانًا يكون عاصيًا فيتقمص لباس الأشقياء الفجار، وهذا التذبذب يُخلُّ بميزان الإيمان في القلب، وتكون الغلبة في توجيه المشاعر والسلوك للدافع الأقوى وتختلف درجة الإيمان بالله تعالى في القلب

(١) التزغيب والترهيب ١/ ٥٩٠.

(٢) الترغيب والترهيب ١/ ٥٨٩.

بمقدار هيمنة هذا الإيمان على المشاعر والسلوك، فإذا تجرد الإنسان من النظر للشرف الدنيوي فإنه شيئًا فشيئًا يتقوى إيمانه بالله عز وجل لأنه بقدر رفضه لشرف الدنيا المُناهض لمحبة الله تعالى ورضوانه فإنه يتعاظم قدر الإيمان الحق في قلبه حتى يهيمن عليه في النهاية ويصل فيه إلى الذروة العليا.

المعلم الثالث: أن ينظر إلى الحق لذات الحق من غير أن يلتفت إلى مدح الناس وذمهم، فلا يحمله مدح الناس على الانجذاب معهم في فعل ما يحبون ولايحمله ذم الناس على الانجذاب معهم في ترك مايكرهون، فشخصيته الإيمانية قوية وثابتة.

فإذا فعل ذلك فإنه يكون قد وضع قدميه في سلَّم الصعود نحو درجات الإيمان العليَّة، وسيدخل في عملية التجريد والتنقية للقوى المحركة للقلب حتى يخلص قلبه في النهاية للإيمان بالله تعالى وحده فيكون بذلك قد بلغ الذروة العليا في ذلك.

أما إذا انجذب مع الناس فيما يحبونه ويكرهون، وأثر فيه ثناؤهم وذمهم، فهو رجل ضعيف الشخصية وذلك مبني على ضعف إيمانه.

وهذه الأمور الثلاثة: من رفض الخضوع لهيمنة المال وهيمنة الجاه، وهيمنة آراء الآخرين من الناس. هذه الأمور ليس من السهل تحقيقها إلا بنوع من الجهاد النفسي المتواصل، ولا يصل إلى تحقيق الذروة العليا من الإيمان إلا أصحاب العزم القوي والرؤية الواضحة.

من مواقف أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه:

إن من أبرز الأمور التي تفوق بها الصحابة رضي الله عنهم في

الفقه في الدين وزن الآخرة والدنيا بميزانهما الصحيح، بحيث لا يطغى النظر إلى الدنيا فتكون هي ميزان الأعمال، والمقصدَ الذي يُبنَى عليه السلوك، فإن الآخرة هي الميزان الذي توزن به أعمال الدنيا بحيث تخضع أمور الدنيا للآخرة، ولكن ليس إلى الحد الذي يمقت الإنسان فيه الحياة الدنيا، ويقوم بتصرفات لم يشرعها الله تعالى على سبيل التدين كالعزلة وترك الزواج، والتخلي عن طلب الرزق.

وقد ذكر الإمام الذهبي من خبر الجريري عن أبي نضرة قال: قال رجل منا يقال له جابر أو جويبر: أتيت عمر وقد أُعطِيتُ منطقًا فأخذت في الدنيا فصغَّرتها فتركتها لاتُسوَى شيئًا وإلى جنبه رجل أبيض الرأس واللحية والثياب، فقال: كل قولك مقارب إلا وقوعك في الدنيا، هل تدري ماالدنيا؟ فيها بلاغنا أو قال زادنا إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي نُجزَى بها. قلت: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا سيد المسلمين أُبَيّ بن كعب(١).

وقول أمير المؤمنين عمر عن أبي بن كعب: هذا سيد المسلمين تواضع كريم من رجل عظيم. فعمر في الحقيقة هو سيد المسلمين، وأبي بن كعب من ساداتهم ومن أهل الحل والعقد فيهم، وفيه إشارة إلى تكريم حملة القرآن الكريم المشتغلين بتعلمه وتعليمه.

من مواقف معاذ بن جبل رضي الله عنه:

مما روي عن معاذ رضي الله عنه في هذا الموضوع ما ذكره الإمام الذهبي من خبر أبي سعيد بن النعمان أنه مر به أصحاب النبي ﷺ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٩٩.

فقال: أوصوني فجعلوا يوصونه، وكان معاذ بن جبل في آخر القوم فقال: أوصني يرحمك الله، قال: قد أوصوك فلم يألوا[1]، وإني سأجمع لك أمرك: أعلم أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فابدأ بنصيبك من الآخرة فإنه سيمرُّ بك على نصيبك من الدنيا فينتظمه ثم يزول معك أينما زلت[2].

وفي هذا الخبر بيان منزلة الدنيا من الآخرة، فإن العمل للآخرة لا يعني رفض الدنيا بالكلية، فإن من فعل ذلك خسر الدنيا وقصر في أمر الآخرة؛ لأن بعض أعمال الآخرة تترتب على أعمال الدنيا مع اقتران النية الصالحة، ولا يعني ذلك أيضًا أن نعطي الدنيا أكبر من حجمها؛ فإن ذلك يضر بالعمل للآخرة، بل يعمل الإنسان لدنياه بما يقيم ضروراته وحاجاته من غير سرف ولا مخيلة، ولا تجاوز لحقوق الآخرين، مع ملاحظة الهدف الأعلى الذي من أجله خلقه الله تعالى، وهو أن يعمر هذه الأرض بعبادته وحده، كما في قوله تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات: ٥٦] وأن يفهم أن وجوده في هذه الأرض إنما هو ساعات امتحان لطاعته ومدى استسلامه لله جل وعلا. قال تعالى﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [الإنسان: ٢] وقال تعالى﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الكهف: ٧].

---

(١) أي لم يقصروا.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٥٥، وانظره في كتاب الزهد للإمام أحمد بسياق مقارب/ ١٨٢.

فطريق السلامة أن يجعل المسلم الآخرة ميزانًا للدنيا فيوجه تفكيره وتخطيطه إلى ما يحقق سعادته الأخروية، ويكون الهدف معدِّلاً لسلوكه في هذه الحياة الدنيا، وسيجد في هذا أنه قد ظفر بنصيبه من الآخرة، ولن يفوته نصيبه من الدنيا كما ذكر معاذ رضي الله عنه؛ لأن كل عمل مشروع يقوم به المسلم يريد به وجه الله تعالى فهو عمل صالح، ويتحول بذلك إلى عمل أخروي مع ما يحقق من مصلحة دنيوية ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد: ٢١] .

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسلمة قال: قال رجل لمعاذ بن جبل: علِّمني، قال: وهل أنت مطيعي؟ قال: إني على طاعتك لحريص، قال: صم وأفطر، وصل ونم، واكتسب ولا تأثم، ولا تموتن إلا وأنت مسلم، وإياك ودعوة المظلوم (١).

وإنا لنجد في كل فقرة من فقرات هذه الوصية فوائد جليلة. فقول معاذ « هل أنت مطيعي؟ » تأكيد على الجدية في أخذ النصائح والمواعظ، فإن بعض الناس يطلب النصيحة لا ليعمل بها، وليس في همه إنقاذ نفسه من الهلاك، ولكنه يطلبها ليتقرب بها إلى العالم حتى يكون أثيراً عنده إذا حمل عنه فكرة طيبة نحو الرغبة في العمل الصالح أو يطلبها لمجرد التقليد حيث يردد ما يسمعه من الآخرين من غير نية ولا رغبة في العمل.

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٩٦.

فمن قواعد التربية أن يؤكد المربي على هذا الجانب لتكون وصاياه ودروسه نافعة بإذن الله تعالى لمن تلقاها.

ولما تأكد معاذ من استعداد سائله للعمل أتحفه بعدة وصايا، حيث أوصاه بالاتزان في أداء الشعائر التعبدية فقال: « صم وأفطر وصلِّ ونَمْ» يعني فلا تبالغ في أداء نوافل العبادة من الصلاة والصيام بحيث تشغلك عن تكاليف الإسلام الأخرى كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى والإحسان للمسلمين، ولا تهجر هذه العبادات لئلا يقسو قلبك وتكون محرومًا من هذه العبادات التي يرفع الله بها الدرجات ويمحو بها السيئات.

وقد كانت هذه الوصية في محلها في ذلك الزمن حيث كان بعض التابعين يُقْدِمون على العزلة ويقتصرون على العبادات الخاصة كالصلاة والصيام، ويقصِّرون في أداء العبادات المتعدية التي يتعدى نفعها للآخرين كالجهاد والإحسان إلى الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقوله « واكتسب ولا تأثم » إشارة إلى الاتزان في قضية اكتساب المال وإنفاقه، فليس من المشروع للمسلم أن يعتزل العمل الدنيوي ليصبح عالة على الآخرين، ولكن هذا العمل له قيود وضوابط لخصها معاذ بقوله «ولا تأثم» فالمسلم مطلوب منه أن يعمل في هذه الحياة وهو مستسلم لأحكام الإسلام، والفخر والعزة لمن شارك في العمل وخاض غمار الحياة ثم خرج من ذلك وقد سلم له دينه ولم يكتسب إثمًا.

وقوله «ولا تموتنَّ إلا وأنت مسلم» إشارة إلى أن العبرة بما يختم

به الإنسان حياته من هداية أو ضـلال، وهو إشارة إلى قول رسول الله ﷺ « فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسـبق عليه الكتاب فـيعمل بعمل أهل النار فـيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليـه الكتاب فـيـعمل عـمل أهل الجنة فـيدخلـها » أخـرجه الإمـام البخاري(١).

وإذا كان الإنسـان لا يدري متى يوافيـه أجله فإن صـاحب العقل السليم يعـتبـر كل لحظة من حيـاته هي خاتمتـها لاحـتمـال أن تكون كذلك، وهذا يتطـلب منه أن يكون في حضور قلـب دائمًا مع الموت وما بعد الموت من هول عذاب القبر أو نعيمه، وأهوال يوم القيامة وما فيه من نعيم خالد أو شقاء خالد.

وقوله « وإياك ودعـوة المظلوم » حُسْنُ اخـتيار مـنه في موقف لا يتسع لحصـر الأمور المحرمة كلها، واتقـاء دعوة المظلوم يعني اجتناب الظلم، وإذا ألزم المسلم نفسه بتحـرير حقوق الآخرين والتورع عن كل ما فيـه شبهة من ذلـك فإنه يكون قد خطى خطوات فعـالة في تجريد قلبه من اتبـاع الهوى ، ويكون قـد أسهم في إقامـة المجتـمع الصالح الذي يلتزم بالصراط المستقيم ولا يعتدي فيه أحد على أحد.

هذا ونجد معاذًا رضي الله عنه في خبر آخر يوصي ابنه فيقول: يا بني إذا صليت فصل صلاة مودع لا تظـن أنك تعود إليها أبدًا، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنة قدَّمها، وحسنة أخَّرها (٢).

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٧٤٥٤.

(٢) صفة الصفوة ١/٤٩٦.

وهذا درس بليغ من معاذ رضي الله عنه في حضور القلب مع الله تعالى واستحضار الحياة البرزخية ومابعدها في كل يوم خمس مرات على الأقل، ومن بلغ هذا المستوى من حضور القلب فإنه سيحضر قلبه مع الله تعالى وسيكون فكره مشدودًا نحو مصيره فيمابعد الموت.

ثم يحث ابنه على عدم طول الأمل في الحياة حيث يقول: واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين: حسنة قدَّمها وحسنة أخَّرها » فالحسنة التي قدمها هي التي يستفيد منها في آخرته أما الحسنة التي أخرها بناء على أمله في الحياة فقد تزهق نفسه وهو لم يعملها، فيندم على ذلك حيث لا ينفعه الندم.

ونجد معاذًا رضي الله عنه يذكِّر أبا إدريس الخولاني فيقول: إنك تجالس قومًا لا محالة يخوضون في الحديث فإذا رأيتهم غفلوا فارغب إلى ربك عند ذلك رغبات [1].

وفي هذا تذكير للمسلم بإحضار القلب مع الله تعالى حينما يتحدث الناس عن الدنيا حتى يكون في ذلك الذكر القلبي عاصمٌ من الغفلة والمشاركة في الباطل.

ونجد معاذًا رضي الله عنه يوصي تلامذته بذكر الله تعالى ويعتبر ذلك جلسة إيمان حيث يقول: « اجلسوا بنا نؤمن ساعة » [2].

وهي لفتة تربوية عالية حيث خشي على أصحابه أن يأخذ بهم التفكير الدنيوي مأخذًا يبعدهم عن الله تعالى والدار الآخرة، ولم

---

(١) صفة الصفوة ١/٤٩٦.

(٢) صفة الصفوة ١/٤٩٧.

يكتف بالتذكير القولي بل دعاهم إلى الحركة والعمل حيث أمرهم بالجلوس لذكر الله تعالى باللسان والقلب، ومعلوم أن الإنسان حينما يُدْعَى فجأة إلى مثل هذا الذكر سيكون حاضر القلب مع الله تعالى؛ لأن الذكر القلبي هو المقصود الأعظم في هذا التوجيه التربوي، وسيكون لهذا الموقف آثار إيجابية في حياة هؤلاء التلاميذ، من قوة الإيمان بحضور القلب مع الله تعالى، إلى سلامة السلوك المنبثق عن قوة الإيمان.

فما أحوجنا إلى ساعات نجلس فيها لتقوية إيماننا بذكر الله عز وجل بقلوبنا أو بألسنتنا مع قلوبنا .

ومن ذلك ما رواه محمد بن سيرين رحمه الله قال: أتى رجل معاذ بن جبل ومعه أصحابه يسلمون عليه ويودعونه فقال: إني موصيك بأمرين إن حفظتهما حفظتَ: إنه لا غِنَى بك عن نصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا حتى ينتظمه لك انتظامًا فتزول به معك أينما زُلْتَ[1] .

وإنا لنجد معاذًا في هذه الوصية يشير إلى أمر مهم وهو تحديد الميزان الذي يزن به المسلم أعماله في هذه الحياة، فالإنسان لا بد له من المال الذي يقيم به شئون حياته فهو محتاج لأن يعمل لذلك، ولكن حاجته إلى الآخرة أعظم بكثير لأنها دار الخلود، فإن كان صاحب عقل سليم فإنه يجعل النظر إلى الآخرة حاكمًا على تصرفاته في الدنيا

---

(١) صفة الصفوة ٤٩٦/١ .

فيزن أعمال الدنيا بميزان الآخرة، ويصطحب هذا الميزان معه أينما سار، فيحميه بإذن الله تعالى من الزلل والتقصير في أمر الآخرة، وفي ذلك يقول معاذ: « فتزول به معك أينما زُلْتَ » وهذا يعتبر من أهم مجالات العصمة من الغفلة والخطأ.

هذا ومن وصايا معاذ الحكيمة قوله لأصحابه: ابتُلِيتُم بفتنة الضراء فصبرتم وستبتلون بفتنة السراء، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسوَّرْنَ الذهب ولَبِسْنَ رياط الشام وعصب اليمن - وهي أنواع فاخرة من اللباس - فأتعبْنَ الغنيَّ وكلَّفْنَ الفقير مالايجد [١].

وإن معاذًا بهذه الوصية يُذكِّر أصحابه بما ينتظرهم من خطر عظيم، وذلك بابتلائهم بفتنة السرَّاء، وهي تكون بتدفُّق النِّعم وكثرة الأموال، ويذكِّرهم بفتنة الضَّرَّاء التي تعرَّضوا لها وصبروا عليها حيث تعرَّض المسلمون في أول الإسلام للفقر الشديد والأذى من الكفار، وإن معاذًا في هذه المقارنة يُنَبِّه إلى أن فتنة السرَّاء أخطر حيث إن فتنة الضرَّاء يصاحبها الصبر مع توفر الإيمان كما يصاحبها قوة الأمل والرجاء بانكشاف الغمَّة وزوال النِّقمة، وإذا كانت أذًى من الكفار فإنه يصاحبها التحدِّي ممن وقعت عليه لمن أوقعها وذلك مما يدفع إلى الصبر عليها وتجاوز المحنة.

أما فتنة السرَّاء فإنما يصاحبها ولوع النفس بالتمتع بمباهج الحياة الدنيا وذلك يزيد من حجب العقول عن التأمل والتفكير بالمآل البعيد والانشغال بالحاضر الدنيوي عن المستقبل الأخروي.

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٩٧.

وإذا كان معاذ رضي الله عنه قال ذلك في عهده مع بساطة الحياة فكيف لو رأى ماأحدثه أهل الدنيا في هذا الزمن من تسابقٍ محموم في غزو أسواق المسلمين بأنواع من الملابس الفاتنة المرهقة للغني قبل الفقير بأثمانها الباهظة وسرعة تغير أنواعها، بحيث أصبحوا مع المستهلكين في سباقٍ ممقوت، والضحية في كل ذلك اقتصاد المسلمين العام الذي يجب أنً يوجَّه في مجالات الخير من غير إسراف ولا خيلاء، والمستفيد الأول من ذلك أعداء الإسلام الذين أثْروا وأفسدوا في الأرض من هذا السباق الذميم.

ولقد نبه رسول الله ﷺ إلى خطورة مواجهة الانفتاح الدنيوي بمثل قوله « فوالله لاالفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم » أخرجه الشيخان (١).

ونجد معاذًا رضي الله عنه يوصي تلامذته بلزوم الكتاب والسنة كما أخرج الإمام أبو داود من حديث الإمام الزهري أن أبا إدريس الخولاني عائذ الله أخبره أن يزيد بن عُمَيرة ـ وكان من أصحاب معاذ ابن جبل ـ أخبره قال: كان [أي معاذ] لا يجلس مجلسًا للذكر حين يجلس إلا قال : الله حكم قسط، هلك المرتابون، فقال معاذ بن جبل يومًا: إن من ورائكم فتنًا يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر،

(١) صحيح البخاري، رقم ٣١٥٨، كتاب الجزية (٦/ ٢٥٧) صحيح مسلم، كتاب الزهد، رقم ٦.

فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمتبعيَّ حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذِّرُكم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق.

قال ـ يعني يزيد بن عميرة ـ: قلت لمعاذ: وما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال لها ما هذه، ولايَثْنِيَنَّك ذلك عنه فإنه لعله أن يراجع، وتَلَقَّ الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً (١).

وقوله « ويفتح فيها القرآن » يعني والله أعلم لشيوع القراءة والكتابة وتوفر المصاحف في أيدي المسلمين، وهذا واضح في هذا العصر عصر المطابع والتسجيلات.

وقوله « فيوشك قائل أن يقول ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن » لعل ذلك لتوفر المصاحف في أيدي المسلمين وكثرة سماعه في المسجلات فينتج عن ذلك انحراف في اتجاه بعض الدعاة حيث يرى أن اشتغاله بكتاب الله تعالى لا يلفت النظر إليه فيبتدع أموراً جديدة يدعو الناس إليها على أنها من الإسلام.

وغني عن البيان أن سنةرسول الله ﷺ تعتبر بيانًا تفصيليًّا لكتاب الله تعالى، فدراستها أمر مطلوب كدراسة كتاب الله عز وجل، وإنما يقصد معاذ التحذير من الاشتغال بعلوم لاتدور في فلك الكتاب والسنة.

(١) سنن أبي داود، رقم ٤٦١١، كتاب السنة، باب لزوم السنة.

وقوله في آخـر كلامه « ولا يثنيك ذلك عنـه فإنه لعله أن يراجع وتلقَّ الحق إذا سمعته فإن على الحق نورًا » توجيه لنقطة مهمة وهي أن العالـم إذا أخطأ فإن هذا لا يعني أن العلمـاء وطلاب العلم يجتنـبونه ويرفضون الاستفادة مـنه، بل يؤخذ عنه ما وافق فيه الحق ويرفض منه ما خـالفه فيه، وعلى هـذا المنهج سار كبار العـلماء مما كان سببًا في حفظ ثروة علمية كبيرة لعلماء هذه الأمة.

ومن ذلك ماذكـره الإمام أبو الفرج ابن الجوزي من خـبر الحارث ابن عميـر قال: طُعِنَ معاذ وأبو عبـيدة وشرحبيل بـن حسنة وأبومالك الأشعري في يوم واحد [(١)]، فقال معاذ: إنه رحمة ربكم ودعوة نبيكم ﷺ وقبْض الصالحين من قبلكم، اللهم آت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة، فما أمسى حـتى طُعِنَ ابنه عبد الرحمن بِكْرُه الذي كان يكنى به وأحب الخلق إليه، فرجع من المسجد فوجده مكروبًا فقال: يا عبد الرحمن كـيف أنت؟ فقال: يا أبة ﴿ **الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٦٠] ـ فقال معاذ: وأنا إن شاء الله ستجدني من الصابرين، فـأمسكه لَيْلَتَـه ثم دفنه من الغد، فطُعِنَ مـعاذ فـقال حين اشتـد به نزع الموت ـ فنُزِع نَزْعًا لم يُنزَعـه أحد، وكان كلمـا أفاق من غمرةٍ فتح عينيه ثم قال: رب اخنقني خنقك، فوَعِزَّتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك [(٢)].

---

(١) أي أصيبوا بمرض الطاعون.

(٢) صفة الصفوة ١/ ٥٠٠، وأخرجه الإمـام أحمد وذكر نحوه ـ المسند ٥/ ٥٤٠ ، وذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه أحمد وروى الطبراني بعضه في الكبير ورجال أحمد ثقات وسنده متصل ، مجمع الزوائد ٢/ ٣١١.

في هذا الخبر بيان علم معاذ رضي الله عنه ويقينه وثباته عند المحن، فحينما وقع طاعون عمواس في الشام عام ثمانية عشر من الهجرة ضج بعض الناس وتألموا وأصابهم حزن وخوف من ذلك المرض الذي يؤدي غالبًا إلى الموت، فقام فيهم معاذ خطيبًا يبين لهم ما جاء عن رسول الله ﷺ في ذلك، حيث بين أنه رحمة من الله تعالى يقبض فيه من شاء من عباده المؤمنين ويثيب فيه الصابرين، المؤمنين بقضائه وقدره.

كما بين أنه دعوة رسول الله ﷺ لأمته، ويريد بذلك قوله ﷺ «اللهم اجعل فناء أمتي قتلاً في سبيلك بالطعن والطاعون» ذكره الإمام الهيثمي وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات(١).

والمراد بالطعن الاستشهاد على يد الأعداء.

وفي هذا الخبر مثل من التربية الدينية العالية حيث كان عبدالرحمن بن معاذ ـ وهو شاب صغير ـ على وعي بأمور الدين، فحينما سأله أبوه عن حاله أجاب بما يثبِّت قلب أبيه وهو الذي يعلم حب أبيه الشديد له، وكان جوابه من القرآن حيث تلا على أبيه قول الله تعالى﴿ **الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾[آل عمران: ٦٠].

إنه ـ وهو الصغير في سنه ـ لم يتضجر ولم يتألم ولم يخطر له مستقبله الدنيوي ببال، وإنما كان الذي تبادر إلى ذهنه الإشفاق على أبيه المحبِّ له أن يعتريه شيء من الجزع عليه.

---

(١) مجمع الزوائد ٢/ ٣١٢.

فكان الجواب المناسب من معاذ هو ما تضمنه قول الله تعالى حكاية عن إسماعيل عليه السلام ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وفي رواية الإمام أحمد أنه تلا عليه آخر هذه الآية.

وفي جواب الابن والأب مثل من العلم الراسخ واليقين الصادق، وتوجيه للمسلمين إلى السلوك العالي الذي ينبغي أن يتخلقوا به وأن يواجهوا به الشدائد والمصائب.

هذا وقد ذكر معاذ رضي الله عنه في تلك المناسبة حديث رسول الله ﷺ عن ذلك المرض بعينه حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ستُهاجرون إلى الشام فَيُفتَح لكم ويكون فيكم داء كالدمَّل أو الحزَة يأخذ بمَراقِّ الرجل يَستشهد الله به أنفسهم ويزكي به أعمالهم»، اللهم إن كنت تعلم أن معاذ بن جبل سمعه من رسول الله ﷺ فأعطه هو وأهلَ بيته الحظَّ الأوفر منه، فأصابهم الطاعون فلم يبق منهم أحد، فطُعن في إصبعه السبابة فكان يقول: ما يسرُّني أن لي بها حُمْرَ النَّعم. أخرجه الإمام أحمد (١).

وهكذا استجاب الله تعالى دعاء معاذ فأصابه من رحمته بذلك المرض الذي يرجو به نيل الشهادة، ولذلك فضَّل الإصابة به على نيل حُمْر النعم وهي الإبل وكانت أنفس الأموال عند العرب.

لقد خاض معاذ معارك فتح الشام، وخاض قبلها المعارك التي

---

(١) المسند ٥/ ٢٤١.

دارت بين المسلمين وأعدائهم في العهد النبوي وعهد أبي بكر رضي الله عنه فلم يُرزق الشهادة، فهو في هذا الدعاء يحرص على نيلها من طريق آخر.

إن معاذًا وأمثاله من العظماء قد قاموا بما في إمكانهم من الأعمال الصالحة، فلم يبق إلا أن يتعرضوا للبلاء ليثيبهم الله تعالى على الرضى بقدره وقضائه، والصبر على بلائه، وليمحو به خطاياهم، فلذلك كانوا يفرحون بإصابتهم بالأمراض، وأحيانًا يسألون الله تعالى ذلك.

ولقد استمر المرض بمعاذ حتى توفي رضي الله عنه، جاء في إحدى الروايات أنه لما حضره الموت قال: انظروا أصبحنا؟ قال: فأُتِي فقيل: لم نصبح، حتى أُتِي في بعض ذلك فقيل له: قد أصبحت، فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحبًا بالموت مرحبًا، زائرٌ مُغِبٌّ[يعني قليل الزيارة]جاء على فاقة، اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك لتعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لِكرْي الأنهار (١)ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذكر (٢).

فهذا الموقف يكشف لنا مظهرًا من مظاهر حب المؤمن لله عز وجل حيث لم يتضجر معاذ من غمرات الموت. وهو يعلم أنها من الله تعالى.

وإذا وصل القلب إلى حقيقة المحبة لم يَعُدْ للإنسان تعلق بالدنيا

---

(١) يعني لحَفْرها واستخراج طينها [النهاية مادة كرا].

(٢) صفة الصفوة ١/ ٥٠١.

لذاتها، وإنما يرغب في البقاء فيها ليواصل تقديم الأعمال الصالحة التي ترفع من رصيد حسناته يوم القيامة، فإذا قضى الله تعالى عليه الموت لم يفزع ولم يتضجر، وإنما يستقبل ما نزل به بشوق غامر للقاء الله جل وعلا، والتمتع بثمرات العمل الصالح الذي كان في حياته يَنْصَب له ويجتهد في استثمار وقته من أجله.

وإذا كان أهل الدنيا يرغبون في البقاءفيها لكسب الجاه والشرف والتمتع بمظاهر الحياةالرفيعة،فإن معاذ بن جبل لم يرغب فيها إلاللسبق في الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وتعلم علم وذكر ونحو ذلك.

إن من أهم أسباب الفزع من الموت أن يعيش الإنسان لدنياه أكثر من آخرته، فهو لايريد الموت لأنه يقطع عليه الفرصة في استثمار عمله الطويل، الذي أراد به الوصول إلى مستوى رفيع في كسب الدنيا والتمتع بأمجادها.

أما الذي كان عمله الأغلب من أجل الآخرة فإنه يكون في شوق إلى حصاد زرعه وقطف ثماره، وذلك لا يكون إلا بعد الموت، فلذلك كان شوق معاذ إلى لقاء الله تعالى وترحيبه بالموت، وبيان أن ما يشعر بفقده من الدنيا هو تقديم المزيد من العمل الصالح الذي يرضي عنه ربه جل وعلا، ويرفع من درجاته يوم القيامة.

من مواقف الزبير بن العوام رضي الله عنه:

من ذلك ما ذكره الإمام الذهبي من خبر هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه قال بعد أن ذكر شيئًا من وصية أبيه: فجعل يوصيني بِدَيْنه ويقول: يا بني إن

عجزْتَ عن شيء منه فاستعن بمولاي، قال: فوالله ما دريت ما عَنَى حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله عز وجل.

وهذا مثل من أمثلة اليقين الراسخ والإيمان القوي الذي ترتب عليه صدق التوكل على الله جل وعلا، واللجوء إليه في قضاء الحوائج وكشف الكربات.

فالمؤمن الحق يعتقد جازمًا بأن كل شيء بيد الله جل وعلا، فإذا وقع في ضائقة وكرب فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه تصور وجود الله تعالى وهيمنته على كل شيء، وأن المخلوقين الذين يُشكِّلون طرفًا آخر في قضيته إنما هم في قبضة الباري جل وعلا وأن قلوبهم بيده سبحانه يصرفها كيف يشاء، فيلجأ إليه قبل كل شيء ويسأله قضاء حاجته وتفريج كربته، ثم يقوم بعمل الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها موصلة إلى النتائج المطلوبة، مع الاعتقاد بأنها مجرد أسباب وأن الفاعل والمقدِّر هو الله تعالى، وأنه قادر على أن ينزع من الأسباب قوة التأثير فلا تؤدي إلى نتائجها المعروفة.

ولقد قام عبد الله بن الزبير بذلك فلجأ إلى مولاه جل وعلا بصدق، كما جاء في قوله في هذه الرواية « فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه، فيقضيه ».

ثم ذكر أن الزبير قُتِل ولم يَدَعْ دينارًا ولا درهمًا، وأن ديونه قد بلغت ألفي ألف، ومئتي ألف، وذكر أنه باع ملك أبيه في الغابة بألف ألف وستمائة ألف وكان الزبير قد اشتراها بسبعين ومائة ألف [1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٦٥.

وهكذا قام عبد الله بفعل الأسباب بعدما لجأ إلى الله تعالى، فبارك سبحانه بتلك الأرض حيث باعها بما يقارب عشرة أضعاف قيمة شرائها وسدد منها أكثر ديون أبيه.

إن المؤمن حينما يعيش هذه العقيدة الحية المؤثرة على مشاعره وسلوكه فإنما يمارس أنواعًا من العبادات، حيث ينتظر الفرج من الله تعالى، وقد قال رسول الله ﷺ: « وأفضل العبادة انتظار الفرج »(١) ويقوم بدعاء الله سبحانه وقد جاء عن رسول الله ﷺ: « الدعاء هو العبادة » (٢) ويباشر فعل الأسباب التي شرعها الله جل وعلا بدافع من إيمانه ومصاحبة الرجاء بأن تكون نافعة ومؤثرة بإذن الله تعالى، وتلك عبادة وعمل صالح.

من مواقف عمرو بن العاص رضي الله عنه:

مما روي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه من الحِكَم الجيدة قوله: لا أَمَلُّ ثوبي ما وسعني، ولا أَمَلُّ زوجتي ما أحسنت عشرتي، ولا أَمَلُّ دابتي ما حملتني، إن المَلال من سيء الأخلاق(٣).

وقول عمرو هذا بيان لخلق سيء وهو الملال والسآمة من الشيء من غير مسوِّغ معقول، فما دام الشيء يقوم بمهمته المطلوبة منه من غير إخلال فمِنْ ضعف التفكير أن يُستغنى عنه وأن يُستبدل بغيره، فإن ذلك بالنسبة لبني الإنسان كالزوجات والأصدقاء يعتبر من الجفاء وعدم

---

(١) سنن الترمذي، رقم ٣٥٧١، الدعوات (٥/ ٥٦٥).

(٢) مسند أحمد ٤/ ٢٦٧/ سنن الترمذي، رقم ٤٠٤٩، سنن ابن ماجة رقم ٣٨٢٨.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٧.

الوفاء، وبالنسبة للممتلكات يعتبر من الإسراف والتبذير.

وذكر الإمام الذهبي من خبر قبيصة بن جابر قال: قد صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين أو أنصع رأيا، ولا أكرم جليسا منه، ولا أشبه سريرة بعلانية منه [1] .

ففي هذا الخبر يصف قبيصة رحمه الله عمرو بن العاص رضي الله عنه بالصراحة في القول والوضوح في الرأي ، ومشابهة السريرة بالعلانية، والظاهر بالباطن ، وعدم التلون والغموض .

ولاشك أن الصراحة والوضوح خلق كريم يجعل الناس يطمئنون إلى صاحبه ، ويأمنون غوائله، ويفضون إليه بأسرارهم ويستشيرونه في أمورهم .

وخلق الصراحة والوضوح يقوم على صفاء النفس وخلاصها من أوضار الغل والحسد ، فإذا خلا القلب من النوايا السيئة كان هناك تواؤم وانسجام بين الظاهر والباطن ، فأصبح ما يعلنه الإنسان موافقا لما يسِرُّ به ، ويكون الفكر متجها اتجاها واحدا نحو الخير، أما إذا كان القلبَ معمورا بالنوايا السيئة فإن الفكر يكون موزعا بين تلبية نداء القلب في الاتجاه نحو الشر ، وبين محاولة إرضاء الناس بالتظاهر بالخير وسلوك مناهجه .

ومهما أخفى الإنسان من الاتجاه نحو الأخلاق السيئة فإنها تظهر غالبا في تعبيرات وجهه وفلتات لسانه ، كما قال الشاعر :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٧ .

ومهما تكن عند امرئ مــن خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

ومن الأقوال التي قيلــت في عمرو بن العاص مارُوي عن مــحمد ابن سلاَّم الجمحي قال: كــان عمر إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه قال: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد [1].

وقول عــمر بــن الخطاب هذا كلام بليغ يدل على مــدى إعجــابه بفصاحة عمرو بن العاص وبلاغته.

ونظرا لفصاحته ودهائه كان سفيرًا لقريش لدى الأمم الأخرى.

ولما أسلم سخَّر فــصاحته ودهاءه لخدمــة الإسلام، فكان ذا نجاح باهر في محاورة زعماء الدول التي تقدم لفتح بلادها.

من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

من الوصايا النافعة المروية عن الصحابة رضي الله عنهم ما رُوي عن الليث بن ســعــد قال: كــتب رجل إلى ابن عــمر أن اكــتب إليَّ بالعلم كله، فكتب إليــه: إن العلم كثــير ولكن إن اســتطعت أن تَلْقَى الله تعالى خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم، فافعل[2].

فقد ذكر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في هذه الوصية ثلاثة أمور مهمة: الأول: الــتورع عن دماء المسلمين؛ وذلك لأن قتل المسلم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٢٢.

عمدًا من أكبر الكبائر، وقد جاء الوعيد الشديد لمرتكبه كما في قول الله تعالى ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٣].

الثاني: التورع عن أموالهم، وهذا يشمل اجتناب جميع المعاملات المالية المحرمة كالربا وما اشتمل على غش أو كذب، وكذلك الشبهات التي هي بين الحلال والحرام، واجتناب الاعتداء على أموال الناس بالسرقة والنهب ونحو ذلك.

الثالث: كَفُّ اللسان عن أعراض المسلمين، وهذا هو ملاك الدين كما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وذلك في قول رسول الله ﷺ « ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: كُفَّ عليك هذا » (١).

الرابع: لزوم جماعة المسلمين، وهذا يعني الحفاظ على جماعة المسلمين إذا كانت قائمة، وتجنب كل الأمور التي تؤدي إلى تفريقها، والعمل على إقامتها إن لم تكن موجودة.

من مواقف جندب بن عبد الله رضي الله عنه:

ومن هذه الوصايا النافعة ما روي عن يونس بن جبير قال: شيَّعنا جُندبًا - يعني ابن عبد الله البجلي - فقلت له: أوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله عز وجل، وأوصيكم بالقرآن فإنه نور بالليل المظلم، وهُدًى

---

(١) مسند أحمد ٢/٢٩١، سنن الترمذي، رقم ٢٦١٦، الإيمان (٥/ ١١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن ابن ماجة، رقم ٣٩٧٣، الفتن (٢/ ١٣١٤).

بالنهار، فاعملوا به على ما كان من جَهد وفاقة، فإن عرض بلاء فقدِّمْ مالك دون دينك، فإن تجاوز البلاء فقدِّم مالك ونفسك دون دينك، فإن المخروب من خرب دينه، والمسلوب من سُلب دينه، واعلم أنه لا فاقة مع الجنة ولا غنى بعد النار (١).

وقوله « فإن عرض بلاء فقدم مالك دون دينك، فإن تجاوز البلاء فقدم مالك ونفسك دون دينك » بيان لأهمية الدين، وأن المسلم يجب أن يشعر بأنه قضيتُه الكبرى في هذه الحياة، وأنه أعز شيء يجب عليه أن يتبناه وأن يدافع عنه بماله ثم بنفسه، وأن يعتقد بأن الدنيا يجب أن تكون مسخرة للآخرة، وأن الآخرة هي ميزان الغنى والفقر والسعادة والشقاء، فلا سعادة ولا غنى مع دخول النار، ولا شقاء ولا فقر مع دخول الجنة.

من مواقف سلمان رضي الله عنه وتوجيهاته :

من مواقفه رضي الله عنه في العلم والفقه في الدين ما رواه سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: أُوخِي بين سلمان وأبي الدرداء، فسكن أبو الدرداء الشام، وسكن سلمان الكوفة، وكتب أبوالدرداء إليه: سلام عليك أما بعد فإن الله رزقني بعدك مالاً وولدًا، ونزلت الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان: اعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد، ولكن الخير أن يعظم حلمك، وأن ينفعك علمك، وإن الأرض لاتَعْمل لأحد(٢) اعمل كأنك ترى(٣) واعدُدْ نفسك من الموتى(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٤.

ولا يُظن بأبي الدرداء وهو العالم الرباني أنه قد انخدع بالمال والولد والإقامة في الأرض المقدسة، وإنما كان يتحدث بنعمة الله عليه في ذلك، ولكن لشدة حساسية سلمان من جانب الاغترار بمظاهر الحياة الدنيا، والاتكال على شرف المكان قدَّم هذه الموعظة لأبي الدرداء مع علمه بفقهه وورعه من باب التذكير، وإذا كان مثل أبي الدرداء بحاجة إلى هذه الموعظة فكيف بمن هم دونه في العلم والورع بمراحل؟!

ومن ذلك ما أخرجه أبو نعيم بإسناده عن عبد الرحمن السُّلَمي عن سلمان رضي الله عنه: أنه تزوج امرأة من كندة، فبنى بها في بيتها، فلما كان ليلة البناء مشى معه أصحابه حتى أتى بيت امرأته، فلما بلغ البيت قال: ارجعوا آجركم الله ـ ولم يدخلهم عليها كما فعل السفهاء ـ(1) قال: فلما نظر إلى البيت والبيت مُنَجَّد(2) قال: أمحموم بيتكم أم تحوَّلت الكعبة في كندة؟، قالوا: ما بيتنا بمحموم ولا تحوَّلت الكعبة في كندة، فلم يدخل البيت حتى نُزع كل ستر في البيت غير ستر الباب، فلما دخل رأى متاعًا كثيرًا فقال: لمن هذا المتاع؟ قالوا: متاعك ومتاع امرأتك، قال: ما بهذا أوصاني خليلي ﷺ أوصاني

=(٢) يعني فلا يغرنك كونك في الأرض المقدسة.

(٣) يعني كأنك ترى الآخرة.

(٤) سير أعلام النبلاء ١/٥٤٨.

(١) هذا من كلام الراوي لـلتعريض بعادة كان يفعلها السفهاء ولعلها من عادات أهل الجاهلية سواء من العرب أو العجم، ولا ينتظر من رفقاء سلمان أن يكونوا كذلك.

(٢) يعني مكْسُوّاً بالقماش.

خليلي أن لا يكون متاعي من الدنيا إلا كزاد الراكب، ورأى خدمًا فقال: لمن هذا الخدم؟ فقالوا: خدمك وخدم امرأتك، فقال: ما بهذا أوصاني خليلي، أوصاني خليلي ﷺ أن لا أمسك إلا ما أَنكِح أو أُنكِح، فإن فعلت فبغين كان عليَّ مثل أوزارهن من غير أن يُنقص من أوزارهن من شيء.

ثم قال للنسوة اللاتي عند امرأته: هل أنتن مُخْرَجات عني مخليات بيني وبين امرأتي؟ قلن: نعم، فخرجن، فذهب إلى الباب حتى أجافه، وأرخى الستر، ثم جاء حتى جلس عند امرأته فمسح بناصيتها ودعا بالبركة، فقال لها: هل أنت مطيعتي في شيء آمرك به؟ قالت: جلستَ مجلس من يُطاع، قال: فإن خليلي ﷺ أوصاني إذا اجتمعت إلى أهلي أن أجتمع على طاعة الله عز وجل، فقام وقامت إلى المسجد [يعني مصلى البيت] فصليا ما بدا لهما، ثم خرجا، فقضى منها ما يقضي الرجل من امرأته، فلما أصبح غدا عليه أصحابه فقالوا: كيف وجدت أهلك؟ فأعرض عنهم، ثم أعادوا فأعرض عنهم، فقال: إنما جعل الله الستور والخدور والأبواب لِتُواري ما فيها، حَسْبُ امرىء منكم أن يسأل عما ظهر له، فأما ما غاب عنه فلا يسألنَّ عن ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « المتحدِّث عن ذلك كالحمارين يتسافدان في الطريق »(١).

في هذا الخبر نجد أن سلمان رضي الله عنه قد قام بواجبه في إنكار ذلك المنكر حيث اعتبر أن كسوة الجدران بالقماش من الإسراف

(١) حلية الأولياء ١/ ١٨٥، وانظر صفة الصفوة ١/ ٥٢٩.

المنكر، وقد وُفق في التمهيد للموضوع حينما قال: أبيتكم محموم أم تحولت الكعبة في كندة؟ فإن الذي يُكْسَى من البيوت تشريفًا وتقديسًا هو الكعبة وما عداها فإن كسوته نوع من الإسراف والتجاوز، وأما ذكر المحموم فهو نوع من التبكيت لهم ولكن بأسلوب جميل مهذب حيث شبه البيت المعتاد بالجسم الصحيح وشبه البيت المكسو بالجسم العليل الذي يحتاج إلى الأغطية لحمايته من عوارض الجو.

وكان لهذه المقدمة أثر واضح في إخلاد الجميع إلى السكون والتسليم حيث أزال سلمان تلك الستور ولم يعترض عليه أهل البيت.

وفي هذا التعبير الجميل دلالة على سعة إدراك سلمان وبلاغته بالرغم من أنه ليس من أصل عربي.

وإن هذا العمل الذي قام به سلمان يعتبر مثالاً لما كان الصحابة رضي الله عنهم يقومون به من إنكار المنكرات وإصلاح المجتمع، وإنكار المنكر كان وسيلة من وسائل التربية التي كان الصحابة يعتمدونها في توجيه التابعين، فإن كل من علم بهذه الحادثة سيعلم حكم الإسراف في المظاهر، وسيطمئن المعتدل ويقتصد المتجاوز، ويستقر أمر المسلمين على حياة الوسط، ولوأن سلمان دارَى أولئك القوم بالسكوت أو بتأجيل الإنكار عليهم لفهم الناس من سكوته إقرار ذلك.

ونجده في هذا الخبر رضي الله عنه يربِّي الناس على الزهد والاقتصاد حينما يذكِّرهم بوصية رسول الله ﷺ له بأن يكون متاعه من الدنيا كزاد الراكب، وهذا يعني التخفيف من المتاع كما يتخفف

المسافر، وهذا تشبيه بليغ من رسول الله ﷺ حيث شبه الدنيا في قِصَر مدتها وسرعة زوالها برحلة سفر، فكما أن المسافر يقتصد في متاعه لأنه في رحلة محدودة فكذلك المسلم يوصَى بالاقتصاد في متاع الدنيا لأن رحلة الحياة فيها قصيرة محدودة.

وفي قوله حينما رأى كثرة الخادمات «أوصاني خليلي ﷺ أن لا أمسك إلا مَا أنكِحَ أو أُنْكِح ـ يعني ما أتزوجها أو أزوجها غيري ـ فإن فعلت ـ يعني أبقيت منهن ما سوى ذلك ـ فبغين ـ يعني وقعن في الفاحشة ـ كان علي مثل أوزارهن من غير أن ينقص من أوزارهن شيء» في ذلك توجيه إلى التورع عن استخدام الخادمات لأن راعي البيت مسئول عنهن، فإذا حصل منهن تقصير في واجب من واجبات الدين أو انحراف نحو معصية فإنه يُحاسَب على ذلك، فلماذا يوقع الإنسان نفسه في هذه المسئولية وهو غني عنها ؟

هذا وإن سلوك سلمان رضي الله عنه ليلة زواجه سلوك المؤمن الحاضر القلب مع الله تعالى حيث قام هو وامرأته لصلاة الليل وهكذا يكون المؤمن مع الله تعالى دائمًا، بحيث لا يفارقه شعوره بعلم الله تعالى واطلاعه عليه في أي لحظة من حياته، وإنَّ استشعار رقابة الله عز وجل له الأثر البالغ في تقوية الإيمان ودفع المسلم إلى التقوى.

وفي إنكاره على من سأله عن أحواله الخاصة مع أهله مثال لاهتمام الصحابة رضي الله عنهم بالآداب الإسلامية وحرصهم على تأديب الناس بها حتى يبقى المسلم في مستوى من الطهر والسلامة من الأذى والكف عما لا يعنيه.

وهو مثال من التربية الأسرية العالية، فما يدور بين الزوجين من

خصوصيات لا يجوز أن يطلع عليه أحد، ولا يجوز لأحد أن يسأل أحدهما عن شيء من ذلك ولو كان من أقرب الأقربين كالوالدين ولا يجوز لأحد الزوجين أن يفضي بسرهما لأحد.

وفي التشبيه الذي ذكره سلمان ورواه عن رسول الله ﷺ تنفير شديد من إفشاء هذا السر وكشف الستر الذي منَّ الله تعالى على الزوجين به.

ومن كلامه البليغ رضي الله عنه قوله في بيان علاقة القلب بالجسد: مثل القلب والجسد مثل أعمى ومقعد، قال المقعد: إني أرى تمرة ولا أستطيع أن أقوم إليها فاحملني، فحمله فأكل وأطعمه(١).

فهذا المثل مكون من مشبه ومشبه به فلنبين المشبه به حتى يتبين المشبه، فالمشبه به رجلان أحدهما أعمى سليم الجسم والآخر مقعد سليم البصر، وأمامهما تمرة، فالأعمى لايبصر التمرة حتى يستفيد منها والمقعد يبصرها ولكن لاسبيل له إلى الوصول إليها ففكر المقعد في طريقة الاستفادة منها فقال للأعمى: احملني إليها فحمله فأخذها وأكلا جميعًا.

أما المشبه فهو الجسد والقلب، فالجسد يشبه الرجل الأعمى لأنه لايبصر طريقه ولايصل إلى ما يريد بمفرده، والقلب يشبه الرجل المقعد لأنه يبصر بالعقل ولكنه يحتاج إلى جسد يحمله حتى يستطيع تنفيذ مايفكر فيه .

فإذا أراد الإنسان القيام بعمل صالح أو طالح فإن العقل يأمر الجسد بحَمْله حتى يتم القيام بذلك العمل من العقل والجسد، فالجسد

---

(١) صفة الصفوة ١/٥٤٧ .

مطيَّة العقل ، فإذا كان العقل سليما لم يحمل مطيته على المهالك ولم يُدخلها في الظلمات .

ومن هذه النماذج ماأخرجه الإمام أحمد من خبر أبي قلابة رضي الله عنه أن رجلا دخل على سلمان رضي الله عنه وهو يعجن فقال: ماهذا ؟ قال : بعثْنا الخادم في عمل فكرهنا أن نجمع عليه عملين. ثم قال : فلان يقرئك السلام ، قال : متى قدمت ؟ قال: منذ كذا وكذا، فقال : أما إنك لو لم تؤدها كانت أمانة لم تؤدها (1) .

وهذا مثال من تواضع هذه الصحابي الجليل فقد كلف نفسه بالعجن الذي هو عمل الخادم لأنه أرسله في مهمة أخرى ويكره أن يجمع له بين عملين رفقًا به،وبهذا الخلق الرفيع وصل الصحابة رضي الله عنهم إلى ماوصلوا إليه من العزة والتمكين في الأرض،واجتذبوا إليهم قلوب العباد وحببوا الإسلام إلى الناس،حيث ارتبطت هذه المكارم بهذا الدين .

وفي توجيه سلمان في نقل السلام إليه إشارة إلى عظم أداء الأمانة وأن إبلاغ السلام أمانة يؤاخذ على التقصير فيها من تهاون بها .

ويشبه هذا التوجيه مارواه الإمام الطبراني عن أبي البختري قال: جاء الأشعث بن قيس وجرير بن عبد الله البجلي إلى سلمان فدخلا عليه في خُصٍّ (2) في ناحية المدائن فأتياه فسلما عليه وحيياه، ثم قالا: أنت سلمان الفارسي ؟ قال:نعم قالا :أنت صاحب رسول اللهﷺ ؟ قال : لا أدري ، فارتابا وقالا : لعله ليس الذي نريد، قال

(1) صفوة الصفوة ١/ ٥٤١ .

(2) الخص البيت الصغير وهو في العراق يكون غالبا من القصب .

لهما: أنا صاحبكما الذي تريدان ، قد رأيت رسول الله ﷺ وجالسته، وإنما صاحبه من دخل معه الجنة، فما حاجتكما؟ قالا: جئناك من عند أخٍ لك في الشام، قال: من هو؟ قالا: أبو الدرداء، قال: فأين هديته التي أرسل بها معكما ؟ قالا: ماأرسل معنا بهدية، قال: اتقيا الله وأدِّيا الأمانة، ماجاء أحد من عنده إلا جاء معه بهدية، قالا: لاترفع علينا هذا إن لنا أموالا فاحتكم فيها، قال: ماأريد أموالكما ولكني أريد الهدية التي بعث بها معكما، قالا: والله مابعث معنا بشيء إلا أنه قال: إن فيكم رجلا كان رسول الله ﷺ إذا خلا به لم يَبْغِ أحدًا غيره، فإذا اتيتماه فأقرئاه مني السلام، قال: فأي هدية كنت أريد منكما غير هذه، وأي هدية أفضل من السلام ، تحية من عند الله مباركة طيبة (١) .

وذكره الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن إبراهيم المسعودي وهو ثقة (٢) .

ففي هذا الخبر تعظيم أمر الاهتمام بأداء السلام وإبلاغه إذا حمله الإنسان ، وفيه تواضع سلمان رضي الله عنه حيث لم يقطع بكونه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي كون جرير البجلي رضي الله عنه لايعرف سلمان رضي الله عنه غرابة حيث إنه وفد إلى المدينة في أواخر عهد النبي ﷺ ، فلعل سلمان كان غائبًا آنذاك ، ولعل كون سلمان يسكن في بيت صغير مع كونه أميرا على المدائن قبل ذلك مما زاد في جهل الرجلين به .

---

(١) المعجم الكبير رقم ٦٠٥٨ .

(٢) مجمع الزوائد ٨/ ٤١ .

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي البختري سعيد ابن فيروز قال: صحب سلمان رجل من بني عبس ليتعلم منه، فخرج معه فجعل لايستطيع أن يفضله في عمل، إن عجن جاء سلمان فخبز، وإن هيأ الرجل علفا للدواب ذهب سلمان فسقاها، حتى انتهوا إلى شط دجلة وهي تطفح، فقال سلمان للعبسي: انزل فاشرب، فنزل فشرب ، فقال له سلمان: ازدد، فازداد، فقال له سلمان: كم تراك نقصت منها ؟ فقال العبسي له: وماعسى أن أنقص منها، فقال سلمان: كذلك العلم تأخذ منه ولاينقص، فعليك بالعلم بما ينفعك.

قال: ثم عبر إلى نهر دن[1] فإذا الأكداس عليه من الحنطة والشعير فقال سلمان: ياأخا بني عبس أما ترى إلى الذي فتح خزائن هذه علينا كأن نراها ومحمد ﷺ حي؟ قال: فقلت: بلى، قال: فوالذي لا إله غيره لقد كانوا يمسون ويصبحون ومافيهم قفيز من قمح .

قال: ثم سرنا حتى انتهينا إلى جلولاء ، قال: فذكر مافتح الله تعالى عليهم وماأصابوا فيها من الذهب والفضة فقال: ياأخا بني عبس أما ترى إلى الذي فتح خزائن هذه علينا كأن نراها ومحمد ﷺ حي؟ قال: قلت : بلى ، قال: والذي لا إله غيره لقد كانوا يمسون ويصبحون ومافيهم دينار ولادرهم [2] .

في هذا الخبر مواقف تربوية عالية من سلمان الفارسي رضي الله عنه منها :

---

(١) فرع من نهر دجلة حفره كسرى أنوشروان .

(٢) صفة الصفوة ١/ ٥٤٤ - ٥٤٥ .

١ - قيامه بخدمة صاحبه في السفر الذي سافر معه ليخدمه مع كبر سنه، وهذا مثل مما كان الصحابة رضي الله عنهم يقومون به من المسارعة في خدمة إخوانهم، لأنهم يرون ذلك عملا صالحا يؤجرون عليه، فهم يتنافسون فيه ولايتدافعونه .

٢ - تشبيه العلم بالنهر الكبير الذي يؤخذ منه ولاينقص، ثم حثه صاحبه العبسي على تعلم العلم النافع، فلقد قدم لهذا التوجيه بضرب المثل بالنهر ليكون ذلك أوقع في نفسه، وليكون في ذكره لذلك المثل وتلك الحادثه مايذكره بوصية سلمان، فيستمر في طلب العلم، وهذا أسلوب تربوي ناجح .

٣ - تذكيره بنعم الله تعالى العظيمة، بفتح خزائن الأرض لهم من أطعمة وذهب وفضة ونفائس، وذلك بالمقارنة بين ذلك الوضع والوضع الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم في عهد رسول الله ﷺ من شح المعيشة وقلة المؤن، وذلك من أجل شكر الله جل وعلا في تلك النعم واجتناب حياة الإسراف والبطر، ولقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم مثلا عاليا في الزهد والاعتدال في الإنفاق مع ماحصل لهم من ذلك الانفتاح الدنيوي ، وإن في سيرتهم لعبرة لمن مرَّ عليهم التقلب بين حياة الفقر والغنى السريع .

من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه :

من ذلك ما ذكره الإمام ابن الجوزي من حديث أبي وائل رحمه الله قال قال أبو الدرداء : إني لآمركم بالأمر وماأفعله ولكن أرجو فيه

الأجر،وإن أبغض الناس إلي أن أظلمه مَنْ لايستعين عليَّ إلا بالله عز وجل (١) .

وقوله « إني لآمركم بالأمر ومـاأفعله ولكن أرجـو فيـه الأجر » يعني بذلك أفعال الخير التي هـي من باب النوافل ، وأفعال الخير هذه واسعة ، فقد لايملك الإنسان أسباب بعضـها ، فيتَّجه إلى مايملكه كما أرشد النبي ﷺ الفقراء إلى الأعمال الصالحة التي يقدرون عليها حينما قالوا ذهب أهل الدثور بالأجـور ، وقول أبي الدرداء من هذا النوع ، فقد يأمر بعتق المملوكين وليس لديه من يملكهم حتى يعتق، وقد يكون الإنسـان الداعيـة ضعـيف البدن لايسـتطيع الإكثـار من صيـام النفل فلايعني هذا أن يمتنع من تذكيـر الناس بذلك ، لأنه يؤجر على العمل الصالح إذا عمل ويؤجر على الدعوة إذا ذكَّر المسلمين .

وقوله « وإنَّ أبغض الـناس إليَّ أن أظلمه من لايسـتعين عليَّ إلا بالله عز وجل » فقه بليغ لمصائر الأعمـال ونتائجها الأخروية ، فالذي يستعين على ظالمه بالناس قد يأخذ حقه في الدنيا ، وهذا يخفف على الظالم كـثيـرا من الحسـاب يوم القـيامـة ، فظلم هذا أهون من ظلم المستضعفين ، أو الذين يترفعون عن الشكوى لأن هؤلاء يوافون الظالم يوم القيامة بحقهم الكامل فيـشتد حسابه ويُلزَم بتعويض المظلومين من حسنـاته، فإن وفَّتْ وإلا أُخذ مـن سيئـاتهم فطُرِحَتْ عليـه، ثم ماذا سيكون مصير هذا المنكوب الَذي أُخذت حسناته وَضوعفت سيئاته ؟!

وهذا هو الذي حكم عليـه رسول الله ﷺ بالإفـلاس الحقـيقي،

---

(١) صفة الصفوة ٦٢٨/١ ، وأخرج الحافظ أبو نعيم آخره - حلية الأولياء٢٢١/١، وأبو الدرداء هو عويمر بن زيد الأنصاري رضي الله عنه .

وذلك في قوله « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولامتاع ، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيُعطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيَتْ حسناته قبل أن يُقضَى ماعليه أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار » .

أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [1] .

إن التفكير في هذه النتائج من الفقه في الدين المبني على النظر الصحيح لمنزلة الدنيا ومنزلة الآخرة .

فيا خسارة من نظر إلى دنياه فأتقنها وأحاطها بالقوة والحماية، وغفل عن آخرته فضيعها ولم تخطر له على بال وهو يمارس أعماله الدنيويه .

ويافلاح من استحضر الآخرة في قلبه قبل الإقدام على أي عمل وفي أثنائه حتى يحمي نفسه من الزلل ، ويُقَدِّم لآخرته صالح العمل!

وإذا كان من نَظَرٍ إلى الدنيا في هذا المجال فلينظر الظالم إلى عواقب الظلم في هذه الحياة فإن من أهم مواطن استجابة الدعاء أن يكون الداعي مظلوما كما جاء في قول رسول الله ﷺ « واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » [2] .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ٢٥٨١ ، كتاب البر .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الزكاة باب رقم ١٤٩٦ (٣/ ٣٥٧) ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان رقم ١٩ (ص ٥٠) .

وعن ابن أبي ليلى قال : كتب أبو الدرداء إلى مسلمة بن مُخَلَّد الأنصاري : أما بعد فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله ، فإذا أحبه الله حبَّبه إلى خلقه، وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله فإذا أبغضه الله بغَّضه إلى خلقه (١) .

وبعد : فإن هذا كلامٌ حكيم بُنِيَتْ فيه النتائج على مقدماتها الصحيحة ، فإن كون الإنسان محبوبا إلى الناس أمر مطلوب للجميع، وإن الإنسان إذا حاول أن يتحبب إلى الناس بوسائلهم المعروفة التي لاعلاقة لها بالثواب الأخروي ، فإن هذه الوسائل أشبه شيء بالتبادل التجاري ، وهي تقوم على تبادل المنافع وتكوِّن علاقة ضعيفة لاتصل إلى محبة القلب وسرعان ماتزول بزوال أسبابها التي لاتبقى طويلا غالبا ، وقد يعقبها البغض والتناحر .

أما المحبة القلبية التي تبقى في الدنيا والآخرة فهي التي تقوم على طاعة الله تعالى ونية التقرب إليه بالعمل الصالح فالذي يقدم الخدمات لأخوانه المساكين طاعة لله تعالى ورجاء لما عنده لايتوقف عمله على تبادل الخدمات معهم،بل يستمر في ذلك ولو لم يُقَدِّموا له أية خدمة، وهذا يكسبهم محبته من قلوبهم سواء قدروا على رد الجميل أو لم يقدروا على ذلك لثقتهم بأن عمله ليس مبنيا على التبادل التجاري.

وإذا كانت النفوس مجبولة على الرغبة في شعور الناس بمحبتها فإن أباالدرداء في هذه الوصية يرشدنا إلى طريق لهذه المحبة لانخسر فيه شيئا من أموالنا ولانحتاج فيه إلى منزلة وجاه،وإنمايقوم هذا الطريق

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٦٢٩ .

على قيـام العبد بطاعة الله تعـالى، فإذا أطاعه بفعل أوامـره واجتناب نواهيه كسب مـحبته، وإذا كـسب محبته سـخَّر سبحانـه قلوب العباد لمحبـة هذا العبـد، وإذا استقـرت هذه المحبة في قلـوب الناس ظهرت نتائجـها في الحيـاة الدنيا من الولاء والإجلال الذي يتـمناه أهل الدنيا مهما علت منزلتهم ولايستطيعون الوصول إليه بأموالهم ولابجاههم .

وبضد ذلك إذا وقع الـعبد في مـعصيـة الله تعالى فـإنه يبغـضه ويسخِّر قلوب العبـاد لبغضه ، فتظهر نتـائج هذا البغض في الدنيا من الاحتقار والصدود ، ثم لايستطيع أن يمحو هذا البغض بشيء من المال أو الجاه ولو ملك الدنيا بأسرها .

ومما روي عن أبي الدرداء رضـي الله عنه من الوصـايـا التـربوية ماجاء في قوله « أخوف ماأخـاف أن يقال لي يوم القيامة : أعَلِمْتَ أم جـهلت ؟ فإن قلت : علمـت لاتبقى آية آمـرة أو زاجرة إلا أُخِـذْتُ بفريضتـها الآمرة : هل ائتمرت ، والزاجرة : هل ازدجـرت ؟ فأعوذ بالله من علـم لاينفع ونفس لاتشـبع ودعـاء لايُسـمع . رواه الإمـام أحمد[(١)] .

فهـذا الخبـر يبين لنا ماكان يشـغل بال الصحـابة رضي الله عنهم حيث كان أبو الدرداء مع ورعه العظيم وعبادته التي هي مضرب المثل يخشى من الحـساب يوم القيامـة ! فكيف بمن ظلموا أنفسـهم وفرطوا كثيرا ونسوا يوم الحساب ؟!

والخبـر مع هذا بيـان لِعِظَم مسـئوليـة العلم ، وتنبيـه إلى المنهج

(١) حلية الأولياء ١/ ٢١٤ ، صفة الصفوة ١/ ٦٣٠ .

السليم في طلب العلم ، وهو أن يشعر طالب العلم أن العلم من أجل العمل ، فإذا لم يصاحبه العمل الذي هو تطبيق للعلم كان العلم وبالاً على صاحبه لأن حسابه يكون أشد من حساب مَنْ جَهِل .

إن التعلُّم من أجل العمل دليل على الإخلاص في طلب العلم، وإذا أخلص طالب العلم وابتغى في طلب العلم وجه الله تعالى بارك الله له في علمه وفي وقته .

ولقد كان بعض السلف يقولون : قيدوا العلم بالعمل ، وهذا يعني أن تطبيق العلم عمليا يُعتبر دراسة عميقة للعلم لأن تكرر العمل بالعلم يثبته في الذاكرة .

ويُحمل على هذا الباب مارُوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه بقي في حفظ سورة البقرة ثماني سنوات، حيث إنه ليس المراد حفظ ألفاظها فقط وإنما المراد مع ذلك فهم معانيها والعمل بما فيها من أحكام ووصايا ووعد ووعيد .

وكان هذا المنهج واضحا عند التابعين بما تلقَّوه عن الصحابة رضي الله عنهم وعلَّموه من بعدهم، كما جاء عن أبي عبد الرحمن السُّلمي أنه قال : حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن أنهم ماكانوا يتجاوزون عشر آيات حتى يعملوا بها ، قال : فتعلمنا العلم والعمل .

ومن ذلك مارواه راشد بن سعد أن رجلا أتى أبا الدرداء فقال له: أوصني ، فقال له : اذكر الله عز وجل في السَّرَّاء يذكرك في الضَّرَّاء، وإذا ذكرت الموتَى فاجعل نفسك كأحدهم ، وإذا أشرفَتْ نفسك على

شيء من الدنيا فانظر إلى ما يصير (١) .

هذا الخبر اشتمل على ثلاث وصايا :

الأولى : قوله « اذكر الله في السَّرَّاء يذكرك في الضَّرَّاء » وهو مأخوذ من قول رسول الله ﷺ « تعرَّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة» (٢) فالذي لايعرف الله تعالى ولايذكره إلا في الشدة إنما لاحظ مصلحة خاصة بدفع الضرر الذي نزل به ولم يقدِّر الله تعالى حق قدره ولم يعظِّمه حق تعظيمه لأنه في وقت الرخاء كان غافلاً عن ذكره، وهؤلاء يشبهون من هذا الجانب المشركين الذين قال الله تعالى عنهم ﴿ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣] ووجه الشبه هو التعرف على الله تعالى في الشدة ونسيانه في الرخاء، وإن كان المسلم يختلف عن المشرك في أمور جوهرية وهي التوحيد والإيمان والعمل الصالح، لكن قد يلتقي المسلم المقصر مع المشرك في بعض المخالفات .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٥٠ .

صفة الصفوة ١/٦٢٩ .

(٢) مسند أحمد ١/٣٠٧ .

هذا وإنَّ المقصود من الـذكر أن تستقر عظمـة الله تعالى في قلب المؤمن ، وكلما بالغ في الـذكر زادت عظمة الله في قلبـه حتى يمتلئ قلبه تعظيما لله جل وعلا ، ولـذلك فإنَّ الذكر اللساني وحده لاينفع مالم يصاحبه حضور القلب وشعوره بعظمة الله جل وعلا .

فإذا كان القلب معمورا بحبه تعالى وتعظيمه على مدار الأيام كان قـريبا منه جل وعـلا وأصـبح العبـد أهلاً لأن يظفـر بنصره وتأييـده ومعونته ، فإذا دعاه في شدته كان قريبا منه فأجاب دعوته .

وإن أخبار عباد الله الصالحين الذيـن استجاب الله تعالى دعاءهم في الشدائد والذين حماهم من السوء والمكروه كثيرة مشهورة .

ومن أبرز تلك الأخبار إنقاذ الله تعالى يونس عليه السلام لما دعاه من بطن الحـوت ، كمـا أخرج ابن أبي حـاتم وغيـره من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه يـرفعه أن يونس عليه السـلام لما دعا في بطن الحـوت قالت الملائكة : يارب هذا صـوت معـروف من بلاد غريبة، فـقال الله عز وجل : أما تعـرفون ذلك ؟ قالوا : ومن هو ؟ قال: عبدي يونس ، قـالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبَّل ودعوة مستجابة ؟ قال : نعم ، قالوا : يارب أفلا ترحم ماكان يصنع في الرخـاء فتنجـيه من البـلاء ؟ قال: بلى ، قـال: فأمـر الله الحوت فطرحه بالعراء [1] .

وهكذا كان عمل يونس عليه السلام ودعـاؤه في الرخاء شافعا له عند وقوع البلاء .

---

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٤٧٤ .

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه في هذا المعنى : إذا كان الرجل دعَّاء في السَّرَّاء فنزلت به ضرَّاء فدعا الله تعالى قالت الملائكة- عليهم السلام - :صوت معروف فشفعوا له ، وإذا كان ليس بدعَّاء في السراء فنزلت به ضراء ، فدعا الله تعالى قالت الملائكة : صوت ليس بمعروف فلا يشفعون له (١) .

وهذا يبين لنا أن دعاء العبد ربه في السراء يكسبه القرب من الله تعالى إلى جانب حظوته بشفاعة الملائكة عليهم السلام ، وأعْظِمْ بذلك من مطلب !

بل إن الله تعالى يحفظ عباده الصالحين من الأذى بإيمانهم وعملهم الصالح كما جرى لأبي عبد الرحمن سفينة مولى رسول الله ﷺ وذلك فيما أخرجه الإمام الطبراني من حديث محمد بن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال : ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها فركبت لوحا من ألواحها فطرحني اللوح في أجَمة فيها الأسد فأقبل إليَّ يريدني فقلت : ياأبا الحارث أنا مولى رسول الله ﷺ فطأطأ رأسه وأقبل إليَّ فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق ، وهَمْهَم ، فظننت أنه يودعني فكان ذلك آخر عهدي به .

وأخرجه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي (٢) .

---

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٤٧٥ .

(٢) معجم الطبراني الكبير ٧/ ٩٤ رقم ٦٤٣٢ ، المستدرك ٣/ ٦٠٦ .

وهذا يدل على قوة توحيد سفينة رضي الله عنه حيث شعر حال رؤيته الأسد بأنه هو وإياه في قبضة الله تعالى ، وأنه جل وعلا الذي أودع في الأسد القوة والشراسة باستطاعته أن يحوِّله حَمَلاً وديعا يتذلل لذلك الرجل الصالح ، بل أبلغ من ذلك أن الأسد قام بما يقوم به الإنسان العاقل من دلالة سفينة على الطريق الموصل إلى الأمان .

ولقد كان أول ماتبادر إلى ذهن سفينة رضي الله عنه قربه من رسول الله ﷺ وماقام به من خدمته فتوسل إلى الله تعالى بهذا العمل الصالح كي يحميه من ذلك الأسد، فحماه منه وسخره للقيام بخدمته.

وهذه كرامة عظيمة أكرم الله تعالى بها ذلك الولي الصالح، وهي إلى جانب ذلك إبراز لعظيم حق النبي ﷺ ، الذي يتمثل بعد لحاقه بالرفيق الأعلى بإحياء سنته والتقيد التام بأوامره ونواهيه، ومن ذلك محبته وكثرةُ الصلاة والسلام عليه .

وأخبار الصحابة ومن بعدهم من الصالحين في ذلك كثيرة، فمن ذلك ماتقدم ذكره في عرض الأحداث التاريخية من كرامات الصحابة رضي الله عنهم كإخراج الماء لهم من جوف الصحراء وسيرهم بدوابهم فوق البحار والأنهار .

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن رجب قال : ولما هرب الحسن - يعني البصري - من الحَجَّاج - يعني ابن يوسف الثقفي - دخل إلى بيت حبيب أبي محمد فقال له حبيب : ياأبا سعيد أليس بينك وبين ربك ماتدعوه فيسترك من هؤلاء ؟ ادخل البيت ، فدخل، ودخل

الشُّرَطُ على إثره فلم يروه ، فذُكِر ذلك للحجاج فقال : بل كان في البيت إلا أن الله طمس أعينهم فلم يروه (١) .

وإذا كانت الدنيا مملوءة بالنكبات والشدائد فإن أعظم من ذلك شدائد الموت ومابعده ، فإذا كان العبد في حال صحته ورخائه قد استعد لذلك بالعمل الصالح فإن الله جل وعلا يهوِّن عليه تلك الشدائد ويَلْقى الله تعالى وهو عنه راض .

والوصية الثانية قوله « وإذا ذكرت الموتى فاجعل نفسك كأحدهم» فهو بهذا يذكِّر بأن الحياة الدنيا ليست دار خلود وأن الإنسان ميت مهما طالت حياته ، وإذا كان لابد من الموت مع الاعتقاد بالحياة الآخرة الخالدة في النعيم المقيم أو العذاب المقيم فإن الذي يهتم بمستقبله الحقيقي هو الذي يذكر الموت دائما ، ويعتبر نفسه مقبلا على هذا المصير في أيَّة لحظة ، كما جاء في وصية رسول الله ﷺ « وليذكر الموت والبِلَى » (٢) وقوله « أكثروا ذكر هاذم اللذات » (٣) .

أما الوصية الثالثة وهي قوله « وإذا أشرفَتْ نفسك على شيء من الدنيا فانظر إلى مايصير » فإنها توجيه بليغ في علاج تطلُّع النفس لمظاهر الدنيا من مساكن ومراكب وأثاث ،فإن الدنيا ومافيها مصيرها إلى الزوال ، وكل متعة من مُتَع الدنيا لها أمد محدود ، ولايبقى لها

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٤٧٤ .

(٢) مسند أحمد ١/ ٣٨٧ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب رقم ٤ ، سنن النسائي ، كتاب الجنائز باب رقم٣، مسند أحمد ٢/ ٢٩٣ .

أثر في الآخرةإلاماصاحبه نيةالتقرب إلى الله جل وعلا ولم يشتمل على إثم.

فحاصل هذه الوصية أن المسلم العاقل هو الذي ينظر إلى العاقبة ومايصير إليه الشيء ، فإن كان يزول ولايبقى له أثر في الآخرة فلا ينبغي للعاقل أن يشغل نفسه به .

ومن مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه التربوية ماأخرجه الإمام أحمد من حديث ثابت البناني قال: خطب يزيد بن معاوية إلى أبي الدرداء ابنته الدرداء ،فردَّه ،فقال رجل من جلساء يزيد : أصلحك الله تأذن لي أن أتزوجها ؟ قال:اغْرُبْ ويلك، قال: فأْذَنْ لي أصلحك الله، قال:نعم، قال:فخطبها، فأنكحها أبو الدرداء الرجل ، قال:فسار ذلك في الناس:أن يزيد خطب إلى أبي الدرداء فرده ، وخطب إليه رجل من ضعفاء المسلمين فأنكحه،قال فقال أبو الدرداء : إني نظرت للدرداء،ماظنكم بالدرداء إذا قامت على رأسها الخصْيان ، ونظَرَتْ في بيوت يلتمع فيها بصرها، أين دينها منها يومئذ ؟(١) .

وهكذا خطب يزيد بن معاوية بنت أبي الدرداء رضي الله عنه وكان معاوية رضي الله عنه آنذاك أميراً على الشام ، فرفض أبو الدرداء أن يزوجه بها ، وعلل ذلك بالخوف على دينها أن تفتن بما ترى من مظاهر الدنيا ، وكان يزيد متوسعا في هذه المظاهر .

ثم خطب ابنته رجل فقير فزوجه إياها ، وبهذا حمى هذا الرجل الصالح ابنته من فتنة الدنيا .

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢١٥ ، صفة الصفوة ١/ ٦٣٣ .

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يبعد نفسه وأسرته عن مواقع الفتن، وأن لاينخدع بإيمانه أو إيمان أفراد أسرته ، فيخوض بهم مواقع الفتن بحجة أن لديهم حصانة إيمانية، فإن الوقاية خير من العلاج ، والفتن كالمرض لايختاره المسلم اختيارًا ولكن إذا أصابه رضي بقضاء الله وقدره وصبر على ماأصابه، فكذلك الفتن لايختار المسلم الواعي خوض غمارها حتى لايهلك في أُتُونها المحرق، وإنما إذا وقع بها اضطرارًا اعتصم بإيمانه بالله تعالى، واعتمد عليه سبحانه في الخروج من مآزقها .

ويشبه ذلك في هذه الأيام السفر بالأُسر إلى بلاد الكفار مع مافيها من انحلال وفساد عريض فإن ذلك من اختيار الوقوع في الفتنة، وقد ينجو منها خائضها وقد يقع في حبائلها، فالورع والعصمة في البعد عن الفتن والاقتصار على السفر إلى بلاد المسلمين التي يتميز أهلها بالحشمة والعفاف ولاتسود فيها المنكرات الظاهرة، حماية للدين الذي هو أهم شيء في هذه الحياة .

ولقد سنَّ أبو الدرداء بذلك سنة حسنة لمن بعده حيث أحجم عن تزويج أبناء الأمراء وزوَّج ابنته رجلا فقيرا ، وقد طبق ذلك سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى حينما خطب الخليفة عبد الملك بن مروان ابنته لابنه الوليد فأبى وزوجها أحد تلامذته الفقراء كما سيأتي .

وإن ماعمله أبو الدرداء يعتبر مثلا عاليا في الزهد في الدنيا والبعد عن مظاهرها ، وهو مبني على عمق النظر إلى الآخرة، وضآلة النظر إلى الدنيا ، وكم سارع المخدوعون بمظاهر الدنيا إلى الترحيب بمثل هذا العرض، واعتبروه فرصة لاتعوض ورفعا لمكانتهم الاجتماعية،

ومبعثُ ذلك هو النظر إلى الدنيا والغفلة عن حماية الدين .

فليعتبر المؤمنون بقصص أولئك الصالحين من الصحابة رضي الله عنهم ومن تأسى بهم .

ونجد أباالدرداء رضي الله عنه في أثر آخر يلفت الأنظار إلى لزوم تجريد القلب من الهوى المنحرف حيث يقول : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله ، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح (١) .

وهو يشير بهذا إلى أن القلب هو المحرك الذي يحرك الجسم للعمل، والقلب يتحرك بالمعتقدات التي تهيمن عليه، فإن كان الذي يهيمن على القلب هو الإيمان بالله تعالى فإنه يتجرد من الهوى، ويصبح الهوى تابعا لنداء الإيمان، وبالتالي يكون العمل الصالح ،لأنه يتحرك بذلك الإيمان ، وقد عبر أبو الدرداء عن الإيمان بالعمل ، لأنه يقوم عليه، ولأن العمل هو الظاهر البارز للعيان فإذا كان العمل المشروع تابعا للإيمان فهو عمل صالح . وإذا كان تابعًا للهوى المضاد للإيمان فهو عمل طالح .

فمن اجتمع هواه في يومه مع عمله الصالح بحيث يكون هواه تبعا لعمله فيومه يوم سعادة وصلاح ، ومن كان عمله تابعا لهواه المنحرف فيومه يوم سوء وفساد .

وبالتالي فإن المحكَّم في حياة المسلم هو تنفيذ التكاليف الشرعية التي أمره الله تعالى بها وإن خالفت هواه .

---

(١) صفة الصفوة ٦٣٦/١ .

ومن وصايا أبي الدرداء رضي الله عنه المفيدة ماجاء في قوله : تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة ، رواه الإمام أحمد من حديث سالم بن أبي الجعد ، وقد كان مطبقا لذلك كما روي من حديث عون بن عبدالله قال : سُئِلَتْ أم الدرداء : ماكان أفضل عمل أبي الدرداء ؟ قالت : التفكر والاعتبار (١) .

وإنما كان التفكر والاعتبار من أفضل الأعمال لأنه لابد أن يصاحبه حضور القلب مع الله تعالى ، وهذا هو الذكر القلبي الذي هو روح جميع العبادات ، فالذي ينظر في مخلوقات الله العظيمة ويتأمل في دقة تكوينها وحسن نظامها ، ومايترتب من النكبات الكبرى لواختل نظام الكون قيد شعرة ، ثم يتأمل في القوة العظمى التي تمسك بنظام الكون . . الذي يفكر هذا التفكير يتقوى إيمانه ويعظم يقينه، ويخشى الله تعالى عن علم وبصيرة لأنه يكون من العلماء بالله تعالى الذين قال فيهم جل وعلا ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ [فاطر: ٢٨] فالذين يشغلون فكرهم فيما يقربهم من رضوان الله تعالى، كالتفكير في عظمة ودقة مخلوقاته سبحانه، والتفكير في أمور الآخرة ومابعد الموت تعظيما وإجلالا ، والتفكير في متاع الحياة الدنيا تحقيرا وإقلالا . . الذين يفكرون بذلك يُعتبرون من العُبَّاد الذين يقدِّمون لأنفسهم عملا صالحا .

وإذا دخل في هذا الأمر الرغبة في هداية الناس عن طريق تفسير النصوص الشرعية بما يلائمها من اكتشافات العلوم التجريبية من غير

---

(١) صفة الصفوة ٦٢٨/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٤٨/٢ .

تعسف ولامغالاة ، فإن من قام بذلك يكون قد قام بالعبادة الخاصة بالتأمل والتفكر إلى جانب قيامه بالدعوة إلى الله تعالي، وماأعظم ذلك من عمل صالح !

هذا ولعل تفضيل أبي الدرداء التفكر على صلاة النفل من ناحية أن حضور القلب مضمون في التفكير لأنه لايكون إلا به بخلاف الصلاة فقد تتم بكاملها بدون حضور قلب، وقد كانوا يهتمون بالعمل الذي يرتفع به مستوى إيمانهم ويعلو به يقينهم وإنما يكون ذلك بعمل القلب بالدرجة الأولى الذي يعتمد على حضور القلب مع الله تعالى واستشعار عظمته وجلاله .

ومماجاءعن أبي الدرداء رضي الله عنه في ذلك مارواه عبدالرحمن ابن محمد المحاربي قال :بلغني أن أبا الدرداء كتب إلى أخٍ له:أما بعد فلستَ في شيء من أمر الدنيا إلا وقد كان له أهلٌ قبلك وهو صائر له أهلٌ بعدك، وليس لك منه إلا ماقدمت لنفسك فآثْرها على المُصلَح من ولدك ، فإنك تَقْدَم على من لايعذرك، وتجمع لمن لايحمدك ، وإنما تجمع لواحد من اثنين : إما عاملٍ فيه بطاعة الله عز وجل فيسعد بما شقيت به، وإما عاملٍ فيه بمعصية الله فتشقى بما جمعت له ، وليس والله واحد منهما بأهل أن تُبْرد له على ظهرك[1]، ولاتؤثره على نفسك، ارْجُ لمن مضى منهم رحمة الله، وثِقْ لمن بقي منهم برزق الله عز وجل والسلام [2] .

---

(١) يعني أن تقيه من الأذى على حساب نقص دينك .

(٢) حلية الأولياء ١/٢١٦ ، صفة الصفوة ١/٦٣٧ .

يبين أبو الدرداء في وصيته هذه ما في الدنيا ومستقبلها، وأن متاع الدنيا كما صار للإنسان ممن سبقوه فإن الموت سيدركه وسيخلفه فيه من بعده، وهذه مقدمة لما ذكره من أهمية الإنفاق في سبيل الله تعالى لأنه هو العمل المالي الصالح الذي يحمله الإنسان معه بعد الموت إلى الآخرة، أما متاع الدنيا فإن صاحبه يزول ويتركه لمن بعده.

ثم يشير إلى أن الإنسان مأمور بأن يؤثر نفسه على ولده وسائر ورثته في عمل الآخرة، وذلك بأن يقدم من ماله بين يديه بتحويله إلى عمل صالح بالصدقة .

ونجده يعلل ذلك بتقسيم الورثة إلى قسمين : قسم يعمل بالمال الذي ورثه في طاعة الله تعالى ، فيكون سعيداً بما شقي به مورثه، لأن الوارث يكتسب عملا صالحا فات مورثه إذ جمع ذلك المال وادَّخره.

وإذا كان العمل الصالح سيكون لأحد الاثنين الوارث أو المورث، فإن التنافس في العمل يقتضي أن لايضيع المورث هذه الفرصة التي كانت بيده، لأن الله سبحانه أمر المؤمنين بأن يتنافسوا في الجزاء الذي هو عاقبة العمل كما قال تعالى ﴿ **خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ [المطففين: ٢٦] .

والقسم الثاني الذي يعمل في مال مورثه بمعصية الله تعالى، فيكون هذا المال الذي شح به صاحبه عن الإنفاق في سبيل الله تعالى سببا في شقاء وارثه ، حيث أنفقه في سبيل الشيطان .

وهذه النتيجة أقسى وأعنف على صاحب المال لو تصور هذا

الواقع الأليم، وإنَّ الذين يخلِّفون ورثة غير صالحين يدركون ذلك وهم على قيد الحياة، ولكن يمنع بعضهم من الصدقة طول الأمل في الحياة.

وإذا كان الأمر كذلك فإن العـاقل الفطن هو الذي يقدِّم لنفسه من ماله ماينفعه في آخرته .

وغَنِيٌّ عن البـيان أن المراد من ذلك الإنفـاق أن يكون مما زاد عن حاجة من يعولهم ، لأن نفقة المسلـم على من يعولهم واجبة والصدقة مستـحبة فيمـا زاد عن الزكاة والحقوق الواجبـة، والواجب مقدم على المستـحب ، وهذا أمر لايخفى على أبي الدرداء الذي كـان من علماء الصحابة رضي الله عنهم ، ولكنه ترك بيانه لوضوحه .

ونجد من النصوص المهمة في التربية مارواه الطبراني عن أبي قلابة أن أبا الدرداء مرَّ على رجل قد أصاب ذنبا فكانوا يسبُّونه فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا: بلى ، قال: فلا تسـبُّوا أخاكم واحـمدوا الله عـز وجل الذي عـافاكم ، قالـوا: أفلا تبغضه؟ قال : إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي [1] .

وإننا لنلمس في هذا الأثر تربية حكيمة وتوجيـها سليما، فالمسلم إذا غلبته نفسه الأمارة بالسوء فارتكب شيئًا مما نهى الله تعالى عنه فإنه لايفقد أخـوته للمسلمين ، بل يظل أخًا لهم بمقـتضى الإسلام ، وإن كان الصالحون يبغضون أعماله السيئة .

وهكذا يقـرر أبو الدرداء رضي الله عنه مـبدأ مـهمـا من مبـادئ الأخوة الإسـلاميـة ، وهو أن الأخوَّة الدينيـة باقيـة ثابتة حـتى لأهل

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٦٤٠ .

المعاصي ولاتُنتزع بالكلية إلا بالارتداد عن الإسلام ، وإن كانت تتفاوت قوة وضعفًا حسب قوة الالتزام الديني وضعفه .

وأبو الدرداء ينطلق في هذا من أصل إسلامي واضح جاء تقريره في كتاب الله تعالى حيث اعتبر سبحانه القاتل أخًا للمقتول مع ماارتكبه القاتل من المعصية الكبيرة ، وذلك في قوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٧٨] وكذلك اعتبر الطائفتين المتقاتلتين إخوة لعموم المؤمنين مع ارتكابهما هذا الذنب الكبير حيث يقول سبحانه ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقد توصل أبو الدرداء إلى شرح هذا المعنى بمثل قدَّمه بين يدي ذلك حيث قال لأولئك الذين يسبُّون أخاهم الذي وقع في معصية : أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا : بلى، قال : فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله عز وجل الذي عافاكم .

فاستدل بالمعنى الذي لايزال باقيا في أذهانهم من معاني الأخوة الإسلامية وهو نصرة المسلم وإنقاذه من الهلاك على المعنى الذي غاب عنهم وهو الكفُّ عن عرضه وإن وقع في مخالفة، مع حمد الله تعالى على المعافاة مما وقع فيه المخالفون .

وهو بهذا يحقق دقة العالم الذي يقيس الأمور ويوازن بين

المقتضيات اللازمة، إلى جانب براعة المربي الذي ينظر إلى الهابط نحو الرذائل نظرة رحمة وشفقة لانظرة شماتة وتشفٍّي ، ثم يحاول أن يأخذ بيده ليرفعه إلى المستوى الذي يعيش فيه أهل الاستقامة . .

وهكذا يكون الإصلاح والتربية القويمة .

وحينما اشتبه على أولئك القوم موضوع الولاء والبراء فطبقوا البراء من المسلم لمجرد ارتكابه الذنب وضح لهم أبو الدرداء أن البغض القلبي الذي يترتب عليه البراء لا يكون للمسلم نفسه وإنما يكون لعمله السيء، أما المسلم فإن أخوَّته باقية بما طبق من تكاليف الإسلام الأخرى، وإن كانت لاتبقى من القوة كحال المؤمن الصالح الملتزم طريق أهل التقوى .

وهكذا تظهر عظمة تربية النبي ﷺ لهؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم، الذين صحت رؤيتهم للقضايا، ولم تلتبس عليهم المسائل، وكانوا سريعي البديهة في تقويم الاعوجاج وتوضيح طريق الاستقامة.

من مواقف ثوبان رضي الله عنه :

ذكر الإمام الذهبي عن شريح بن عبيد قال : مرض ثوبان بحمص، وعليها عبد الله بن قرط فلم يَعُدْه ، فدخل على ثوبان رجل يعوده، فقال له ثوبان : أتكتب ؟ قال: نعم ، قال: اكتب للأمير عبدالله بن قرط من ثوبان مولى رسول الله ﷺ ، أمَّا بعد : فإنه لو كان لموسى وعيسى [عليهما السلام] مولًى بحضرتك لعُدْتَه ، فأُتي بالكتاب ، فقرأه ، وقام فزعًا ، قال الناس : ماشأنه أَحَضَرَ أمْر ؟ فأتاه فعاده ، وجلس عنده ساعة ، ثم قام ، فأخذ ثوبان بردائه ،

وقال: اجلس حتى أحدثك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ليدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفًا لاحساب عليهم ولاعذاب ، مع كل ألف سبعون ألفا .

أخرجه أحمد في مسنده (١) .

ففي هذا الخبر مواقف :

أولا : تعظيم النبي ﷺ من قِبَل مولاه ثوبان رضي الله عنه، حيث ذكر أن مجرد كونه مولاه كافٍ في الاهتمام بأمره، وأداء حقه، فعتب على أمير حمص أن قصر في عيادته مع كونه يتبوأ تلك المنزلة العالية بقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثانيًا : موقف أمير حمص عبد الله بن قرط حيث أثَّر فيه ذلك التذكيرُ بحق النبي ﷺ المتمثل بأداء حق أقاربه ومواليه، فقام من ساعته فزعًا كأنما نزل عليه أمر عظيم نادمًا على مافات عليه من عيادة ثوبان رضي الله عنه ، فأدى الحق بتواضع وطيب نفس .

ثالثًا : موقف ثوبان رضي الله عنه حينما اغتنم فرصة زيارة ذلك الأمير فوعظه بما روي من حديث رسول الله ﷺ عن السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب ومع كل ألف سبعون ألفا.

وفي ذكر هذا الثواب العظيم تشويق بالغ لذوي الهمم العالية ليكونوا من السابقين بالخيرات حتى ينالوا هذا المقام الكريم .

ولم يَذكر في هذه الرواية صفات هؤلاء الذين نالوا هذا الثواب

(١) سير أعلام النبلاء ٣/١٧ .

الجـزيل، وقد جـاء في روايات أخرى ذكـر هذه الصفـات، وهي تدور حـول مقـام التوكل على الله تعـالى، وهو مـقام عظيم من مـقامـات التوحـيد العالية، وعليـه تدور مقامـات عظيمة: من الصبـر على البلاء والشكر عند الرخاء والـرِّضَى بالقضاء، والإقـدام على المكاره والمخاطر ونحو ذلك .

من مواقف عتبة بن غزوان رضي الله عنه :

من النماذج الجيـدة في مواقف الصحابة التربوية ماأخـرجه الإمام مسلم من طريق خالد بن عمير العـدوي قال : خطبنا عتبة بن غزوان فحمد الـله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن الدنيـا قد آذنت بِصُرْم(١) وولَّت حذَّاء(٢) ولم يبق منهـا إلا صُـبـابة(٣) كصبابة الإناء يـتصابُّها صاحـبهـا، وإنكم منتقلون منهـا إلى دار لازوال لها، فـانتقلوا بخـير مابحضرتكم ، فإنه قد ذُكِر لنا أن الحجر يُلقَى من شفة جهنم، فيهوي فيها سبعين عامًا لايدرك لها قـعرا ، ووالله لتملأَنّ ، أفعجبتم ؟ ولقد ذُكِر لنا أن مابين مصراعين من مصاريع الجنة (٤) مسيرةُ أربعين سنة ، ولَيأتيَّن عليها يوم وهو كظيظ من الزحام، ولقد رأيتُني سابع سبعة مع رسول اللـه ﷺ مالنا طعـام إلا ورق الشجر حـتى قرحت أشـداقنا، فالتقطت بردة فشققـتها بيني وبين سعد بن مالك (٥) فاتّزرت بنصفها

(١) يعني أعلنت بانقطاع .

(٢) يعني مسرعة .

(٣) يعني بقية يسيرة .

(٤) يعني دفتي الباب .

(٥) يعني سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

واتَّزر سعد بنصفها ، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيما وعند الله صغيرا ، وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت حتى يكون آخر عاقبتها ملكا ، فستَخْبُرون وتجرِّبون الأمراء بعدنا (١) .

وهكذا ركَّز عتبة بن غزوان رضي الله عنه في خطبته هذه على التحذير من الدنيا والترغيب بالآخرة، فذكر أوَّلاً أن الدنيا قد قرب انتهاؤها، ولم يبق منها إلا القليل ، وأن الناس منتقلون منها إلى الحياة الأخرى الخالدة ، ثم ذكر شيئًا من هول جهنم ، فذكر من سعتها وعمقها أن الحجر يُلقَى من أعلاها فيظلُّ سبعين عاما وهو يهوي حتى يصل إلى قعرها ، وأنها على سعتها العظيمة ستملأ من مستحقي العذاب يوم القيامة .

ثم ذكر أنه كما أن النار لها أهل يستحقونها بهذه الكثرة فإن الجنة لها أهل كذلك من الصالحين الطائعين يزدحمون على أبوابها من كثرتهم، وفي هذا حث بليغ للمسلم ليسابق إلى صحبة هؤلاء في الدنيا حتى يصحبهم في الآخرة على أبواب الجنة ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء: ٦٩] وليجتنب طريق أهل الفجور والفساد حتى لايكون رفيقهم يوم القيامة إلى النار، كما أنه حثٌّ للعاصي على التوبة النصوح وأن لاييأس من رحمة الله تعالى.

ثم لما ذكَّرهم بمصير الناس يوم القيامة ذكَر لهم ماكان فيه الصحابة

---

(١) صحيح مسلم رقم ٢٩٦٧ .

رضي الله عنهم في أول الإسلام من شظف العيش وشدة الحياة، حيث إنهم لايجدون الطعام ولا اللباس ، ثم ماآل إليه أمرهم من النعمة والتمكين في الأرض .

وقد طوى عتبة ذكر السبب العظيم الذي أدى بهم إلى هذه النقلة البعيدة، ألا وهو الإيمان الصادق والتنزه عن الحرام والشبهات، والالتزام بالعمل الصالح الذي يأتي في ذروته الجهاد في سبيل الله تعالى، وذلك لأن من يخاطبهم يعلمون ذلك ، بل يشاهدونه في حياة من يحدثهم وأمثالِه من أولئك العظماء .

ثم أشار إلى شكر نعمة الله تعالى على ذلك الخير العظيم الذي انتقلوا إليه حيث لجأ إلى الله تعالى بهذا الدعاء الصادر من القلب المفعم بالإيمان والنفس المطمئنة باليقين « وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيما وعند الله صغيرا » .

وهكذا رأينا هذا الرجل العظيم وأمثاله من الصحابة الذين مروا بحياة الفقر والبؤس ، ثم تحوَّلوا إلى حياة النعمة والرخاء فلم تتغير حالهم، ولم تتبدل معالم حياتهم ، بل ظلوا زاهدين متواضعين بالرغم من تبوُّء بعضهم مقامات الإمارة والتمكين في الأرض، فلم يسكنوا القصور العالية ، ولم يلبسوا الملابس الغالية، ولم يركبوا المراكب الفاخرة ، ولم يكن هناك فرق واضح في أنماط الحياة في عهد الصحابة بين الأغنياء والفقراء ، ولابين الولاة والعامة .

وإننا لو عقدنا مقارنة بين الصحابة ومسلمي اليوم في حال التحوُّل من الشدة إلى الرخاء سنجد الفرق كبيرا، ففي مقابل مالاحظناه في

حياة الصحابة نجد كثيراً من المسلمين اليوم في هذا التحول يصابون بالترف والكبرياء ويبالغون في اقتناء الأنماط العالية من مظاهر الدنيا من مساكن ومراكب وملابس ومطاعم ، محاولين بذلك تناسي واقعهم الأول، وهم بهذا الإفراط والتوغل في مُتَع الحياة يُقفلون على أنفسهم بعض منافذ التذكر والاعتبار ، حيث إن صحبة أهل المظاهر المفرطة تُطغي القلب وتنسِّيه ماكان فيه من حياة بائسة في الماضي، بينما يظل القلب تُطغي شفّافا كلما تذكر الحياة الماضية، وكان في المستوى المعيشي ليس بعيداً عن تلك الحياة، ولاعن أصحابها الذين مازالوا يعانون شيئًا من حياة الفقر والبؤس .

وهكذا رأينا أن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قد وُفِّق تماما في خطبته هذه حيث جمع بين عناصر مؤثرة في الوعظ والتذكير، فذكر أوّلاً قلة شأن الدنيا وسرعة انقضاء أجلها، وفي هذا تذكير للعاقل حتى لايغتر بمظاهرها المؤثرة .

ثم نقل مستمعيه إلى الحياة الآخرة حيث ذكر أن للنار أهلا سيملؤونها، وأن للجنة أهلا سيزدحمون على أبوابها ، فليختر العاقل لنفسه مصيره في الآخرة .

وبعد أن وطد النفوس لاختيار الطريق الأقوم الموصل إلى سعادة الآخرة ضرب لهم مثلا مما مر عليه وعلى أصحابه في الدنيا من حياة البؤس والفاقة،ثم ماآل إليه أمرهم من حياة السعة والغنى،وماواجهوا به كلتا الحياتين بما يناسبهما ، حيث واجهوا حياة الفقر بالصبر على البلاء ، وواجهوا حياة الغنى بالشكر على الرخاء .

وفي هذا بلاغة عالية من عتبة رضي الله عنه حيث لم يقتصر في الدعوة إلى الحياة العالية على مجرد التذكير بالآخرة، وإنما ذكر صورة من حياتهم الواقعية، حيث ضرب المثل بما واجهوه في الدنيا من التقلب بين الضعف والفقر ، والغنى والسيادة في الأرض، وماقاموا به من سلوك في مواجهة تلك الحياتين .

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

من ذلك ماذكره ابن الجوزي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :ياصاحب الذنب لاتأمننَّ سوء عاقبته،ولَمَا يتبع الذنبَ أعظم من الذنب إذا عملتَه :قلةُ حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب الذي صنعته، وضَحِكُكَ وأنت لاتدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحُك بالذنب إذا عملته أعظم من الذنب، وحزنُك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به ، وخوفُك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولايضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته (١) .

فهذا تذكير من ابن عباس رضي الله عنهما بمايجب أن يكون عليه المسلم من اليقظة والإحساس،والشعور برقابة الله عز وجل وعلمه الدقيق بكل مايصدر من العبد حتى حديث النفس وخلجات الضمير.

فإذا جَمَحَتْ نفس العبد نحو المعاصي فليتذكر حالاً اطلاعَ الله سبحانه عليه ، وأنه قد وكَّل به ملكين عن يمينه وشماله، يحصيان

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٥٤ .

عليه جميع أقواله وأفعـاله ، كما جاء في قول الله تعالى ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْه رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق : ١٧ - ١٨] .

فابن عباس بهذا الأثر ينبِّه إلى خطورة عـاقبة الذنب، ومايصاحبه من ذنوب لايحس بها غـالبا مرتكب الذنب، فقِلةُ حـيائه من ربه جل وعلا - وهو مطـلع عليه - قسـاوة في قلبه وتغليب لنـداء العواطف المنحرفة على نداء العقل السليم .

وقلة حيائه من الملكين وهمـا يسجلان عليه أقواله وأعـماله إساءة للجوار ودلالة على تضخـم الدنيا وشهواتها في قلبـه، وضآلةِ الآخرة وحسابها في خاطره .

وضحكه وسروره وهو لايدري عن مصيـره بعد الموت غفلة كبيرة وضعف في التفكير .

وفرحه بما حصَّله من شهوات محرمة طيش وسفاهة لأن ذلك في مقـابل تعرضه للعـذاب وحرمانه من الثـواب العظيم في الآخرة، فلو كان هذا التصـرف في أمور مالية لأوجب الحكم على صاحبـه بالسفه والحجر عليه .

وحـزنه على فوات الشـهوات رعـونة وحمـاقة، لأنه بذلك قـد تعرض لغضب الله تعـالى عليه ومايترتب على ذلك من سوء العـاقبة ولـم يحصل على ماأراد من الشهوات .

وذلك كله انحـدار نحو البهـيمـية وإلغاء لدور العـقل السليم في التفكير والتدبر وحماية الجسم ومنعه عما لايليق .

وخوفه من الناس أن يطلعوا عليه وهو يمارس المعصية ولايضطرب من نظر الله تعالى إليه دلالة على خواء القلب من ذكر الله تعالى، وعمرانه بذكر الناس .

وكل هذه الذنوب المترتبة على المعصية ذنوب عظيمة وهي أعظم من المعصية التي يرتكبها العبد ، لأن هذه الذنوب تتعلق باعتقاد القلب .

فلينظر المسلم العاقل لنفسه كيف يرتكب كل هذه الذنوب العظيمة التي ترافق فعله للمعصية وهو لايشعر بها غالبا .

فأي مصير سيء قد اختاره العاصي لنفسه ؟

وأي مهلكة قد أوقع نفسه فيها حينما وقع في هذه الذنوب العظام؟

من مواقف أبي ذر الغفاري رضي الله عنه :

من مواعظ أبي ذر جندب بن جنادة الغفاري رضي الله عنه ماذكره ابن الجوزي عن نافع الطاحي قال : مررت بأبي ذر فقال لي : ممن أنت ؟ قلت : من أهل العراق ، قال : أتعرف عبد الله بن عامر؟ قلت : نعم ، قال :فإنه كان يتقرأ معي[1]ويلزمني، ثم طلب الإمارة، فإذا قدمت البصرة فَتَرائَى له ، فإنه سيقول : لك حاجة؟ فقل له : أَخْلِني ، فقل له : أنا رسول أبي ذر إليك وهو يُقرئك السلام ويقول لك : إنا نأكل التمر ونشرب الماء ونعيش كما تعيش .

فلما قدمت تراءيت له فقال : ألك حاجة ؟ فقلت أخْلِني

(١) يعني يتعلم ويتفقه .

أصلحك الله ، فقلت أنا رسول أبي ذر إليك، - فلما قلتها خشع لها قلبه - وهو يقرأ عليك السلام ويقول لك : إنا نأكل من التمر ونشرب من الماء ونعيش كما تعيش ، قال: فحلّل أزراره ثم أدخل رأسه في جيبه ثم بكى حتى ملأ جيبه بالبكاء (١) .

فهذه وصية في سطر ، لكنها أبلغ من صفحات عديدة، لأنها أولاً صادرة من القلب ، ومِنْ قلب مَنْ ؟ مِنْ قلب أبي ذر الذي أنهكه الإشفاق على الأمة وهو يرى كثيرا من أفرادها يتسابقون في الدنيا ومظاهرها ، ولايعطون الآخرة من تفكيرهم إلا قليلا .

ولأنها ثانيا تلامس الوتر الحساس وتنكأ الجرح الذي يحس به المؤمن التقي،ولكن يغطي عليه مخالطة الناس الذين لايُذكِّرون بالله إلا قليلا .

« إنا نأكل من التمر ونشرب من الماء ونعيش كما تعيش » نعم ، فإذا كان المقصود هو أن يعيش الإنسان بما يقيم صلبه ثم يتفرغ لعبادة الله تعالى ، سواء في ذلك العبادات الخاصة كالصلاة والصيام ، أو المتعدية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخدمة المسلمين. . إذا كان الأمر كذلك فإنه يستوي أن يعيش الإنسان على التمر والماء أو أن يعيش على أصناف الطعام المختلفة ، ويستوي أن يلبس اللباس البسيط ويسكن المسكن المتواضع أو يلبس اللباس الفاخر ويسكن القصور العالية .

وفي خشوع قلب ابن عامر لمجرد ذكر أبي ذر أمامه دليل على ما

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٩٤ .

للمؤمن الـصادق من وقع وأثر في قلوب المؤمنين ، وإنما كـان كذلك لأنه قد حمل نفسه أوّلاً على الاستقامة ثم قام بوعظ الناس .

ولذلك ماأن لامست وصية أبي ذر سمع ابن عامر حتى سَرَتْ في كيانه وتخلَّلت إلى سويداء قلبه فأجهش بالبكاء .

إن وجـود الدعاة الصـادقين الذين يوقـظون مشـاعـر الأمة أمـر ضروري ، وخـاصة لمن تحـملوا مـسئولـية في المجـتمع ، لأن كـثرة الانشغال بالأعـمال ثم بمطالب الدنيا تُنسي الإنسان الـتفكر في الآخرة ومابعد الموت ، وتجعله يعيش في فلك الدنيا ومطالبها .

ومن ذلك ماذكـره الحافظ ابن الجـوزي من خبر سـفيـان الثوري رحمـهمـا الله قال: قـام أبو ذر الغفـاري رضي الله عنه عند الكعـبة فـقـال: ياأيهـا الناس أنا جندب الـغـفاري، هـلمـوا إلى الأخ الناصح الشفـيق، فاكتـنفه الناس فقـال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سـفراً أليس يتخـذ من الزاد مايصلحه ويبلغـه ؟ قالوا :بلى، قال: فإن سـفر طريق القيـامة أبعد ماتريدون فـخذوا مايصلحكم، قالوا: ومـايصلحنا؟ قال: حجوا حجة لعظائم الأمور، وصـوموا يوما شديدًا حره لطول النشور، وصلوا ركعـتين في سواد الليل لوحشـة القبور، كلمـة خير تقـولها أو كلمة شر تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها، اجعل الدنيا مـجلسين: مجلسا في طلب الحلال ومجلسا في طلب الآخرة، الثالث يضرك ولاينفعك، لاتُرِدْه ، اجعل المال درهمين : درهما تنفـقه على عيالك من حـله، ودرهما تقدمه لآخـرتك، الثالث يضرك ولاينفعك، لاترده.

ثم نادى بأعلى صوته : ياأيها الناس قـد قتلكم حرص لاتدركونه أبدا (١) .

فلقـد كان أبو ذر الغـفاري رضي الـله عنه نذيراً لأهل عصـره، وذلك حينما انفتحت الدنيا على المسلمين فأصـبح كثير منهم يتوسعون في النعيم وادخار الأمـوال، فهاله ذلك وصار يدعو إلى حـياة الكمال في التـعـامل مع المال، وذلك بإنفـاق مازاد عن عـن الحاجـة، وهذا الكمال هو الـذي أرشد إليه النبي ﷺ بقـوله « لو كان لي مـثل أحد ذهبا مـايسرني أن لايمر علي ثلاث وعندي مـنه شيء إلا شيء أرصده لدين » أخرجه الإمام البخاري (٢) .

ولاشك أن أبا ذر كـان له ولأمـثـاله أثر في تحـريض الناس على الإنفاق في سبيل الله تعالى والتخفيف من التوغل في الحياة المادية .

من مواقف أبي سعيد الخدري رضي الله عنه :

من ذلك ماروُي عن أبي سـعيد الخـدري رضي الله عنه أنه قال: عليك بتـقوى الله فإنـه رأس كل شيء،وعليك بالجهـاد فإنه رهبـانية الإسلام،وعليك بذكر الله وتلاوة القـرآن فإنه روحك في أهل السماء وذكرك في أهـل الأرض ،وعليك بالصمت إلا في حق فـإنك تغلب الشيطان (٣) .

فـفي هذه الوصيـة أمور : الأول الأمـر بالتـقوى وهي أن يتـقي

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٩١ - ٥٩٢ .

(٢) صحيح البخاري رقم ٢٣٨٩ ، الاستقراض (٥/ ٥٥) .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٠ .

الإنسان سخط ربه جل وعلا وذلك بأن يفعل كل ما أمره به وأن يجتنب كل مانهاه عنه، فالتقوى أساس الاستقامة على الدين .

الثاني : الحرص على الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد سماه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه رهبانية الإسلام لأن الرهبانية التي اشتهر بها النصارى تعني في بعض أنواعها السياحة في الأرض من أجل العبادة ، فالخروج للجهاد يشبه ذلك في كونه خروجا للعبادة، وفيما يترتب عليه من التَّخفف من أعباء الحياة الاجتماعية ومشكلاتها وإن كان هذا غير مقصود في الجهاد، وهو من مقاصد الرهبانية .

والجهاد من أفضل الأعمال الصالحة لأن فيه إعزازا للدين الإسلامي بخلاف الرهبانية فإنها محرمة لأنها تمنع من تطبيق واجبات أخرى كصلاة الجمعة والجماعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وليس فيها إعزاز للإسلام .

الثالث: ذِكر الله تعالى وتلاوة القرآن، وقد بيَّن أبو سعيد رضي الله عنه أن ذلك روحُ المسلم عند أهل السماء، وذلك يعني وجوده الحقيقي عندهم لأن الجسد بلا روح كالجماد، كما بين أن مقام المسلم يرتفع بذلك عند أهل الصلاح في الأرض وهم الذين يُعتبر ثناؤهم وتقييمهم.

الرابع: لزوم الصمت إلا في قول الحق، وذلك مما يغلب به الإنسان الشيطان، لأن فلتات اللسان من أهم المداخل التي يدخل بها الشيطان على الإنسان .

من مواقف أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه :

قال الحافظ ابن كثير: وقال معاوية: أفضل الناس من إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا وعد أنجز، وإذا أساء استغفر [(١)] .

ففي هذا الخبر جمع أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه دررا من الحكم، وهي الشكر عند الرخاء، والصبر عند الابتلاء والتحكم في السلوك عند الغضب، والعفو عند المقدرة، والوفاء بالوعد، والاستغفار عند الإساءة .

فهذا الخبر على قصره قد جمع ستة موضوعات ، كل موضوع يحتاج إلى أن يكتب عنه في صفحات، وهذا من جوامع الكلم، وهو يعتبر من أعلى أنواع البلاغة، وذلك في جمع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة، وقد اشتهر في هذا البيان عدد من الصحابة رضي الله عنهم تتلمذوا في ذلك على رسول الله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم .

من مواقف أبي مسلم الخولاني رحمه الله :

من الحكم الجيدة ماروي عن أبي مسلم الخولاني رحمه الله تعالى في مجال الرِّضَى التام بقضاء الله وقدره، وفي ذلك يقول: لأن يولد لي مولود يحسن الله عز وجل نباته حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب مايكون إليَّ قبضه مني أحب إليَّ من أن يكون لي الدنيا ومافيها[(٢)] .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٤١ .

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٢١٣ ، حلية ٢/ ١٢٧ .

وهذا دليل على كمال توحيد أبي مسلم عبد الله بن ثُوَب الخولاني حيث جاوز مرحلة الصبر على أقدار الله المؤلمة إلى مرحلة الرضى بقضاء الله ، فاعتبر المصيبة بفقد ولد قد أحسن الله نباته وكان على خير مايتمناه المؤمن شبابا وصلاحا أحبَّ إليه من الدنيا ومافيها.

من مواقف سعيد بن العاص رحمه الله :

ذكر الحافظ ابن كثير أن سعيد بن العاص قال: يابني لاتمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنيئ فتهون عليه، وفي رواية فيجترئ عليك (١).

فهذا توجيه سديد من أبي عثمان سعيد بن العاص الأموي رحمه الله تعالى، فإن المزاح السائغ له مقدار وحدود، فالمزح مثلا مع الرجل الشريف الذي تعود من الناس التقدير والاحترام إحراج له، وهو لشرفه ومنزلته قد لايرد على المازح، لكنه ربما حقد عليه، والمزح مع الرجل الدنيئ نزول في المرتبة تجعل المازح مهانا عند ذلك الرجل الدنيئ وأضرابه .

من مواقف ابن سيرين رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة محمد بن سيرين رحمه الله قال: كان ابن سيرين إذا ذُكر عنده رجل بسوء ذكره بأحسن مايعلم(٢).

فهذا توجيه سديد من ابن سيرين رحمه الله تعالى نحو السلوك

(١) البداية والنهاية ٨/ ٨٦ .

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٨٦ .

القويم في الحفاظ على أعراض المسلمين ، فكأنه يقول لأولئك الذين يذكرون عيوب الناس : إن لهؤلاء الذين ذكرتم مساوئهم محاسنَ، فلماذا ركزتم على مساوئهم وأعرضتم عن محاسنهم، وهذا إضافة إلى أنه توجيه لأولئك نحو الكفِّ عن الغيبة فإنه يتضمن الدفاع عن المظلومين وإنصافهم بذكر محاسنهم .

وقد حكم ابن سيرين على من ذكر العيوب وكتم المحاسن بأنه ظالم حيث قال: ظُلمٌ لأخيك أن تذكر منه أسوأ ماتعلم منه وتكتم خيره(١) .

وقال الحافظ ابن كثير : ولما مات أنس بن مالك - رضي الله عنه- أوصى أن يغسله محمد بن سيرين - وكان محمد محبوسا- فقالوا له في ذلك ، فقال: أنا محبوس، فقالوا: قد استأذنا الأمير في إخراجك ، قال: إن الأمير لم يحبسني، إنما حبسني من له الحق، فأذن له صاحب الحق فغسَّله (٢) .

فهذا مثل من الفقه الدقيق في أمور الدين، حيث تنبه إلى أن من له الحق في إخراجه من الحبس هو صاحب الحق الذي حُبس من أجل شكواه، وإنما يأتي هذا الفهم الدقيق من اتِّصاف المرء بالورع، وإن في كلامه هذا لموعظة بليغة للمسلمين في فهم حقوق الناس وأدائها .

هذا وقد ذكر ابن سيرين سبب ابتلائه بالحبس بقوله: إني لأعلم الذنب الذي حُملت بسببه، إني قلت يوما لرجل: يامفلس، فذُكِر هذا

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٨٧ .

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٨٦ .

لأبي سليمان الداراني فقال: قلَّتْ ذنوبهم فعرفوا من أين أُتُوا، ومثلُنا قد كثرت ذنوبنا فلم ندْر من أين نُؤْتَى ولابأي ذنب نؤخذ(١).

فهذا إحساس دقيق من ابن سيرين بالذنوب وعواقبها، فقد قارن بين قوله لرجل يامفلس وماكان له حينما حُمل إلى الحبس بسبب عدم استطاعته وفاء دين عليه .

وقول أبي سليمان الداراني دليل على قوة خشيته من الله تعالى وإحساسه بآثار الذنوب، وهو محمول على التواضع منه لأن من يصدر منه هذا الكلام يكون الوازع الديني عنده قويا، وذلك يحميه- بإذن الله تعالى - من الوقوع في الذنوب .

من مواقف أبي حازم رحمه الله :

رُوِيَتْ عن أبي حازم سلمة بن دينار شيخ المدينة النبوية في وقته وصايا وحِكَم جيدة، فمن هذه الوصايا ماجاء في قوله : لاتكون عالما حتى يكون فيك ثلاث خصال : لاتَبْغِ على من فوقك، ولاتحقر من دونك ولاتأخذ على علمك دنيا (٢) .

فهذه الخصال الثلاث التي ذكرها أبو حازم تحول دون بلوغ الإنسان درجات عالية من العلم، فإن الإنسان إذا بغى على من فوقه لم يستفد منه لأنه حينما يبغي عليه لايراه أهلاً للإفادة، ويَشغله البحث عن مظاهر النقص فيه عن معرفة مظاهر الكمال، وقد تظهر له مظاهر الكمال فيه فيما بعد فيندم على عدم الاستفادة منه في وقت الطلب .

---

(١) البداية والنهاية ٩/٢٨٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/٩٨ .

والذي يدفع إلى البغي هو مايصاب به الإنسان من الكبر والغرور، فقد يغتر طالب العلم بنفسه فيرى أنه أعلى من بعض الشيوخ، ومما يؤدي إلى الكبر والغرور قِصَر النظر وحصر الاهتمام في مجال واحد من مجالات العلم، فإذا تفوق الطالب في هذا المجال فإنه قد يفوق في بعض تفاصيله بعض العلماء الذين هم أكبر منه، بينما يفوقونه في المجالات العلمية الأخرى بمراحل، ولكنه حينما حصر همه في بعض المجالات لم يُلق اهتماما للمجالات الأخرى، فحرم نفسه من الاستفادة من العلماء الذين يُتقِنون هذه المجالات .

فطالب العلم لاينجح ولاتتوسع مداركه إلا إذا تواضع لمن هو فوقه ، واتَّهم نفسه دائما بالنقص مع التوجه نحو بلوغ الكمال .

أما إذا احتقر من هو دونه في العلم فإنه تخمد فيه روح المنافسة ويعطي نفسه الثقة بأنه قد بلغ درجات كبيرة من العلم فتخبو في نفسه روح التطلع نحو الكمال لشعوره بأنه قد قارب ذلك في حدود مستواه العلمي .

وأما أخذ الدنيا على العلم فإنه يحول دون الوصول إلى الدرجات العالية في العلم، لأن ذلك يقلل من الإخلاص في التعليم ، فيكون بذل العلم موزعًا بين العلم لذاته وللدنيا ، ولأنَّ مَنْ بذل العلم وهو يريد الدنيا فإن هذا المقصد هو الذي يحكم اتجاهه، فقد يكون استعداده النفسي والعلمي لعلم معين ، ولكن المقصد الدنيوي يحرفه إلى علم آخر ، وإذا اتجه الإنسان إلى علم لايقتنع بأهميته قناعة تامة فإنه لايتحمس له ولايبدع فيه، لأنه لن يشغل باله، بل الذي سيشغل

باله هو العلم الذي يهواه ويقتنع بأنه أهم ، ولكن المقصد الدنيوي يجره إلى علم آخر .

وبهذا فإن العلم الذي يشغل باله لن يأخذ إلا بعض وقته، والعلم الذي دفع نفسه إليه دفعًا سيشغل البعض الآخر، ولكنه لن يبدع فيه، والعلم الذي يمكن أن يبدع فيه لن يعطيه إلا بعض وقته، وبالتالي فإنه لن يصل إلى مراحل عالية من العلم.

وإنما ذكر هذا الإمام أن إرادة الدنيا بالتعليم تحول دون التعلم لأن مرحلة التعليم هي المرحلة الأهم في التعلم ، فلا يكون المتعلم عالما إلا إذا أمضى سنوات في التعليم .

هذا ومن وصايا أبي حازم الحكيمة قوله : شيئان إذا عملت بهما أصبت خير الدنيا والآخرة ، لا أُطوِّل عليك ، قيل : ماهما؟ قال: تحْمِل ماتكره إذا أحبه الله ، وتترك ماتحب إذا كرهه الله [1] .

نعم إن في هذين الأمرين سعادةَ الدنيا والآخرة لأن الإنسان مخلوق لله تعالى ، وهو وجميع الخلق في قبضته ،وهو جل وعلا الذي يقدر للعبد السعادة أو الشقاوة في الدنيا والآخرة ، ولن يقدر للعبد السعادة وهو يعصيه ويفعل مايكره .

وإذا كان الأمر بيد الله تعالى وحده فإن السبيل الوحيد للظفر بالسعادة أن يفعل العبد مايحبه ربه جل وعلا ، وأن يجتنب مايكره.

وهذا المعنى مشاهد في حياة الناس،فإن الإنسان الذي له قوة على الناس تجد أن الناس يحاولون إرضاءه واجتناب سخطه حتى يستفيدوا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٩٨ .

منه ويتقوا ضرره، مع أن قدرته عليهم إنما كانت بسبب ضعفهم، والحقيقة أن أمره كله إلى الله تعالى، حيث لايملك من أمره شيئا.

وإذا كان ذلك متحققا في معاملة المخلوقين فكيف الأمر بالنسبة للخالق جل وعلا ؟

إن الذي يجعل بعض الناس يراقبون الناس ولايراقبون الله تعالى هو ضعف إيمانهم بالغيب حيث إن الناس لايرون ربهم في الدنيا، فهم يخضعون لمن يرون قوتهم مشاهدة أمامهم، ولو كان الإيمان بالمشاهدة لماكان هناك لأحد مزية عن أحد لأن الناس جميعا سيؤمنون، ولكن المزية الكبرى للمؤمنين أنهم آمنوا بالغيب، ولذلك كانت هذه الصفة أول الصفات التي اثنى الله بهاعلى المؤمنين المتقين في مطلع سورة البقرة.

إن تعليق الأعمال كلِّها برضى الله تعالى واجتناب سخطه وفعل مايحب واجتناب مايكره هو الميزان الدقيق الذي يمكن أن توزن به الأعمال في الدنيا ، وإذا وفق العبد لمعرفة هذا الميزان والتقيد به فإنه يعصمه بإذن الله تعالى من الزلل ، ويضمن لنفسه سعادة الدارين .

ومن وصايا أبي حازم رحمه الله ماجاء في قوله: لاتعادينَّ رجلا ولاتناصبنَّه حتى تنظر إلى سريرته بينه وبين الله، فإن يكن له سريرة حسنة فإن الله لم يكن ليخذله بعداوتك، وإن كانت له سريرة رديئة فقد كفاك مساوئُه، ولو أردت أن تعمل به أكثر من معاصي الله لم تقدر (١).

(١) سير أعلام النبلاء ٩٨/٦ .

فهذا توجيه جيد لأمر مهم ، وهو أن المؤمنين الصادقين في هذه الحياة ليسوا وحدهم في الميدان ، بل هم مع الله تعالى بالمحبة والإخلاص والطاعة ، والله جل وعلا معهم بالنصر والتأييد، فإذا هم صدقوا في حبهم لله تعالى وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه فإنه جل وعلا لن يخذلهم من أجل أعدائهم وأعدائه .

وكم سخَّر الله سبحانه للمؤمنين الصادقين قلوب أعدائهم فصاروا طوع أمرهم ، أو كفُّوا عن أذاهم على الأقل .

ولذلك فإن العاقل الذي يدرك عواقب الأمور ينظر إلى سرائر من يريد أن يتخذ منهم موقفا عدائيا قبل أن يفعل ذلك، فإن وجدهم صادقين مع الله تعالى فإن من الحماقة والتهور أن يبارزهم بالعداء، لأنه - والحال هذه - يكون قد بارز الله سبحانه بذلك لأنه معهم بنصره وتأييده ولن يخذلهم .

وكم من عاقل أحجم عن الإيقاع بأولياء الله تعالى خوفًا من أن يواجهوه بسلاح الدعاء وهم يناجون ربهم في الليل .

أما إذا كانت سريرة العبد مع ربه رديئة فإنه سيكون متلبسًا بالمعاصي ، فهو مخذول بمعاصيه قبل أن يواجه أعداءه ، ولو لم يقم أعداؤه بمواجهته فإن سلاح المعاصي فيه أمضى من سلاح أعدائه .

ومما رُوي عن أبي حازم سلمة بن دينار رحمه الله من الوصايا والحِكَم قوله: لايُحسن عبد فيما بينه وبين الله إلاأحسن الله مابينه وبين العباد، ولايعوِّر مابينه وبين الله إلا عوَّر فيما بينه وبين العباد، لَمُصانعةُ وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها، إنك إذا صانعته مالت

الوجوه كلها إليك، وإذا استفسدت مابينه شَنَئَتْك الوجوه كلها[1].

فهذا توجيه سديد إلى التوجه نحو الله تعالى وحده بالطاعة والرغبة والرهبة ، وحينما يتوجه القلب نحو وجهة واحدة لايكون فيه تضارب ولاتناقض .

فأما حينما تزدحم على القلب التوجهات المختلفة فإن الإنسان يبقى في حيرة من أمره، ويتساءل: هل يتوجه نحو العمل بمايرضي الله تعالى؟ أم يتبع هواه وأهواء المخلوقين؟ فإن كان إيمانه بالله سبحانه قويا تغلَّب جانب هذا الإيمان فوحَّد اتجاهه نحو العمل بشريعة الله جل وعلا، وإن كان في إيمانه ضعف تغلَّبت التوجهات الأخرى، فأصبح سلوكه يتحدد بغلبة الاتجاه الأقوى، ويضعف تقيده بشريعة الله سبحانه.

إنه لابد للعبد أن يرفع شعارًا واحدًا يُخضِع له كل الشعارات، فإذا رفع شعار حب الله تعالى وطلب رضوانه واجتناب سخطه فإنه يهون عليه مقاومة مايتعارض مع ذلك من الشعارات ، والله سبحانه بَرٌّ كريم لايخذل عبده المؤمن المخلص له، فإذا فرَّغ قلبه لخالقه جل وعلا سخر له كل القلوب ، كما جاء في قول رسول الله ﷺ « من التمس رضًا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس» [2]، وماقد يصيب المسلم من بلاء من خلال رفعه شعار التوحيد فإنه قَدَرٌ من الله تعالى ساقه إليه

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٠٠ .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب الزهد رقم ٢٤١٤، ٤/ ٦٠٩ .

لخيره وسعادته، حيث يمحص به ذنوبه، ويرفع به درجاته في الآخرة، ويُرفع له ذكر في الدنيا أمام أهل الصلاح والتقوى .

ومن إجابات أبي حازم السديدة عما يَشعر به الإنسان فطريا من حب الدنيا ماجاء عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قلت لأبي حازم : إني لأجد شيئًا يحزنني ، قال: وماهو يا ابن أخي ؟ قلت: حبي للدنيا ، قال: اعلم أن هذا لَشَيء ماأعاتب نفسي على بغض شيء حببه الله إلي ، لأن الله قد حبب هذه الدنيا إلينا، لِتكنْ معاتبتُنا أنفسنا في غير هذا : أن لايدعونا حبها إلى أن نأخذ شيئًا من شيء يكرهه الله ، ولا أن نمنع شيئًا من شيء أحبه الله، فإذا نحن فعلنا ذلك لم يضرنا حبنا إياها (١) .

نعم إن ما في قلب المسلم من حب الدنيا لايلام عليه لأن المال هو قِوام العيش في هذه الحياة ، وبدونه يدخل الإنسان في أنواع من المَذلة، ولكن حب الدنيا نوعان :

نوع فطري قد جبل الإنسان عليه لما في تكوينه الخَلْقي من الافتقار للضروريات والحاجيات، ومن مظاهر هذا النوع أن يكون قائما على اعتبار أن المال وسيلة العيش في الحياة الدنيا، ويبقى في زوايا القلب، غير متخلل إلى عمقه، لأن عمق القلب يكون قد عُمِر بالمبادئ السامية التي من أجلها يتم استعباد ذلك المال، وإنفاقُه في خدمة تلك المبادئ.

ونوع مكتسب يدفع إليه شَرَهُ الإنسان وطمعه فيتخلل إلى عمق القلب، فيكون حب المال هو الذي يتحكم في تصرفات الإنسان،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/٩٨ - ٩٩ .

وهذا النوع يستعبد صاحبه ويوصله إلى المهالك ، وهو الذي قال عنه رسول الله ﷺ « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أُعطي رَضِيَ وإن لم يعط سخط »(١) .

وهذا الذي ذكره ﷺ بقوله « إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط» هو الميزان الذي يفرق بين النوعين من حب الدنيا، فحب الدنيا الفطري لايتحكم في تصرفات الإنسان ولايتعلق به الرضا والسخط إذا توجه صاحبه بالإسلام، أما الحب المكتسب فهو الذي يتحكم في تصرفات صاحبه، وقد عبر عنه أبو حازم بقوله « أن لايدعونا حبها إلى أن نأخذ شيئًا من شيء يكرهه الله، ولاأن نمنع شيئًا من شيء أحبه الله » .

فإذا كان المتحكم في تصرفات المسلم هو التقيد بشريعة الله تعالى والسَّعيُ في طلب رضاه واجتناب سخطه فلا يضره بعد ذلك حبه للدنيا .

ولولا هذا الحب الفطري للدنيا لم يكن هناك مزية في الزهد والاعتدال في كسب الدنيا وإنفاقها ، ولذلك فإن المسلم ليس مسئولا عن نزع هذا الحب الفطري من قلبه، وإنما هو مسئول عن سلوكه المالي في هذه الحياة .

ومن حكم أبي حازم المفيدة قوله : إذا رأيت ربك يتابع نعَمه عليك فاحذره ، وإذا أحببت أخًا في الله فأقلَّ مخالطته في دنياه(٢) .

وذلك أن بعض نعمة الله تعالى استدراج للعبد، وقد يغتر العبد

---

(١) صحيح البخاري رقم ٢٨٨٧ ، كتاب الجهاد (٦/ ٨١) .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٠١ .

بنعم الله تعالى عليه وهو مستمر في معصية ربه، فيكون ذنبه مضاعفا، حيث تُكتب عليه معاصيه، ويكتب عليه عدم شكر نعمة ربه.

وبعض الناس يفهمون أن النعمة على العبد بالدنيا دليل على رِضا الله تعالى عنه، وهذا فهم خاطئ، لأنها قد تكون استدراجا له، ثم يضاعف عليه الذنب إن لم يكن من الشاكرين.

ومما يبين ذلك أن الله تعالى ينعم بالنعم الكثيرة على الكافرين كما هو مشاهد وكما جاء في قوله تعالى ﴿ **وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥] يعني: - كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما- ولولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال لمتَّعنا الكفار بتلك النعم المذكوره.

أما وصية أبي حازم في المحبة في الله تعالى، فإنها عمل وقائي لتلك المحبة حتى تستمر في قوتها، وذلك أن الدخول في أمور الدنيا قد يصاحبه بروز حظ النفس وإساءة الظن بالآخرين، فمن الحفاظ على المحبة في الله - في نظر أبي حازم - أن لايكون هناك تعامل دنيوي بين المتحابين في الله، وهذا ليس على إطلاقه فقد تكون المعاملة بين المتحابين فلا تتفرق قلوبهم وإن اختلفوا على بعض الأمور كما كانت حال الصحابة رضي الله عنهم.

من مواقف طاوس بن كيسان رحمه الله :

ومن الوصايا النافعة مارواه محمد بن المثنى العنزي قال حدثنا مُطَهِّر بن الهيثم الطائي عن أبيه قال: حج سليمان بن عبد الملك، فخرج حاجبه فقال: إن أمير المؤمنين قال: ابغوا لي فقيها أسأله عن بعض المناسك، قال: فمرَّ طاوس[1] فقالوا: هذا طاوس اليماني فأخذه الحاجب، فقال: أجب أمير المؤمنين، قال: أعفني، فأبى، ثم أدخله عليه، قال طاوس: فلما وقفت بين يديه قلت: إن هذا لمجلس يسألني الله عنه، فقلت: ياأمير المؤمنين إن صخرة كانت على شفير جُبٍّ في جهنم هوت فيها سبعين خريفا حتى استقرت قرارها، أتدري لمن أعدها الله؟ قال: لا، ويلك لمن أعدها ؟ قال: لمن أشركه الله في حكمه فجار، قال: فكبَا لها [2] .

فهذه موعظة بليغة من الإمام طاوس بن كيسان اليماني الذي قلَّما يدخل على الولاة ، فلما ساقه القدر للقاء أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك اغتنم تلك الفرصة ليتقرب إلى الله تعالى بعمل هو من أعلى الأعمال وأزكاها، وهو تقديم النصيحة لولي الأمر، فذكَّره بماأعده الله جل وعلا لأولياء الأمور من العذاب يوم القيامة إذا جاروا في حكمهم ، فتأثر سليمان بن عبد الملك من موعظته، ولعله كان لها أثر في ميله نحو العدل .

---

(١) هو عالم اليمن طاوس بن كيسان .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٢ ، وقوله « فكبا» أي تأثر وأخذ به الهم وهي في اللغة بمعنى انكب على وجهه .

وكون طاوس ذكر الله تعالى وموقفه بين يديه يوم القيامة دليل على قوة إيمانه وعمق يقينه ، فكان ذلك دافعا إلى تقديم النصح لأمير المؤمنين وتذكيره بشيء من هول يوم القيامة الذي أُعِدَّ لمن حكم ولم يعدل، ولو كانت الدنيا هي التي تعمر قلب ذلك العالم لانصرف إلى الثناء على ذلك الأمير وتعداد فضائله .

ومن ذلك ماذكره الإمام الذهبي من حديث أبي عبد الله الشامي قال: استأذنت على طاوس لأسأله عن مسألة فخرج عليَّ شيخ كبير فظننته هو، فقال: لا، أنا ابنه، قلت: إن كنت ابنه فقد خَرِفَ أبوك، قال: تقول ذلك، إن العالم لايخرف، قال: فدخلت فقال لي طاوس: سْل وأوجز، وإن شئت علمتك في مجلسك هذا القرآن والتوراة والإنجيل، قلت: إن علمتنيهم لاأسألك عن شيء، قال: خَفِ الله مخافة لايكون شيء عندك أخوف منه، وارْجُهُ رجاءً هو أشد من خوفك إياه، وأحبَّ للناس ماتحب لنفسك (١) .

فهذه وصايا غالية من هذا العالم الجليل ، وقول ولده « إن العالم لايخرف » يعني : لايغيب عنه وعيه وإدراكه إذا كبر ، وهذا محمول على الغالب ، وإنما كان كذلك لكونه قد اشغل ذهنه وتفكيره طول عمره، وكل عضو في الإنسان يطول اشتغاله يطول تمتعه به في حياته، وذلك بعد توفيق الله تعالى وإعانته .

وفي هذا الخبر وعظ طاوس ذلك الرجل موعظة بليغة موجزة مستخلصة من المقاصد العامة للكتب السماوية التي ذكر منها القرآن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٧ .

والتوراة والإنجيل، ولايعني هذا أنه قد استخلصها من نصوص تلك الكتب ، وإنما استنبطها من المقاصد العامة التي اتفقت على الدعوة إليها الكتب السماوية .

فذكَر الخوف من الله عز وجل ، والخوف منه تعالى من مقامات التوحيد العالية ، لأن هذا الخوف يترتب على أمرين : تعظيم الله سبحانه ، واليقين بوعده ووعيده ، فمن عظَّم الله جل وعلا حق تعظيمه أدرك أن جميع المخلوقات كبيرها وصغيرها في قبضة الله، وأنه في قدرته أن يزيل هذا الكون من الوجود ، و أن يعيده بكلمة واحدة، وإذا كان الأمر كذلك فما هي نسبة وجود ذلك العبد الصغير الحقير وزواله أمام هذا الكون الهائل الفسيح ؟!

وإذا أيقين بوعد الله تعالى ووعيده كان دائما بين رجاء نعمته والخوف من نقمته، فلا يحمله رجاء نعمته على الأمن من نقمته، ولايحمله الخوف منه على اليأس من رحمته .

وقد كان الصالحون يغلّبون جانب الخوف احتياطا لأنفسهم فإذا نزل بهم الموت غلَّبوا جانب الرجاء كما جاء عن معاذ رضي الله عنه حينما قال : اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك كما تقدم .

وآخر هذه الوصايا أن يحبَّ لأخيه مايحب لنفسه ، وهذا مأخوذ من قول رسول الله ﷺ « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » (١) .

وتطبيق هذا الأمر يحتاج إلى مجاهدة للنفس تقوم على محاولة

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٣ ، الإيمان (١/ ٥٦) .

تجريدها من الاهتـمام البالغ بحظهـا ، ودفعهـا إلى الاهتمام بحـقوق الإِخْوة في الله .

وقلَّ من يطبق ذلك من المسلمين خصوصا في العصور التي تغلب على أهلها المادة ، حيث تكون اهتـمامات النفوس وتوَجُّهاتُهـا مندفعةً نحو تلبية غرائزها ومطالبها المادية .

من مواقف مالك بن دينار رحمه الله :

مـالك بن دينار رحـمه الـله أحد أكـابر علمـاء التـابعين ، ومن وصاياه ماروواه جعفـر بن سليمان عن مالك بن دينار أنه قال : إذا لـم يكن في القلب حُزْنٌ خَرِبَ (١) .

وصدق رحمه الله ، ذلك لأن الحـزن يكون على فوات المحبوب أو وقوع المكروه ، فـإذا كانت الأعمال الصـالحة هي المحبوبة للعـبد، والأعمـال السيئة هي المكروهة فـإنه يحزن على فوات العـمل الصالح وارتكاب العـمل السيء ، فإذا خـلا القلب من الحزن فـإن ذلك دليل على قساوته وعدم تذكره للهفـوات وضياع الفرص الطيبة لأنه يندر أن يوجد من يسلَم من الهفوات ويبذلُ كل طاقـته في الأعمال الصالحة ، لكن من في قلبه إيمان صادق يحزن على فوات بعض الفرص للأعمال الصالحة والوقوع في شيء من الهفوات .

ومن أقواله رحمه الله : مامن أعمال البر شيء إلا ودونه عُقَيْبَة، فإن صبر صاحبها افضت به إلى رَوح ، وإن جزع رجع (٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٣ .

وصدق رحمه الله ، ذلك لأن النفس يغلب عليها حب الراحة بالنسبة للأعمال،أوحب الدنيا بالنسبة لإنفاق المال،فإذا لاح للإنسان المسلم عمل صالح بادر إليه الكسل وحب الراحة، أوحبُّ الإبقاء على المال ،وهذه عقبة قد تحول بين المسلم وفعل الخيرات،فإذا قوي الدافع لديه إلى العمل . . مِن ابتغاء مرضاة الله تعالى والنظر إلى ثواب الآخرة فإنه يجد من نَفسه إقداماً على العمل، ويتلاشَى من خاطره حب الراحة وحب الدنيا .

ومن أقواله في بيان مهمة المسلم الكبرى في هذه الحياة : « خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل : وماهو ؟ قال : معرفة الله تعالى [1] .

نعم ، معرفة الله تعالى هي أغلى القيم التي تشتمل عليها حياة الإنسان ولكن لايعرفها ولايحس بِرَوْحها وراحتها إلا أهل اليقين الصادق والإيمان الخالص .

كما يتنافس المتنافسون على حطام الدنيا الزائل ، وقد يشعرون بشيء من الفرح والنشوة ، ولكن ذلك مشوب بكثير من الكدر والتنغيص ، ولايمكن أن يوجد في الدنيا سعادة تخلو من القلق والكدر إلا سعادة الروح التي تقوم على معرفة الله تعالى ، والابتهاج بطاعته وعبادته .

ونجد مالك بن دينار رحمه الله يقوم بدور المربي والداعية الناجح وذلك حينما دخل عليه لصّ فما وجد مايأخذ ، فناداه مالك : لم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٣ .

تجد شيئًا من الدنيا ، فترغبُ في شيء من الآخرة ؟ قال: نعم : قال: توضأ وصل ركعتين ، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد ، فسئل : من ذا ؟ قال : جاء ليسرق فسرقناه (١) .

نعم ، جاء ذلك اللص ليسلب الدنيا بغير حق، فسلب مالك بن دينار قلبه لصالح عمل الآخرة، وكان من حظ ذلك اللص أن وقع في بيت عالم من الزهاد في الدنيا فلم يجد في بيته شيئًا يسرقه، فتأثر بوعظ مالك له ورجع إلى الله تعالى .

وهذه براعة من هذا الإمام في الدعوة إلى الله تعالى ، ومعالجة أدواء النفوس وانتشالها من المهالك .

فما أبلغ هذه الهدية التي قدمها هذا الإمام لذلك اللص،وما أبعد النقلة التي نقله إليها حيث حوَّله من لص يروِّع الآمنين إلى عابد يطمئنُّ له المؤمنون !!

من مواقف سعيد بن المسيب رحمه الله :

من ذلك ماأخرجه الحافظ أبو نعيم من خبر كُثَيِّر بن المطلب بن أبي وداعة قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب ، ففقدني أياما، فلما جئته قال: أين كنت ؟ قال: تُوفيَتْ أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها ، قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله ، ومن يزوجني وماأملك إلا درهمين أو ثلاثة، فقال: أنا، فقلت: أوَتفعل ؟ قال : نعم، ثم حمد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين أو ثلاثة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٣٦٣ .

قال: فقمت ومأأدري ماأصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر ممن آخذ وممن أستدين، فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي، واسترحت، وكنت وحدي صائما، فقدمت عشائي أفطر كان خبزًا وزيتا، فإذا بآتٍ يقرع، فقلت: من هذا ؟ قال : سعيد، قال: ففكرت في كل إنسانٍ اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم يُرَ أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فقمت فخرجت فإذا سعيدُ بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له، فقلت: ياأبا محمد ألا أرسلتَ إليّ فآتيك، قال: لا، لأنت أحق أن تُؤتَى، قلت: فماتأمر؟ قال: إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذها بيدها فدفعها بالباب، ورد الباب فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الزيت والخبز فوضعتها في ظل السراج لكي لاتراه، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران، فجاؤوني فقالوا: ماشأنك ؟ قلت: ويْحكم زوجني سعيد بن المسيب، وهذه ابنته اليوم وقد جاء بها على غفلة، فقالوا: سعيد بن المسيب زوجك؟! قال: نعم، وهاهي في الدار، قال: فنزلوا هم إليها، وبلغ أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام.

قال: فأقمت ثلاثة أيام ثم دخلت بها فإذا هي من أجمل الناس، وإذا هي من أحفظ الناس لكتاب الله وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج .

قال: فمكثت شهرا لايأتيني سعيد ولا آتيه، فلما كان قرب الشهر

أتيت سعيدا وهو في حلقتـه، فسلمت عليه فرد السلام، ولـم يكلمني حـتى تقوَّض أهل المجلس، فلمـا لـم يبق غـيري قـال: ماحـال ذلك الإنسان؟ قلت : خيرًا ياأبا محمد على مايحب الصديق ويكره العدو، قال: فـإنْ رابك شيء فـالعصـا، فانصـرفت إلى منزلي، فوجَّـه إليّ بعشرين ألف درهم (١) .

فهـذا الخبـر فيـه مثل على طمـوح عظماء الرجـال نحو مـعالي الأمور، فـحينما تسمـو بالرجال نفوسـهم يهون عليهم كل مـاتعارف الناس عليه من زخـارف الدنيا وجـاهها، ولايصبح أمـامهم إلا هدف واحد يُسـخِّرون له كل مافي حيـاتهم الدنيا من متـاع وجاه، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

فهذا الإمام الجـليل سعيد بن المسيب قد خطب ابنتـه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لابنه الوليـد - كما جاء في روايات أخرى - فلم يلتفت إلى مايترتب على ذلك من رفعة دنيوية في المال والجاه، بل كان الشيء الذي يهيمن على تفكيره هـو لزوم حماية ابنته من تلك المظاهر الدنيوية، فهو يرى أنه لو زوجها من أبناء الكبراء لكان سببا في صرفها عن التزود بعمل الآخرة إلى الانشغـال بمظاهر الدنيا، فامتنع من ذلك حماية لابنته من الفتنة، وصيانة لإيمانها من التصدع، وبالتالي فإنه قد وهبها الخير ولم يحرمها، وأسعدها ولم يشقها.

وكان يرى أن خيـرها وسعادتها بزواجهـا من شاب تقي زاهد في الدنيا، فاغتنم فـرصة وفاة زوجة أحد تلاميذه الأتقيـاء الفقراء فعرض

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٦٧ - ١٦٨ ، وانظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٣٣ .

عليه الزواج بابنته التي خطبها قبل ذلك أبناء الأكابر، وهذا يعتبر مثلا عاليا في التواضع والزهد في متاع الدنيا وجاهها .

ثم إن الطريقة التي زف بها ابنته إلى ذلك الشاب كانت في غاية البساطة والروعة ، فلا مظاهر ولاتكلف ، ولاتقيد بالعوائد المرسومة التي تعارف عليها الناس .

ولقد كانت ابنته في غاية الطاعة له حيث سارت معه بتلك الطريقة البسيطة المحرجة لها، مما يدل على سمو تربيتها وقوة دينها وغزارة علمها، كما جاء في وصفها على لسان زوجها .

وأخيرا نرى هذا الإمام الجليل يتحلى بالكرم الفياض، حيث أعطى ذلك الشاب الفقير عشرين ألف درهم، مع قبول تزويجه قبل ذلك على درهمين أو ثلاثة .

فلله دره ماأرجح عقله وأسمى تفكيره !! وماأكرمه وأحزمه !!

ومن ذلك ماأخرجه ابن سعد من خبر ابن حرملة: أن سعيد بن المسيب قال: لاتقولن مصيحف ولامسيجد، ولكن عظموا ماعظم الله تعالى، كلُّ ماعظم الله فهو عظيم حسن (١).

وهذا توجيه سديد نحو تعظيم كتاب الله تعالى الكريم، وبيوته المقدسة .

من مواقف أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان رحمه الله :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر بكر السهمي قال: سأل رجل

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/١٣٧ .

عبد الملك بن مروان الخلوة، فقال لأصحابه: إن شئتم ، فلما تهيأ الرجل للكلام قال له: إياك أن تمدحني فإني أعلم بنفسي منك، أو تكْذِبني فإنه لارأي لمكذوب، أو تسعى إليّ بأحد، وإن شئت أقلتك، قال: أقلني ، فأقاله (١) .

فهذه درر من التوجيهات الحكيمة من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ألجم بها ذلك الرجل الذي يريد أن يحدثه ، فقد فرض عليه أن لايمدحه لأنه أعلم بنفسه منه، فهو إن مدحه بماليس فيه فهذا إزراء به لأنه كساه ثوبا غير ثوبه، وإن مدحه بماهو فيه فلن يزيد شيئا عمايعلمه، وفي كلتا الحالتين فإن المدح قد يكون فتنة للممدوح ونفاقا من المادح .

كمافرض عليه أن لايحدثه كذبا، فإن من حُدِّث كذبا فإنه يبني تصوراته وأحكامه على أوهام لاحقيقةلها، ويكون الكاذب قد خانه في ذلك .

كما فرض عليه أن لايتحدث عنده بأحد من الناس، فإن ذلك إما من الغيبة أو من النميمة، والإنسان العاقل - فضلا عن المؤمن التقي يأنف من أن يكون مطية للمفسدين في الأرض .

وأخرج الحافظ ابن عساكر من خبر إسحاق بن سعيد بن عمرو بن سعيد قال قال يحيى بن الحكم بن أبي العاص لعبد الملك بن مروان: أي الرجال أفضل ؟ قال: من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وترك النصرة عن قوة .

وفي رواية أخرى : وأنصف عن قوة (٢) .

---

(١) تاريخ دمشق ٣٧/ ١٤٢ .

(٢) تاريخ دمشق ٣٧/ ١٤٤ .

في هذا الجواب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان عن أفضل الناس جمع ثلاث خصال :

الأولى : التواضع من كبار الناس الذين لهم سمعة وجاه في المجتمع، إما بسبب علمهم أو منصبهم أو مالهم. . فيتواضعون للناس مع رفعة منزلتهم، فهذه صفة من صفات الفضل، لأن هؤلاء المتواضعين قد استطاعوا أن يسيروا بالاتجاه المضاد لسير أمثالهم من الكبراء، حيث تسير حياة الكبراء عادة على التكبر والتعالي، فالذي يستطيع من الكبراء أن يقاوم نفسه فيحملها على التواضع فإنه رجل فاضل .

الثانية : الزهد في مظاهر الحياة من أغنياء الناس، فالغِنَى عادة يبعث على حياة الترف والإسراف ، فإذا استطاع الغني أن يحمل نفسه على حياة الزهد فإن هذا يعتبر من صفات الفضل والكمال .

الثالثة : العدل من الرجل القوي القادر على الظلم، فالصفة الغالبة من المقتدرين المتمكنين أنهم يميلون إلى الظلم، فإذا استطاع الرجل القوي المتمكن أن يحمل نفسه على العدالة فإن هذا دليل على فضله وكماله .

من مواقف محمد بن شهاب الزهري رحمه الله :

من ذلك ما رُوي عن الإمام الزهري رحمه الله أنه قال : ثلاث إذا كنَّ في القاضي فليس بقاضٍ : إذا كره المَلاَمَ ، وأحب المحامد، وكره العزل (1) .

وإنما ذكر الإمام محمد بن شهاب الزهري هذه الخصال الثلاث

(1) سير أعلام النبلاء ٥/٣٤٣ .

لأنها تبين درجة إخلاص المسئول لعـمله، وهي ليست خاصة بالقضاة بل تشمل كل مـسئول ، وهي تدور حول لزوم كـون العمل من أجل الحق ولذاته مع عدم اعـتبار حظ النفس، فالذي ينظر إلى تنـفيذ الحق من أجل الحق لايخـاف من اللوم والنقـد، ولايطرب للاطراء والمدح، ولايبالي بالعـزل من العمل لأنه إنما بقي فيـه حسبة لله تعـالى ، فإذا أُعفِي منه فإنما أسقط عـبئًا ثقيلا عن كاهله، فهـو يفرح بالتخفف من المسئولية طلبا للسلامة في دينه .

وكراهيـة العزل المذمومـة أن يكون المسئـول كارها للعزل مـراعاة لمصلحة النفس الخـاصة ، إما حـبّا بالمال أو الجاه، أما إذا كـره العزل لكونه قد شرع في مـشاريع خيِّرة لمصلحة الأمة ويريد إكـمالها أو في نيته القيام بأعمال إصـلاحية إذا قدر على ذلك فإن كراهة العزل تكون محمودة ، لأن تعلُّق المسئـول بالعمل - والحالة هذه - يكون لمصلحة الأمة العامة لا لمصلحته الخاصة .

ومن وصاياه العلمـية قوله : كنا نـأتي العالم فمـا نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه (١) .

وهذا اهتمـام من طلاب العلم - آنذاك - بالعمـل الذي هو ثمرة العلم، وهذا هو الهدف الأسـمى من التعلم، لأن مجـرد حفظ العلم ونقله لايـعـدو أن يكون زيادة في نُـسَخ الكتب المروية، وإنمـا فـائدة مجالسة العلمـاء والرواية عنهم تكون بالدرجة الأولى بالتأسي بهم في

---

(١) البداية والنهاية ٣٥٨/٩ - ٣٥٩ .

أدبهم وأخلاقهم وسلوكهم وتطبيق العلم الذي تعلموه على أنفسهم.

من مواقف إبراهيم التيمي رحمه الله :

من الوصايا النافعة ماروي عن إبراهيم بن يزيد التيمي رحمه الله أنه قال : إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه(١) .

وهذه وصية نافعة في التبكير في الحضور إلى المسجد، وذلك دليل على درجة الإيمان، فكلما كان الإيمان أقوى كان الدافع إلى التبكير في الحضور إلى المسجد أقوى .

وإذا كان المجتمع يغلب عليه العرف الإسلامي بالنسبة لحضور صلاة الجماعة فإن الخارجين من بيوتهم لأداء الصلاة في المساجد تختلف فيما بينهم الدوافع ، فبعضهم يكون الدافع له خوفه من الله تعالى ورجاؤه لما عنده وطاعة أوامره ، فهذا يندفع إلى الحضور في وقت مبكر ، ولايمنعه من ذلك إلا مانع قوي ، ويستوي عنده وجوده في أي بيئة اجتماعية، أما الذي يكون الدافع له اعتياده على الصلاة في المسجد أو مجاراة العرف السائد في مجتمعه فإنه يخرج متثاقلا ، وكثيرا ماتفوته تكبيرة الإحرام، وتتغير حاله في الالتزام فيما إذا انتقل إلى بيئة لايساعد العرف الاجتماعي فيها على عمارة المساجد .

ومن الحكم النافعة ماجاء عن إبراهيم التيمي رحمه الله أنه قال: ماعرضت قولي على عملي إلا خفت أن أكون مكذِّبا (٢) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٦١ .

وفي هذا بيان لأهمية العمل ، فإن القول باللسان سهل ميسور، ولكن العمل هو الذي يبين معدن الرجال، لأن له كلفة، وقد يكون مخالفا لهوى النفس، وقد يترتب عليه تضحية بالنفس أو بالمال.

- وعرْض القول على العمل نوع من محاسبة النفس ، وما أحوجنا إلى أن نحاسب أنفسنا حتى لانتبجح بأقوال ليس وراءها أعمال، أو نستغرق في أحلام لاتثبت أمام الواقع العملي .

ومما جاء عن إبراهيم التيمي من الحِكَم قوله : إن الرجل ليظلمني فأرحمه(١).

وهذا دليل على التجرد من حظ النفس وطهارة القلب من الغل والضغينة كما أنه دلالة على اتساع الفكر وعمقه ،حيث يتخطى حدود النفس ومصالحها القريبة إلى التفكير في الآخرة وماأعد الله فيها من نعيم للمحسنين وعذاب للمسيئين،وحيث إن الظالمين من المسيئين فإن ماتحلَّى به هذا الإمام من كريم الأخلاق جعله يرحم ظالميه لما يتصوره مما ينتظرهم من العذاب الأليم في الآخرة،والمصير السيء في الدنيا .

وإنه لموقف يبين عظمة الإسلام الذي يتربى فيه أتباعه على هذه الأخلاق السامية، حيث يقف المظلومون من ظالميهم موقف الرحمة والشفقة في الوقت الذي يُنتظر فيه أن يقفوا منهم موقف القسوة والرغبة في التشفي والانتقام .

وما قاله هذا الإمام يعتبر تطبيقا لقول رسول الله ﷺ في وصاياه « واعف عمن ظلمك » (٢) .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٦١ .

(٢) مسند أحمد ٤/١٤٨ .

من مواقف بلال بن سعد السكوني رحمه الله :

من الوصايا النافعة مارواه عبد الرحمن بن يزيد بن تميم عن بلال ابن سعد بن تميم السَّكوني الدمشقي قال: ياأهل التُّقَى إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنما تنقلون من دار إلى دار، كما نُقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار (١) .

فهذا الإمام الواعظ يذكِّر بالمستقبل الحقيقي الذي سينتقل إليه الإنسان، فالحياة الدنيا ليست إلا مرحلة من المراحل التي يمر بها، ومستقبله فيها محدود ، ولاضير عليه أن يقضيه على أي وضع كان من الشدة والقلة مادام قد أمَّن مستقبله الحقيقي الذي يبدأ بعد الموت، وإن أعظم الفوارق بين المسلمين والكفار هو الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ، وعلى هذا الأمر العظيم تترتب كل الفوارق الأخرى .

ومن وصايا هذا الإمام الجيدة مارواه عنه الإمام الأوزاعي أنه قال: لاتنظر إلى صِغَر الخطيئة ، ولكن انظر مَنْ عصيتَ (٢) .

وصدق رحمه الله فإن من نظر إلى عظمة الله تعالى تكون لديه خشية وهيبة، ويُجِلُّ الله سبحانه عن أن يطلع عليه وهو مُقْدم على معصيته .

من مواقف بكر بن عبد الله المزني رحمه الله :

وقال العالم الزاهد بكر بن عبد الله المزني: إذا رأيت إخوانك

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٩١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٩١ .

يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا من فضل ربي، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل: هذا بذنب أحدثته، وقال: من مثلك يابن آدم ؟ خُلِّيَ بينك وبين الماء والمحراب، متى شئت تطهرت ودخلت على ربك عز وجل ليس بينك وبينه ترجمان ولاحاجب، وقال: لايكون العبد تقيًّا حتى يكون تقيَّ الطمع تقيَّ الغضب، وقال: إذا رأيتم الرجل موكَّلا بعيوب الناس ناسيا لعيبه فاعلموا أنه قد مُكِرَ به (١) .

فهذه موعظة جليلة بيَّن فيها العالم العابد بكر بن عبد الله المزني عددًا من الوصايا المهمة .

فأولها أنه ذكر ميزانا لمعاملة الناس في الحب والكراهية والإكرام والجفاء، فحب الناس وإكرامهم لك أيها المسلم فضل من الله تعالى تحمده عليه، وتقصيرهم معك في هذا الجانب ينبغي أن تفسره على أنه بسبب ذنوب قد ارتكبتها، وذلك أن قلوب العباد بيد الله عز وجل فهو يميلها ويسخِّرها لحب المؤمنين وإكرامهم أو لبغضهم وإهانتهم، وإنما يحبِّب الله تعالى عبده إلى الناس إذا كان من المتقين، ويبغِّضه لهم إذا كان من الظالمي أنفسهم .

وثانيها : أنه ذكَّر بنعمة الله تعالى على عبده حيث يقوم بعبادة ربه بدون وسائط وبوسائل ميسرة .

وثالثها : أنه بين جانبا مهما من عوامل تحقيق التقوى وهو أن يحاول عصمة نفسه في مجال المال حتى لاتتجاوز الحدود الشرعية،

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٦٧ .

وأن يملك نفسه عند الغضب حتى لايقول أو يفعل مايندم عليه.

ورابعها : التحذير من الاشتغال بعيوب الناس وتناسي عيب النفس، فإن من فعل ذلك فقد خدعته نفسه الأمارة بالسوء وزَيَّن له الشيطان سوء عمله .

وإن محبة الكشف عن عيوب الناس من علامات جموح النفس وسيطرة العاطفة المنحرفة على العقل السليم .

من مواقف محمد بن كعب القرظي رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة محمد بن كعب القرظي أنه قال : إذا أراد الله بعبد خيرا جعل فيه ثلاث خصال: فِقْهًا في الدين ، وزهادةً في الدنيا ، وبصرًا بعيوب نفسه [1] .

ففي هذه الموعظة ينبهنا العالم الرباني محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى إلى ثلاثٍ من منابع الخير ومصادر الهدى .

الأولى : الفقه في الدين ، فمن فقه في دينه عبَد الله تعالى على علم ، وأَمِنَ من مغبَّات الجهل وعواقبه السيئة، والفقه في الدين على نوعين : نوع ضروري لكل مسلم ، وهو القدر الذي يلزم كل مسلم معرفته ليعبد الله على بصيرة ، ويجتنب مانُهي عنه ، فلابد لكل مسلم من تحصيل هذا العلم ، ونوعٍ ضروري لعلماء الدين ليُبصِّروا المسلمين بأمور دينهم ويُفتوهم فيما يعرض لهم من قضايا ، ويَحلُّوا مشكلاتهم على ضوء العلم الديني .

---

(١) البداية والنهاية ٢٦٩/٩ .

الثانية : الزهد في الدنيا ، وهو باب واسع تقدم الكلام عليه وعرضُ بعض أخبار الزهاد .

الثالثة : إدراك عيوب النفس ، فإن من وُفق إلى إدراك عيوب نفسه بادر إلى إصلاحها وتقويمها إذا سدده الله تعالى لذلك .

من مواقف عطاء بن أبي رباح رحمه الله :

من ذلك وصية عطاء بن أبي رباح لعبد الملك بن مروان رحمهما الله تعالى ، وفي ذلك يقول الأصمعي رحمه الله : دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك وهو جالس على السرير وحوله الأشراف وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته ، فلما بَصُر به عبد الملك قام إليه فسلم عليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال: ياأبا محمد : حاجتك ؟ قال : ياأمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله ، فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولاتغلق دونهم بابك .

فقال له : أَفعَلُ ، ثم نهض وقام فقبض عليه عبد الملك وقال: ياأبا محمد إنما سألتَنَا حوائج غيرك وقد قضيناها فما حاجتك ؟ فقال: مالي إلى مخلوق حاجة ، ثم خرج ، فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف ، هذا وأبيك السؤدد ! [1] .

وهذه نصيحة جليلة من إمام أهل مكة في وقته عطاء بن أبي رباح

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٨٤ .

رحمه الله تعالى ، حيث ذكَّر أميــر المؤمنين عبد الملك بأهمية الحرمين الشريفين وضرورة عمارتهما، ثم ذكَّره بحقوق المسلمين عليه، مشيراً إلى أن وصوله إلــى ذلك المنصب إنماهو بطاعة ســادة المسلمين ووجهــائهم له، كما ذكَّره بالتواضع لأهل الحاجات، بينمــا لـم يذكر شيئًا من حاجة نفسه، بل قال لما سأله عبد الملك عن حاجته: مالي إلى مخلوق حاجة.

وإن هذا الزهد والترفع عن الدنيا من أهم الأمور التي سوَّدتْ هذا العالــم وأمثاله ، وجـعلت الأمراء يـقدرونهم ويغـبطونهم على المنزلة الرفيعة التي وصلوا إليها من حب الناس لهم والتفافهم حولهم .

وموقـف جليل لعبـد الملك بن مروان حـيث قدر ذلك العــالم ، وأنزله منزلة عــالية مع أنه كان من الموالي ، وكــونه يحكم على الزهد في الدنيــا بأنه الشـرف والسـؤود يدل على فقــهـه لعـوامل السيــادة والشــرف، حيث كــان من أهمهــا في المجتــمع الذي يخضع للــعرف الإسلامي الزهدُ في الدنيا والبعد عن منافسة أهلها، وإنما كان ذلك هو الشرف والسؤدد لأن مقدرة الإنسان على كــبح جماح نفسه وزمِّها عن التطلع نحو كماليات الحـياة والرغبة في تأثل المال دليلٌ على بعد النظر وعمق التفكير ، حيث يتخطى الزاهد بفكره وخـياله المستقبل الدنيوي إلى مستقبله بعد الموت ، وهذا دليل على كياسته وحصافة عقله.

ومن وصايــا عطاء بن أبي رباح الحكيمــة ماذكــره يعلى بن عبــيد قال: دخلنا على ابن سوقة فقال : ياابن أخي ، أُحدثكم بحديث لعله ينفعكم فقد نفــعني : قال لنا عطاء بن أبي رباح : إن من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ماعدا كتاب الله أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر

أو أن تنطق في معيشتك التي لابد لك منها ، أتنكرون أن عليكم حافظين كراما كاتبين ، عن اليمين وعن الشمال قعيد، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته (١) .

فهذا العالم الذي كان من أبرز علماء التابعين يبين ماكان عليه الصحابة رضي الله عنهم من السلوك القويم ، حيث كانوا يحفظون ألسنتهم فلا يتكلمون إلا بالعلم المستقى من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ ، أو أمر بمعروف ونهي عن منكر ، أو مالابد منه لأمور المعيشة ، وماعدا ذلك يعتبرونه من فضول الكلام الذي لايكتب لهم في صحائفهم بل قد يكتب عليهم ، وهذا من الفروق الواضحة التي كانت تميز مجتمع الصحابة عمن جاء بعدهم ، وهذا السلوك الممتاز كان ثمرة من ثمرات الإيمان القوي والوعي الديني ، حيث كانت الشعائر التعبدية تؤدي مفعولها الكامل في تهذيب السلوك .

وبعد هذه الموعظة الجليلة يذكِّر عطاء السامعين بوجود الملائكة الكاتبين ودقة إحصائهم، ومن آمن بذلك إيمانًا صادقا وَزَعَه إيمانه عن لغو القول وفساد العمل ، وفي تذكره لصحيفته التي ترفع له كل يوم أقوى دافع له نحو العمل الصالح ، وأقوى رادع له عن العمل الفاسد.

من مواقف وهب بن منبِّه رحمه الله :

وقال وهب بن منبِّه اليماني : أزهد الناس في الدنيا - وإن كان

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٨٦ .

عليـها حـريصا – من لم يرض منـها إلا بالكسب الحـلال الطيب مع حفظ الأمانات، وأرغبُ الناس فيهـا – وإنْ كان عنها معرضا – من لم يبال من أين كسـبُه منها حلالا كان أو حـراما ، وإنَّ أجود الناس في الدنيا من جاد بحقوق الله عز وجل ، وإنْ رآه الناس بخيلا فيما سوى ذلك ، وإن أبخل الناس في الدنيا من بخل بحقوق الله عز وجل، وإنْ رآه الناس جوادًا فيما سوى ذلك (١) .

فهذا تحديد جيـد من العالم الرباني وهب بن مُنَبِّه لمجالات الزهد والكرم، فأعلى أنواع الزهدعنده أن يزهد المسلم بالكسب المحرم والمشتبه فيه، وإن كان دائب العمل في طلب الرزق مادام حلالا لاشبهة فيه .

وأعلى أنواع الكرم أن يجود المسلم بأداء حـقوق الله عز وجل في مـاله كـإخـراج الزكـاة وإكـرام الضـيف والأداء في نـوائب المسلمين ونكبـاتهم، وإنْ قصَّـر فيـما تعـارف عليه بعض الناس بأنه مـن وجوه الكرم.

وقال وهب بن منبـه: لَقِيَ عالم عالمًا فـوقه فقـال له: رحمك الله ماهذا البناء الذي لا إسراف فـيه ؟ قال: ماستـرك من الشمس وأكنَّك من الغيث .

قال : فـما هذا الطعام الذي لا إسـراف فيه ؟ قال: فـوق الجوع ودون الشبع من غير تكلف .

قال : فـما هذا اللباس الـذي لا إسراف فيـه ؟ قال: هو ماسـتر العورة ومنع الحر والبرد من غير تنوُّع ولاتلوُّن .

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٠٠ .

قال : فما هذا الضحك الذي لا إسراف فيه ؟ قال: ماأسفر وجهك ولايُسمع صوتك .

قال : فما هذا البكاء الذي لاإسراف فيه ؟ قال: لاتملَّ من البكاء من خشية الله عز وجل ، ولاتبك على شيء من الدنيا .

قال: كم أُخفِي من عملي؟ قال: ماأظُنَّ بك أنك لم تعمل حسنة .

قال : ماأُعلن من عملي ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومايأتمُّ بك الحريص ، واحذر النظر إلى الناس (١) .

فهذه الأجوبة اجتهاد موفق من عالم مسدَّد ، وذلك في تحديد الموازين الدقيقة للمفاهيم الإسلامية حول موضوع الإسراف والاقتصاد.

فالاعتدال في بناء البيوت أن تكون بحيث تؤدي غرضها المقصود في الستر والوقاية من الشمس والمطر وعوارض الجو واللصوص، من غير تزويق ولاتجميل مما يُقصد به التباهي والافتخار .

والاعتدال في الطعام يكون في تناول مايؤدي الغرض المقصود منه في بناء الأجسام وحفظها من الأمراض من غير زيادة أو نقص يؤديان إلى الضرر ، وأن لايكون فيه تكلف بحيث يأخذ حيزا كبيرا من فكر الإنسان أو يرهق ماله .

والاعتدال في اللباس أن يكون بحيث يؤدي الغرض المقصود منه في ستر الجسم ووقايته من عوارض الجو ، من غير مبالغة في

---

(١) البداية والنهاية ٩/٢٩٩ .

التجمُّل، بحيث لايكون اللباس مقصوداً لذاته ، وإنما يكون مقصوداً لتحقيق الغرض منه .

والاعتدال في الضحك أن يكون مؤديا للغرض منه ، وذلك بإظهار الفرح والتعجب من غير صوت يزعج السامعين، ولامبالغة تخرجه إلى الهزل .

أما البكاء فإنه لا إسراف فيه إذا كان من خشية الله تعالى، أو التأثر بمواقف العظماء ، أو الأسى على مصاب المسلمين، كفقد عزيز أو نكبة إخوةٍ في الإسلام ، لكنه يصبح معيبا حينما يكون بسبب الأسى على فقد أمر من أمور الدنيا ، لأن المطلوب - والحال هذه- خفض أمور الدنيا ،وعدمُ إكبارها مما يؤثر على مشاعر الإنسان، وتصبيرُ النفس على المكروه منها .

أما الاعتدال في إظهار العمل أو إخفائه فإن ذلك يرجع إلى نوع العمل، فهناك أعمال لابد أن تظهر كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعبادات الجماعية كصلاة الجمعة والجماعة، وأعمال ينبغي أن تظهر كسائر الفروض والواجبات المطلوبة من المسلم، حيث يسبِّب إخفاؤها ملامة لصاحبها، أو اقتداءً به من المقصرين الذين يظنون أنه مقصر،أما النوافل فإنه ينبغي إخفاؤها إلا إذا لوحظ فيها القدوةُ الحسنة، واستنهاضُ همم المقصرين نحو العمل الصالح ، مع أَمْنِ الوقوع في الرياء والسمعة .

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة وهب بن منبِّه اليماني رحمه الله من خبر منير مولى الفضل بن أبي عياش قال: كنت

جالسا مع وهب بن منبِّه فأتاه رجل فقال له: إني مررت بفلان وهو يشتمك، فغضب وقال: ماوجد الشيطان رسولا غيرك؟ فما برحْتُ من عنده حتى جاءه ذلك الشاتم فسلم على وهب فرد عليه السلام، ومد يده إليه وصافحه وأجلسه إلى جنبه (١).

فهذا فهم جيد من وهب بن منبه حيث رد على ذلك النمام بهذا الرد الذي أبان به أن الشيطان وراء النمامين يسوقهم حتى يستوعبوا مايقال، ثم يسوقهم حتى يخبروا بما سمعوا من قالة الناس بعضهم ببعض.

وسلوكه مع ذلك الرجل الذي نُقل عنه أنه شتمه جيد أيضا حيث عامله تلك المعاملة الكريمة، وفي ذلك تربية حسنة لذلك الرجل الشاتم إذا بلغه وصول كلامه إليه، ففي تلك المعاملة إيقاظ لضميره حتى لايعود إلى ذلك الخلق الذميم، كما أن ذلك موعظةٌ لكل من اطلع على هذا السلوك الحميد.

من مواقف ميمون بن مهران رحمه الله:

من الوصايا النافعة ماذكر الحافظ ابن كثير عن ميمون بن مهران أنه قال: لاتعذِّب المملوك ولاتضربْه على كل ذنب، ولكن احفظ ذلك له فإذا عصى الله عز وجل فعاقبه على معصية الله تعالى وذكِّره الذنوب التي أذنب بينك وبينه (٢).

فهذه وصية حكيمة من العالم الرباني ميمون بن مهران رحمه الله

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٨٦.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٨٨.

تعالى، فقد اهتم بالاستقامة على أمور الإسلام، وجعل الأمور الدنيوية مسخّرة للتكاليف الدينية، وأرشد إلى تنظيم العقوبات التربوية، فالعقوبة على كل ذنب تقلّل من شأن تأثير العقاب في السلوك، لأن العقاب يكون معتادا وتتمرن عليه النفوس، فأما حين يكون العقاب بمجرد التهديد، ثم يتم على الذنب الكبير فإن النفوس تبقى فيها هيبة العقوبة، فترتدع عن الذنب بمجرد التهديد والتخويف، وليس هناك أكبر ذنبا من مخالفة أوامر الله تعالى وارتكاب مَنْهياته، فمِنْ باب الدعوة إلى الخير والإصلاح أن تُربط العقوبة بالذنب في أمور الدين، ثم تُذكر الأمور الأخرى التي تمَّت فيها المخالفة .

وذكر الحافظ ابن كثير أيضا عن ميمون بن مهران أنه قال: لايكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه، حتى يعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه، أَمِنْ حلال ذلك أم مِنْ حرام ؟ (١) .

وهذا مثال جيد يضربه هذا الإمام الرباني لمعرفة الاتصاف بالتقوى، وذلك بمراقبة النفس ومُحاسبتها أشدَّ من محاسبة الشريك شريكه في أمور الدنيا، فإذا كان الإنسان شديد الحرص على محاسبة الشريك فليعلم أن من واجبه أن يحاسب نفسه على المخالفات الدينية أبلغ من ذلك ليكون من المتقين .

قال الحافظ ابن كثير : وقال ميمون بن مهران : في المال ثلاث آفات ، إن نجا صاحبه من واحدة لم ينج من اثنتين، وإن نجا من اثنتين

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٣٠ .

كان قمينًـا أن لاينجو من الثالثة، ينبغي أن يكون حلالاً طيـبا، فأيكم الذي يسلَمُ كسبـه فلم يُدخله إلا طيبا ؟ فإن سلم مـن هذه فينبغي أن يؤدي الحقوق التي تلزمه في مـاله، فإن سلم من هذه فينبغي أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولامقتِّر (١) .

فهذا رصد دقيق من عالـم خبير بآفات المال، فالآفة الأولى اختلاط الكسب بالمال الحـرام أو المشـتبـه به، فإن سَلِـم المسلم من هذه فقـد لايسلم من الآفة الثانية وهي التقصير في أداء الحقوق المالية، فإن سلم من هذه فقد لايسلم من الآفة الثـالثة وهي الوقوع إما في الإسراف أو التقصير في النفقة، والتقـصير في النفقة داخل في أداء الحقوق المالية، فينبغي أن يضـاف إلى السلامة من الإسراف السلامـة من الخيلاء وإلى ذلك يشيـر قول عبـد الله بن عباس رضي الـله عنهما « كُلْ مـاشئت والْبَس ماشئت ماأخطأتْك خصلتان : سرفٌ ومَخِيلة » .

من مواقف أبي قلابة رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثـير عن أبي قلابة عبد الله بن يزيد الجَرْمي أنه قال: إذا أحدث الله لك علما فأَحدثْ له عبادة، ولم يكن همك ماتحدِّث به الناس، فلعل غيرك ينتفع ويستغني وأنت في الظلمة تتـعثر، وإنـي لأرى هذه المجالس إنما هي مناخ البطالـين، وقال: إذا بلغك من أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذرًا جُهْدَك، فإن لم تجد له عذرا فقل : لعل لأخي عذرا لا أعلمه(٢)

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٠ .

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٠ .

فقــوله « إذا أحدث الله لـك علما فأحـدِثْ له عبـادة » يعني أن العبادة تطبيق عملي للعلم، فالذي يكثـر من العبادة بأنواعها يكون قد تعلم العلم من أجل أن يعمل به، وهذا هو المنهج الـصحيح في تعلم العلم .

ولاينبـغي لطالب العلـم أن يكون همـه حديـث الناس عنه، بل ينبغي له أن يهتم بالعمل، فلربما انتـفع بالعلم غيره عن طريقه لأن من تعلموا منه العلم عملوا بعلمهم ولم يعمل به هو .

ويرى أبو قـلابة أن المجالس التي يـجتـمع فيـها الـناس للتسليـة مجـالسُ البطالين، وليس من أخلاق المسلم أن يتصف بالبطالة، فـهو إما طالب علم فعليـه أن يكون جادّا في تعلمه عامـلا بعلمه، وإما أن يكون معلما فـعليه أن يكون قدوة في الخير وأن يغـتنم كل فرصة من الوقت لتعليم العلم النافع عن طريق التدريـس والكتابة وغير ذلك من الوسائل، وإما مشارك في عمـارة الأرض بعمل من الأعمال التجارية أو الصناعية أو غير ذلك فعليه أن يكون جـادا في عمله مغتنمًا فرصة الراحة للتزود بالعبادة .

كما يوصي أبو قلابة المسلم بأن يعذر أخاه على تقصيره وأن لايكثر من اللوم وتتبع التقصير من إخوانه فإن ذلك أبقى للصلة والأخوة.

إذا كنت في كل الأمـور معاتبًا
صديقك لم تَلْق الذي لاتعـاتبه

فعش واحدا أو صِلْ أخاك فإنه
مـقـارف ذنـب مـرة ومجـانبـه

من مواقف محمد بن واسع رحمه الله :

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة العالم الرباني محمد ابن واسع بن حيان، فقد ذكر من أقواله « ماآسى على الدنيا إلا على ثلاث : صاحبٍ إذا اعْوَجَجْتُ قوَّمني، وصلاة في جماعة يُحمَل عني سهوُها وأفوز بفضلها، وقوتٍ من الدنيا ليس لأحد فيه مِنَّة ، ولالله عليَّ فيه تَبِعة [(١)] .

ولقد صدق هذا الإمام العابد فما أعظم هذه الخصال الثلاث، فإن الصاحب الصالح مرآة لصاحبه يشجعه على الخير ويحذره من الشر.

أما صلاة الجماعة فإن مقامها عظيم، وقد أبرز لنا محمد بن واسع مزية من مزاياها وهي أن الإمام يتحمل سهو المأمومين ، فالمأموم يفوز بفضل صلاة الجماعة ويُعفَى مما فيها من مظاهر النقص الذي يكون من السهو .

أما الرزق الحلال الذي لايؤاخِذ الله صاحبه فيه، ولايمنُّ عليه فيه الناس فهو مجال تفكير المتقين ، ومطمح أنظارهم ومعقد آمالهم، لِماَ يترتب عليه من صفاء القلب وسعادة الروح وإجابة الدعاء ، وغير ذلك من النتائج المحمودة .

من مواقف يونس بن عبيد رحمه الله :

رُوي عن يونس بن عبيد مواعظ كثيرة سديدة ومنها قوله « لاتجد من البر شيئًا واحدا يتبعه البر كله غير اللسان، فإنك تجد الرجل يكثر الصيام ، ويفطر على الحرام ، ويقوم الليل ويشهد الزور بالنهار،

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٣.

وذكر أشياء نحو هذا، ولكن لاتجده لايتكلم إلا بحق، فيخالف ذلك عمله أبدا [1] .

وصدق يونس بن عبيد فإن شهوة الكلام هي أقوى الشهوات ، وضبطها والتحكم فيها عسير إلا على من يسره الله عليه، فقد يكون المسلم من أهل الصلاح في الصلاة والصوم والصدقة ونحو ذلك من الأعمال الصالحة ولكنه لايملك لسانه فيكتسب بسببه الذنوب، وتسجل عليه المخالفات .

أما الذي يستطيع أن يملك لسانه فلاينطق إلا بخير فإنه يكون قد بلغ درجة قوية من الإيمان، ويكون غالبا قد زمَّ نفسه عن المخالفات، وألزمها بالطاعات، وفي هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل بعدما ذكر له فرائض الإسلام وجوامع النوافل « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت بلى يانبي الله، فأخذ بلسانه فقال : كفَّ عليك هذا، فقلت يانبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم » رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه [2] .

ومن مواعظه فيما يتعلق بالكلام والجدل مارواه جَسْرٌ أبو جعفر قال: قلت ليونس : مررت بقوم يختصمون في القدر فقال: لو همَّتهم ذنوبهم مااختصموا في القدر [3] .

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢) مسند أحمد ٢/ ٢٩١ ، سنن الترمذي ، رقم ٢٦١٦ ، الإيمان (٥/ ١١) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، سنن ابن ماجه، رقم٣٩٧٣، الفتن (٢/ ١٣١٤) .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٣ .

فـهـذا إشارة إلـى فضـول العلم الـتي تشـغل عن الذكـر القلبي واللساني، فإن ذكر الموت ومـابعده من فتنة القبر وحسـاب يوم القيامة ومحـاسبة النفس عـلى تفريطها. . كل ذلك فـيه مشـغلة للقلب عن التفكير في الجدل العلمي .

ومن المواعظ القيـمة والحكم الجيـدة ماذكره الإمام الذهبي رحـمه الله تعالى قال: وقال غسان بن المفضل الغَلابيُّ: حدثني بعض أصحابنا قال: جاء رجل إلى يونس بن عبـيد فَشكا إليه ضيقا في حـاله ومعاشه واغتـماما بذلك، فـقال : أيسرك ببـصرك مائة ألف ؟ قـال: لا، قال: فبسمعك؟ قال: لا ، قال: فبلسـانك؟ قال: لا، قال: فبعقلك ؟ قال: لا، في خلال، وذكَّره نعم الله تعالى عـليه، ثم قال يونس: أرى لك مئين ألوفا وأنت تشكو الحاجة (١) .

فهذه موعظة بليـغة في التذكير بنعم الله تعالـى الكثيرة، وتعديل لميزان التفكير عند المسلم، حيث إن الفكر يشطح نحو التمتع بأكبر قدر ممكن من متـاع الدنيا ، فيرى صـاحب هذا الفكر أن إمكاناته تقل عن ذلك، فيصاب بالغم والهم، وينسى نعم الله تعالى الكثيرة عليه، فإذا ذكرها رزقـه الله جل وعلا القناعـة ، وصرف فكره عن التطـلع نحو التوسع في متاع الدنيا إلى التزود بأعمال الآخرة .

قـال الإمام الذهبي: وقـيل إن يونس نظر إلى قـدميـه عند الموت وبكى، فقـيل : مايبكيك يا أباعبـد الله ؟ قال : قدماي لم تُغـبَّر في سبيل الله(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩١.

وفي هذه الخاطرة الحزينة التي صدرت من هذا الإمام وهو في إدبار من الدنيا وإقبال من الآخرة تذكير للأمة بأهمية الجهاد في سبيل الله تعالى ، فإنه لما حضرته الوفاة بكى على أن قدميه لم تُغبَّرا في سبيل الله جل وعلا ، مع ماقدَّمه من الأعمال الصالحة الكثيرة التي من أهمها التورع عن الشبهات ، وكثرة الذكر والخشوع لله تعالى .

من مواقف جعفر الصادق رحمه الله :

من المواعظ الجيدة والوصايا النافعة ماذكره الإمام الذهبي عن الأصمعي قال: قال جعفر بن محمد - يعني الإمام الصادق رحمه الله تعالى - « الصلاة قربان كل تقي ، والحج جهاد كل ضعيف، وزكاة البدن الصيام ، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر، واستنزلوا الرزق بالصدقة، وحصِّنوا أموالكم بالزكاة ، وما عال من اقتصد، والتقدير نصف العيش ، وقلة العيال أحد اليسارَين، ومن أحزن والديه فقد عقهما، ومن ضرب بيده على فخذه عند مصيبة فقد حبط أجره، والصنيعة لاتكون صنيعة إلا عند ذي حسب أو دين، والله ينزل الصبر على قدر المصيبة ، وينزل الرزق على قدر المؤونة، ومن قدَّر معيشته رزقه الله ، ومن بذر معيشته حرمه الله (١) .

وهكذا نطق هذا العالم الرباني بهذه الكلمات المؤثرة المليئة بالحِكَم والفوائد النافعة .

فالصلاة قربان كل تقي ، وإنما كانت كذلك لأنها قدر مشترك بين جميع الأتقياء وإن تفاضلوا فيها .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٦٢ .

والحج جهاد كل ضعيف لأن فيه مشقة لاتصل إلى مشقة الجهاد، وقد سماه النبي ﷺ جهادًا حيث يقول « الحج جهاد» (١) وقال عن النساء « جهادكن الحج » (٢) .

وزكاة البدن الصيام ، ولعله كان كذلك لأنه طهرة للأبدان كما أن الصدقة طهرة للمال ، هذا إضافة إلى أن الزكاة في مآلها نماء للمال فكذلك الصيام في مآله صحة للأجسام .

والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر ، وإنما كان كذلك لأنه يقيم من نفسه شاهدا على عدم صدقه في دعوته، فلا يكون لدعوته أثر لأن الناس ينظرون إلى عمله أولا، كما أن الرامي بدون وتر لايصيب هدفه .

واستنزال الرزق بالصدقة ، لأن الرزق هو عاجل مكافأة المؤمن على الصدقة، كما في قول رسول الله ﷺ « مامن يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » (٣) .

كما أخبر عن هذا العوض الدنيوي بقوله « مانقصت صدقة من مال»(٤)، إلى جانب ماادخره الله تعالى للمتصدقين من الأجر الأخروي.

---

(١) سنن ابن ماجه ، المناسك ، باب ٤٤ .

(٢) صحيح البخاري ، الجهاد ، باب ٦٢ .

(٣) صحيح البخاري رقم ١٤٤٢ ، كتاب الزكاة (٣/ ٣٠٤) .

(٤) صحيح مسلم رقم ٢٥٨٨ ، كتاب البر (ص ٢٠٠١) .

وتحصين الأموال بالزكاة بيان لحكمة من حكم شرعية الزكاة وهي حماية المال المزكى من الآفات .

« وما عال من اقتصد » لأن الاقتصاد في المعيشة لاينال الضروريات ، وإنما مجاله الكماليات ، فإذا اقتصد الإنسان فيها فلن يناله الفقر بإذن الله تعالى .

« والتقدير نصف العيش » لأنه بالحساب والتخطيط المحكم يقتصر الإنسان علىماينفع ، ويستبعد مالاحاجة إليه ، فيعوض ذلك قلة الموارد .

« وقلة العيال أحد اليسارَين » يعني يسار المال ويسار قلة النفقة، وهو خبر عن الواقع، وليس أمرا بتقليل العيال لأن ذلك يتنافى مع توجيهات الإسلام، ولاينبغي من مثل هذا العالم الرباني أن يخالف هذه التوجيهات ، ولكن لعل ذلك إشارة إلى أن من قدَّر الله تعالى عليه قلة العيال بغير سعي منه فقد حاز أحد اليسارين .

« ومن أحزن والديه فقد عقَّهما » يعني ولو لم يصدر منه رفع صوت عليهما ولا تأفُّف منهما ، لأن الحزن من الأذى ، والأذى من العقوق .

« ومن ضرب فخذه عند مصيبة فقد حبط أجره » وذلك لأن ضرب اليد على الفخذ كناية عن التضجر ، والتضجر يتنافى مع الصبر، وقد يكون اعتراضا على قضاء الله تعالى وقدره .

« والصنيعة لاتكون صنيعة إلا عند ذي حسب أو دين » يعني أن المعروف لايكون له قيمة إلا عند أحد رجلين : رجل ذي مروءة يحمله

حـيـاؤه الفطري عـلى تقـدير أهل الفـضل وإن لم يـنظر إلى الأجـر الأخـروي، وهذا يُرجى له أن يتـحول إلى إرادة الآخـرة، ورجل ذي دين يحملـه دينه على تقدير أهل الفـضل رجاء ماعند اللـه تعالى من الأجر الأخروي .

« والله ينزل الصـبـر على قـدر المصـيبـة» وذلك إذا كـان هناك احتسـاب للأجر ونية صالحة ، فقـد يظهر من المؤمن شيء من البكاء عند حلول المصيبـة الصغيرة فيظـن الظانّ أنه لو أصيب بمصيبة كـبيرة اختل عقله أو زهقت نفسه،ولكنه لايحصل له شيء من ذلك، بل ربما طال أمد البكاء نسبيا ولكن الله تعالى ينزل علـيه من الصبر مايجبر به كسره ويحميه من ارتكاب المخالفات التي تنتج عن التضجر والحزن.

« وينزل الرزق على قـدر المؤونة » يعني بقـدر مايتكلف الإنسـان ويُتعب نـفسه في طلب الرزق يُنـزل الله تعالى عليـه الرزق، فالرزق لاينزل على الكسـالى ولا على المتـواكلين ، بل لابد فـيـه من نصَب بفعل الأسباب مع التوكل على الله تعالى .

« ومن قدَّر معـيشته رزقه الله ، ومـن بذَّر معيشتـه حرمه الله » فالـذي يسير فـي إنفاقـه على حدود الاعـتدال والاقتـصاد ويجـتنبُ الإسراف والتبذير يرزقه الله من المال الحـلال مايكفي حاجته، أما من سار في إنفاقه على التبذير والإسراف فإن الله تعالى يحرمه من الرزق الحلال ، فينحـرف في اكتسابه كمـا انحرف في إنفاقه ، حـيث يسير نحو الكسب الحـرام ليعوض مافقـد من المال الذي ذهب في الإسراف والتبذير .

من مواقف فرج التنوخي رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة فرج بن فضالة التنوخي الحمصي قال: ومن مناقبه أن المنصور دخل يوما إلى قصر الذهب فقام الناس إلا فرج بن فضالة ، فقال له - وقد غضب عليه-: لِمَ لَمْ تقم ؟ قال: خفت أن يسألني الله عن ذلك ويسألك لم رضيت بذلك، وقد كره رسول الله ﷺ القيام للناس، قال: فبكى المنصور وقرَّبه وقضى حوائجه (1).

ففي هذا الخبر مثلا من الاستقامة على دين الله تعالى ، وتغليب جانب العمل لبلوغ الهدف الأعلى في حياة المسلم، وهو بلوغ رضوان الله تعالى والجنة على جانب النظر إلى الرفعة في الدنيا ونوال مجدها الزائل .

فلقد كان فرج بن فضالة التنوخي بين أمرين: أن يرضي الله تعالى وأن يرضي أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور، ففضل رضوان الله تعالى، فحصل على سعادة الدنيا والآخرة .

وموقف جليل لأمير المؤمنين أبي جعفر المنصور حيث بكى من خشية الله تعالى حينما ذكَّره فرج بن فضالة بوقوفه بين يدي الله جل وعلا يوم القيامة، وكافأ هذا الواعظ برفع منزلته وقضاء حوائجه .

من مواقف صالح المُرِّي رحمه الله :

ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة صالح بن بشير المرِّي حيث قال عنه: أحد العباد الزهاد ، كان كثير البكاء وكان يعظ

(1) البداية والنهاية ١٠/١٧٦ .

فيحضر مجلسه سفيان الثوري وغيره من العلماء، ويقول سفيان: هذا نذير قوم .

وقد استدعاه المهدي ليحضر عنده فجاءه راكبا على حمار، فدنا من بساط الخليفة وهو راكب فأمر الخليفة ابنيه موسى الهادي وهارون الرشيد أن يقوما إليه لينزلاه عن دابته، فابتدراه فأنزلاه، فأقبل صالح على نفسه فقال: لقد خبتُ وخسرت إن أنا داهنت ولم أصدع بالحق في هذا اليوم وفي هذا المقام ، ثم جلس إلى المهدي فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه، ثم قال له : اعلم أن رسول الله ﷺ خصْمُ من خالفه من أمته، ومن كان محمد خصمه كان الله خصمه، فأعدَّ لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حججًا تضمن لك بها النجاة، وإلا فاستسلم للهلكة، واعلم أن أبطأ الصرعَى نهضةً صريعُ هوى بدعته، واعلم أن الله قاهر فوق عباده، وأن أثبت الناس قدما آخذُهم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وكلام طويل، فبكى المهدي وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه (١).

فهذه موعظة جليلة من العابد الزاهد صالح بن بشير المرِّي، ولقد كان جريئًا في موقفه، قويا في موعظته، حيث نقل أمير المؤمنين المهدي إلى التفكير في الآخرة، والوقوف بين يدي الله جل وعلا للحساب، وهكذا يكون العلماء الربانيون مصلحين منقذين، لامداهنين ولامجاملين، ولقد عصم الله تعالى هذا الواعظ بتذكُّر الآخرة وحضور القلب مع الله عز وجل، فكان الذي يهيمن على فكره

(١) البداية والنهاية ١٠/١٧٦ .

ويوجِّه سلوكه هو خوفه من الله سبحانه ورجاؤه لماعنده من جزيل الثواب ، فكان منه هذا الموقف العالي في الوعظ والتذكير .

من مواقف إبراهيم بن أدهم رحمه الله :

ومن الوصايا التي جاءت في التزهيد في الدنيا والترغيب بالآخرة ماروُي عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه قال : وأيٌّ دين لو كان له رجال! من طلب العلم لله كان الخمول أحبَّ إليه من التطاول، والله ما الحياة بثقة فيُرجَى نومُها ، ولا المنية بعذر فَيُؤمَن عذرُها، فَفِيمَ التفريط والتقصير والاتكال والإبطاء ؟ قد رضينا من أعمالنا بالمعاني، ومِنْ طَلَبِ التوبة بالتواني ، ومِنَ العيش الباقي بالعيش الفاني [1] .

وقد صدق إبراهيم بن أدهم فإن الإسلام دين عظيم إذا وُفِّق برجال يحملونه ويقيمون به المجتمع السليم ويغزون به العالم ، ولكنه بدون هؤلاء الرجال يبقى معاني سامية تحملها النصوص ولا وجود لها في أرض الواقع .

ثم بين أن من الأمراض القلبية الفتاكة التي تمنع تكامل الرجال الذين يمثلون هذا الدين أن يصاب المسلمون بالغرور والكبرياء والعمل للجاه والسمعة ، وأن تكون نظرتهم محدودة بالحياة الدنيا ، حيث يصاب العبد بطول الأمل ، ونسيان الموت ، والاشتغال بالدنيا الفانية عن الأخرى الباقية .

من مواقف عبد الرحمن الأوزاعي رحمه الله :

من ذلك ماروُي عن الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٩٤ .

رحمه الله أنه وعظ فقال في موعظته: أيها الناس تقوَّوا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة التي تطَّلع على الأفئدة، فإنكم في دار الثواءُ فيها قليل، وأنتم مرتحلون، وخلائفَ بعد القرون الذين استقلُّواً [1] من الدنيا زهرتها، كانوا أطول منكم أعمارا، وأجدَّ أجساما، وأعظم آثارا، فجدَّدوا الجبال، وجابوا الصخور [2]، ونقَّبوا في البلاد، مؤيَّدين ببطش شديد و أجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مدتهم، وعفَّت آثارهم، وأخْوَت منازلهم، وأنسَتْ ذكرهم، فما تحس منهم من أحد، و لاتسمع لهم ركزا [3]، كانوا بلهو الأمل آمنين، ولميقات يوم غافلين، ولصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم مانزل بساحتهم بياتا من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثار نِقَمه وزوال نِعَمه، ومساكن خاويةً فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم، وعبرةٌ لِمَن يخشى، وأصبحتم في أجل منقوص، ودنيا مقبوضة، في زمان قد ولَّى عَفْوُه، وذهب رخاؤه، فلم يبق منه إلا حُمَةُ شر وصُبابة كَدَر، وأهاويلُ غِيَر، وأَرسَال فتن، ورُذالة خَلَف [4].

ففي هذه الموعظة البليغة يُذكِّر الإمام الأوزاعي المسلمين بالنار ويَذْكر شيئًا من صفتها الهائلة، ويوصيهم بأن يجعلوا من هذه النعم التي أفاءها الله عليهم حجابا من النار، وذلك بأن يشكروا الله تعالى

---

(١) أي حملوا .

(٢) أي نحتوها واتخذوا منها بيوتا .

(٣) أي صوتا .

(٤) سير أعلام النبلاء ٧/ ١١٧ .

عليها بالقول والعمل، ومن ذلك أن يجودوا على إخوانهم المحتاجين مما أفاء الله عليهم كما جاء في قول رسول الله ﷺ « اتقوا النار ولو بشق تمرة »(١).

ويذكّرهم بقصر مدة بقائهم في الدنيا، وأنها لم تخلد لمن سبقوهم ممن كانوا أعظم منهم قوة وأبلغ آثارًا في الأرض.

ويذكّرهم بما حدث لهؤلاء الماضيين من عقوبات مفاجئة جعلتهم حديثا وعبرة لغيرهم.

وإن حال كثير من المسلمين في لهوهم وغفلتهم توحي بأنهم قد أمنوا من عذاب الله، وكأنهم قد ضمنوا مستقبلهم الأخروي.

وقد جاءت في هذا المعنى آيات وأحاديث فيها عبرة للمعتبرين.

من مواقف أبي شريح المعافري رحمه الله:

ومن الوصايا النافعة ماروي عن الإمام الرباني أبي شريح عبد الرحمن بن شريح المعافري وذلك فيما رواه محمد بن عبادة المعافري قال: كنا عند أبي شريح - رحمه الله - فكثرت المسائل، فقال: قد دَرِنَت قلوبكم فقوموا إلى خالد بن حميد المهري، استقلوا قلوبكم(٢) وتعلموا هذه الرغائب والرقائق، فإنها تجدد العبادة، وتورث الزهادة، وتجر الصداقة، وأقِلُّوا المسائل فإنها في غير منازل تقسّي القلب وتورث العداوة (٣).

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٦٠٢٣، كتاب الأدب (٤٤٨/١٠).

(٢) أي احملوها على التذكر.

(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٣.

فهذا توجيه سديد من هذا العالم الجليل وكلمات مضيئة تدل على اهتمامه البالغ بالمجال التـربوي،وحرصه على التوازن بينه وبين المجال العلمي.

فقـد شعـر هذا الإمام بأن التـوجه العلمي قـد طغى على ناحـية السلوك والالتزام لدى تلامـذته ، فوجههم إلى مجـالس الواعظ خالد ابن حمـيد المهري لـيسمـعوا أحاديث الرقـائق والترغـيب والترهيب، فيتقوَّى إيمانهم ويرتفع لديهم مستوى الوازع الديني .

والنصوص الشرعية تشمل الأمـرين ، فهي تبين الأحكام الشرعية وفي الوقت نفسه تـرفع مسـتوى الإيمان وتُقـوِّي الوازع الديني نحـو الالتزام ، حـيث إنها تشتـمل على الوعد والوعيـد والتذكير بالتـقوى ولكن حينما تُجَرَّدُ الأحكام من النصوص الشرعية فـإنها تفقد مفعولها التربوي وإن أدَّت غرضها العلمي .

والمسائل التي أشار إليـها هذا العالم الرباني هي المسائل الفـرضية التي يُقْصَـد من إيرادها توسيعُ المدارك العلمـية، والبحث فـيها غـالبا يخلو من النصوص الشـرعية ويكثر فيهـا الجدل والتنافس الفكري بين الباحثين ، وهي لذلك تُقسِّي القلوب وتورث العداوة .

من مواقف سفيان الثوري رحمه الله (١) :

من الوصايا الحكيمة والتوجيـهات السديدة ماروراه عطاء بن مسلم قال: قال لي الثوري : إذا كنت بالشـام فاذكر مناقب علي، وإذا كنت، بالكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر (٢) .

(١) هو الإمام سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٠ .

فهذا التـوجيه يعتـبر مثالا للحكمة في الـدعوة حيث يكون وراء إيراد النصوص غرض تربوي يُقصَد منه التخـفيف من مغالاة المتَّجهين نحو الغلو في قـضية معينة ، فـأهل الشام لما كان بعضـهم يتجاهلون مناقب علي بن أبي طالب أو يستخْفُون بذكـرها كان من الحكمة الجهر ببيانها، ولما كان بعض أهل الكوفة يتَّجهون نحو الغلو في علي بن أبي طالب وبنيه ويغضُّون الطرف عن بيان فـضائل أبي بكر وعمر كان من الحكمة بيان فضائلهما وكذلك فـضائل عثمان رضي الله عن الجميع، وذلك ليحصل الاتزان عند جميع تلك الطوائف .

وهذا يعتـبر نموذجا من نماذج الـدعوة الناجحـة حيث إنَّ مِنْ أهم عوامل نجـاح الدعوة أن يتـصدَّى الداعيـة لبيـان الأمور التي تجـاهلها الناس، أو وقعوا فيها بما يخـالف الإسلام ، فيكون بذلك قد شخَّص أدواء الأمة وأرشد إلى دواء تلك الأدواء ، أما أن يأتي إلى الأمور التي قد طبـقها الناس وألِفُـوها فيتـحدث عنها فإنـه لن يأتي بجديد، ولن يكون له دور فعال في الاصـلاح والتجديد ، وإنما قد يؤكـد أمورا قد عرفها الناس وألفوها .

ومن ذلك مارواه يحـى بن المتوكل عن الإمام سـفيـان الثوري أنه قال: إذا أثنى على الرجل جيرانه أجمـعون فهو رجل سوء ، لأنه ربما رآهم يعصون فلا ينكر عليهم ، ويلقاهم بِبِشْر (١) .

وإنما حكم عليـه بالـسوء لأنـه قد أخـل ببـاب عظيم من أبواب الدين، ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٨٧

والقائمــون بهذا الأمــر قد يُذمُّــون من بعض ضعــفاء الإيمان أول الأمر، ولكنهم يُحمدون بعد ذلك كثيرا فيما إذا هدى الله على أيديهم بعض الغافلين .

وهذا الكلام محمول على الغالب ، حيث لاتخلوا المجتمعات في الغــالب من المقصــرين المخالــفين، أما لو وجــد مجــتمع كل أفــراده صالحون فإن هــذا القول لاينطبق عليه، لأنه أفراده قد يجتــمعون على الثناء على رجل وهو أهل لذلك .

من مواقف ابن السماك رحمه الله :

من الحكم البليغــة ماجاء في قول ابن السَّــمَّاك محمد بــن صُبيح العجلي في شفاعة لفقــير عند أحد الرؤساء، حيث قال: إني أتيت في حــاجة، والطالب والمُعطِي عــزيزان إن قــضيت الحــاجة، ذليــلان إن لم تُقْضَ، فاختــر لنفسك عِزَّ البــذل عن ذل المنع ، وعِزَّ النُّجح على ذلِّ الرَّدِّ[1].

فهــذه الكلمات من أبلغ ماقــيل في استدرار عــطف الأغنياء على الفقراء ، حيث ذكَّر ابن السمــاك ذلك الغني بأنه أمام موقفين: موقف عز إن هو قضى حــاجة ذلك الفقير، ومــوقف ذُلّ إن هو إعتذر منه، وإنما يتصــور الحرج في الاعتذار والشــعور بالذل أهلُ الشهامــة والعزة الذين يحافظون علــى سمعتــهم كما يحــافظون على مشاعــر إخوانهم المسلمين، ويتصورون نشوة الفرح والشعور بالعزة في حال البذل وقضاء حــوائج المحتــاجين، ولقــد كان ذلــك العالم قــوي الإحــساس بهــذه المشاعر، فلذلك ذكَّر بها ذلك الغني .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩٢ .

ومن ذلك مارُوي عن ابن السَّمَّاك أنه قال : همَّة العاقل في النجاة والهرب وهمة الأحمق في اللهو والطرب، عجبا لعَين تلذُّ بالرُّقاد وملَكُ الموت معها على الوساد ، حتى متى يُبَلِّغنا الوعاظ أعلام الآخرة، حتى كأن النفوس عليها واقفة ، والعيون إليها ناظرة، أفلا منتبه من نومته، أو مستيقظ من غفلته، ومفيق من سكرته، وخائف من صرعته، كدحًا للدنيا كدحا ، أما تجعل للآخرة منك حظا، أُقسم بالله لو رأيت القيامة تخفق بأهوالها ، والنار مشرفة على آلِهَا[1] ، وقد وُضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء لسرَّك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة ، أَبَعْدَ الدنيا دار مُعتَمَل ، أم إلى غير الآخرة منتَقَل؟ هيهات ولكن صمَّت الآذان عن المواعظ، وذَهِلت القلوب عن المنافع، فلا الواعظ ينتفع ولا السامع ينتفع [2] .

ففي هذه الموعظة إشارة إلى الفرق بين تفكير العقلاء الفَطِنين وتفكير الحمقى المغفلين، فالعاقل لايعيش وقته الحاضر وينسى مستقبله الغائب، بل يعيش حاضره بجزء من تفكيره ويصرف جُلَّ تفكيره لتأمين مستقبله الحقيقي الذي لابد أن ينتقل إليه، فإذا آمن الإنسان بالحياة الآخرة بما فيها من أهوال ونعيم مقيم أو عذاب مقيم كان عاقلا فطنا إن رتب أموره في الحياة الدنيا على تأمين مستقبله الأخروي، وكان أحمق مغفلا إن لها مع اللاهين وقصر همه وتفكيره على حياته الدنيا .

---

(١) يعني على أهلها .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٩٣ .

ثم يُفيض هذا الإمام الواعظ بالتذكير بالموت ومابعده من الأهوال، ويصور مشاعر المقصرين إذا واجهوا ذلك الموقف ومايعتريهم من الندم المُرِّ الذي لايمكن تلافي نتائجه ، حيث الآخرة دار جزاء وليست دار عمل .

ومن ذلك ماذكر الإمام محمد بن جرير الطبري عن محمد بن هارون عن أبيه قال: حضرت الرشيد، وقال له الفضل بن الربيع: ياأمير المؤمنين قد أحضرت ابن السَّماك كماأمرتني ، قال: أدخله، فدخل فقال له : عظني، قال: ياأمير المؤمنين اتق الله وحده لاشريك له، واعلم أنك واقف غداً بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لاثالثة لهما : جنة أو نار ، قال: فبكى هارون حتى اخضلَّت لحيته، فأقبل الفضل على ابن السماك فقال: سبحان الله! وهل يتخالج أحداً شكٌّ في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ! لِقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله، قال: فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت إليه، وأقبل على أمير المؤمنين فقال: ياأمير المؤمنين إن هذا - يعني الفضل بن الربيع- ليس والله معك ولاعندك في ذلك اليوم، فاتق الله وانظر لنفسك، قال: فبكى هارون حتى أشفقنا عليه، وأُفْحِمَ الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف حتى خرجنا (١).

فهذه موعظة جليلة تأثر منها أمير المؤمنين هارون الرشيد تأثراً شديداً، وإننا حينما نلاحظ هذه الموعظة فإننا لانجد الواعظ ابن السماك

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٣٥٧ .

قد أتى بشيء جديد على هارون الرشيد، فهو يؤمن بالجنة والنار، وإنما الشيء الجديد هو قوة التأثير عند ابن السماك لقوة إيمانه وحضور قلبه مع الله تعالى ومع مقاصد الكلام الذي وعظ به ، فكان تأثر الرشيد بكلامه لذلك .

فالمواعظ المؤثرة لابد لها من أركان ثلاثة : أولا : صلاح الواعظ وقوة تأثره بمايدعو إليه ، وثانيا : الاستعداد الكافي للتأثر لدى السامع، وثالثا : أن تكون الموعظة من العلم النافع، وقد اجتمعت هذه الأركان في هذه الموعظة فحصل تأثر هارون الرشيد، بينما لم يتأثر وزيره الفضل بن الربيع لكونه فقد الركن الثاني وهو الاستعداد الكافي عند السامع .

من مواقف عبد الله بن المبارك رحمه الله :

من الأجوبة السديدة ماكان من ابن المبارك رحمه الله حينما قيل له : إلى متى تكتب العلم ؟ قال : لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد [(١)] .

فهذا مثل على فقه هذا الإمام العميق ، فقد تبادر إلى ذهنه على إثر هذا السؤال الانتفاع بالعمل الذي هو ثمرة العلم، فليست العبرة بكثرة العلم ، وإنما العبرة بالعمل الصالح الذي هو ثمرته الطيبة .

ففي هذه الكلمات القليلة عبرة وموعظة لطلاب العلم ليصححوا نيتهم في طلب العلم ، وليختبروا أنفسهم بالعمل المترتب على العلم.

ومن كلماته النيِّرة التي تعتبر مثلا لمنهج أهل السنة في النقد

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٦٠.

والإصلاح مارواه عبدان بن عثمان عن عبد الله بن المبارك قال: إذا غلبَتْ محاسن الرجل على مساوئه لم تُذكر المساوئ وإذا غلبت المساوئ على المحاسن لم تذكر المحاسن (١) .

وهكذا أهل السنة لايركزون على بيان المساوئ ويلغون المحاسن، وإنما ينظرون إلى الغالب على الإنسان من الحسنات أو السيئات ، فإذا كان يغلب عليه الخير والأعمال الصالحة وسلامة الاتجاه فإنهم يبرزون حسناته ، ويغضُّون الطرف عن هفواته ، ويلتمسون له العذر فيما أخطأ فيه ، وإن كان الغالب عليه السيئات - سواء في مجال الشبهات أو في مجال الشهوات - فإن المصلحة تقتضي عدم إبراز حسناته والتنبيه على سيئاته حتى لا يكون وجوده ضرراً على المجتمع، سواء في مجال العلم أو في مجال العمل ، وخاصة إذا كان مجاهراً بالمعاصي أو داعيا إلى ضلاله الذي آمن به .

ولقد خالف هذا المنهج أقوامٌ غلب عليهم التشدد في مجال النقد، فصاروا يغضُّون الطرف عن محاسن أهل الصلاح والخير، ويبرزون مالهم من أخطاء قد تكون حقيقية ، وقد تكون أوهاما في أذهان هؤلاء المنتقدين ولاحقيقة لها في الواقع .

كما خالف هذا المنهج القويم أقوام تعصبوا لأهل الضلال والانحراف في مجال الشبهات، أو لأهل الغواية في مجال الشهوات، فأبرزوا محاسنهم ، وغضوا الطرف عن سيئاتهم ، التي كان لها أثر في ضلال بعض أفراد المجتمع أو غوايتهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٥٢ .

ومن آراء الإمام عبد الله بن المبارك الصائبة مابثه في رسالة شعرية إلى العالم العابد فضيل بن عياض، وقد روى خبر ذلك محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة قال: أملى عليَّ ابن المبارك سنة سبع وسبعين ومائة ، وأنفذها معي إلى الفضيل بن عياض من طرسوس :

ياعابد الحرمين لو أبصرتَنا لعلمتَ إنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضَّب
أو كان يُتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رَهَج السنابك والغبار الأطيب

قال : فلقيت الفضيل بكتابه في الحرم فقرأه وبكى، ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصح (١) .

ففي هذه الأبيات الشعرية الرائعة يبين ابن المبارك جانبا من الفهم الصحيح للعبادة ، فليست العبادة محصورة في الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام ، ولكن العبادة الشاملة تكون أوَّلاً بأداء الفرائض واجتناب المحارم، كما جاء في قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه « وماتقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه » (٢) .

ثم تكون بأداء فروض الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حال كونها فروض كفاية، فإن أداء فروض الكفاية أفضل من أداء النوافل ، لأن فروض الكفاية تدخل في باب الفروض على

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٦٤ .

(٢) صحيح البخاري ،رقم ٦٥٠٢ ، كتاب الرقاق (١١/ ٣٤٠) .

العموم ، لكن كونهـا غير متعينة على إنسان بعينه يجـعل تاركها غير ملوم بتركها إذا قام بها من يكفي .

ثم تأتي بعد ذلك النوافل على درجاتها المعروفة .

فعـبد الله بن المبـارك والفضـيل بن عيـاض قد قـاما - كـما هو معـروف من سيرتهـما - بأداء فروض الأعـيان ، وافتـرقا في أن ابن المبارك قام بعـد ذلك بالإسهام في أداء فروض الكفـاية في باب الجهاد إلى جانب ماعرف عنه من اجتهاده في النوافل، أما الفضيل بن عياض فإنه قد اجتهـد في النوافل وبالغ في ذلك ، وعوَّض بذلك مافاته من الجهاد .

وابن المبارك في هذه الرسالة الشعريـة يلوم فضيل بن عياض على تقصيـره في المشاركة في الجهاد ، ويبين له أنه قد اكـتفى بالأقل حيث اشتغل بالنوافل وترك الجهاد الذي هو أعلى لأنه فرض كفاية .

ولئن كـان ابن المبارك قـد جازف قلـيلا في قـوله :لعلمت أنك بالعبـادة تلعب فإنه لم يقـصد وصف الشعـائر التعبـدية بأنها لعب، وحاشاه من ذلك فهَو الذي اشتهر بالورع وكثرة الصلاة والصوم، وإنما أراد أن يقول بأن ترك الأعلى إلى ماهو أدنى يعتبـر تقصيرا، وإن كان لايُعفَى من التجاوز في التعبيـر ، ولكن ذلك يسير إلى جانب فضائله العظيمة .

ولقد أدرك الفضـيل خطأه وتقصيره في هذا الجانب فـبكى حينما سمع هذه الرسالة وقال : « صدق أبو عبد الرحمن ونصح » .

ولعل ابن المبارك حـينما شدد في لوم الفـضيل قد فـهم أن الأمر

بالنسبة للعلماء الذين يُقتدى بهم لايقتصر على كون الجهاد فرض كفاية لأن العلماء إذا قعدوا تأسَّى الناس بهم ، فيكون في حقهم فرضَ عين إذا ترتب على قعودهم ضرر على المسلمين .

من مواقف القاضي يحيى بن أكثم رحمه الله :

من المواعظ والحِكَم البليغة مارُوي عن القاضي يحيى بن أكثم أنه لقيه رجل فقال له : أصلح الله القاضي كم آكل ؟ قال: فوق الجوع ودون الشبع ، قال: فكم أضحك ؟ قال : حتى يسفر وجهك ولايعلو صوتك ، قال: فكم أبكي ؟ قال: لاتملَّ البكاء من خشية الله ، قال: فكم أُخفي من عملي ؟ قال: ماستطعت ، قال: فكم أظهر منه؟ قال: مايقتدي البَرُّ الخيِّر ويُؤْمَنُ عليك قول الناس (١) .

فهذه أجوبة سديدة من هذا العالم القاضي ، فقد رسم فيها موازين الاعتدال في الأكل والضحك والبكاء وإخفاء العمل وإظهاره، وقد كان موفقا في وضع الحد المناسب لكل أمر من هذه الأمور .

والقاضي يحيى بن أكثم كان أديبا سريع البديهة مسدَّدًا في أجوبته، ومن أمثلة ذلك أنه لما ولي قضاء البصرة وسِنُّه عشرون أو نحوها استصغره أهل البصرة فقال له أحدهم : كم سِنُّ القاضي؟ فعلم أنه قد استصغره ، فقال: أنا أكبر من عَتَّاب بن أسيد الذي وجه به النبي ﷺ قاضيا على أهل مكة يوم الفتح ، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي ﷺ قاضيا على أهل اليمن ، وأنا أكبر من

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٤١٢ .

كـعب بن ثور الذي وجـه به عـمـر بـن الخطاب قـاضـيـا على أهل البصرة(١) .

وهذا استحضار جيـد من ابن أكثم للتاريخ حيث ذكر على الفور هؤلاء الثلاثة الذين تولوا القضاء وهم أصغر منه ، فأسكت بذلك من قد ينتقصونه لصغر سنه .

من مواقف أحمد بن حنبل رحمه الله :

من الأجوبة الحكيـمة السديدة ماذكـره عبد الله بن الإمام أحـمد قال: كنت بين يدي أبي جالسا ذات يوم فـجاءت طائفة من الكرخيين فذكروا خلافة أبي بكر وخلافـة عمر بن الخطاب وخلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزادوا فطالوا ، فـرفع أبي رأسه إلـيهم فـقال: ياهؤلاء قد أكثرتم القول في عليّ والخلافة ، على أن الخلافة لم تزيِّن عليّا بل عليّ زيَّنها .

قال السياري : فحدثت بهذا الحـديث بعض الشيعة فقال لي: قد أخرجت نصف ماكان في قلبي على أحمد بن حنبل من البغض (٢).

فهذا مثال من حكمة الإمـام أحمد وأدبه في الحوار ومقدرته على تغطية الموقف بإشعـار السامعين وغيرهم بأن أهل السنة يعـرفون فضل علي رضي الله عنه وإن كـانوا لايغلون فيـه، وذلك أنه لما رأى كـثرة القول في خلافته أراد أن يقـول : إن عليا رضي الله عنه قد كمل في علمه وتقواه وأخلاقه ، فلم يكن بحـاجة إلى منصب يرفع من شهرته

(١) طبقات الحنابلة ١/٤١٢ .

(٢) المطالب العالية ١/١٨٦ .

فلا داعي للإطالة في الحديث عن خلافته لأن الخلافة قد اشتهرت به ولم يشتهر بها .

من مواقف عبد الرحمن بن القاسم رحمه الله :

من المواعظ البليغة ماروُي عن سعيد بن حداد قال : سمعت سحنون يقول : كنت إذا سألت ابن القاسم عن المسائل يقول لي : ياسحنون أنت فارغ ، إني لأُحِسُّ في رأسي دويّا كَدَوِيِّ الرَّحا - يعني من قيام الليل - قال : وكان قلَّما يعرض لنا إلا وهو يقول : اتقوا الله ، فإن قليل هذا الأمر مع تقوى الله كثير ، وكثيره مع غير تقوى الله قليل (١) .

هذه ملاحظة جيدة ولفتة طيبة من ابن القاسم رحمه الله تعالى، حيث لاحظ على تلميذه سحنون أن اهتمامه بالمسائل العلمية يغلب على اهتمامه بالعمل، ويعني بذلك التزود بالنوافل، وخاصة قيام الليل، وإلا فإن أهل العلم حريصون على أداء الواجبات واجتناب المحرمات.

ولقد كانت كلمة ابن القاسم «ياسحنون أنت فارغ»أشبه بعصا المؤدب، ولكنها من الشيخ لتلميذه أحلى وأنفع من كل عبارات المدح والتشجيع .

وهذا مثال من أمثلة كثيرة تدل على اهتمام العلماء المربين بسلوك طلابهم ومدى استقامتهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٢٢.

وابن القاسم هو عبد الرحمن بن القاسم عالم مصر ومفتيها. وسحنون هو عبد السلام ابن سعيد التنوخي ، وسحنون لقبه وهو من أبرز علماء المغرب .

وموعظة ابن القاسم البليغة الموجزة التي يكررها في دروسه« اتقوا الله فإن قليل هذا الأمر مع تقوى الله كثير وكثيره مع غير تقوى الله قليل » فيها توجيه سديد نحو الاهتمام بالعمل الصالح وأن اتصاف طالب العلم به هو الأهم وإن قلَّ علمه .

وقال سحنون: لماحججنا كنت أزامل ابن وهب(١)، وكان أشهب(٢) يزامله يتيمه ، وكان ابن القاسم يزامله ابن موسى ، فكنت إذا نزلت ذهبت إلى ابن القاسم أسائله عن الكتب وأقرأ عليه إلى قرب الرحيل. . إلى أن قال : وكنا نمشي بالنهار ونُلْقي المسائل فإذا كان في الليل قام كل واحد إلى حزبه من الصلاة ، فيقول ابن وهب لأصحابه: ماترون إلى هذا المغربي يلقي المسائل بالنهار وهو لايدرس بالليل ؟ فيقول ابن القاسم : هو نور يجعله الله في القلوب (٣) .

في هذا الخبر مثل من الاهتمام البالغ بطلب العلم والاستزادة منه، فهذا العالم الجليل سحنون التنوخي يحاول اغتنام فرصة السفر مع الإمام عبد الرحمن بن القاسم ليستفيد منه في أوقات الراحة .

ومع هذا الاهتمام بالعلم ، ومع مشقة السفر فإنهم لم يضيعوا نصيب الليل من الصلاة والتهجد ، ولاشك أن اهتمامهم بالعبادة وملازمتهم إياها بالليل كان هو الزاد القوي الذي يمنحهم الطاقة بالنهار لمواصلة طلب العلم ومكابدة مشاق السفر .

---

(١) يعني يركب معه على البعير ، وابن وهب هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي ولاء أبو محمد المصري ، من كبار علماء مصر وحفاظها .

(٢) هو أشهب بن عبد العزيز أبو عمرو القيسي المصري ، مفتي مصر .

(٣) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٢٢ - ١٢٣ .

وحينما تعجب ابن وهب وأصحابه من سحنون الذي يلقي المسائل بالنهار وهو لايدرس بالـليل كان جواب ابن القـاسم : هو نور يجعله الله في القلوب .

وهو جواب فقيه مجرِّب قد عرف آثار التقوى والعبادة في استنارة القلوب وتهيئها لقبول العلم وتذكُّره .

من مواقف أبي عبد الله البخاري رحمه الله :

من ذلك ماذكره مـحمد بن أبي حاتم كاتب الإمـام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري قال: سمعت أبا عبد الله يقول: ماينبغي للمسلم أن يكون بحالة إذا دعا لم يُسْتَـجَبْ له ، فقالت له امرأة أخيه بحضرتي : فهلْ تبينتَ ذلك أيهـا الشيخ من نفسك أو جرَّبت؟ قال: نعم دعوت ربي عـز وجل مرتين فاستجـاب لي ، فلن أحب أن أدعو بعـد ذلك فلعله يُنقَّص لي من حـسناتي أو يُعجَّل لي في الدنيـا، ثم قال: ماحاجة المسلم إلى الكذب والبخل ؟ (١) .

فهذه موعظة جليلة من الإمام الـبخاري اشتملت على الحث على الاستقامة على الدين والإكثـار من الأعمال الصالحة حتى يصل المسلم إلى وضع يكون فيه مـستجاب الدعاء لصـدقه واستقامتـه ، وحصوله على رضوان الله تعالى .

ويلفت نظر السـامعين إلى عـدم الإكثار من الدعـاء الذي يراد به أمورٌ دنيـوية خشـية أن يكون ذلك سـببا في نقص حـسنات المسلم،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٤٨ .

وذلك مثل أن يدعو على ظالميه ، فإن ادِّخار ذلك للآخرة أفضل من استيفاء بعض الحق في الدنيا .

وأشار إلى خُلقين من أسوإ الأخلاق ، وهما الكذب والبخل، وقد أبدى تعجبه من الذين يتصفون بهما مع سوء نتائجها إذ عليهما يترتب كثير من مساوئ الأخلاق .

وكذلك من المحافظة على الرصيد من الحسنات ماذكره بكر بن منير قال: سمعت أبا عبد الله البخاري يقول : أرجو أن ألقى الله ولايحاسبني أني اغتبت أحدا (١) .

فهذا مثال على تطبيق الإسلام في حفظ اللسان، وهذا يعتبر مقدرة كبيرة في التحكم في هوى النفس، لأن شهوة الكلام هي أقوى الشهوات ، فالمقدرة على تحجيمها والتحكم فيها دليل على قوة الإيمان وعمق اليقين، ولهذا اعتبر النبي ﷺ حفظ اللسان ملاك الدين وذلك بقوله لمعاذ رضي الله عنه « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قال : قلت: بلى يانبي الله فأخذ بلسانه وقال : كفَّ عليك هذا » أخرجه الأئمة أحمد والترمذي وابن ماجه (٢) .

من مواقف معروف الكرخي رحمه الله :

من ذلك ماأخرجه الحافظ أبو نعيم من خبر إبراهيم البكاء قال: سمعت معروفا الكرخي يقول : إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً فتح

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٣٩ .

(٢) مسند أحمد ٢/ ٢٩١ ، سنن الترمذي ، رقم ٢٦١٦ ، الإيمان (٥/ ١١) وقال: هذا حديث حسن صحيح ، سنن ابن ماجه ، رقم ٣٩٧٣ ، الفتن (٢/ ١٣١٤) .

عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد بعبد شرًّا أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل [1] .

وهذا إدراك منه رحمه الله تعالى لأهمية العمل، ومن فقهه أنه اعتبر التوفيق للعمل الصالح والحماية من الدخول في أبواب الجدل دلالة على الاستقامة على الطريق المستقيم ، وبضد ذلك من قصر في العمل ودخل في باب الجدل .

كماأخرج الحافظ أبو نعيم من حديث أبي محفوظ معروف الكرخي قال: سمعت بكرا - يعني ابن خنيس - يقول: كيف يكون تقيا من لايدري كيف يتقي؟! ثم قال معروف : إذا كنت لاتحسن تتقي أكلت الربا ، وإذا كنت لاتحسن تتقي لقيتك امرأة لم تغض بصرك، وإذا كنت لاتحسن تتقي وضعت سيفك على عاتقك، وقد قال النبي ﷺ لمحمد بن مسلمة : « إذا رأيت أمتي قد اختلفت فاعمد إلى سيفك فاضرب أُحُدا » ، ثم نظر معروف إلى جوف الدهليز الذي هو على بابه جالس وقال : ينبغي لنا أن نتقيه ، ثم قال : وصحبتكم معي من السخاء إلى ههنا كان ينبغي لنا أن نتقيه ، أليس جاء في الحديث « فتنة للمتبوع وذلة للتابع » ؟! [2] .

فهذه موعظة بليغة في التوجيه نحو الاستقامة والتقوى ، فإن العبرة بالعلم النافع الذي يترتب عليه العمل الصالح ، فقد يظن الإنسان أنه من أهل التقوى وهو يرتكب بعض المحرمات، لأنه

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٣٦١ .

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٣٦٥ . والسخاء اسم موضع كما هو ظاهر من السياق .

لايدري أنها محرمات ، وقد يقع في الشبهات وهو لايدري .

وقد ضرب المثل بالمحرمات الظاهرة كالربا والنظر المحرم، ثم ضرب المثل بأمر لايتوقع الناس أنه مخالفة ، وهو ما يَحُفُّ مجالس أهل العلم والعبادة من مظاهر التواضع والاحترام والثناء، التي قد تصل إلى حد التذلل من بعض طلاب العلم ، وقد يفتتن بها بعض الشيوخ ، والمفترض لزوم حد الوسط والاعتدال في هذه الأمور .

ومن التوجيهات الرشيدة مارُوي عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى - وقد ذُكِرَ عنده « معروفٌ » فقيل عنه : قصير العلم- فقال : أَمْسِكْ ، وهل يُرَاد من العلم إلا ماوصل إليه معروف [1] .

فهذه لفتة سديدة ، فالعبرة بالعمل الصالح الذي ينتج عن العلم النافع ، فلاجدوى من العلم بدون عمل ، بل إن العلم والحال هذه يكون وبالا على صاحبه .

فمعروف الكرخي قد وصل إلى حال من التقوى والخشوع المبني على حضور القلب مع الله تعالى ، وتذكُّرِ منزلة الدنيا ومنزلة الآخرة، فلذلك ذكر الإمام أحمد أن هذا هو الهدف من العلم فلا يضر « معروفًا » أن قصر علمه عن بعض الجزئيات التي لايترتب عليها عمل يَلْزَمُ العاملَ بها .

ولاشك أن من جمع بين التوسع في العلم وإتقان العمل أفضل لأن تعليم المسلمين وإفتاءهم من أزكى الأعمال الصالحة، ولكن الإمام أحمد أراد التركيز على العمل حتى لايتهاون طلاب العلم به .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٤٠ ، تاريخ بغداد ١٣/ ٢٠٠، طبقات الحنابلة ١/ ٣٨٢ .

من مواقف عبد الله بن وهب رحمه الله :

من مواقف السلف في التقوى والبعد عن المحرمات ما رواه ابن أبي حاتم قال : حدثنا أبي ، حدثنا حرملة : سمعت ابن وهب يقول: نذرت أني كلما اغتبت إنسانا أن أصوم يوما، فأجهدني، فكنت أغتاب وأصوم ، فنويت أني كلما اغتبت إنسانا أن أتصدق بدرهم، فمِنْ حبِّ الدراهم تركت الغيبة .

ذكره الإمام الذهبي وقال : هكذا والله كان العلماء ، وهذا هو ثمرة العلم النافع (١) .

أقول : إن ماألزم به نفسه الإمام عبد الله بن وهب يعتبر نوعا من العلاج الناجح في الوقاية من ارتكاب المحظورات .

والغيبة ونحوها من آفات اللسان هي التي يقع فيها الصالحون أحيانا ومنهم العلماء ، بينما يندر حصول المعاصي الأخرى منهم وذلك لأن شهوة اللسان هي أقوى الشهوات ، فقد يكفُّ المسلم عن شهوة المال والجاه وشهوات الغرائز ، ولكنه يقع في شهوة اللسان كما تقدم .

فهذا الإمام الرباني لما أدرك فلتات لسانه في مجال الغيبة أخذ نفسه بنظام صارم فألزمها بصيام يوم كلما اغتاب إنسانا، ولعل ذلك لم يكفَّه بالكامل لكون الصيام مستسهلا أمام الصالحين من أمثاله، فألزم نفسه بالصدقة كلما وقع في غيبة، فاستطاع بذلك أن يزمَّ نفسه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢٨/٩ ، ترتيب المدارك ٤٣١/٢ .

عن هذه المعصية ، لأن الحصول على المال بالنسبة للعلماء كان صعبا للغاية في كثير من الأحيان لتورعهم عن مداخل الكسب المحرم .

وقول ابن وهب عن نفسه « فمِنْ حُبِّ الدراهم تركت الغيبة » مثل من منهج العلماء في اتهام النفس وإلا فما أبعد ابن وهب عن حب الدنيا ، وسيرته تتنافى مع ذلك .

وتعليق الإمام الذهبي على هذا الخبر يبين أثر العلم النافع في استقامة العلماء واهتمامهم بأسباب النجاة .

من مواقف عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله :

يقول شقيق البلخي عن نفسه : كنت شاعرًا فرزقني الله التوبة، وخرجت من ثلاثمئة ألف درهم ، ولبست الصوف عشرين سنة ولاأدري أنني مُراءٍ حتى لقيت عبد العزيز بن أبي روّاد، فقال : ليس الشأن في أكل الشعير ولبس الصوف ، الشأن أن تعرف الله بقلبك ولاتشرك به شيئًا وأن ترضى عن الله وأن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في أيدي الناس [1] .

وقوله « كنت شاعرًا فرزقني الله التوبة » يقصد الشعر الذي يدور حول الأغراض الدنيوية ويحول بين العبد والتزود من عمل الآخرة، أما الشعر الدَّعويّ الذي يُقصد منه تمجيد الإسلام ورفع معنوية المسلمين وتقوية إيمانهم وفضح الكفار والنكاية بهم فهذا من العمل الصالح وهو مطلوب ممن رزقهم الله تعالى موهبة الشعر وقد كان

---

(١) سير أعلام النبلاء / ٣١٤ حلية ٨/ ٥٩ .

النبي ﷺ يحث شعـراء الإسلام من أمثال حسـان بن ثابت وكعب بن مالك على تمجيد الإسلام وهجاء المشركين .

وقوله « ولَبِسْتُ الصـوف عشرين سنة » يعتـبر من لزوم مالايلزم شرعـا ، فالزهد لايتـحدد بلبـاس معين ، وقد كـان النبي ﷺ أعظم الزهاد ولم يفعل ذلك ، ولافعله أصحابه رضي الله عنهم .

ثم ذكر شقـيق أنه كان مرائيـا في تلك المظاهر ، وهذا يُحْمَل منه على التواضع واتهام النفس، وذكر أنه انتفع بموعظة عبد العزيز بن أبي رواد ، ولقد صدق ابن أبي رواد رحمه الله في مـوعظته ، فقد كانت علمًا نافعا صَدر من قلب مشـفق مخلص إلى قلب متجرد من الهوى المنحرف فنفع الله بها .

فليست العبـرة بنوع اللباس ونوع الطعام ، إنما العبـرة بمعرفة الله تعـالى بالقلب ، وهذه المعـرفـة تظهر بـتذكـر عظمـة الله سـبحـانه واستحضار رقابته في كل حين .

والعبرة أيضا بتوحيد الله سبحانه ، وصيانة القلب من أن يتسرب إليه الشرك بأنواعه .

والعبرة كذلك بالرضى عن الله تعالى ، ومن ذلك الانقياد لشرعه والرضا بقـضائه وقدره ، والاعـتقاد الجازم بـأن الله تعالى هو الرزاق وحده وأن الناس مجرد أسباب ووسائط لعبور الأرزاق .

من مواقف حاتم الأصم رحمه الله :

مما ذُكِـر من المواعظ والحِكَم مـارُوي عن حـاتم بن عنوان الأصم

قال: المؤمن لايغيب عن خمسة : عن الله ، والقضاء ، والرزق، والموت، والشيطان [١] .

وهو كما قال : فالمؤمن الحق لابد أن يستحضر عظمة الله تعالى ورقابته عليه حتى يحذر سخطه ويرجو رضاه .

ولابد من اليقين بأن كل شيء بقضاء الله وقدره حتى لايحزن المسلم على خير فاته ولاعلى شر أصابه من أمور الدنيا .

ولابد للمسلم من اليقين بأن الرزق بيد الله تعالى وحده حتى يتوكل عليه سبحانه ولايُنزل حاجته بخلقه .

ولابد للمسلم من تذكُّر الموت حتى يقصر أملُه في الدنيا ويمتد أمله بالآخرة ، وحتى لايفاجأ بالموت وهو على حال يتمنى فيها بقاء الدنيا لتدارك مافات وإصلاح مافسد .

ولابد للمسلم من تذكُّر عداوة الشيطان التي تلازم الإنسان حتى خروج روحه ، وأن يتخذه له عدوا وأن يكون معه كل يوم في معركة حتى يدحره وينتصر عليه .

ورُوي عن حاتم الأصم أنه قال : أفرحُ إذا أصاب من ناظرني وأحزن إذا أخطأ [٢] .

وهذا مثال على التجرد من حظ النفس ومن الحسد، والاتصاف بحب الخير للآخرين بمقدار حبه للنفس ، وكراهية الشر لهم بمقدار

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٨٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٨٧ .

كراهيته للنفس ، وهذا المعنى مستفاد من قول النبي ﷺ « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه»(١)، ولايصل المسلم إلى هذا المستوى إلابعد مجاهدة نفسه، وذلك باستحضار عظمة الله جل وعلا ورقابته وكثرة العبادة وتضخيم شأن الآخرة والتقليل من شأن الدنيا .

ومن كلمات حاتم الأصم الوعظية الجيدة قوله : لو أن صاحب خَبَر جلس إليك لكنت تتحرز منه، وكلامك يعرض على الله فلا تتحرز ! (٢) .

فهذا تنبيه جليل القدر إلى رقابة الله عز وجل على العبد وحسابه إياه ، فكيف يتحرز الإنسان ويستجمع حواسه في مخاطبة الناس ولايزن كلامه الذي يعرض على الله تعالى ؟!

لاشك أن من كان كذلك يغلب عليه الإيمان بالحِسِّ ويقل عنده الإيمان بالغيب الذي جعله الله تعالى أول صفات المؤمنين .

من مواقف أحمد بن حرب رحمه الله :

من المواعظ الجيدة مارُوي عن الإمام أحمد بن حرب قال: عبدت الله خمسين سنة فما وجدت حلاوة العبادة حتى تركت ثلاثة أشياء : تركت رِضا الناس حتى قدرت أن أتكلم بالحق، وتركت صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبة الصالحين ، وتركت حلاوة الدنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة (٣) .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٣، كتاب الإيمان (٥٦/١) .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٨٧/١١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٤/١١ .

فهـذه وصيـة جليلة من الإمـام أحمـد بن حرب وقـد بُنِيَت هذه الوصية على تجربة طويلة ، فهو يثـبت أنه عَبد الله تعالى خمسين سنة فما وجـد حلاوة العبادة حـتى حقق هذه الأشياء المـذكورة ، وحلاوة العـبادة تعني طمـأنينة النفس وسكونهـا والشوقَ القلبيَّ إلى مـواصلة العبادة من غيـر كسل ولا ملل ، وحلاوةُ العبادة هذه يفقـدها كثيرون لانصراف أفكارهم إلى أمور الدنيا وانشغالهم بمشكلات الحياة .

وقد أبان لنا هذا الإمـام بهذه الوصـية نتيـجة تجربة خـمسين سنة حيث ذكـر أن من أسبـاب الحصول على حـلاوة العبـادة أن لايجعل المسلم من أهدافه في هذه الحـياة أن يُرضي الناس فإنَّ إرضاء بعـضهم لايكون إلا بكتـمـان الحق ، وكتـمـان الحق يورث ظلمـة في النفس وعذابا للضمير ، وذلك يشـغل الفكر ويُضعف من الحضور القلبي مع الله تعالى أثناء العبادة .

وكذلك صحبة الفاسقين فإنها دعوة متكررة للانحراف والبعد عن الاستقامة ، وإن لم يحصل شيء من ذلك فـإنها تقسِّي القلب وتبعده عن الشعـور بلذة العبادة ، بخلاف صـحبة الصالحين فإنـها من أعون الأمور على الاستقامة وطهارة القلوب .

ثم الأمر الثالث وهو اشتغال القلب بالدنيا فإنه سبب للوقوع في المحرمات والشـبهات ، وإذا سلم المسلم من ذلك لورعه فإن اشـتغال القلب بأمور الدنيا يضعف من حضـوره مع الله تعالى ، وبالتالي فإنه يضعف من الشعور بلذة العبادة ، بخلاف التفكير في الآخرة فإنه يعين على جمع الفكر في العبادة .

من مواقف فخر الدين الرازي رحمه الله :

من مواقف الإمام الرازي في الوعظ ماروي من وعظه للسلطان شهاب الدين أبي المظفر محمد بن سام الغوري أحد حكام الهند وماحولها من الأقاليم حيث قال : ياسلطان العالم ، لاسلطانك يبقى ولاتلبيس الرازي يبقى ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:٤٣] - قال : فانْتَحب السلطان بالبكاء (١) .

فهذا مثل من تأثر الولاة بالمواعظ واتصافِهم بالخشية ومثل من براعة العلماء في الوعظ وحسن اختيار الكلام، حيث قرن فخر الدين الرازي زوال سلطان الأمير بزوال تلبيسه هو ، ويقصد بذلك التفنن في الكلام الذي قد يغطي الحقائق ويسوغ للمقصرين الاستمرار في المخالفات، فالسلطانان زائلان : سلطان الحاكم الذي يعتمد على القوة، وسلطان العالم الذي يعتمد على المقدرة الكلامية ، لأن البقاء إنما هو للحق في الدنيا والآخرة ، وعلى مقدار تمثُّل الإنسان بهذا الحق وتطبيقه إياه يكون حسابه وجزاؤه في الآخرة .

وهكذا لما اشتمل وعظ هذا العالم على التجرد من الهوى واتهام النفس مع حسن اختيار النص المستشهد به كان لذلك الكلام وقع في قلب ذلك الأمير،ونقله من جو السلطة الدنيوية إلى مجال التأثر والخشية واستحضار مشاهد يوم القيامة .

وكان المفتاح الذي استطاع به ذلك العالم أن يصل إلى قلب ذلك

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٢٣ .

السلطان هو أنه أشرك نفسه معه في النقد، فبيَّن أنه كما أن الأمير مُعَرَّض للتقصير بدافع من الافتتان بسلطانه فكذلك العالم معرض للتقصير بدافع من الافتتان بعلمه ، فتقلص بذلك النظر إلى حظ النفس الذي يتركز عادة في حماية النفس والدفاع عنها ولو بغير حق، وذلك حينما كان المثل العالي للكمال وهم علماء الدين هم أيضا معرضون للتقصير باعتراف أحد أكابرهم .

من مواقف عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله :

من ذلك ماذكره الإمام الذهبي من خبر عبد الرحمن بن عمر المعروف برسته قال : قام ابن مهدي(١)من المجلس وتبعه الناس فقال: ياقوم لاتطؤنَّ عقبي ولاتمشُنَّ خلفي،ثم قال: حدثنا الأشهب عن الحسن،قال عمران:خفق النعال خلف الأحمق قل مايبقي من دينه(٢).

وهكذا حينما قام عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى من المجلس تبعه بعض طلاب العلم ليشيعوه فنهاهم عن ذلك وأورد قول عمران بن حصين رضي الله عنه في ذلك، وهو موافق لقول بعض الصحابة والتابعين عن هذا السلوك : إنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

وإدراك هذا المعنى يكشف عن حساسية مرهفة من هؤلاء الأئمة نحو حماية الدين من مداخلة الرياء والسمعة .

وقد يكون الإنسان المتبوع غافلاً عن إرادة ذلك ، ولكن تَابِعِيه

---

(١) هو عبد الرحمن بن مهدي الإمام الحافظ المشهور .

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/٢٠٧ .

يرسخون هذا المعنى في نفسه شيئًا فشيئًا ، فالإنسان ضعيف بطبعه، والشيطان حريص على اصطياده من نقاط الضعف فيه، فإذا صاحب ذلك في المتبوع تعظيم الأتباع له واحتفاؤهم به، فإنه يجتمع عليه- والحال هذه - ثلاثة أسلحة : ضعفه الطبيعي،وغزو الشيطان ، وإغراء الأتباع .

من مواقف منصور بن عمار السلمي رحمه الله :

أخرج الحافظ البغدادي من طريق علي بن خشرم قال: قال منصور- يعني ابن عمار السلمي : لما قدمت مصر ، وكان الناس قد قحطوا، فلما صلوا الجمعة رفعوا أصواتهم بالبكاء والدعاء ، فحضرتني النية ، فصرت إلى صحن المسجد ، فقلت : ياقوم تقربوا إلى الله بالصدقة فإنه ماتُقُرِّب إليه بشيء أفضل منها ، ثم رميت بكسائي، ثم قلت : اللهم هذا كسائي وهو جهدي وفوق طاقتي، فجعل الناس يتصدقون ويعطوني ويلقون في الكساء ، حتى جعلت المرأة تلقي خرصها وسخابها (١) حتى فاض الكساء من أطرافه، ثم هطلت السماء فخرج الناس في الطين والمطر ، فلما صليت العصر قلت ياأهل مصر أنا رجل غريب ولاعلم لي بفقرائكم فأين فقهاؤكم؟ فدفِعتُ إلى الليث بن سعد وابن لهيعة ، فنظرا إلى كثرة المال فقال أحدهما لصاحبه : لاتُحرِّك ، ووكلوا به الثقات حتى أصبحوا .

قال : فرحت - أو قال أدلجت - إلى الاسكندرية وأقمت بها شهرين ، فبينا أنا أطوف في حصنها وأكبِّر فإذا أنا برجل يرمقني،

---

(١) يعني قلادتها .

فقلت: مـالك ؟ قال : ياهذا أنت قـدمت من مصـر ؟ قلت: نعم ، قال :أنت المتكلم يوم الجمعة ؟ قال: قلت: نعم، قال: فإنك صرت فتنة على أهل مصر ، قلت : وماذاك ؟ قال: قالوا : كان ذلك الخضر دعا فاستجيب له ، قال قلت : ماكان الخضر بل أنا العبد الخاطئ .

قال : فأدلجت فـقدمت مصر فلقيت الليث بن سـعد ، فلما نظر إلي قال : أنت المتكلم يوم الجمعـة ؟ قال: قلت : نعم ، قال: فهل لك في المقـام عندنا ؟ قال قلت : وكـيف أقيم ومـاأملك إلا جبـتي وسراويلي ؟ قال : قد أقطعتك خمسة عشر فدانا ، ثم صرت إلى ابن لهيعة فقال لي مثل مقالته وأقطعني خمسة فدادين ، فأقام بمصر (١).

وهكذا اشتـهر منصور بن عـمار في مصـر بتلك الموعظة المؤثرة وكان الدافع له اهتـمامه البالغ بأمور المسلمين، فـلما رأى حال الناس وماهم فيه من شدة ولأواء بسبب القحط ، ورأى ماهم فيه من تضرع وإقبال على الله تعالى وشوق إلى رحمته ورزقه أثر ذلك فيه فقام فيهم خطيبا يذكـرهم بالله تعالى ، ويبين لهم أن رحمتهم بفقـرائهم مجلبة لرحمة الله تعالى بهم ، مع أنه كان غريبا فيهم ولم يمض على وصوله إلى مصر إلا وقت قليل ، فكان المعتـاد أن يترك هذا الأمر لعلمائها ، لكنه بادر إلى هذا العمل الصالح ، وقد بدأ بنفـسه في التطبيق فوضع رداءه وهو كل مايملك آنذاك فتأثر الناس بوعظه وبسلوكه فتصدقوا من أموالهم بالكثير .

هذا وإن إسراع الناس فـي الاستجـابة له مبني على توفـر عناصر

(١) تاريخ بغداد ١٣/ ٧٢ ، ٧٣ .

التأثير بالكلمة ، وهي الإخلاص من المتكلم ، والعلم النافع الذي يعرضه ، وتجرد السامع من الهوى المنحرف وإقباله على الاستفادة إلى جانب بلاغة المتكلم وفصاحته وبيانه ، وقد توفرت هذه كلها في ذلك الموقف فحصل المقصود من الموعظة على نحو من الكمال .

ثم حدثت كرامة من الله تعالى للمتكلم وللحاضرين حيث استجاب دعاءهم فأنزل عليهم في تلك الساعة مطرًا عظيما حتى أصبحوا يمشون في الطين ، وكان من أهم عوامل الاستجابة صدقهم مع الله تعالى في التضرع والدعاء ، وبذلهم من أموالهم في سبيل الله جل وعلا ، وهذا شاهد على قرب المسلمين من الخير إذا وجدوا من يحسن التوجيه ويقتدون به في العلم والعمل .

ولاينبغي أن ننسى في هذا الخبر ماقام به العالم الرباني الموفق للخير الليث بن سعد الذي طالما أنفق على العلماء من ماله وفرغهم للعلم .

فهذا العالم الجليل لما سمع موعظة منصور بن عمار لم يحمله حب الذات وحب الشهرة على غمط حقه بل اعترف له بالتقدم في الوعظ ورفع من شأنه .

ولم يقتصر على ذلك بل أعطاه من ماله الكثير من الأراضي الزراعية ، فأحاله في لحظات إلى رجل غني ليس بحاجة إلى أن يصرف وقته في التكسب وفرغه للعلم والدعوة .

وموقف آخر للعالم المحدث عبد الله بن لهيعة ، الذي عطف على منصور بن عمار وأعطاه قدرًا طيبا من الأراضي الزراعية .

وبهذا يكون هذا العالمان الجليلان قد ضربا مثلاً عاليا في القدوة الحسنة.

من مواقف أبي سليمان الداراني رحمه الله :

من ذلك ماذكره أحمد بن أبي الحواري عن أبي سليمان الداراني أنه قال : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس (١) .

فهذه موعظة جليلة على قصرها من أبي سليمان رحمه الله تعالى، ينتفع بها من يُقَدِّمون من أعمال الطاعة ماكان موافقًا لأهوائهم وإن كان أقل فضيلة ، فالأعمال التي تكون على خلاف هوى النفس أفضل، لأن من عمل على هوى نفسه يكون قد خالط عملَه تحقيقُ رغبة النفس وإن كان الدافع له إلى العمل طاعة الله تعالى ، أما إذا كان العمل على خلاف هوى النفس فإن ذلك يدل على إخلاص النية، وتمحض العمل لطاعة الله تعالى .

والمقصود بذلك النوافل المطلقة، فأما الفرائض فإنَّ أداءها واجب سواء وافقت هوى النفس أو خالفته، وكذلك النوافل المقيدة المحددة شرعا فهي فاضلة، وهي في الجملة أفضل من المطلقة لأنها محددة في الشرع.

من مواقف ابن مهدي وابن إدريس رحمهما الله :

من ذلك مارواه عبد الله بن أبي مقاتل البلخي عن أبي عبيد القاسم بن سلاَّم قال: دخلت البصرة لأسمع من حماد بن زيد، فقدمت فإذا هو قد مات ، فشكوت ذلك إلى عبد الرحمن بن مهدي، فقال: مهما سُبِقتَ به فلاتُسبقنَّ بتقوى الله .

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/١٨٣ .

وقال أبو عبيد أيضا : سمعني ابن إدريسَ أتلهف على بعض الشيوخ فقال لي : ياأبا عبيد مهما فاتك من العلم فلا يفوتَنَّك من العمل (١) .

فهاتان موعظتان من عالمين جليلين حافظين هما عبد الرحمن بن مهدي ، وعبد الله بن إدريس الأوْدي، وكلاهما أوصيا أبا عبيد القاسم بن سلام بالعمل الصالح فإن فيه عوضًا عما فاته من العلم، وذلك أن العمل الصالح هو ثمرة العلم، وبذلك يعزَّى من تأسف على فوات شهادة من الشهادات العلمية ونحو ذلك مما يتوصل به إلى العلم .

من مواقف عمر بن أبي ذر رحمه الله :

من المواعظ المؤثرة ماذكره ربعي بن إبراهيم قال حدثني جار لنا يقال له عمر : إن بعض الخلفاء سأل عمر بن أبي ذر عن القَدَر ، فقال : هاهنا مايشغل عن القدر ، قال : ماهو ؟ قال: ليلة صبيحتها يومُ القيامة ، فبكى وبكى معه (٢) .

فهذه موعظة جليلة تدل على قوة إحساس هذا العالم الجليل، وحضور قلبه مع الله تعالى ومع مصيره المنتظر في الآخرة، فقد شغله تذكر أهوال يوم القيامة عن التفكير في جواب ذلك السؤال الذي قد يؤدي إلى فتنةٍ في الدين وبُعْدٍ عن الاستقامة ، فوجَّه ذلك الخليفة الذي سأله عن القدر إلى الاشتغال بتذكر الآخرة والاطمئنان على مستقبله فيها ، هل هو إلى الجنة أم إلى النار .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٤٩٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٨٧ .

ولقد كـان هذا الواعظ الخبـير متـأثرًا بهذا التذكـر الذي خطر له فصـدرت موعظته من القلب ، ودمـعت عيناه ، والدموع عـادة مرآة التأثر القلبي ، فأبكى الخليفة معه ، ولقد كان موفَّقا كل التوفيق حينما صرف نفسه والخليفة عن الدخول في بحث قـد لاتحمد عقباه ، وركز فكر الخليفة في أمر واضح يترتب عليه مسـتقبله الحقيقي ، فنفعه الله تعالى بموعظته .

موقف لأبي الحسن الرفا وابن الزجاجي رحمهما الله :

ذكر الحافظ ابن كثير في حوادث سنة أربع وتسعين وثلاثمائة قال: وفيها خرج الركب العراقي إلى الحجـاز في جحفل عظيم كبير وتجمل كثير، فـاعترضهم الأصيفر أمـير الأعراب، فبعثـوا إليه بشابّين قارئين مجـيدين كانا مـعهم، يقـال لهما أبو الحـسن الرفَا وأبو عـبد الله بن الزجاجي، وكانا من أحسن الناس قراءة، ليكلماه في شيء يأخذه من الحجـيج، ويطلقَ سراحهم ليـدركوا الحج، فلما جلسـا بين يديه قرءا جميـعا عُشْرًا بأصوات هائلة مطـربة مطبوعة، فأدهشه ذلك وأعـجبه جدا، وقال لهمـا: كيف عيشكما ببغداد؟ فـقالا : بخير لايزال الناس يكرموننا . . . قال: فإني أطلق لكما ألف ألف دينار في هذه اللحظة، أُطلق لكما الحجيج كله، ولولاكما لما قنعت منهم بألف ألف دينار.

فأطلق الحجيج كله بسببهما، فلم يتعرض أحد من الأعراب لهم، وذهب الناس إلى الحج سالمين شاكرين لذينك الرجلين المقرئين.

ولما وقف الناس بعـرفات قرأ هذان الرجـلان قراءة عظيـمة على جبل الرحمة، فضج الناس بالبكاء من سائر الركوب لقراءتهما، وقالوا

لأهل العراق: ماكان ينبغي لكم أن تخرجوا معكم بهذين الرجلين في سفرة واحدة، لاحتمال أن يصابا جميعا، بل كان ينبغي أن تخرجوا بأحدهما وتدعوا الآخر، فإذا أصيب سلم الآخر .

قال: وقد كان أمير العراق عزم على العود سريعا إلى بغداد عن طريقهم التي جاؤوا منها، وأن لايسيروا إلى المدينة المنورة خوفًا من الأعراب وكثرة الخفارات، فشق ذلك على الناس، فوقف هذان الرجلان القارئان على جادة الطريقِ التي يُعدل منها إلى المدينة النبوية وقرءا ﴿ **ماكانْ لأهل المدينة ومّن حولهم مّنَ الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولايرغبوا بأنفسهم عن نفسه** ﴾ [التوبة : ١٢٠] فضج الناس بالبكاء وأمالت النوق أعناقها نحوهما، فمال الناس بأجمعهم والأمير إلى المدينة النبوية، فزاروا وعادوا سالمين إلى بلادهم ولله الحمد والمنة[(١)] .

وهكذا كان حسن التلاوة من هذين القارئين سببا في إنقاذ الحجاج من جفاة الأعراب الذين أَلِفُوا على قطع الطرق وإرهاب المسافرين، كما أنها كانت سببا في التأثير على أمير أولئك الحجاج، حيث غَيَّر وجهته في السفر، وهذا مثل على قوة تأثير كتاب الله تعالى إذا وُجد من يحسن تلاوته، فهذان القارئان يعتبران من الدعاة إلى الله تعالى بالقرآن، وهذا يبين لنا أن هناك فرصةً كبيرة أمام القراء المجوِّدين الذين يحسنون التلاوة ليقوموا بالتأثير على الناس، وذلك في تقوية الإيمان والتوبة بالنسبة للمسلمين، وبالدخول في الإسلام بالنسبة لغيرهم .

---

(١) البداية والنهاية ٣٥٦/١١ - ٣٥٧ .

من مواقف الواعظ عبد الرحمن ابن الجوزي رحمه الله :

من أشهر الوعاظ في تاريخ الإسلام الإمام أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، يقول عنه الإمام الذهبي: كان رأسا في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق والنثر الفائق بديهًا، ويسهب ويعجب، ويطرب ويطنب، لم يأت قبله ولابعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيِّم بفنونه.

ويقول عنه : وكان ذا حظ عظيم وصِيتٍ بعيد في الوعظ، يحضر مجالسَه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء ، لايكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة .

قال : وقال سبطه أبو المظفر : سمعت جدي على المنبر يقول: بأصبعيَّ هاتين كتبت ألفي مجلدة ، وتاب على يدي مئة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألفا [1] .

وهذا من ثمرات الإخلاص وحفظ الوقت ، والجد في التحصيل العلمي ، ثم في تأليف الكتب النافعة ، وفي إتقان فن الوعظ والتذكير، باختيار المكان المناسب ، والوقت المناسب ، واختيار الموضوعات المؤثرة ، والملاءمة بين التطويل الممل، والاختصار المخل، ودراسة مستويات الحضور دراسة دقيقة ، وإعداد مايلائم كل المستويات، من غير تعمق يعلو على فهم العامة ، ولاضحالة تنبو عنها أفكار الخاصة .

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٦٧ - ٣٧٠ .

ومما جاء عنه من الحكَم النادرة قوله : من قنع طاب عيشه ، ومن طمع طال طيشه (١) .

فهذا تعبير بليغ عن نتيجة القناعة . . من طمأنينة النفس، وراحة البال ، وتفريغ الفكر للأمور النافعة المهمة، وعن نتيجة الطمع . . من شَرَه النفس ، وجموحها نحو الحسد ، والتعلق بأذيال الوهم، والحسرة على فوات المحبوب ، والتقلب في بحار الهم والنكد .

ومن ذلك قوله لأحد الأمراء : يا أمير اذكر عند القدرة عدل الله فيك، وعند العقوبة قدرة الله عليك،ولا تَشْفِ غيظك بسُقم دينك(٢) .

فهذه كلمات مضيئة في تذكير المسئولين عن الأمة بوقوفهم بين يدي الله تعالى للحساب ، وعلى ضوء هذا التذكر وحضور القلب مع الله تعالى يتم إصدار الأحكام واتخاذ المواقف بعيداً عن التأثر بهوى النفس أو مشورة الآخرين الذين لايلتزمون بذلك .

وقال له رجل : مانمت البارحة من شوقي إلى المجلس- يعني مجلس الوعظ - قال :لأنك تريد الفرجة ، وإنما ينبغي لك الليلة أن لاتنام (٣).

وهذا توجيه سديد ، لأن انشغال الفكر قبل مجلس الوعظ إنما يَحمِل عليه حب الاستطلاع ، والشوق إلى لقاء المحبين ، والاستمتاع

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٧٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٧١ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٧١ .

بما قد يقع فيه من نوادر ، ولكن انشغال الفكر بعد المجلس هو الذي يكون نتيجة التأثر بالمواعظ .

وقال في موعظته لأحد الخلفاء : إن تكلمتُ خفت منك، وإن سكت خفت عليك،وأنا أقدِّم خوفي عليك على خوفي منك، فقول الناصح : اتق الله خير من قول القائل:أنتم أهل بيت مغفور لكم(١) .

ونصيحته هذه البليغة تحمل براعة فائقة في الدخول على قلوب الكبراء الذين لهم هيمنة في الأرض،حيث ركز في الموعظة على محاولة تخليص الأمير من المهالك،وإذا قُدِّمت الموعظة بثوب جَلْب المصلحة للمعنِيِّ بها،ودرء المفسدة عنه كان أدعى إلى قبولها والتأثر بها، فإن القلوب تكون أحيانًا مغلَّقة بحجب تحول بينها وبين التأثر بالمعاني السامية لغلبة اعتبار حظ النفس،والحفاظ على المستوى الذي تم الوصول إليه من الجاه الدنيوي،فإذا طرق المسامع نداء حنون يذكِّر بحظ النفس الأعلى الذي حُجِب بالحظ الأدنى تيقظ القلب من غفوته، وتنبه من غفلته ، وسمت المشاعر نحو معالي الأمور ، وتقيدت الموازين بالحكمة ، فتم وضع كل شيء في موضعه الصحيح المناسب له .

من مواقف عبد الغني المقدسي رحمه الله :

من العلماء الذين كان لهم تأثير قوي على الناس برواية سنة رسول الله ﷺ الإمام الحافظ عبد الغني المقدسي ، يقول عنه الإمام الذهبي : كان رحمه الله يقرأ الحديث يوم الجمعة بجامع دمشق وليلة الخميس ، فيجتمع خلق ، وكان يقرأ ويبكي ، ويُبكي الناس كثيرا،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٧٢ .

حتى إن من حضره مرة لايكاد يتركه ، وكان إذا فرغ دعا دعاء كثيرا.

سمعت شيخنا ابن نجا الواعظ بالقرافة يقول على المنبر : قد جاء الإمام الحافظ وهو يريد أن يقرأ الحديث فأشتهي أن تحضروا مجلسه ثلاث مرات ، وبعدها أنتم تعرفونه وتحصل لكم الرغبة ، فجلس أول يوم وحضرت ، فقرأ أحاديث بأسانيدها حفظا ، وقرأ جزءاً ففرح الناس به ، فسمعت ابن نجا يقول : حصل الذي كنت أريده في أول مجلس .

وسمعت بعض من حضر يقول: بكى الناس حتى غشي على بعضهم ، وكان يجلس بمصر بأماكن (١) .

فهذا مثل حيٌّ من التأثر القوي بسنة رسول الله ﷺ ، وقوة التأثير بها على الناس .

إن الناس يسمعون الأحاديث النبوية على ألسنة العلماء والوعاظ، ولكن قلما يتأثرون، والذين يتأثرون قلما يصل تأثرهم إلى حد البكاء .

إن التأثير بالكلام لابد له من أن يكون المتكلم متأثرا به في قلبه، فيصدر من قلبه قبل لسانه ، ولابد من أن يكون الكلام علما نافعا، ولابد أن يقع على قلب خالٍ من الهوى المنحرف، فهذه العناصر قد يتخلف بعضها فلا يكون الكلام مؤثرا ، وقد اجتمع العنصران الأولان في العالم الحافظ عبد الغني المقدسي ، وتوفر العنصر الثالث في الحضور الذين بكوا من التأثر .

وقد أعاد لنا هذا العالم الرباني ماكان مشهوراً في العهد النبوي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٥٢ .

من سرعة تأثر الناس بسماع القرآن الكريم على لسان رسول الله ﷺ، وعلى ألسنة الصحابة الذين من أبرزهم أبو بكر رضي الله عنهم أجمعين .

فما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى علماء يتأثرون بالقرآن والسنة، ويؤثرون بهما على الناس ، بل ما أحوج العالمَ كلِّه إلى مثل هؤلاء العلماء .

وفي أخباره يقول الحافظ ضياء الدين المقدسي : سمعت الحافظ يقول : أضافني رجل بأصبهان ، فلما تعشينا كان عنده رجل أكل معنا، فلما قمنا إلى الصلاة لم يصل ، فقلت : ماله؟ قالوا: هذا رجل شمسي [أي ممن يعبدون الشمس] ، فضاق صدري وقلت للرجل: ماأضفتني إلا مع كافر ، قال: إنه كاتب ولنا عنده راحة، ثم قمت بالليل أصلي وذاك يستمع ، فلما سمع القرآن تزفَّر ، ثم أسلم بعد أيام ، وقال: لما سمعتك تقرأ وقع الإسلام في قلبي [1] .

وهكذا كان أثر هذا الإمام الرباني ، حيث تأثر ذلك الرجل الوثني بسماع تلاوته فدخل الإسلام قلبه ، وهل كانت تلك أول مرة يسمع فيها القرآن ؟! الظاهر أنها لم تكن أول مرة وهو يعيش في أوساط المسلمين ،ويخالط أهل العلم منهم، ولكن التلاوات التي سمعها من قبل لم تصدر من قلوب متأثرة بالقرآن ،فلما سمع تلاوة هذا العالم الرباني الذي كان حاضر القلب مع الله تعالى ،مستحضرا عظمته،قد بدا عليه الخشوع ، تأثر به فدخل قلبه الإسلام، ثم أسلم.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٥٣ .

وقد تبين لنا سابقا أن هذا العالم الجليل كان يبكي من رواية أحاديث رسول الله ﷺ ،ويُبكي سامعيه ،وأن دروسه كانت مواعظ مؤثرة ، فالظاهر من سيرته أن صلاته معمورة بالبكاء من خشية الله تعالى .

من مواقف إسماعيل الصابوني رحمه الله :

من العلماء المشهورين بالوعظ المؤثر والتأثر بأحوال المسلمين الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني،ومن أخباره في التأثر بأحول المسلمين ماذكر الإمام الذهبي قال: قال عبد الغافر في تاريخه: حكى الثقات أن أبا عثمان كان يعظ،فدُفِع إليه كتاب ورد من بخارى، مشتملٌ على ذكر وباء عظيم بها، ليدعو لهم،ووُصِف في الكتاب أن رجلا أعطى خبازا درهما،فكان يَزِن،والصانع يخبز، والمشتري واقف فمات ثلاثتهم في ساعة .

فلما قرأ الكتاب هاله ذلك ، واستقرأ من القارئ ﴿ **أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[النحل: ٤٥ - ٤٧] ونظائرها،وبالغ في التخويف والتحذير،وأثَّر ذلك فيه وتغير،وغلبه وجع البطن،وأُنزِل من المنبر يصيح من الوجع،فحمِل إلى الحمام فبقي إلى قريب المغرب يتقلب ظهرًا لبطن ، وبقي أسبوعًا لاينفعه علاج، فأوصى وودع أولاده،ومات وصلِّي عليه عقيب عصر الجمعة رابع

محرم [1]، وصلَّى عليه ابنه أبو بكر ثم أخوه أبو يعلى[2] .

وإن ماجرى من هذا الإمام الجليل يعتبر مثلا من الاغتمام بمصائب المسلمين والتألم لآلامهم، ظهر منه في هذه الموعظة المؤثرة التي نبه فيها إلى أن مصائب الأمة الحسية ناجمة عن مصائبها المعنوية، وأن ذلك الوباء وأمثاله سببه ارتكاس الأمة في السيئات، وعدم تقديرهم الله جل وعلا حق قدره، وتضاؤلُ الشعور بالخوف منه في نفوسهم، حتى أمنوا من عقوبته، ففاجأهم بالمصائب التي فيها عبرة لهم لعلهم يرجعون إلى الاستقامة .

وقد اشتد الغم بهذا الإمام ، وبلغ من التأثر بمصاب المسلمين الحسي والمعنوي مبلغا عظيما ، حتى أصيب في بدنه من ساعته، واستمر معه الألم الشديد حتى مات رحمه الله تعالى .

فهذا الإمام لم يتحمل تصور الحالة التي مرت بالمسلمين في بخارى، وهيمن التأثر بمصابهم على مشاعره ، فأثر ضغط النفس وانفعالاتها على جسمه فحصل له ماحصل .

ومن المعلوم أن الاهتمام بأمور المسلمين، والفرحَ لسعادتهم، والاغتمام بمصابهم وشقائهم من علامات قوة الإيمان، لأن ذلك دليل على صفاء القلب من الأنانية، وعمرانه بحب المسلمين وإيثارهم على النفس .

ولقد كان هذا الإمام الجليل من الدعاة المؤثرين بمواعظهم، ذكر عنه

---

(1) يعني سنة تسع وأربعين وأربعمائة - الوافي بالوفيات ٩/ ١٤٣ - .

(2) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٢ - ٤٣ .

المؤرخ عبد الغافر أنه وعظ المسلمين سبعين سنة، وخطب وصلى في الجامع نحواً من عشرين سنة، وذكر أن أباه أبا نصر من كبار الواعظين بنيسابور، و أنه قُتِل من أجل الخلاف المذهبي وأن ابنه هذا أقعِد بمجلس الوعظ بدلاً من أبيه وعمره تسع سنين، وحضره أئمة الوقت، وأخذ الإمام أبو الطيب الصعلوكي في ترتيبه وتهيئة شأنه، وكان يحضر مجلسه هو والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، والأستاذ أبو بكر بن فورك، ويعجبون من كمال ذكائه وحسن إيراده حتى صار إلى ما صار إليه (١) .

وفي هذا بيان لعظمة اهتمام العلماء بتنشئة أبنائهم على العلم والدعوة، فإنه ماكان أولئك العلماء ليقدِّموا إسماعيل الصابوني وهو ابن تسع سنين لو لم يسبق منه مايدل على تأهله للوعظ .

ثم مثلٌ من التواضع الكبير ، حيث يحضر هؤلاء العلماء الأجلاء مجلس ذلك الغلام الواعظ .

ثم منهج تربوي رفيع يقدمه هؤلاء العلماء ، حيث رفعوا من معنوية ذلك الغلام وأشعروه بالمسئولية من صغره، فتفتق ذهنه عن العجائب من درر الألفاظ ، وغرر المعاني .

وهو شاهد على أن صغار السن بالتشجيع المحكم والدفع المنظم يمكن أن تظهر منهم طاقات عالية ، ويكون لهم إنتاج باهر .

من مواقف أبي بكر الطرطوشي رحمه الله :

من التأثير بالموعظة الحسنة ماذكره القاضي شمس الدين ابن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١ - ٤٢ .

خلكان قال : دخل الطُّرطوشي على الأفضل ابن أمير الجيوش بمصر، فبسط تحته مئزره ، وكان إلى جانب الأفضل نصراني ، فوعظ الأفضلَ حتى أبكاه ، ثم أنشده :

يا ذا الذي طاعته قربة   وحقه مفترض واجب
إن الذي شُرِّفْتَ من أجله   يزعم هذا أنه كاذب

وأشار إلى ذلك النصراني ، فأقام الأفضل النصرانيَّ من موضعه(١) .

وهكذا أثر الإمام أبو بكر بن محمد بن الوليد الطُّرطوشي على ذلك الأمير حتى أبكاه ، ثم أحسن الدخول على نفسه حتى أقنعه بإبعاد ذلك النصراني ، وذلك بتذكيره بأنه مكذب لرسول الله ﷺ الذي ينتسب إليه ذلك الأمير .

من مواقف القاضي منذر البلوطي رحمه الله :

من الخطباء المشهورين القاضي منذر بن سعيد البلوطي ، قال عنه الإمام الذهبي: كان فقيها محققا، وخطيبا بليغا مفوَّها، له اليومُ المشهور الذي ملأ فيه الآذان، وبهر العقول، وذلك أن المستنصر بالله كان مشغوفا بأبي علي القالي، يؤهله لكل مهم، فلما ورد رسول الروم أمره أن يقوم خطيبا على العادة الجارية، فلما شاهد أبو علي الجمع العظيم جبن فلم تحمله رجلاه، ولاساعده لسانه، وفطن له منذر ابن سعيد فوثب في الحال وقام مقامه، وارتجل خطبة بديعة، فأَبْهَتَ الخلق .

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٩٢ .

وذكر في خطبته : أما بعد فإن لكل حادثة مقاما، ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إليَّ معشر الملأ بأسماعكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بأسمائه، أمر كليمه موسى [عليه السلام] أن يذكِّر قومه بنعم الله عندهم، وأنا أذكركم نعم الله عليكم، وتَلافِيه لكم بولاية أميركم التي آمنت سِرْبكم، ورفعت خوفكم، وكنتم قليلا فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاه الله أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعَل النفاق، حتى صرتم مثل حدقة البعير، مع ضيق الحال والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء . . . إلى أن قال : فناشدتكم الله ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها، والسبلُ مخوفةً فأمَّنها، والأموالُ منتهبةً فأحرزها، والبلادُ خرابًا فعمَّرها، والثغورُ مهتَضَمةً فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم .

قال : وأنشد في آخرها لنفسه :

هذا المقال الذي ماعابه فَنَدُ ... لكن صاحبه أزرى به البلد

لو كنت فيهم غريبا كنت مُطَّرفا ... لكنني منهمُ فاغتالني النكد

لولا الخلافة أبقى الله بهجتها ... ماكنت أبقى بأرض مابها أحد

فاستحسنوا ذلك منه ، وصلَّب الرسول، وقال: هذا كبش رجال الدولة (١) .

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٤ - ١٧٨ .

وهكذا رأينا هذا العالم الجليل وقد قام هذا الموقف الكبير، ولاشك أن فنَّ الخطابة من أهم الفنون وأخطرها، فالخطابة تحتاج إلى جرأة فائقة، وذهن سيال، وفصاحة في الكلام، وتعمق في اللغة، مبنيٌّ على الذوق المتطلع نحو الكمال، وليس على مجرد التعلم .

وأعقد مافي الخطابة رهبة الموقف، وعامل المفاجأة، وهذا هو الذي كسر أبا علي القالي، وعقد لسانه مع عمقه وتوسعه في علوم اللغة والأدب، ولكن منذر بن سعيد كان لذلك الموقف فملأ المكان، وأخذ بمجامع القلوب والأذهان .

وإذا كان قد بلغ ذلك المستوى مع رهبة الموقف وعامل المفاجأة فكيف به في الأحوال المعتادة ؟!

ولقد كان الموقف يتطلب مااحتوت عليه الخطبة من تبجيل ذلك الأمير، وتفخيم شأن تلك الدولة، حتى تعظم في أعين الأعداء من الروم، فَيَهابوها ويكفوا عن محاولة الهجوم عليه، وكذلك مااحتوت عليه من نقد دولة الكفار وتضعيف شأنها حتى لا يغتروا بجمعهم وقوتهم.

وكما كان هذا العالم الجليل بارعًا في تجلية هذا الموقف إلى الحد الذي أدخل الرهبة في قلب رسول الروم فإنه كان بارعا في تذكير المسلمين بنعم الله تعالى عليهم ، التي أهمها نعمتا الأمن والرخاء .

موقف لأبي محمد النحوي رحمه الله :

ومن المواقف في الدفاع عن الإسلام عن طريق المكاتبات ماقام به أبو محمد عبد الله بن النحوي، الذي كان وزيرًا للمظفر بن الأفطس سلطان الثغر الشمالي من الأندلس .

وفي ذلك يقول الإمام الذهبي في ترجمة المظفر : وكان كاتبه الوزير أبو محمد بن النحوي أحد البلغاء ، فكتب أذفنوش - لعنه الله- يرعد ويبرق ، فأجاب :

وصل إلى الملك المظفر من عظيم الروم كتاب مُدَّعٍ في المقادير يرعد ويبرق، ويجمع تارة ويفرق، ويهدد بالجنود الوافرة، ولم يدر أن لله جنودًا أعز بهم الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا عليه الصلاة والسلام، يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم .

فأما تعييره للمسلمين فيما وهن من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، والفِرَق المنكوبة، ولو اتفقت كلمتنا علمت أي صائب أذقناك، كما كان آباؤك مع آبائنا، وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك، أهدى [يعني ملك الروم] ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه، ونحن إذا قلَّتْ أعدادنا، وعُدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولاصعب نروضه، إلا سيوفٌ يشهد بحدِّها رقاب قومك، وجِلادٌ تبصره في يومك، وبالله وملائكته نتقوى عليك، ليس لنا سواه مطلب، ولا إلى غيره مهرب، وهل تربَّصون بنا إلا إحدى الحسنيين، شهادةٍ أو نصرٍ عزيز (١).

فهذا نموذج من المكاتبات البليغة ، اشتمل على تهديد ملك الروم ببيان عزة الإسلام وقوة جنوده، والتذكير بماكان من ماضي المسلمين مع الروم، من الانتصارات الباهرة، وبيان أن السبب في ضعف المسلمين آنذاك تلبُّسهم بارتكاب الذنوب، وتفرق القلوب، والتذكير

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥٩٦/١٨ .

بواقع الأعداء الضعيف المتهالك على مر العصور التي قامت فيها الحروب بينهم وبين المسلمين .

ثم ذكر أن استمدادهم النصر إنما هو من الله تعالى وملائكته، ومن كان الله جل وعلا معه فلن يُغلب .

وأخيرًا شرح له بإيجاز الغاية التي من أجلها يجاهد المسلمون، وهي إحدى الحسنيين : إما النصر أو الشهادة، ومن حمل هذا المعنى السامي فإنه لايقف له أحد، لأن مُقابليه يريدون أن يجمعوا بين النصر والسلامة، ومَن حرص على السلامة فاته النصر، وحقت عليه الهزيمة.

مثل من المواعظ المَنامِيَّة :

من المواعظ التي تفيدها الرؤى الصالحة ماروأه عيسى بن محمد الطهماني قال : سمعت الأمير إسماعيل يقول : جاءنا أبونا بمؤدب فعلَّمنا الرفض، فنمت فرأيت النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقال لي : لِمَ تَسُبُّ صاحِبَيَّ ؟ فوقفت فقال لي بيده فنفضها في وجهي فانتبهت فزِعًا أرتعد من الحمَّى ، فكنت على الفراش سبعة أشهر ، وسقط شعري ، فدخل أخي فقال: أيش قصتك؟ فأخبرته ، فقال اعتذر إلى رسول الله ﷺ ، فاعتذرت وتبت، فما مر لي جمعة حتى نبت شعري (١) .

صاحب هذه القصة هو الأمير إسماعيل بن الأمير أحمد بن أسد ابن سامان بن نوح ، فهو من أمراء دولة آل سامان الذين حكموا بلاد

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/١٥٤ - ١٥٥ .

ماوراء النهر ، وكان من أهل العلم والفضل والعدل، قال عنه الإمام الذهبي : كان ملكا فاضلا عالما فارسا شجاعا ميمون النقيبة معظِّما للعلماء ، يلقب بالأمير الماضي ، وذكر أنه سمع العلم من أبيه، ومن الإمام محمد بن نصر المروزي عامة تصانيفه ، وأن الإمام ابن خزيمة أخذ العلم عنه (١) .

وهذه الرؤيا التي رآها في صغره رؤيا جليلة ، حيث كان النبي ﷺ فيها يدافع عن صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقد أراد الله تعالى بهذا الأمير خيرا فأنقذه بهذه الرؤيا الصالحة من ذنب كبير قد أصر عليه وهو لايدري أنه قد وقع في أمر يغضب الله تعالى ورسوله ﷺ .

وقد أحدثت هذا الرؤيا لهذا الأمير خوفا من الله تعالى تحول بسببه إلى المرض الطويل،ولم يكن يدرك معنى التوبة النصوح حتى أرشده أخوه إلى ذلك ، فلما تاب إلى الله تعالى ذهب عنه اليأس فذهب عنه المرض .

وقد كان من آثار هذه الرؤيا وتلك التوبة أن تحلَّى بالاستقامة على الدين والتزم المنهج الصحيح بالأخذ عن العلماء الذين لزموا سنة رسول الله ﷺ وأصحابه .

مثل من الوعظ بالقدوة الحسنة :

قد يكون الوعظ بغير الكلام ، وإنما يكون بالوقار والسمت الحسن والخشية والذكر والعبادة ، فإن بعض الصالحين يكون النظر إليه

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٥٤ .

موعظة، ومما ذكر من ذلك ماروُي عن حمدان بن سهل البلخي الفقيه قـال: مارأيت أحـدا إذا رؤي ذُكِر الله تعـالى إلا القـعنبي رحمـه الله تعالى، فإنه كان إذا مر بمجلس يقولون : لا إله إلا الله (١) .

فهذه فضيلة تدل على تقدم الإمام عبد الله بن مسلمة القعنبي في الدين لِماَ كان يتحلى به من كثرة ذكر الله تعالى وعبادته وخشيته .

وقول البلخي: «مارأيت أحدا إذا رؤي ذُكِر الله تعالى إلا القعنبي» لايعني من المعـاصرين له وإنما يعني تميـزه على أهل بلده بهذه المنقـبة العظيمة .

وقد كان الصالحون الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم مصابيح هداية في مـجتمـعهم، لأنهم دعـاة إلى الاسـتـقامـة على الدين من غـير أن يتكـلمـوا، بل بالـقـدوة الحـسنة ، فكـيف بهم إذا وعظـوا الناس وذكروهم؟!

إنه سيجتمع لهم في هذه الحـال التأثير القولي الذي يكون صادرا من قلوبهم، والتـأثير العـملي بمايَعْلم الناس من دينهم المتين وسـيرتهم الحميدة .

ومن أمثلة ذلك ماروي عن حمزة بـن دهقان قال: قلت لبشر بن الحارث: أحِب أن أخلو معك ، قال: إذا شئت فيكون يوما، فرأيته قد دخل قبة فصلى فيها أربع ركعات لاأحسن أصلي مثلها، فسمعته يقول

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦٢ - ٢٦٣ .

والقعنبي هو الإمام عبد الله بن مسلمة سمع من الإمام مالك وأقرانه وسمع منه الإمام البخاري ومسلم وأقرانهما .

في سجوده : اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الذلَّ أحب إلي من الشرف، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الفقر أحب إلي من الغنى اللهم إنك تعلم فوق عرشك أني لاأوثر على حبك شيئا ، فلما سمعته أخذني الشهيق والبكاء ، فقال : اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن هذا هاهنا لم أتكلم (١) .

فهذا مثل من الخضوع والتذلل لله تعالى يدل على خشوع قلب هذا العالم العابد وحضور قلبه مع الله سبحانه .

ولقد اتعظ حمزة بن دهقان من هذا الموقف أبلغ موعظة حيث غلب عليه الخوف من الله تعالى حتى خشع قلبه فبكى من التأثر إلى حد الشهيق، لمَّا سمع دعاء العالم العابد بشر بن الحارث المعروف بـ«الحافي »، وقد كان أراد أن يخلو به ليأخذ منه الموعظة، فكان دعاء بشر أبلغ موعظة تلقاها حيث أحسَّ بصدق التوجه نحو الله تعالى .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٣ .

فهرس الجزأين التاسع عشر والعشرين

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

فهرس المصادر والمراجع

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية / لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي ، الناشر / دار الكتب العلمية - بيروت .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة / لعز الدين علي بن محمد الشيباني «ابن الأثير » / انتشارات إسماعيليات / طهران .
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب لأبي عمر يوسف ابن عبد البر النمري ، الناشر / مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨هـ
- الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ أحمد بن علي الكناني«ابن حجر»، الناشر / مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨هـ
- الأموال / لحُمَيد بن رنجويه ، تحقيق د./شاكر ذيب فياض، الناشر / مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية ١٤٠٦هـ.
- الأمويون بين الشرق والغرب/ للدكتور محمد السيد الوكيل، الناشر/ دار القلم - دمشق / الدار الشامية - بيروت.
- أمير المسلمين يوسف بن تاشفين / لإبراهيم محمد الجمل، الناشر / مطابع الشعب - القاهرة .
- أنساب الأشراف / لأحمد بن يحيى البلاذري ، الناشر / دار الفكر في لبنان .
البداية والنهاية - للحافظ أبي الفداء ابن كثير : الناشر / دار الكتب العلمية في بيروت .
- البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمغرب/ لأبي عبد الله محمد ابن عذاري المراكشي .

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام/ للحافظ محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق / د. عمر تدمري ، الناشر/ دار الكتاب العربي في بيروت .
- التاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية / د. أحمد شلبي ، الناشر / مكتبة النهضة المصرية .
- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطه/ للدكتور عبد الرحمن بن علي الحجي ، الناشر/ دار القلم - دمشق ، المنارة - بيروت .
- تاريخ بغداد / للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، الناشر / دار الكتاب العربي في بيروت .
- تاريخ خليفة بن خياط / لأبي عمرو خليفة بن خياط الليثي ، تحقيق/ د. أكرم ضياء العمري ، الناشر / دار القلم / دمشق - بيروت مؤسسة الرسالة - بيروت .
- تاريخ ابن خلدون / للمؤرخ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، الناشر / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية / لمحمد فريد بك المحامي ، تحقيق / إحسان حقي ، الناشر/ دار النفائس .
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) لمحمد بن جرير الطبري ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، الناشر/ دار المعارف بالقاهرة .
- التاريخ الكبير للحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، الناشر / دار الكتب العلمية في بيروت .
- تاريخ المدينة المنورة ، لأبي زيد عمر بن شبَّة النميري ، تحقيق / فهيم محمد شلتوت .

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي/ لـلحافظ محمد المباركفوري ، الناشر / المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .
- تذكرة الحفاظ / للحافظ أبي عبد الله شمس الدين الذهبي، تحقيق / عبد الرحمن بن يحيى المعلمي،الناشر/ دار إحياء التراث العربي.
- الترغـيب والترهيب من الحديث الشـريف/ للحافظ عـبد العظيم بن عبد القوي المنذري / الناشر/ دار الكتب العلمية في بيروت .
- تقريب التهذيب / للحافظ أحمـد بن علي الكناني« ابن حجر» تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، الناشر/ المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
- تفسير ابن كثير للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، الناشر / مكتبة النهضة الحديثة في مكة المكرمة .
- الجامع لسيرة عمر بن عبـد العزيز / لأبي حفص عمر الخضر الملاء ، تحقيق / د.محمد صديقي البورنو ، الناشر/ مؤسسة الرسالة .
- الجامع الصـغير من أحاديث البـشير النذير بشـرح المناوي ، للحافظ جلال الدين عـبد الرحـمن السيـوطي ، الناشر/ دار المعـرفة في بيروت .
- جـامع العلوم والحكـم / للحـافظ أبي الفـرج عـبـد الرحــمن« ابن رجب»، تحقيق / شـعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس ، الناشر / مؤسسة الرسالة - بيروت .
- الجـرح والتعـديل / للحـافظ عـبد الرحـمن بن أبي حـاتم الرازي، الناشر/ دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن- الهند .
- جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد/ لمحمد بن محمدبن سليمان ، الناشر/ عبد الله هاشم اليماني- المدينة المنورة .

- الحروب الصليبية / د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر/ مكتبة الأنجلو المصرية .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء / للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني ، الناشر/ مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة في مصر.
- خالد بن الوليد ، للدكتور صادق إبراهيم عرجون ، الناشر/ الدار السعودية في جدة .
- الخصائص الكبرى للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق /د. محمد خليل هراس ، الناشر/ دار الكتب العلمية بالقاهرة .
- الدرر الكامنة للحافظ أحمد بن علي الكناني « ابن حجر» ، الناشر / دار الجيل في بيروت .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور/ للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، الناشر/ أمين دمج - بيروت .
- دلائل النبوة / لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق / د.عبدالمعطي قلعجي ، الناشر/ دار الكتب العلمية في بيروت .
- دلائل النبوة / للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، الناشر / عالم الكتب في بيروت .
- ديوان الحماسة ، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، تحقيق / د.عبدالله بن عبد الرحيم عسيلان ، الناشر/ المجلس العلمي / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- الذيل على طبقات الحنابلة / للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد « ابن رجب » ، الناشر/ دار المعرفة- بيروت.

- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام/ للمؤرخ المحدث عبد الرحمن السُّهيلي ، تحقيق/ عبد الرحمن الوكيل، الناشر/ دار الكتب الحديثة في القاهرة .
- زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي « ابن قيم الجوزية » / تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، الناشر/ مؤسسة الرسالة - ومكتبة المنار الإسلامية .
- الزهد / للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، الناشر/ دار الكتب العلمية - بيروت .
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد/ لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي ، تحقيق/ عادل عبد الموجود وعلي معوض، الناشر / دار الكتب العلمية - بيروت .
- السلطان محمد الفاتح / للدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي ، الناشر / دار القلم - دمشق - بيروت .
- سنن الترمذي « الجامع الصحيح » للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، تحقيق / أحمد محمد شاكر ، الناشر/ المكتبة الإسلامية .
- سنن أبي داود / للحافظ أبي داود سليمان بين الأشعث السجستاني الأزدي ، تحقيق / عزت عبيد الدعاس ، الناشر/ محمد علي السيد / حمص .
- سنن الدارمي / للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق / فؤاد زمرلي وخالد العلمي ، الناشر/ دار الريان/ القاهرة / ودار الكتاب العربي / بيروت .
- سنن ابن ماجه / للحافظ محمد بن يزيد القزويني « ابن ماجه» ،

تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر/ دار إحياء الكتب العربية .
- سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي والحافظ السندي ، الناشر / المكتبة التجارية الكبرى في مصر .
- سيرة ابن إسحاق « كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي» لمحمد بن إسحاق المدني ، تحقيق / محمد حميد الله .
- السيرة النبوية للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير ، تحقيق/ د. مصطفى عبد الواحد ، الناشر/ عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- سيرة النبي ﷺ لأبي محمد عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق / د. محمد خليل هراس ، الناشر/ مكتبة الجمهورية في مصر .
- سيرة عمر بن العزيز / لأبي محمد عبد الله بن عبد الحكَم، تحقيق / أحمد عبيد ، الناشر/ دار العلم للملايين .
- سيرة عمر بن عبد العزيز / للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، الناشر / دار الفكر .
- سير أعلام النبلاء / للإمام محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد ، الناشر/ مؤسسة الرسالة في بيروت .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب/ لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، الناشر/ دار الكتب العلمية، بيروت .
- شرح صحيح مسلم ، للإمام يحيى بن شرف النووي، الناشر / المطبعة المصرية ومكتبتها .
- شرح المواهب اللدنية ، للعلامة محمد بن عبد الباقي الزرقاني ، الناشر/ دار المعرفة في بيروت .

- شمائل الرسول ﷺ للحافظ ابن كثير ، الناشر / دار القبلة في جده ومؤسسة علوم القرآن في بيروت .
- صحيح البخاري / للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري/ مع شرحه فتح الباري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ، الناشر/ المطبعة السلفية، ومكتبتها في القاهرة .
- صحيح مسلم / للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر/ دار إحياء التراث العربي .
- صفة الصفوة / للحافظ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري ، ومحمد رواس قلعجي، الناشر / دار المعرفة في بيروت .
- طبقات الحنابلة / للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى، الناشر/ دار المعرفة في بيروت .
- طبقات الشافعية الكبرى / للحافظ أبي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي ، الناشر/ دار المعرفة في بيروت .
- الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد بن منيع ، الناشر/ دار صادر في بيروت .
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية/ للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي « ابن قيم الجوزية » ، تحقيق/ محمد عرنوس ، الناشر/ مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة.
- الطريق إلى دمشق ، لأحمد عادل كمال ، الناشر/ دار النفائس في بيروت .

- عماد الدين زنكي / للدكتور عماد الدين خليل ، الناشر/ مؤسسة الرسالة - بيروت .
- عمدة القارى شرح صحيح البخاري، للعلامة بدر الدين محمود بن أحمد العيني ، الناشر/ دار الفكر .
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير/ للحافظ أبي الفتح محمد ابن سيد الناس، الناشر/ دار المعرفة في بيروت.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر العسقلاني » تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب ، الناشر/ المطبعة السلفية- ومكتبتها في مصر .
- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني/ لأحمد عبد الرحمن البنا « الساعاتي » ، الناشر/ دار الحديث في القاهرة.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد / للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، تحقيق محمد حامد فقي، طبع في مطبعة الحكومة - مكة المكرمة ١٣٨٧هـ .
- فتح المغيث شرح ألفية الحديث للحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، الناشر/ المكتبة السلفية في المدينة المنورة.
- الفتوح لأبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي، الناشر/ دار الكتب العلمية في بيروت .
- فتوح البلدان لأبي العباس أحمد بن يحيى البلاذري. ، تحقيق / عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، الناشر/ مؤسسة المعارف في بيروت .

- فتوح الشام / لمحمد بن عبد الله الأزدي ، تحقيق/ عبد المنعم عبدالله عامر ، الناشر/ مؤسسة سجل العرب .
- فتوح مصر / لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري ، الناشر/ لجنة البيان العربي بمصر.
- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان/ لشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ، الناشر/ مكتبة المعارف - الرياض .
- فقه السيرة / للشيخ محمد الغزالي ، الناشر/ دار الكتب الحديثة - القاهرة .
- في ظلال القرآن لسيد قطب ، الناشر/ دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- قادة فتح المغرب العربي / لمحمود شيث خطاب، الناشر/ دار الفتح للطباعة والنشر - بيروت .
- القاموس المحيط / لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، الناشر/ مؤسسة الرسالة - بيروت .
- الكامل في التاريخ للمؤرخ أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني «ابن الأثير » ، الناشر/ دار الكتاب العربي- بيروت.
- كشف الأستار عن زوائد البزار للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي ، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي ، الناشر/ مؤسسة الرسالة .
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي المتقي البرهان فوري ، الناشر/ دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد .
- لسان العرب لأبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور ، الناشر/ دار صادر - بيروت .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي ، الناشر / دار الكتاب العربي - بيروت .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - مطابع الرياض .
- المختار المصون من أعلام القرون ، للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى ، الناشر / دار الأندلس الخضراء - جدة .
- مختصر الشمائل المحمدية / لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي ، اختصار وتحقيق/ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر / المكتبة الإسلامية - عَمَّان .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، للإمام محمدبن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، تحقيق/ محمد حامد فقي، الناشر / مطبعة السنة المحمدية - القاهرة .
- المستدرك على الصحيحين - للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، الناشر / مكتب المطبوعات الإسلامية-حلب.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، الناشر/ المكتب الإسلامي ودار صادر - بيروت .
- مسند الطيالسي - للحافظ سليمان بن داود بن الجارود ، ترتيب / أحمد عبد الرحمن البنا « الساعاتي » ، الناشر/ المطبعة المنيرية بالأزهر .
- المسند ، للحافظ أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، الناشر/ عالم الكتب، بيروت - مكتبة المثنى - القاهرة .

- المصنف ، للحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي ، الناشر/ المجلس العلمي .
- المعجم الأوسط، للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني، تحقيق/ د. محمود الطحان، الناشر/ مكتبة المعارف، - الرياض .
- معجم البلدان ، لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، الناشر / دار صادر ودار بيروت - بيروت .
- المعجم الكبير، للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني، تحقيق / حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر/ وزارة الأوقاف ، إحياء التراث الإسلامي - العراق .
- معجم معالم الحجاز ، عاتق بن غيث البلادي ، الناشر/ دار مكة للنشر والتوزيع .
- معرفة الصحابة لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، تحقيق / د. محمد راضي عثمان ، الناشر/ مكتبة الدار / المدينة المنورة - مكتبة الحرمين - الرياض .
- المغازي ، لمحمد بن عمر الواقدي ، تحقيق / د. مارسدن جونس ، الناشر/ عالم الكتب - بيروت .
- المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق / محمد سيد كيلاني، الناشر/ مكتبة مصطفى البابي الحلبي - مصر .
- الملل والنحل ، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق / عبد العزيز محمد الوكيل ، الناشر/ مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة .

- المنافقون في القرآن الكريم / د. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ، الناشر / دار المجتمع - جدة .
- منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، للعلامة علي المتقي الهندي ، الناشر/ المكتب الإسلامي ، دار صادر - بيروت .
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ، تحقيق/ د. محمد رشاد سالم ، الناشر/ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، تحقيق/ محمد عبد الرزاق حمزة، الناشر/ المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة .
- الموطأ ، للأمام مالك بن أنس ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر/ دار إحياء التراث العربي .
- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب/ د. عبد الله الطرازي .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق ، علي محمد البجاوي ، الناشر/ دار المعرفة - بيروت .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لجمال الدين يوسف بن تَغْري بَرْدي الأتابكي ، الناشر/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب / لأحمد بن محمد المَقَّري .
- نور الدين محمود / للدكتور عماد الدين خليل ، الناشر/ دار القلم - دمشق .

- النهاية في غريب الحديث والأثر ، للحافظ أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري « ابن الأثير » ، تحقيق / طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ، الناشر/ دار إحياء الكتب العربية.
- الوافي بالوفيات / لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق / هلموت ريتر ، الناشر/ فرانز شتايز بفيسبادن .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان ، تحقيق / د. إحسان عباس، الناشر/ دار صادر - بيروت .

دار الأمين للطباعة

7 شارع رامز من شارع منصور
(محطة مترو أنفاق سعد زغلول)
ت / فاكس : 00202-3546687
فاكس : 00202-3900130



